



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



الرمضان
عليكم يا صابرين

www.

www.

www.

www.

Ghaemiyeh

.com

.org

.net

.ir

الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٨	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٢٠
٢٨	اشاره
٢٩	اشاره
٣٣	نهايه تجربه و بدايه تجربه اخرى
٣٧	سوره المطففين
٣٧	اشاره
٣٩	محتوى السوره:
٤٠	فضيله السوره:
٤١	الآيات [سوره المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ٦]
٤١	اشاره
٤١	سبب النزول
٤٢	التفسير
٤٢	اشاره
٤٤	ملاحظه
٤٤	اشاره
٤٤	التطفييف من عوامل الفساد فى الأرض:
٤٨	الآيات [سوره المطففين (٨٣): الآيات ٧ الى ١٠]
٤٨	اشاره
٤٨	التفسير
٤٨	اشاره
٤٨	و ما أدراك ما سجّين؟! ..
٥٣	الآيات [سوره المطففين (٨٣): الآيات ١١ الى ١٧]
٥٣	اشاره

التفسير ٥٣

اشاره ٥٣

صدأ الذنوب: ٥٣

ملاحظتان ٥٧

اشاره ٥٧

١- لم كانت الذنوب صدأ القلب!؟ ٥٧

٢- حجاب الروح! ٥٨

الآيات [سوره المطففين (٨٣): الآيات ١٨ الى ٢٨] ٦٠

اشاره ٦٠

التفسير ٦٠

اشاره ٦٠

علتيون في انتظار الأبرار: ٦٠

بحثان ٦٦

اشاره ٦٦

١- من هم «الأبرار» و«المقربين»؟ ٦٦

٢- خمور الجته ٦٧

الآيات [سوره المطففين (٨٣): الآيات ٢٩ الى ٣٦] ٦٩

اشاره ٦٩

سبب النزول ٦٩

التفسير ٧٠

اشاره ٧٠

بالأمس كانوا يضحكون من المؤمنين.. أمّا!!! ٧٠

بحث ٧٤

اشاره ٧٤

الاستهزاء... سلاح بائس: ٧٤

سوره الإنشاق ٧٧

٧٧	اشاره
٧٩	محتوى السوره
٧٩	فضيله السوره:
٨٠	الآيات [سوره الانشقاق (٨٤): الآيات ١ الى ٩]
٨٠	اشاره
٨٠	التفسير
٨٠	اشاره
٨٠	نحو الكمال المطلق:
٨٥	بحثنان
٨٥	اشاره
٨٥	١-خذ العلم من على عليه السلام
٨٦	٢-الدنيا دار بلاء
٨٨	الآيات [سوره الانشقاق (٨٤): الآيات ١٠ الى ١٥]
٨٨	اشاره
٨٨	التفسير
٨٨	اشاره
٨٨	الذين يستلمون كتابهم من وراء ظهرهم:
٩٢	الآيات [سوره الانشقاق (٨٤): الآيات ١٦ الى ٢٥]
٩٢	اشاره
٩٢	التفسير
٩٢	اشاره
٩٢	سنه التغير!
٩٨	بحث
١٠١	سوره البروج
١٠١	اشاره
١٠٣	محتوى السوره:

- ١٠٤ فضيله السوره:
- ١٠٥ الآيات [سوره البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٩] -
- ١٠٥ اشاره
- ١٠٥ التفسير
- ١٠٥ اشاره
- ١٠٥ الإيمان الراسخ أقوى من حفر النيران!
- ١١٣ بحثان
- ١١٣ اشاره
- ١١٣ ١- من هم أصحاب الأخدود؟
- ١١٤ ٢- الإيمان الثابت
- ١١٨ الآيات [سوره البروج (٨٥): الآيات ١٠ الى ١٦] -
- ١١٨ اشاره
- ١١٨ التفسير
- ١١٨ اشاره
- ١١٨ العذاب الالهى للمجرمين:
- ١٢٣ الآيات [سوره البروج (٨٥): الآيات ١٧ الى ٢٢] -
- ١٢٣ اشاره
- ١٢٣ التفسير
- ١٢٣ اشاره
- ١٢٣ ألم تر ما حلّ بجيش فرعون و ثمود؟! -
- ١٢٧ سوره الطارق
- ١٢٧ اشاره
- ١٢٩ محتوى السوره:
- ١٢٩ فضيله السوره:
- ١٣١ الآيات [سوره الطارق (٨٦): الآيات ١ الى ١٠] -
- ١٣١ اشاره

التفسير ١٣١

اشاره ١٣١

مّم خلق الإنسان؟! ١٣١

الآيات [سوره الطارق (٨٦): الآيات ١١ الى ١٧] ١٤٠

اشاره ١٤٠

التفسير ١٤٠

اشاره ١٤٠

خواء خطط الأعداء: ١٤٠

سوره الأعلى ١٤٧

اشاره ١٤٧

محتوى السوره: ١٤٩

فضيله السوره: ١٤٩

و خلاصه القول: ١٥٠

الآيات [سوره الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ٥] ١٥٢

اشاره ١٥٢

التفسير ١٥٢

اشاره ١٥٢

تسبيح الله: ١٥٢

بحث ١٥٦

الآيات [سوره الأعلى (٨٧): الآيات ٦ الى ١٣] ١٥٩

اشاره ١٥٩

التفسير ١٥٩

اشاره ١٥٩

التوفيق الرباني: ١٥٩

الآيات [سوره الأعلى (٨٧): الآيات ١٤ الى ١٩] ١٦٥

اشاره ١٦٥

١٦٥	التفسير
١٦٥	اشاره
١٦٥	أسس دعوه الأنبياء جميعا عليهم السلام:
١٦٩	بحث
١٦٩	اشاره
١٦٩	شرح الحديث الشريف: «حب الدنيا رأس كل خطيئه»
١٧٣	سوره الغاشيه
١٧٣	اشاره
١٧٥	محتوى السوره:
١٧٥	فضيله السوره:
١٧٦	الآيات [سوره الغاشيه (٨٨): الآيات ١ الى ٧]
١٧٦	اشاره
١٧٦	التفسير
١٧٦	اشاره
١٧٦	المتعبون..الأخسرون!
١٨٠	الآيات [سوره الغاشيه (٨٨): الآيات ٨ الى ١٦]
١٨٠	اشاره
١٨٠	التفسير
١٨٠	اشاره
١٨٠	صور من نعيم الجنه:
١٨٥	الآيات [سوره الغاشيه (٨٨): الآيات ١٧ الى ٢٦]
١٨٥	اشاره
١٨٥	التفسير
١٨٥	اشاره
١٨٥	الإبل..من آيات خلق الله:
١٩٥	سوره الفجر

- ١٩٥ اشارة
- ١٩٧ محتوى السوره:
- ١٩٧ فضيله السوره:
- ١٩٩ الآيات [سوره الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ٥]
- ١٩٩ اشارة
- ١٩٩ التفسير
- ١٩٩ اشارة
- ١٩٩ و الفجر!!
- ٢٠٦ الآيات [سوره الفجر (٨٩): الآيات ٦ الى ١٤]
- ٢٠٦ اشارة
- ٢٠٦ التفسير
- ٢٠٦ اشارة
- ٢٠٦ إمهال الظالمين..و الانتقام!
- ٢١٤ الآيات [سوره الفجر (٨٩): الآيات ١٥ الى ٢٠]
- ٢١٤ اشارة
- ٢١٤ التفسير
- ٢١٤ اشارة
- ٢١٤ موقف الإنسان من تحصيل النعمه و سلبها!
- ٢٢٠ الآيات [سوره الفجر (٨٩): الآيات ٢١ الى ٢٦]
- ٢٢٠ اشارة
- ٢٢٠ التفسير
- ٢٢٠ اشارة
- ٢٢٠ يوم لا تنفع الذكرى!
- ٢٢٥ الآيات [سوره الفجر (٨٩): الآيات ٢٧ الى ٣٠]
- ٢٢٥ اشارة
- ٢٢٥ التفسير

٢٢٥	اشاره
٢٢٥	التَّشْرِيفُ الْعَظِيمُ:
٢٢٩	سوره البلد
٢٢٩	اشاره
٢٣١	محتوى السوره:
٢٣١	فضيله السوره:
٢٣٣	الآيات [سوره البلد (٩٠): الآيات ١ الى ٧]
٢٣٣	اشاره
٢٣٣	التفسير
٢٣٣	اشاره
٢٣٩	الآيات [سوره البلد (٩٠): الآيات ٨ الى ١٠]
٢٣٩	اشاره
٢٣٩	التفسير
٢٣٩	اشاره
٢٣٩	نعمه العين و اللسان و الهدايه:
٢٤٢	بحوث
٢٤٢	اشاره
٢٤٢	١-عجائب العين
٢٤٤	٢-عجائب اللسان
٢٤٥	٣-هدايه التجدين
٢٤٧	الآيات [سوره البلد (٩٠): الآيات ١١ الى ٢٠]
٢٤٧	اشاره
٢٤٧	التفسير
٢٤٧	اشاره
٢٤٧	العقبه!
٢٤٩	ملاحظات

٢٥٥	سوره الشمس
٢٥٥	اشاره
٢٥٧	محتوى السوره:
٢٥٧	فضيله السوره:
٢٥٨	الآيات [سوره الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٠]
٢٥٨	اشاره
٢٥٨	التفسير
٢٦٧	ملاحظات
٢٦٧	اشاره
٢٦٧	١-ارتباط القسم القرآنى بجواب القسم
٢٦٧	٢-دور الشمس فى عالم الحياه
٢٦٩	الآيات [سوره الشمس (٩١): الآيات ١١ الى ١٥]
٢٦٩	اشاره
٢٦٩	التفسير
٢٦٩	اشاره
٢٦٩	عاقبه مرّه للطغاه:
٢٧٣	بحوث
٢٧٣	اشاره
٢٧٣	١-ملخص حديث قوم نمود
٢٧٤	٢-أشقى الأولين و أشقى الآخرين
٢٧٥	٣-أهميه تهذيب النفس
٢٧٧	سوره الليل
٢٧٧	اشاره
٢٧٩	محتوى السوره:
٢٧٩	فضيله تلاوه السوره:
٢٨٠	الآيات [سوره الليل (٩٢): الآيات ١ الى ١١]

٢٨٠	اشاره
٢٨٠	سبب النزول
٢٨١	التفسير
٢٨١	اشاره
٢٨١	التقوى و الإمداد الإلهي:
٢٨٧	الآيات [سوره الليل (٩٢): الآيات ١٢ الى ٢١]
٢٨٧	اشاره
٢٨٧	التفسير
٢٨٧	اشاره
٢٨٧	الإنفاق و النجاه من النار:
٢٩١	بحثان
٢٩١	اشاره
٢٩١	١-حول سبب نزول سوره الليل
٢٩٤	٢-فضيله الإنفاق فى سبيل الله
٢٩٨	سوره الضحى
٢٩٨	اشاره
٣٠٠	محتوى السوره:
٣٠٠	فضيله السوره:
٣٠٢	الآيات [سوره الضحى (٩٣): الآيات ١ الى ٥]
٣٠٢	اشاره
٣٠٢	سبب النزول
٣٠٣	التفسير
٣٠٣	اشاره
٣٠٣	يعطيك فترضى:
٣٠٦	بحث
٣٠٦	اشاره

٣٠٦ ----- فلسفه انقطاع الوحى: -----

٣٠٧ ----- الآيات [سوره الضحى (٩٣): الآيات ٦ الى ١١] -----

٣٠٧ ----- اشاره -----

٣٠٧ ----- التفسير -----

٣٠٧ ----- اشاره -----

٣٠٧ ----- الشكر على كل هذه النعم الإلهيه: -----

٣١٤ ----- بحوث -----

٣١٤ ----- اشاره -----

٣١٤ ----- ١- القيادة المنطقه من المعاناه و الألام -----

٣١٤ ----- ٢- الاهتمام بالأيتام -----

٣١٧ ----- ٣- التحدث بالنعم -----

٣١٩ ----- سوره الشرح -----

٣١٩ ----- اشاره -----

٣٢١ ----- محتوى السوره: -----

٣٢٢ ----- فضيله السوره: -----

٣٢٣ ----- الآيات [سوره الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨] -----

٣٢٣ ----- اشاره -----

٣٢٣ ----- التفسير -----

٣٢٣ ----- اشاره -----

٣٢٣ ----- نعم إلهيه: -----

٣٣٠ ----- ملاحظتان -----

٣٣٣ ----- سوره التين -----

٣٣٣ ----- اشاره -----

٣٣٥ ----- محتوى السوره و فضيلتها: -----

٣٣٦ ----- الآيات [سوره التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨] -----

٣٣٦ ----- اشاره -----

التفسير ٣٣٦

سوره العلق ٣٤٣

اشاره ٣٤٣

محتوى السوره: ٣٤٥

فضيله السوره: ٣٤٥

الآيات [سوره العلق (٩٦): الآيات ١ الى ٥] ٣٤٧

اشاره ٣٤٧

سبب النزول ٣٤٧

التفسير ٣٤٩

اشاره ٣٤٩

بحثان ٣٥٣

اشاره ٣٥٣

١- بدايه نزول الوحي مقرون ببدايه حركه علميه - ٣٥٣

٢- باسم الله في كل حال ٣٥٥

الآيات [سوره العلق (٩٦): الآيات ٦ الى ١٤] ٣٥٧

اشاره ٣٥٧

التفسير ٣٥٧

اشاره ٣٥٧

سبب الطغيان: ٣٥٧

ملاحظه ٣٦٠

اشاره ٣٦٠

عالم الوجود محضر الله: ٣٦٠

الآيات [سوره العلق (٩٦): الآيات ١٥ الى ١٩] ٣٦٢

اشاره ٣٦٢

التفسير ٣٦٢

اشاره ٣٦٢

- السجود و التقرب: ٣٦٢
- ملاحظه ٣٦٤
- اشاره ٣٦٤
- الطغيان و الإحساس بالاستغناء: ٣٦٤
- سوره القدر ٣٦٨
- اشاره ٣٦٨
- محتوى السوره: ٣٧٠
- فضيله السوره: ٣٧٠
- الآيات [سوره القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥] ٣٧٢
- اشاره ٣٧٢
- التفسير ٣٧٢
- اشاره ٣٧٢
- ليه القدر ليله نزول القرآن: ٣٧٢
- بحوث ٣٧٨
- اشاره ٣٧٨
- ١- ما هي الأمور التي تقدر في ليله القدر؟ ٣٧٨
- ٢- أيه ليله هي ليله القدر؟ ٣٧٩
- ٣- لماذا خفيت ليله القدر؟ ٣٨٠
- ٤- هل كانت ليله القدر معروفه بين الأمم السابقه؟ ٣٨١
- ٥- ليله القدر خير من ألف شهر ٣٨١
- ٦- لما ذا انزل القرآن في ليله القدر؟ ٣٨٢
- ٧- هل ليله القدر واحده في المعموره؟ ٣٨٢
- سوره البينه ٣٨٥
- اشاره ٣٨٥
- محتوى السوره: ٣٨٧
- فضيله السوره: ٣٨٨

الآيات [سوره البينه (٩٨): الآيات ١ الى ٥] ٣٨٩

اشاره ٣٨٩

التفسير ٣٨٩

اشاره ٣٨٩

ذلك دين القيمه: ٣٨٩

الآيات [سوره البينه (٩٨): الآيات ٦ الى ٨] ٣٩٥

اشاره ٣٩٥

التفسير ٣٩٥

اشاره ٣٩٥

خير البريه و شرها: ٣٩٥

بحوث ٣٩٨

اشاره ٣٩٨

١- على عليه السلام و شيعته خير البريه ٣٩٨

٢- ضروره إخلاص النيه فى العباده ٤٠٠

٣- منحني الصعود و السقوط ٤٠٠

سوره الزلزله ٤٠٣

اشاره ٤٠٣

محتوى السوره: ٤٠٥

فضيله السوره: ٤٠٥

الآيات [سوره الزلزله (٩٩): الآيات ١ الى ٨] ٤٠٧

اشاره ٤٠٧

التفسير ٤٠٧

اشاره ٤٠٧

يوم يرى الناس أعمالهم: ٤٠٧

بحوث ٤١٣

اشاره ٤١٣

٤١٣ ١-الدقه في تحرى الأعمال

٤١٤ ٢-جواب على سؤال

٤١٥ ٣-الآيه الجامعه

٤١٧ سورة العاديات

٤١٧ اشاره

٤١٩ محتوى السوره:

٤٢٠ فضيله السوره:

٤٢١ الآيات [سوره العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]

٤٢١ اشاره

٤٢١ سبب النزول

٤٢٢ التفسير

٤٢٢ اشاره

٤٢٢ قسما بالمجاهدين الواعين:

٤٣٣ مسائل:

٤٣٣ اشاره

٤٣٣ ١-ارتباط قسم هذه السوره بأهدافها

٤٣٣ ٢-هل الإنسان كنود بطبيعته؟

٤٣٥ ٣-عظمه الجهاد

٤٣٧ سورة القارعه

٤٣٧ اشاره

٤٣٩ محتوى السوره:

٤٣٩ فضيله السوره:

٤٤٠ الآيات [سوره القارعه (١٠١): الآيات ١ الى ١١]

٤٤٠ اشاره

٤٤٠ التفسير

٤٤٠ اشاره

- ٤٤٠ الحادته القارعه: -
- ٤٤٥ بحث
- ٤٤٥ اشاره
- ٤٤٥ سبب ثقل ميزان الأعمال: -
- ٤٤٧ سورة التكاثر
- ٤٤٧ اشاره
- ٤٤٩ محتوى السوره: -
- ٤٤٩ فضيله السوره: -
- ٤٥١ الآيات [سوره التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]
- ٤٥١ اشاره
- ٤٥١ سبب النزول
- ٤٥٢ التفسير
- ٤٥٢ اشاره
- ٤٥٢ بلاء التكاثر و التفاخر: -
- ٤٥٤ بحوث
- ٤٥٤ اشاره
- ٤٥٤ ١- منبع التفاخر و التكاثر
- ٤٥٤ ٢- اليقين و مراحلہ
- ٤٥٨ ٣- الجميع يرى جهنم
- ٤٥٨ ٤- آتى نعيم يسأل عنه يوم القيامة؟
- ٤٦١ سورة العصر
- ٤٦١ اشاره
- ٤٦٣ محتوى السوره: -
- ٤٦٣ فضيله السوره: -
- ٤٦٥ الآيات [سوره العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]
- ٤٦٥ اشاره

- ٤٦٥ التفسير
- ٤٦٥ اشاره
- ٤٦٥ طريق النجاه الوحيد:
- ٤٧١ بحث
- ٤٧١ اشاره
- ٤٧١ منهج السعاده ذو المواد الأربع:
- ٤٧٦ سورة الهمزه
- ٤٧٦ اشاره
- ٤٧٨ محتوى السوره:
- ٤٧٨ فضيله السوره:
- ٤٧٩ الآيات [سوره الهمزه (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]
- ٤٧٩ اشاره
- ٤٧٩ سبب النزول
- ٤٨٠ التفسير
- ٤٨٠ اشاره
- ٤٨٠ الويل للهمّازين و اللقازين:
- ٤٨٨ بحثان
- ٤٨٨ اشاره
- ٤٨٨ ١-الكبر و الغرور أساس الذنوب الكبيره
- ٤٨٩ ٢-الحرص على جمع المال
- ٤٩٣ سورة الفيل
- ٤٩٣ اشاره
- ٤٩٥ محتوى السوره:
- ٤٩٥ فضيله السوره:
- ٤٩٧ الآيات [سوره الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]
- ٤٩٧ اشاره

سبب النزول ٤٩٧

اشاره ٤٩٧

قصة أصحاب الفيل: ٤٩٨

التفسير ٥٠١

اشاره ٥٠١

كيد ابرهه: ٥٠١

بحوث ٥٠٣

اشاره ٥٠٣

١- المعجزة (للبيت رب يحميه) ٥٠٣

٢- أشد الجزاء بأبسط وسيلة ٥٠٥

٣- أهداف قصة الفيل ٥٠٥

٤- حادثه تاريخيه قطعيه ٥٠٦

سوره قريش ٥٠٩

اشاره ٥٠٩

محتوى السوره: ٥١١

فضيله السوره: ٥١١

الآيات [سوره قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤] ٥١٣

اشاره ٥١٣

التفسير ٥١٣

اشاره ٥١٣

ربّ هذا البيت يجب أن يعبد: ٥١٣

سوره الماعون ٥١٧

اشاره ٥١٧

محتوى السوره: ٥١٩

فضيله السوره: ٥١٩

الآيات [سوره الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧] ٥٢٠

٥٢٠	اشاره
٥٢٠	التفسير
٥٢٠	اشاره
٥٢٠	إنكار المعاد و آثاره المشؤومه:
٥٢٤	تعقيب
٥٢٤	اشاره
٥٢٤	١-تلخيص موضوعات سورة الماعون
٥٢٥	٢-التظاهر و الرياء بلاء اجتماعى كبير
٥٢٧	سوره الكوثر
٥٢٧	اشاره
٥٢٩	محتوى السوره:
٥٣٠	فضيله السوره:
٥٣١	الآيات [سوره الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣]
٥٣١	اشاره
٥٣١	التفسير
٥٣١	اشاره
٥٣١	أعطيناك الخير العميم،
٥٣٥	بحوث
٥٣٥	اشاره
٥٣٥	١-فاطمه عليها السلام و الكوثر
٥٣٦	٢-إعجاز السوره
٥٣٦	٣-«إِنَّا» بصيغه الجمع،لما ذا؟
٥٣٩	سوره الكافرون
٥٣٩	اشاره
٥٤١	محتوى السوره:
٥٤١	فضيله السوره:

الآيات [سوره الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦] ----- ٥٤٣

اشاره ----- ٥٤٣

سبب النزول ----- ٥٤٣

التفسير ----- ٥٤٤

اشاره ----- ٥٤٤

لا أهادن الكافرين: ----- ٥٤٤

أستله: ----- ٥٤٥

اشاره ----- ٥٤٥

١-لما ذا بدأت السوره بفعل الأمر «قل» ----- ٥٤٥

٢-أ كان عبده الأصنام منكرين لله؟ ----- ٥٤٦

٣-لم هذا التكرار؟ ----- ٥٤٦

٤-هل الآيه لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينٌ تعنى جواز عباده الأصنام؟! ----- ٥٤٨

٥-هل هادن الشرك يوماً؟ ----- ٥٤٩

سوره النصر ----- ٥٥١

اشاره ----- ٥٥١

محتوى السوره: ----- ٥٥٣

فضيله السوره: ----- ٥٥٤

الآيات [سوره النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣] ----- ٥٥٥

اشاره ----- ٥٥٥

التفسير ----- ٥٥٥

اشاره ----- ٥٥٥

عند انبلاج فجر النصر: ----- ٥٥٥

بحث ----- ٥٥٩

اشاره ----- ٥٥٩

عند فتح مكّه: ----- ٥٥٩

سوره تبت ----- ٥٦٥

٥٦٥	اشاره
٥٦٧	محتوى السوره:
٥٦٧	فضيله السوره:
٥٦٨	الآيات [سوره المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]
٥٦٨	اشاره
٥٦٨	سبب النزول
٥٦٩	التفسير
٥٦٩	اشاره
٥٧٣	ملاحظات
٥٧٣	اشاره
٥٧٣	١- إعجاز آخر
٥٧٤	٢- جواب عن سؤال
٥٧٧	سوره الإخلاص
٥٧٧	اشاره
٥٧٩	محتوى السوره:
٥٧٩	فضيله السوره:
٥٨٢	الآيات [سوره الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ٤]
٥٨٢	اشاره
٥٨٢	التفسير
٥٨٢	اشاره
٥٨٢	أحد-صمد:
٥٩١	بحوث
٥٩١	اشاره
٥٩١	الأول: التوحيد
٥٩٢	الثانى: فروع دوحه التوحيد
٥٩٤	الثالث: التوحيد الأفعالى

اشاره ٥٩٤

١-توحيد الخالقيه ٥٩٤

٢-توحيد الربوبيه ٥٩٤

٣-التوحيد فى التقنين و التشريع ٥٩٤

٤-التوحيد فى المالكيه ٥٩٤

٥-توحيد الحاكميه ٥٩٤

٦-توحيد الطاعه ٥٩٧

سوره الفلق ٦٠٠

اشاره ٦٠٠

محتوى السوره: ٦٠٢

فضيله السوره: ٦٠٣

الآيات [سوره الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥] ٦٠٤

اشاره ٦٠٤

التفسير ٦٠٤

اشاره ٦٠٤

ربّ الفلق أعوذ: ٦٠٤

بحوث ٦٠٨

اشاره ٦٠٨

١-أخطر مصادر الشرّ و الفساد ٦٠٨

٢-تناسب الآيات ٦٠٨

٣-تأثير السحر ٦٠٨

٤-شرّ الحاسدين ٦٠٩

سوره التاس ٦١٢

اشاره ٦١٢

محتوى السوره: ٦١٤

و فضيله السوره: ٦١٤

الآيات [سوره الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٤] ٤١٤

اشاره ٤١٤

التفسير ٤١٤

اشاره ٤١٤

برب الناس أعوذ: ٤١٤

ملاحظات ٤١٩

اشاره ٤١٩

١- لما ذا نستعيذ بالله؟! ٤١٩

٢- لما ذا تكررت كلمه «الناس» ٤١٩

٣- معنى الخناس على لسان الزوايه ٤٢٠

تعريف مركز ٤٢٢

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱

نهاية تجربه و بدايه تجربه اخرى

ها نحن بفضل الله و منّته و توفيقه فى نهايه المطاف مع «التفسير الأمثل»، بعد جوله فى كتاب الله استغرقت خمسة عشر عاما: و من المناسب أن يكون لنا مع القارئ الكريم، الذى رافقتنا فى هذه الرحله الطويله، حديث نستعرض فيه عصاره تجربتنا مع هذا التفسير على أن يكون مفيدا للسائرين على طريق الدراسه و التعمق فى القرآن الكريم.

١- خلال جولتنا فى رحاب كتاب الله ازددنا تفههما لما ورد فى الحديث الشريف بشأن وصف القرآن، بل تلمسنا هذه الأوصاف بكل وجودنا، و رأينا بأمر أعيننا. من ذلك ما

ورد عن النبى عليه أفضل الصلاه و السلام أنه قال فى القرآن:

«له نجوم، و على نجومه نجوم، و لا تحصى عجائبه و لا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، و منازل الحكمة». (١)

و عن على بن موسى الرضا عليه السلام أنه فى جواب من سأله: ما بال القرآن لا يزداد على النشر و الدرر إلا غضاضه؟

قال:

«لأن الله تبارك و تعالى لم يجعله لزمان دون زمان و لا لناس دون ناس، فهو فى كل زمان جديد و عند كل قوم غض إلى يوم

القيامة». (٢)

نعم: إنه الشجره الطيبه التى تُؤْتَى أُكُلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا و هو البحر

ص: ٥

١-١) -بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٧.

٢-٢) -المصدر السابق، ص ١٥.

الواسع العميق الذى يجد فيه الغواص درًا جديدًا كلما ازداد فيه غوصًا.

هذه الحقيقة تتضح لكلّ السالكين طريق القرآن، وتبعث فيهم الشوق والاندفاع نحو طلب المزيد من مائدته كتاب الله، ونحو مواصلة هذا الطريق حتى نهاية رحله العمر.

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام قال فى حديثه عن القرآن:

«فيه ربيع القلب، وينايع العلم، وما للقلب جلاء غيره».^(١)

وهذه حقيقة اخرى تلمسناها خلال جولتنا فى رحاب القرآن الكريم. وكلما عاش الإنسان جوّ القرآن أكثر يحسّ بتفتح جديد فى القلب و الروح. وهذا الإحساس واضح لكلّ من دخل غمار تجربه. و باب الدخول مفتوح لمن أراد أن يجرب.

٢- من خلال هذه الجوله التفسيرية تبين مدى شمول التعاليم القرآنيه، و اتضح أنّ القرآن الكريم لم يترك مجالًا من المجالات الحيويّه فى الساحة الإنسانيه دون أن يبيّن أصولها و يعيّن إطارها (التفاصيل تكفلت السنّه ببيانها).

من هنا لا يحتاج الإنسان المسلم فى تنظيم حياته السياسيه و الاقتصاديه و الاجتماعيه إلى أن يولّى وجهه شطر مدارس الشرق أو الغرب، و كما

قال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«و اعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقه و لا لأحد قبل القرآن من غنى».^(٢)

مشكله المسلمين تكمن فى عدم معرفتهم بما بين ظهرا نبيهم من كنز عظيم:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمًا

و الماء فوق ظهورها محمول

و هنا نشير مرّه اخرى إلى أن معارف القرآن و تعاليمه لا يمكن أن نتلقاها من

ص: ٦

١- (١) - نهج البلاغه، الخطبه ١٧٦.

٢- (٢) - المصدر السابق.

كتاب الله العزيز إلا إذا جلسنا عنده متعلمين متعلمين. أما إذا أقبلنا على القرآن بذهنيه مملوءه بأحكام مسبقه ملتقطه من مدارس الشرق و الغرب، فسوف نلجأ إلى زج آيات القرآن في إطار مفاهيم غريبه عليه، لتتسجم مع ما نحمله من أحكام و نظريات مسبقه، و بذلك نحرم من عطاء القرآن، و نحوله إلى «آله» لتبرير أخطائنا و إسناد أفكارنا الناقصه.

٣- بعد هذه الجوله القرآنيه التي تلمسنا فيها الحياه القرآنيه بكل ما تحمله من عطاء ثر لحياه الفرد و الجماعه، لا بد أن نسجل أسفنا لما يحمله كثير من المسلمين من نظره إلى القرآن... نظره تجعل القرآن محاطا بهاله من القدسيه غير أنه معزول عن الحياه. تتلمس الثواب و البركه في التلاوه، و الفضيله في الحفظ، دون أن ترى فيه منهجا للحياه.

لقد نسي هؤلاء أن القرآن مدرسه للفرد المسلم و للجماعه المسلمه، يرسم لها طريقها في جميع المجالات، و يوجهها الوجهه الصحيحه في كل المنعطفات، و هنا تكمن عظمه القرآن و قدسيته.

كثيره هي مدارس القرآن و خلاوى التحفيظ و مجلس التلاوه في عالمنا الإسلامى، و كم يدور فيها من البحوث حول طريقه التجويد و الترتيل! لكن الحديث عن المنهج العملى الذى يطرحه القرآن قليل، و الالتزام بهذا المنهج أقل.

و نحن فى هذا التفسير قلما تعرّضنا لسوره دون أن نبيّن أنّ التلاوه التى بينت السنّه فضائلها إنّما هى التلاوه المتبوعه بالفكر و العمل... فضيله التلاوه أن يكون مقدمه للتفكر، أن يودى التفكير إلى العمل.

نسأل الله سبحانه و تعالى أن يوفق علماء المسلمين لطرح منهج القرآن بين أبناء الامه، و أن يوفق اتباع القرآن إلى العمل به فى كل جوانب حياتهم، و هذه كلمتنا الأخيره فى التفسير الأمثل، و ندع بقيه الحديث إلى (التفسير الموضوعى).

و الحمد لله رب العالمين

سوره المطففين

اشاره

مكيه و عدد آياتها ستّ و ثلاثون آيه

ص: ۹

محتوى السّوره:

لقد جرى الحديث بين المفسّرين بخصوص نزولها بين مكّه و المدينة، و بملاحظه أسباب نزول الآيات الاولى من السّوره، و التي تتعلق بالذين يخسرون الميزان، فسيظهر أنّ نزولها كان في المدينة.

و لكنّ طبيعه بقيه الآيات تأتي تماما مع سياق الآيات المكيه، حيث أنّها تتحدث و بعبارات موجزه و مشيره عن حوادث يوم القيامه، و على الخصوص الآيات الأخيره من السّوره و التي تنقل لنا حاله استهزاء الكفّار بالمسلمين، و هو ما ينسجم مع أوضاع مكّه في أوائل الدعوه المباركه، حينها كان المؤمنون عصبه قليله و الكفّار كثره من حيث العدد. و لعل ذلك هو الذي دفع بالمفسرين لاعتبار قسم من الآيات مكّيه و القسم الآخر مدنيه.

و عموما، فالسّوره أقرب منها للسور المكيه من السور المدنيه، و على أيه حال، فبحوث السّوره تدور حول محاور خمس هي:

١- تحذير و إنذار شديد للمطففين.

٢- الإشارة إلى أنّ منشأ الذنوب الكبيره إنّما يأتي من عدم رسوخ الإيمان بالبعث و المعاد.

٣- عرض لجوانب من عاقبه «الفجار» في ذلك اليوم العظيم.

٤- عرض لجوانب ما ينتظر المحسنين في الجنّه من نعم إلهيه و عطاء ربّاني جزيل.

٥-الإشارة لآثار استهزاء الكفار بالمؤمنين في الحياه الدنيا، وانعكاس الحال في يوم القيامة.

فضيله السوره:

روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم» (١).

و

عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه قال: «من قرأ في فرائضه وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ أعطاه الأمن يوم القيامة من النار، ولم تره، ولم يرها...» (٢).

و بطبيعته الحال، فكلّ هذا الثواب و الفضيله و البركه، سينالها من جعل قراءتها مقدمه للعمل على هديها.

ص: ١٢

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥١.

٢-٢) -ثواب الأعمال، ص ١٢٢، و عنه نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٢٧.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَّا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)

سبب النزول

قال ابن عباس: لما قدم نبي الله المدينة، كانوا من أبخس الناس كيلا، فأُنزل الله هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

وقيل: كان تجار المدينة تجارا يطففون، وكانت بياعتهم المنابذه و الملامسه و المخاطره، فنزلت هذه الآية،

فخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقرأها عليهم و قال: «خمس بخمس»، قيل يا رسول الله، و ما خمس بخمس؟ قال: «ما نقص قوم العهد إلا ساط الله عليهم عدوهم! و ما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر! و ما ظهرت فيهم الفاحشه إلا فشا فيهم الموت!»

و لا طففوا الكيل إلا منعوا النبات و أخذوا بالسنين! و لا منعوا الزكاه إلا حبس عنهم المطر! (١).

و روى العلامة الطبرسى فى مجمع البيان: إن رجلا كان فى المدينه يقال له (أبو جهينه) كان له صاعان، يكيل بأحدهما و يكتال بالآخر، فنزلت هذه الآيات. (٢)

التفسير

إشاره

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ

:

بدأ الحديث فى هذه السوره بتهديد شديد للمطففين: وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ .

و تمثل الآيه فى حقيقه توجيهها، إعلان حرب من الله عزّ و جلّ على هؤلاء الظالمين، الذين يأكلون حقّ الناس بهذه الطريقه القدره.

«المطففين»: من (التطيف) و أصله من (الطف)، و هو جوانب الشىء و أطرافه، و إنما قيل لكربلاء ب(وادی الطف)، لوقوعها على ساحل نهر الفرات، و(التطيف):

الشىء النزر، و(التطيف): البخس فى الكيل و الوزن، و نقص المكيال، و هو أن لا تملأه إلى أصباره.

«ويل»: تأتي بمعانى: حلول الشرّ، الحزن، الهلاك، المشقّه من العذاب، واد مهيب فى نار جهنم، و تستعمل عادة فى اللعن و بيان قبح الشىء، و رغم صغر الكلمه إلا أنّها تستبطن مفاهيم كثيره.

و

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «و لم يجعل الله الويل لأحد حتى يسميه كافرا، قال الله عزّ و جل: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣) .

ص: ١٤

١-١) -تفسير الفخر الرازى، ج ٣١، ص ٨٨؛ و كذلك... أبو الفتوح و المراغى فى تفسيريهما.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٢.

٣-٣) -اصول الكافى، ج ٢، ص ٣٢؛ و عنه نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٢٧.

و ما نستفيدة من هذه الروايه هو: إنَّ التطفيف فيه وجه من الكفر.

و تتطرق الآيتين التاليتين إلى طريقه عمل المطففين، فتقول الآيه الأولى:

الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ

(١)

و تقول الآيه الثانيه: إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ و ذهب جمع من المفسرين إلى أن الآيه أرادت ب«المطفف» من يأخذ عند الشراء أكثر من حقه، و يعطى عند البيع أقل من الحق الذي عليه، و ال«ويل» إنما جاء بلحاظ هاتين الجهتين.

و لكن ما ذهب أولئك المفسرون غير صحيح، بدلاله «يستوفون» التي تعنى أخذهم بالكامل، و ليس ثمة ما يدل على أخذهم أكثر من حَقِّهم، و يمكننا توجيه (الذم) الحاصل، باعتبار أخذهم حَقِّهم كاملا عند الشراء، و ينقصون من حق الآخرين عند البيع، كمن يريد أن يذم شخصا بقوله: ما أغربك من رجل، تراك تأتي في الموعد المقرر عند ما تكون دائنا، و تنهرب من أداء ما عليك عند ما تكون مدينا.

فأخذ الحق في مواعده المقرر ليس عملا سيئا، و لكن حصول الحالتين (أعلاه) في شخص واحد هو الشيء.

و قد جاء ذكر «الكيل» في الآيتين عند حاله الشراء، و ذكر «الكيل» و «الوزن» عند حاله البيع، و ربما يرجع ذلك لأحد سببين:

الأول: كان تجار تلك الأزمان الكبار يستعملون (المكيال) عند شرائهم للكميات الكبيره من المواد، لأنه لم يكن عندهم ميزان كبير يستوعب تلك المواد الكثيره.

(و قيل: إنَّ (الكر)، كان في الأصل اسما لمكيال كبير... و الكر: مصطلح

ص: ١٥

١ - ١) - «على الناس»: اشاره إلى ما لهم لدى الناس، و التقدير: (إذا كالوا ما على الناس) و ذلك عند الأخذ منهم، و هو ما نستفيدة من (كال عليه).. أما (كاله) أو (كال له) فهو عند العطاء.

يستعمل لقياس سعه الماء).

أما في حاله البيع، فكانوا يكيلون لبيع الجملة، ويزنون لبيع المفرد.

الثانى: إنهم كانوا يفضلون استعمال المكيال عند الشراء، لصعوبه الغش فيه، و يستغلون الميزان عند البيع لسهولة الغش فيه! و ممّا ينبغى الالتفات إليه.. إن الآيات و إن تحدثت عن التطفيف فى الكيل و الوزن، و لكن، لا- ينبغى حصر مفهومها بهما، فالتطفيف يشمل حتى العدد، و ليس من البعيد أن تكون الآيات قد أشارت إلى إنقاص ما يؤدى من خدمه مقابل أجر، كما لو سرق العامل أو الموظف من وقت عمله، فإنّه و الحال هذه سيكون فى حظيره «المطففين» المذمومين بشدّه فى الآيات المباركه المذكوره.

و يتوسع البعض فى مفهوم الآيه أكثر و أكثر حتى يجعل أى تجاوز لحدود الله، و أى إنقاص أو إخلال فى الروابط الاجتماعيه أو انحلال فى الضوابط الأخلاقيه، إنّما هو مفردات و مصاديق لهذا المفهوم.

و مع أنّ ظاهر ألفاظ الآيه لا يرمز إلى هذه المعانى، و لكنّها لا تخلو من مناسبه.

و لذا، فقد ورد عن ابن عباس، أنّه قال: (الصلاه مكيال، فمن وفى، و فى الله له، و من طفف، قد سمعتم ما قال الله فى المطففين) (1)

و يهدد القرآن الكريم المطففين، باستفهام توبيخى: أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ .

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

يوم عظيم فى: عذابه، حسابه و أهواله.

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

ص: ١٦

أى، إنهم لو كانوا يعتقدون بالبعث و الحساب: و أنّ أعمالهم مسجله و ستعرض كامله فى محكمه العدل الإلهى بخيرها و شرّها، و كبيرها و حقيرها، لو كانوا يعتقدون ذلك، لما ظلموا أحدا، و لأعطوا الناس حقوقهم كامله.

و قد اعتبر كثير من المفسرين: إنّ «الظن» الوارد فى الآيه من «يظن» بمعنى (اليقين): كما هو فى الآيه (٢٤٩) من سوره البقره: قَالَ الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَهُ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، و هذه الآيه كانت تتحدث عن المراحل المختلفه لإيمان و استقامه بعض بنى إسرائيل.

و ممّا يشهد على ما ذكر أيضا، ما

روى عن أمير المؤمنين عليه السلام فى تفسير الآيه:

أَلَا يَظُنُّ أَوْلِيكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

، أنّه قال: «أليس يوقنون أنهم مبعوثون»؟ (١) و روى عنه عليه السلام أيضا، أنّه قال: «الظن ظنان، ظنّ شك و ظنّ يقين، فما كان من أمر المعاد من الظنّ فهو ظنّ يقين، و ما كان من أمر الدنيا فهو على الشك» (٢).

و احتمال البعض: إنّ «الظنّ» الوارد فى الآيه، هو ذات «الظنّ» المتعارف عليه فى زماننا، و هو غير اليقين، فىكون إشاره إلى أنّ الإيمان بالقيامة يترك أثرا فى روح الإنسان، يجعله يتنزّه عن الوقوع فى الذنوب و الظلم، حتى و إن كان ذلك الإيمان بنسبه «الظنّ». فكيف به إن كان يقينا؟! و يصطلح العلماء على هذا المعنى، عنوان (دفع الضرر المظنون) أو (دفع الضرر المحتمل).

فىكون مفهوم الآيه، على ضوء ما ورد: ليس المطففين العاصين لا- يملكون اليقين بوجود يوم القيامة، بل إنهم لا يظنون بذلك أيضا.

(و يبدو أنّ التفسير الأوّل أنسب).

و «الظنّ» - كما يقول الراغب فى مفرداته - اسم لما يحصل عن إماره، و متى

ص: ١٧

١-١ - تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٣٨.

٢-٢ - نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٢٨.

قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًا لم يتجاوز حدّ التوهم.

و عليه..فاصطلاح «الظنّ»-بخلاف ما يتبادر إليه الذهن في زماننا-يشمل العلم و الظنّ،و يستعمل في الحالتين.

ملاحظه

اشاره

التطيف من عوامل الفساد في الأرض:

تعرض القرآن الكريم للتطيف في الوزن مرارا،و من ذلك ما جاء في الآيات (١٨١-١٨٣) من سوره الشعراء،حينما خاطب شعيب عليه السّلام قومه قائلا: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَالتطيف في الوزن و الكيل من الفساد في الأرض،و ذلك لما تنتج عنه من مفاسد اجتماعيه ذات أبعاد واسعه.

كما جاء التأكيد في الآيتين (٧ و ٨) من سوره الرحمن على ضروره الالتزام بالعداله حين استعمال الميزان،بعد الإشاره إلى أن العدل أصل قد روعى فيه حتى نظام الخلق في عالم الوجود: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَ وَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ .

ولذا، نجد أئمة أهل البيت عليهم السّلام قد أولوا هذا الموضوع اهتماما بالغا،حتى

روى عن الأصبع بن نباته،أنه قال:سمعت أمير المؤمنين عليه السّلام يقول على المنبر:

«يا معشر التجار!الفقه ثم المتجر،الفقه ثم المتجر،الفقه ثم المتجر»إلى أن قال:

«التاجر فاجر،و الفاجر في النار،إلا من أخذ الحقّ و أعطى الحقّ» (١).

و

في روايه عن الإمام الباقر عليه السّلام أنه قال: «كان أمير المؤمنين عليه السّلام بالكوفه

ص: ١٨

يغتدى كل يوم بكره من القصر، فيطوف في أسواق الكوفه سوقا سوقا، ومع الدّره على عاتقه (لمعاقبه المخالفين)، فينادى: يا معشر التّجّار اتقوا الله عزّ وجلّ، فإذا سمعوا صوته عليه السّلام ألقوا ما بأيديهم، وأرعوا إليه بقلوبهم، وسمعوا بأذانهم، فيقول عليه السّلام: قدموا الإستخاره، وتبركوا بالسهوله، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجاؤا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين، ولا- تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا- تبخسوا النّياس أشياءهم، ولا- تعثوا في الأرض مفسدين، فيطوف عليه السّلام في جميع أسواق الكوفه ثم يرجع فيقعد للناس» (١).

و بشأن نزول الآيات،

قال النّبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلم: «و لا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات و أخذوا بالسنين».

و زبده ما تقدم: يعتبر التّطيف في الميزان من العوامل الأساسيه في عذاب و هلاك بعض الأمم السالفه، حيث أدى ذلك إلى اختلال النظام الاقتصادي عندهم من جهه، و إلى نزول العذاب الإلهي عليهم من جهه أخرى.

و قد حثّت الزوايات الوارده في خصوص آداب التجاره على الأخذ ناقصا و العطاء راجحا، أى بعكس سلوكيه من ذمتهم الآيات المبحوثه، فهم يأخذون بدقه و يعطون ناقصا. (٢)

و كما قلنا في تفسير الآيه، فثّمه من يذهب إلى أنّ مفهوم التّطيف أوسع من أن يحدد بالكيل و الميزان، و يمتد ليشمل أى انقاص في عمل، و أى تقصير في أداء وظيفه فرديه أو اجتماعيه أو إلهيه.

ص: ١٩

١- (١) - المصدر السابق، الحديث ٣.

٢- (٢) - و لمزيد من الاطلاع...راجع وسائل الشيعه، ج ١٢، ص ٢٩٠، أبواب التجاره، الباب ٧.

اشاره

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠)

التفسير

اشاره

وما أدراك ما سجين!؟

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المطففين، و عن ارتباط الذنوب بعدم الإيمان الراسخ بالمعاد و يوم القيامة، تشير الآيات أعلاه إلى ما ستؤول إليه عاقبه المسيئين و الفجار يوم حلول اليوم المحتوم، فتقول: كَلَّا- فليس الأمر كما يظن هؤلاء عن المعاد و أنه ليس هنا حساب و كتاب، بل إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ

كِتَابٌ مَرْقُومٌ

و توجد نظرتان في تفسير الآيه أعلاه:

الاولى: المراد من «كتاب» هو صحيفه الأعمال، التي لا تغادر صغيره و لا كبيره، من الأفعال الإنسان إلا و أحصتها.

و المراد ب«سجين»: هو الكتاب الجامع لكل صحائف أعمال الإنسان عموما.

و ما نستفيدة من الآيات المذكوره و آيات اخرى: إن أعمال جميع المسيئين تجمع في كتاب يسمّى «سجّين»، و أعمال جميع الصالحين و الأبرار تجمع في كتاب آخر، اسمه «عليين».

و «سجّين»: من (السجن)، و هو (الحبس)، و له استعمالات متعدده، فهو:

السجن الشديد، الصلب الشديد من كلّ شيء، اسم لوادى مهول في قعر جهنم، موضع فيه كتاب الفجّار، و نار جهنم أيضا.

و قال: «الطريحي» في «مجمع البحرين» في «سجّين»: و في التفسير هو كتاب جامع ديوان الشر، دون الله فيه أعمال الكفره و الفسقه من الجنّ و الإنس... (١)

أما القرائن التي تؤيد هذا التفسير، فهي:

١- غالبا ما وردت كلمه «كتاب» في القرآن الكريم بمعنى (صحيفه الأعمال).

٢- ظاهر الآيه التاليه: **كِتَابٌ مَّرْقُومٌ** يشير إلى أنّها تفسير ل «سجّين».

٣- قيل: إن «سجّين» و «سجّيل» بمعنى واحد، و كما هو معلوم أنّ «سجّيل» بمعنى (كتاب كبير). (٢)

٤- و تشير آيات قرآنيه اخرى إلى أنّ أعمال الإنسان تضبط في عدّه كتب، حتى لا يبقى عذر للإنسان في حال حسابه.

و أولى تلك الكتب، صحيفه الأعمال المعده لكلّ شخص، فالصالح سيعطى كتابه في يمينه، و المسيء سيعطى كتابه في شماله.

و هذا المعنى كثير ما تكرر ذكره في القرآن الكريم.

و الكتاب الثّاني، هو ما تسجّل فيه أعمال الأمم، و يمكن أن نسميه ب (صحيفه أعمال الأمم) و الآيه (٢٨) من سوره الجاثيه تشير إلى هذا بقولها:

ص: ٢١

١- ١) - و لم يوضح الطريحي أن هذا التفسير لمعصوم كان أم لغيره.

٢- ٢) - روح المعاني، ج ٣٠، ص ٧٠، و مجمع البحرين، ماده (سجل).

كُلِّ أُمَّه تَدْعِي إِلَى كِتَابِهَا .

و ثالث الكتب، هو صحيفه أعمال جميع الأبرار و الفجار، التي وردت الإشارة إليهما في الآيات المبحوثة و ما سيأتي من الآيات، باسم «سجين» و «عليين».

و خلاصه القول: إن «سجين» عباره عن ديوان جامع لكافه صحائف الفجار و الفسقه، و أطلق عليه هذا الاسم باعتبار أن ما فيه يؤدي إلى حبس أصحابه في جهنم، أو أن هذا الديوان موجود في قعر جهنم.

على عكس كتاب الأبرار فإنه في أعلى عليين... في الجنة.

الثانية: إن «سجين»، هي «جهنم»... و هي سجن كبير لجميع المذنبين، أو هي محل شديد من جهنم.

و «كتاب» الفجار، أي: ما قرر لهم من عاقبه و مصير.

فيكون التقدير على ضوء هذا التفسير: إن جهنم هي المصير المقرر للمسيئين، و قد استعمل القرآن كلمه «كتاب» بهذا المعنى في مواضع عدّه، و من ذلك ما تناولته الآية (٢٤) من سورة النساء حين بينت حرمة الزواج من المتزوجات:

كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَي، إن هذا الحكم (و ما سبقه من أحكام)، هي أحكام قررها الله عليكم، و كذلك ما جاء في الآية (٧٥) من سورة الأنفال: وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، أي فيما قرره الله و جعله من أحكام.

و مما يؤيد هذا التفسير ما جاء في الروايات من أن «سجين» هي «جهنم»...

ففي تفسير على بن إبراهيم، قال في تفسير: إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ: ما كتب الله لهم من العذاب لفي سجين.

و

عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: «السجين الأرض السابعة، و عليون السماء السابعة»، (إشاره إلى أخفض و أعلى مكان) (١).

ص: ٢٢

و روى فى روايات عديده، إنّ الأعمال التى لا تليق بالقرب منه جلّ شأنه تسقط فى سجّين: كما

نقل الأثر عن سيد البشر صلّى الله عليه وآله و سلّم قوله: «إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّ و جلّ اجعلوها فى سجّين، إنّه ليس إيّاي أراد فيها!» (1) و من كلّ ما تقدم، نصل إلى أنّ «سجّين»: مكان شديد جدّا فى جهنم، توضع فيه أعمال المسيئين أو صحيفه أعمالهم، أو يكون مصيرهم الحبس فى ذلك المكان (السجّين).

و على ضوء هذا التفسير، تكون الآيه: كِتَابٌ مَّرْقُومٌ تأكيداً للآيه: إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ، و ليس تفسيراً لها، لأن العقاب قد قرر لهم، و هو قطعى و حتمى.

«مرقوم»: من (رقم) على وزن (زخم)، و هو الخطّ الغليظ، و لكون هكذا خطّ من الوضوح بحيث لا- إبهام فيه، فقد استعملته الآيه للإشارة إلى قطعيه ما قرر لهم من مصير من غير أى إبهام أو إغفال.

و على أيّه حال، فلا مانع من الجمع بين التفسيرين لأنّ «سجّين» حسب التفسير الأوّل بمعنى الديوان الجامع لكلّ أعمال المسيئين، و حسب التفسير الثانى بمعنى: «جهنم» أو قعرها، فالأمران على صورته علّه و معلول، فإذا كانت صحيفه أعمال الإنسان السيئه فى ذلك الديوان الجامع، فإنّ مقام الديوان هو قعر جهنم.

و تأتى الآيه التالیه لتقول: وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

التكذيب الذى يوقع فى ألوان من الذنوب، و منها التطفيف و الظلم.

و بملاحظه كلمه «ويل» الوارده فى أوّل آيه و آخر آيه، تبين شدّه العلاقه

ص: ٢٣

الموجوده ما بين تلك الأعمال السيئه و إنكار المعاد، حيث بدأ الحديث بالويل للمطففين، و مرورا بالفجار و من ثم الويل للمكذبين يوم الدين.

و سيتوضح هذا الترابط بشكل أدق في الآيات التاليه.

ص: ٢٤

اشاره

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)

التفسير

اشاره

صدأ الذنوب:

بعد ما ذكرت آخر آيه من الآيات السابقه مصير المكذبين، تأتي الآيات أعلاه لتشرح حالهم، فتقول: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، و هو يوم القيامة.

و تقول أيضا: وَمَا يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ .

فإنكار القيامة لا يستند على المنطق السليم و التفكير الصائب و الاستدلال العقلي، بل هو نابع من حبّ الاعتداء و ارتكاب الذنوب و الآثام (الصفه المشبهه «أثيم» تدل على استمرار الشخص فى ارتكاب الذنوب).

فهم يريدون الاستمرار بالذنوب و الإيغال بالاعتداءات و بكامل اختيارهم، و من دون أى رادع يردعهم من ضمير أو قانون، و هذا الحال شبيه ما أشارت إليه الآية (٥) من سورة القيامة: **بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ**، و عليه، فهو يكذب بيوم الدين.

و على هذا الأساس، فإنّ للممارسات السيئه أثر سلبي على عقيدة الإنسان، مثلما للعقيدة من أثر على سلوكيه و توجيهات الإنسان، و هذا ما سيتوضح أكثر في تفسير الآيات القادمة.

و تشير الآية التاليه للصفه الثالثه لمنكرى المعاد، فتقول: **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**.

فبالإضافه لكون منكر المعاد معتد و أثيم، فهو من الساخرين و المستهزئين بآيات الله، و يصفها بالخرافات الباليه (١)، و ما ذلك إلا مبرر واه لتغطيه تهربه من مسئوليهِ آيات الله عليه.

و لم تختص الآية المذكوره بذكر المبررات الواهيه لأولئك الضالين المجرمين فرارا من الاستجابه لنداء الدعوه الربانيه، بل تمه آيات أخرى تناولت ذلك، منها الآية (٥) من سورة الفرقان: **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**، و الآية (١٧) من سورة الأحقاف، حكايه عن قول شاب طاغ وقف أمام والديه المؤمنين مستهزءا بنصائحهما قائلاً: **مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**.

و قيل في شأن نزول الآية: إنها نزلت بشأن (النضر بن حارث بن كلده)، ابن خاله النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و كان من رؤوس الكفر و الضلال.

و لا يمنع نزول الآية في شخص معين، من تعميم ما جاء فيها لكل من يشارك

ص: ٢٦

١ - ١) - «أساطير»: جمع (اسطوره) من (السطر)، و غالبا ما تستعمل في وصف الشخصيات الموهومه و الأحاديث الملفقه و القصص الكاذبه.

ذلك الشخص في الصفة و الحال.

فالطغاه، كثيرا ما يتذرعون بأعذار واهيه، عسى أن يتخلصوا من لوم و تأنيب الضمير من جهه..و من اعتراضات الناس و رجال الحق من جهه اخرى، و العجيب أنّ الطغاه من حماقه و التحجّر بحيث أنّ أسلوب مواجهتهم للأنبياء عليهم السلام و على مرّ التاريخ قد جاء على وتيره واحده، و كأنّهم قد وضعوا لأنفسهم مخططا لا ينبغي الحيد عنه، فعند مواجهتهم لدعوه الأنبياء عليهم السلام بتعاليم السماء، ليس عندهم سوى أن يقولوا: سحر، كهانه، جنون، أساطير! و يعرى القرآن مرّه اخرى جذر طغيانهم و عنادهم، بالقول: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

ما أشدّ تقريع عبارته! فقد احتوى صدا أعمالهم كلّ قلوبهم، فأزيل عنها ما جعل الله فيها من نور الفطره الاولى و ذهب صفائها، و لذا.. فلا يمكن لشمس الحقيقه أن تشرق بعد في أفق قلوبهم، و لا- يمكن لتلك القلوب التعسه من أن تتقبل نفوذ أنوار الوحي الإلهي إلى دواخلها.

«ران»: من (الرين) على وزن (عين)، و هو: الصداً يعلو الشيء الجليل (كما يقول الراغب في مفرداته)، و يقول عنه بعض أهل اللغه: إنّه قشره حمراء تتكون على سطح الحديد عند ملامسته لرطوبه الهواء، و هي علامه لتلفه، و ضياع بريقه و حسن ظاهره.

و قيل: ران عليه: غلب عليه، و رين به: وقع في ما لا يستطيع الخروج منه و لا طاقه له به (1) و كل هذه المعاني هي من لوازم المعنى الأوّل.

و سنتناول موضوع تأثير الرين على صفاء القلب و نورانيته في البحوث

ص: ٢٧

(١- ١) - راجع: المنجد، و تفسير الفخر الرازي في الآيه المبحوثة.

و يستمر البيان القرآنى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ .

و هو أشد ما سيعاقبون به، مثلما منزله اللقاء بالله و درجه القرب منه هي من أعظم نعم الأبرار و الصالحين و أكثرها لذه و استئناسا.

«كَلَّا»: عاده ما تستعمل لنفى ما قيل سابقا، و للمفسرين أقوال فى تفسيرها:

القول الأول: إنها تأكيد لـ «كَلَّا» المتقدمه فى الآيه السابقه، أى: يوم القيامه ليس بأسطوره كما يزعمون.

و القول الثانى: «كَلَّا» بمعنى لا يمكن إزاله الرين الذى فقأ البصيره فى قلوبهم، فهم محرومون من رؤيه جمال الحق فى هذا العالم و فى عالم الآخره أيضا.

القول الثالث: إن الآيه تجيب زعم أولئك من أن القيامه (حتى على فرض وجودها!) فهم سينعمون بها كما (يتصورون) بأنهم منعمين فى الدنيا، (و قد تناولت الآيات الأخرى ما جاء فى زعمهم) (١).

و لكن أحلامهم ستتلاشى أمام حقيقه وقوع القيامه، و ما سينالونه من شديد العذاب.

نعم، فأعمال الإنسان فى دنياه ستتجسم له فى آخرته شاء أم أبى، و لما كان أولئك قد أغلقوا عيونهم عن رؤيه الحق، و رانت أعمالهم على قلوبهم، فسيحجبون عن ربهم فى ذلك اليوم العظيم، و عندها فسوف لن يتمتعوا برؤيه جمال الحق أبدا، و سيحرمون من نعمه اللقاء بالحبيب الحقيقى، الذى لا حبيب سواه.

و: ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ .

فدخلهم جهنم نتيجة طبيعیه لاحتجابهم عن الله تعالى و أثر لازم له، و مما لا شك فيه إن لهيب الحرمان من لقاء الله أشد إيلا ما و إحراقا من نار جهنم!

ص: ٢٨

١- ١) - كما فى الآيه (٣٢) من سوره الكهف: وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا، كما و جاء نظير ذلك فى الآيه (٥٠) من سوره فصلت.

و تقول الآيه التاليه: ثُمَّ يُقَالُ لِهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

يقال لهم ذلك توبيخا و لوما لزياده تعذيبهم روحيا، و هو ما ينتظر كل من عاند الحق و تخبط متاهات الضلال.

ملاحظات

اشاره

١- لم كانت الذنوب صدأ القلب!؟

تناول القرآن الكريم في مواضع متعدده ما للذنوب من تأثيرات سلبيه على إظلام القلب و تلوينه، فقد جاء في الآيه (٣٥) من سوره المؤمن: كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ .

و قال في موضع آخر: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١).

و جاء في الآيه (٤٦) من سوره الحج: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ .

نعم..فأسوأ ما للاستمرار في الذنوب من آثار: اسوداد القلب، فقدان نور العلم، موت قدره التشخيص بين ما هو حق و باطل.

فآثار ما تقترفه الجوارح من ذنوب تصل إلى القلب و تحوله إلى مستنقع آسن، و عندها لا يقوى الإنسان على تشخيص طريق خلاصه، فيهوى في حفر الضلاله التي توصله لأدنى دركات الانحطاط، و تكون النتيجة أن يرمى ذلك الإنسان مفتاح سعادته بنفسه من يده، و لا يجنى حينها إلا الخيبه و الخسران.

و

روى عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «كثره الذنوب مفسده للقلب». (٢)

ص: ٢٩

١-١) -البقره، الآيه ٧.

٢-٢) -تفسير الدر المنثور: ج ٦، ص ٣٢٦.

في حديث آخر: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذِنَ ذَنْبًا نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّيْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١)» .

و روى الحديث (بتفاوت يسير) عن الإمام الباقر عليه السلام (٢) .

عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «تَذَاكَرُوا وَتَلَاقُوا وَتَحَدَّثُوا فَإِنَّ الْحَدِيثَ جَلَاءٌ لِلْقُلُوبِ، إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَرِينَ كَمَا يَرِينَ السَّيْفَ، وَجَلَاءُهُ الْحَدِيثُ». (٣)

و من الثابت في علم النفس، أنَّ للأعمال الأثر الكبير على نفسه و روحه الإنسان، فنفسه الإنسان، فتكيف تدريجيا على ضوء تلك الآثار، وبالنتيجة سينعكس ذلك على فكر و آراء الإنسان.

و ينبغي التنويه إلى: أنَّ روح الإنسان تتعامل طرديا مع الذنوب، فمع استمرار الذنوب تغوص الروح في أعماق الظلام لحظه بلحظه، حتى تصل إلى درجة يبدأ الإنسان يرى سيئاته حسنات، و ربما يتفاخر بها! و عندها.. ستغلق أمامه أبواب العوده: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، و هذه الحال من أخطر ما تعرض للإنسان في حياته الدنيوية من حالات.

٢- حجاب الروح!

حاول كثير من المفسرين أن يجعل للآية: كلاً إنهم عن ربهم لمحجوبون تقديرا، و احتاروا بين أن يجعلوا التقدير (الحجاب عن رحمه الله)، أم الحجاب عن إحسانه، أم كرامته، أم ثوابه...

و لكن ظاهر الآية لا يبدو فيه الاحتياج لتقدير، فإنهم سيحجون عن ربهم

ص: ٣٠

١- (١) - المصدر السابق، ص ٣٢٥.

٢- (٢) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣١، الحديث ٢٢.

٣- (٣) - المصدر السابق، الحديث ٢٣.

على الحقيقه،بينما سينعم الصالحون الطاهرون بقرب الله و جواره ليفعموا بلذيذ لقاء الحبيب،و الرؤيه الباطنيه لهذا الحبيب الأمل،بينما الكفره الفجره ليس لهم من هذا الفيض العظيم و النعمه البالغه من شيء.

و بعض المؤمنين المخلصين يتنعمون بهذا اللقاء حتى في حياتهم الدنيا،في حين لا- يجنى المجرمون المعنيه قلوبهم سوى الحرمان...

فهؤلاء في حضور دائم،و أولئك في ظلام و ابتعاد! فلمناجاه المؤمنين مع بارئهم حلاوه لا- توصف،و أمّا من اسودت قلوبهم فتراهم غرقى في بحر ذنوبهم و تتقاذفهم أمواج الشقاء،(أعاذنا الله من ذلك).

و

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «...هبنى صبرت على عذابك فكيف اصبر على فراقك».

ص: ٣١

اشاره

كَلَّا- إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)

التفسير

اشاره

عليون في انتظار الأبرار:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الفجرار و كتابهم و عاقبه أمرهم، ينتقل الحديث في هذه الآيات للطرف المقابل لهؤلاء، فتحدث عن الأبرار الصالحين و ما سيالون إليه من حسن مآب، و يبدأ الحديث بالقول: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ .

«عليين»: جمع (على) على وزن (ملى)، و هو المكان المرتفع، أو الشخص

الجالس فى مكان مرتفع، و يطلق أيضا على ساكنى قمم الجبال.

و قد فسّر فى الآيه ب(أشرف الجنان)أو(أعلى مكان فى السماء).

و قيل:إنّما استعمل اللفظ بصيغته الجمع للتأكيد على معنى(العلو فى علو).

و على أيّه حال،فما عرضناه بخصوص تفسير«سجّين» يصدق على«علّيين» أيضا،بقوليه:

الأوّل:أنّ المقصود من«كتاب الأبرار»هو صحيفه أعمال الصالحين و المؤمنين،فجميع الأعمال تجمع فى هذا الديوان العام،و هو ديوان عالى المقام و شريف القدر.

الثانى:أنّ صحيفه أعمال الأبرار تكون فى أشرف مكان،أو فى أعلى مكان فى الجنّه،و هذا يكشف عن علو شأنهم و رفعه كرامتهم عند الله عزّ و جلّ.

و

جاء فى الحديث النبوى الشريف:«علّيون فى السماء السابعة تحت العرش»(١).

و هذا بالضبط هو المحل المضاد تماما لمحل صحيفه أعمال«الفجار»،حيث وضعت فى أسفل طبقات جهنم.

و ذهب قسم من المفسّرين إلى أنّ ال«كتاب»هنا يرمز لمعنى(المصير)،أو(الحكم القطعى الإلهى)بخصوص نيل الصالحين درجات الجنّه العلى.

و لا- يضرّ من الجمع بين التفسيرين،فأعمال الأبرار مجموعه فى ديوان عام، و محل ذلك الديوان فى أعلى نقطه من السماء،و يكون الحكم و القضاء الإلهى كذلك مبنى على كونهم فى أعلى درجات الجنّه.

و لأهميه و عظمه شأن«علّيين»..تأتى الآيه التالىة لتقول: وَ مَا أَذْرَاكَ مَا عَلِّيونَ،إنّه مقام من المكانه بحيث يتجاوز حدود التصور و الخيال و القياس

ص: ٣٣

١- ١) -تفسير القرطبى، ج ١٠، ص ٧٠٥٣، و مجمع البحرين:ماده(علو).

و الظن، بل و حتى أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ عَلَى ماله من علو شأن و مرتبه مرموقه، فلا- يستطيع من تصور حجم أبعاد عظمته.

و يبدأ البيان القرآنى بتقريب ال«علتين» إلى الأذهان: «كتاب مرقوم» و هذا على ضوء تفسير «علتين» بالديوان العام لأعمال الأبرار، أمّا على ضوء التفسير الآخر فسيكون معنى الآية: إنه المصير الحتمى الذى قرره الله و سجّله لهم، بأن يكون محلهم فى أعلى درجات الجّته، (بناء على هذا التفسير فتكون الآية «كتاب مرقوم» مفسره لكتاب الأبرار و ليس لعلتين).

و كذلك: يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ أى يشاهدونه، أو عليه يشهدون عليه.

ثمّه من ذهب إلى أنّ «المقربون» فى الآية، هم ملائكة مقربون عند الله عزّ و جلّ، ينظرون إلى ديوان أعمال الصالحين، أو ينظرون إلى مصيرهم المحتوم.

و لكنّ الآيات التاليه تظهر بوضوح بأنّ المقربين، هم نخبه عاليه من المؤمنين لهم مقام مرموق، و بإمكانهم مشاهدته صحيفه أعمال الأبرار و الصالحين.

و يمكن أن نستفيد هذا المعنى من الآيتين (١٠ و ١١) من سوره الواقعه:

و السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ... و من الآية (٨٩) من سوره النحل:

و يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَيَّ هَؤُلَاءِ .

و ينتقل الحديث إلى عرض بعض جوانب جزاء الأبرار: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ .

«النعيم»: هو النعمه الكثيره- على قول الراغب فى مفرداته- و جاءت بصيغه نكره لتعظيم شأنها، أى إنهم فى نعيم مادى و معنوى لا حدّ لوصفه.

و نقلنا البيان القرآنى لجوانب من نعيم الأبرار: عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (١).

ص: ٣٤

١- ١) -المبتدأ محذوف فى الآية، التقدير: (هم على الأرائك ينظرون) «ينظرون»، حال، أو أن جملة «على الأرائك»: خبر ثان، نسبه إلى «إنّ» الوارده فى الآية السابقه.

«الأرائك»: جمع (أريكه)، وهى سرير منجد مزين خاص بالملوك، أو سرير فى حجله، و جاءت فى الآيه بمعنى، الأسره المزينه التى يتكى عليها أهل الجنه.

و ثمه من يذهب إلى أنها معربه من «أرك» بمعنى قصر الملك فى الفارسيه، أو القلعه فى وسط المدينه، و بما أن القلعه فى وسط المدينه تكون للملوك عاده اطلق عليها هذه الكلمه، أو بمعنى عرش السلطان الذى يقال عنه بالفارسيه «أراك»، ثم سميت العاصمه به (أراك) و «عراق» معرب «أراك» بمعنى مقر السلطان.

فيما يقول آخرون أنها من (الأراك) و هو شجر معروف تصنع من الأسره، و قيل أيضا، إنما سميت بذلك لكونها مكانا للإقامه من (الأروك) و هو الإقامه. (١)

و جاءت «ينظرون» مطلقه، لإعطاء مفهوم السعه و الشمول، فمسموح لهم النظر إلى لطف البارى و جماله، و إلى نعم الجنه الباهره، و إلى ما أودع فيها من رونق و بهاء... و ذلك لأن لذه النظر من اللذائذ الإنسانيه التى تدخل الغبطه و السرور فى الإنسان بشكل كبير و ملموس.

ثم يضيف: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ .

إشاره إلى أن ما يبدى على وجوههم من علائم النشاط و السرور و الغبطه، إن هو إلا انعكاس لسعادتهم الحقه، بعكس أهل جهنم الذين لا يبدو على وجوههم إلا علائم الغم و الحسره و الندم و الشقاء.

«نضره»: إشاره إلى النشاط و الأريحيه التى تظهر على وجوههم. (كما أسلفنا القول).

و بعد ذكر نعم: «الأرائك»، «النظر»، «الاطمينان و السعاده».. تذكر الآيه التاليه نعمه شراب الجنه، فتقول: يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ .

إنه ليس كشراب أهل الدنيا الشيطانى، بما يحمل من خبث دافع إلى المعاصى

ص: ٣٥

١- ١) -لمزيد من الإيضاح.. راجع مفردات الراغب، و لسان العرب (ماده: أرك).

و الجنون، بل هو شراب طاهر يذكي العقول و يدب النشاط و الصفاء فى شاربه.

و«الرحيق»- كما اعتبره المفسرين-: هو الشراب الخالص الذى لا يشوبه أى غش أو تلوث.

و«مختوم»: إشاره إلى أنه أصلى و يحمل كل صفاته المميزه عن غيره من الأشربه و لا يجاربه شراب قط، و هذا بحد ذاته تأكيد آخر على خلوص الشراب و طهارته.

و الختم بالصوره المذكوره يظهر مدى الاحترام الخاص لأهل الجنّه، حيث أنّ ذلك الإحكام و تلك الأختام مختصه لهم، و لا يفتحها أحد سواهم (1).

و تقول الآيه التاليه: خَتَامُهُ مِشْكٌ .

فختامه ليس كختوم أهل الدنيا التى تلوث الأيدي، و أقل ما فيها أنّها فى حال فتحها ترمى فى سله الأوساخ، بل هو شراب طاهر مختوم، و إذا ما فتح ختمه فتفوح رائحه المسك منه! و قيل: «ختامه» يعنى (نهايته)، فعند ما ينتهى من شراب الرحيق، ستفوح من فمه رائحه المسك، على خلاف أشربه أهل الدنيا، التى لا تترك فى الفم إلا المراره و الرائحه الكريهه، و لكنّه بعيد بملاحظه الآيه السابقه.

و يقول العلامة الطبرسى فى (مجمع البيان): «التنافس»: تمنى كل واحد من النفسين مثل الشىء النفسى الذى للنفس الاخرى أن يكون له.

و فى (مجمع البحرين): نافست فى الشىء: إذا رغبت فيه على وجه المباره فى الكرم، (سباق سالم و نزيه).

ص: ٣٦

١- ١) -عملية ختم الأشياء (كانت و لا زالت)، تستعمل للاطمينان على سلامه تلك الأشياء من التلاعب بها، فمثلاً.. لكى يطمأن على سلامه وصول شىء معين إلى صاحبه المراد، فإنّه يوضع فى ظرف خاص مغلق، و إذا ما كان الشىء بدرجه عاليه من الأهميه، فلا يكتفى بالغلق، بل يربط بسلك أو ما شابه و من ثم يوضع على عقده شىء من الشمع أو الطين و يختم بختم معين، كل ذلك للتأكيد من وصوله إلى المراد بدون أن تمتد إليه يد التلاعب.

و في (مفردات الراغب): «المنافسه»: مجاهده النفس للتشبهه بالأفاضل و اللحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره.

و جاء مضمون الآيه فى الآيه (٢١) من سوره الحديد: **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ**، و ما جاء فى الآيه (١٣٣) من سوره آل عمران: **وَ سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ**.

و على آيه حال، فدقّه تعبير الآيه و شفافيته، من أجمل تعابير التشجيع للوصول إلى النعيم الخالد، من خلال ترسيخ الإيمان فى قلوب و تجسيد الأعمال الصالحه على سوح الواقع، و الآيه قطعه بلاغيه رائعه (١) (٢) و نصل لآخر وصف شراب الأبرار فى الجنه: **وَ مِرْأَجُهُ مِزَّجٌ مِّن تَسْنِيمٍ أَى أَنَّهُ مَمزُوجٌ بِالتَّسْنِيمِ**، (عينا يشرب بها المقربون) (٣).

و من خلال الآيتين أعلاه، يتضح لنا بأن «التسنيّم» هو أشرف شراب فى الجنه، و «المقربون» يشربون منه بشكل خالص، فيما يشربه «الأبرار» ممزوجا بالرحيق المختوم.

أمّا وجه تسميه ذلك الشراب أو العين ب«تسنيّم»، (علما بأنّ التسنيّم فى اللغه هو عين ماء يجرى من علو إلى أسفل)، فقد قال البعض فيه: إنّه شراب خاص موجود فى الطبقات العليا من الجنه.. و قال آخرون: إنّه نهر يجرى فى الهواء فينصب فى أوانى أهل الجنه.

و الحقيقه، فللجنه ألوان من الأشربه، منها ما يجرى على صوره أنهار، كما

ص: ٣٧

١- ١) - يتضح من تفسير الآيه، أنّ اسم الإشاره «ذلك» يعود على جميع نعم الجنه، و شرابها بالذات لما وصف فيه فى الآيه.
٢- ٢) - «الواو» و «الفاء» فى وَ فِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ، كلاهما حرف عطف، و إذا ما سئل عن عله وجودهما معا، فالجواب هو: يوجد شرط محذوف، و التقدير: «و إن أريد تنافس فى شىء فليتنافس فى ذلك المتنافسون»، فحذفت أداه الشرط و الجملة الشرطيه و قدمت «فى ذلك».

٣ - ٣) - قيل فى سبب نصب «عينا» عدّه وجوه.. منها: لأنها حال التسنيّم، تمييز، مدح و اختصاص.. و التقدير: (أعنى). و «الباء» فى «بها»: زائده، أو بمعنى (من) و هو الأنسب.

تشير إلى ذلك آيات قرآنيه كثيره (١)، و منها يقدم في كؤوس محتومه، كما في الآيات أعلاه، و يأتي ال «تسنيم» في قمه أشربه الجنه، و له من العطاء على روح شاربه ما لا يوصف بوصف أبدا.

و نعود لنكرر القول مره أخرى: إن حقيقه النعم الإلهيه في عالم الآخره لا- يمكن لأى كان من أن يتكلم عنها بلسان أو يوصفها بقلم أو يتصورها في ذهن، و كل ما يقال عنها لا يتعدى عن كونه صورا تقريبيه على ضوء ما يناسب محدوديه الإنسان.

و الآيه (١٧) من سوره السجده: **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ خَيْر دَلِيل عَلَى ذَلِكَ.**

بحثان

اشاره

١- من هم «الأبرار» و «المقربين»؟

ورد ذكر «الأبرار» و «المقربين» كثيرا في القرآن الكريم، و ما أعد لهم من درجه رفيعه و ثواب عظيم، حتى أن أولى الألباب تمنوا أن تكون وفاتهم مع الأبرار، كما تقول الآيه (١٩٣) من سوره آل عمران: **وَتَوَفَّاتُ مَعَ الْأَبْرَارِ.**

و تناولت الآيات (٥-٢٢) من سوره الدهر ما أعد لهم من ثواب جزيل، كما و تناولت الآيه (١٣) من سوره الإنفطار، و الآيات المبحوثه بعض ما ينتظرهم من أطفاف إلهيه.

فمن هم يا ترى؟ «الأبرار»: هم أصحاب النفوس الزكيه الأبيه الطاهره، و معتقى العقائد

ص: ٣٨

الصائبه، و الذين لا يعملون إلا ما فيه الخير و الصلاح.

و«المقربون»: هم الذين لهم مقام القربه عند الله عزّ و جلّ.

فبين الأبرار و المقربين عموم و خصوص مطلق، حيث كلّ المقربين أبرار، و ليس كلّ الأبرار مقربين.

و

روى عن الإمام الحسن المجتبي عليه السّلام، أنه قال: «كلما فى كتاب الله عزّ و جلّ من قوله: «إِنَّ الْأَبْرَارَ» فو الله ما أراد به إلا على بن أبى طالب و فاطمه و أنا و الحسين» (١) و ممّا لا يشوبه شك، أنّ الخمسه الطيبه، تلك الأنوار القدسيه، و هى أفضل مصاديق الأبرار و المقربين.

و كما ذكرنا فى تفسيرنا لسوره الدهر التى تحدثت بشكل رئيسى عن أمير المؤمنين و فاطمه و الحسن و الحسين عليهم السّلام، و قلنا بأنّ الآيات الثمانيه عشر قد تناولت فضائلهم عليهم السّلام، و لكن لا يمنع من انطباق على غير الخمسه الطيبه عليهم السّلام.

٢- خمور الجنه

تبين لنا مختلف الآيات فى القرآن الكريم أنّ ثمة ألوان من الأشربه و الخمور الطاهره بأسماء و كيفيات مختلفه، تباين خمور أهل الدنيا الملوته من جميع جهاتها، فهذه: تأخذ بلبّ الإنسان صوب التيه، توصل شاربها لحال الجنون، كريبه الطعم و الرائحه، و تزرع عند شاربها العداوه و البغضاء، تؤدى إلى سفك الدماء و تبث الرذيله و الفساد... أمّا تلك: تذكى عقل شاربها و تصفو به، و تزيد نشاطا و حيويه، ذات عطر لا يوصف و طهاره خالصه، و يغوص شاربها فى نشوه روحيه نقيه راقيه.

ص: ٣٩

و ذكرت السوره المبحوثه نوعين منها: الرحيق المختوم و«التسنيم» في حين ذكرت سوره الدهر أنواعا اخرى، و في سور اخرى- و قد تعرضنا لها في محلها.

و تؤكد الأحاديث و الروايات على أنّ تلك الأشربه خالصه لمن تنزه عن الولوغ في خمور الدنيا الخبيثه.

فعن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا عليّ من ترك الخمر لله سقاه الله من الرحيق المختوم» (١).

و

في حديث آخر أنه عليه السلام سأله عن هذا الترك أنه حتى لو كان: «لغير الله»؟، قال صلى الله عليه و آله و سلم: «نعم و الله، صيانته لنفسه فيشكره الله تعالى عن ذلك» (٢).

نعم، فهؤلاء من أولى الألباب، الذين تناولت ذكرهم الآية (١٩٣) من سوره آل عمران، و أولى الألباب مع الأبرار في تناول تلك الأشربه الطاهره.

و

روى عن الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام أنه قال: «من سقى مؤمنا من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم» (٣).

و

جاء في حديث آخر: «من صام لله في يوم صائف، سقاه الله من الظمأ من الرحيق المختوم» (٤).

ص: ٤٠

١-١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣٤، الحديث ٤٠.

٢-٢) -المصدر السابق، الحديث ٣٧.

٣-٣) -المصدر السابق، الحديث ٣٥.

٤-٤) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٦.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

سبب النزول

ذكر المفسرون سببين لنزول هذه الآيات:

الأول: إنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وذلك..إنه كان في نفر من المسلمين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسخر منهم المنافقون، وضحكوا، و تغامزوا... فنزلت الآية قبل أن يصل علي عليه السلام وأصحابه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

و ذكر الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتابه (شواهد التنزيل) عن ابن عباس قال: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا منافقو قريش، وَالَّذِينَ آمَنُوا علي بن أبي طالب عليه السلام

الثانى: إنها نزلت فى مشركى قريش، أبى جهل و الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل و أشياعهم، كانوا يستهزءون بفقرائهم كعمار و صهيب و خباب و بلال و غيرهم (٢).

التفسير

إشارة

بالأمس كانوا يضحكون من المؤمنين.. أمّا!!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم التى تنتظر الأبرار و الصالحين فى الحياه الآخرة، تبدأ الآيات أعلاه بتبيان جوانب ممّا يعانوه من مصائب و مشاكل فى الحياه الدنيا بسبب إيمانهم و تقواهم...

و أنّ ما سيناله الأبرار من ثواب جزيل ليس اعتباطيا.

فآيات تنقل لنا أساليب الكفار القذره التى كانوا يتعاملون بها مع المؤمنين البرره، و قد صنفتها فى أربعة أساليب:

الأسلوب الأول: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ فأصل الطغيان و التكبر و الغرور و الغفله الذى زرع فى نفوسهم، يدفعهم للضحك على المؤمنين و الاستهزاء بهم و النظر إليهم بسخرية و احتقار! و هذا هو شأن كلّ من غرّته أحاييل الشيطان فى مواجهه من آمن و اتقى، و على مرّ الأيام.

و جاء وصفهم ب«أجرموا» بدلا من «كفروا»، للإشارة إلى إمكان معرفه الكافرين من خلال أعمالهم الإجراميه، فالكفر دائما مصدرا للجرائم و العصيان.

ص: ٤٢

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٧- كما و ذكر كثير من المفسرين مسأله نزولها فى على بن أبى طالب، و مشركى مكّه، كما فى تفسير القرطبي، و روح البيان، و الكشاف، و تفسير الفخر الرازى... إلخ.

٢-٢) -روح المعانى، ج ٣٠، ص ٧٦.

و الأسلوب الثاني: وَ إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ فحينما يمرّ المشركون على مجموعه من المؤمنين يغمزون بأعينهم و يشيرون إليهم بالقول:

انظروا إلى هؤلاء الفقراء المعدمين..إنّهم أصبحوا مقرّبين عند الله! انظروا إلى هؤلاء الحفاه العراء..إنّهم يدعون نزول الوحي الإلهي لهم! انظروا إليهم..فإنّهم يعتقدون بأنّ العظام الباليه ستعود إلى الحياه مرّه اخرى!! و ما شابه ذلك، من الكلمات الرخيصه و الموهنه..

و يبدو أنّ ممارسه الضحك من قبل المشركين يكون حينما يمرّ المؤمنون من أمامهم و هم متجمعون، في حين يمارسون الأسلوب الثاني و هو الإشارات الساخره و الغمز و اللمز حين مرورهم هم أمام جمع من المؤمنين، لعدم تمكنهم من الضحك العلني أمام جمع المؤمنين. (1)

«يتغامزون»: من (الغمز)، و هو الإشاره بالجفن أو اليد طلبا إلى ما فيه معاب، و عبّرت الآية بهذا اللفظ «التغامز» للإشاره إلى اشتراكهم جميعا في ذلك الفعل.

و لكنّهم لم يكتفوا بالنيل من المؤمنين في حضورهم من خلال الضحك و التغامز، بل تعدوا إلى حال غيابهم أيضا، حيث تنقل لنا الآية التاليه، الأسلوب الثالث بقولها: وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ .

و كأنّهم في ضحكهم و تغامزهم قد نالوا فتحا كبيرا! فتأخذهم نشوه تصور الغفله و الجهل لأن يتباهوا فيما قاموا به من فعل قبيح، و يبقون على حاله السخريه و الاستهزاء بالمؤمنين رغم غياب المؤمنين عنهم!...

«فكهيين»: جمع (فكه)، و هي صفة مشبهه من (الفكاهه) بمعنى التمازح و الضحك، مأخوذه من (الفكاهه)، و كأنّ لهذه الخوض في هكذا حديث و سخريه كلذه أكل الفكاهه، كما و يطلق على حديث ذوى الأنس اسم (فكاهه).

ص: ٤٣

١ - ١) - ذكر المفسّرون احتمالين في ضمير «مروا» و «بهم»، فارجع بعضهم الأوّل الى المشركين و الثّاني إلى المؤمنين، و قال البعض الآخر عكس ذلك، و يبدو أن الاحتمال الأوّل أقرب بلحاظ ما ذكر أعلاه.

فجواب نوح عليه السّلام عام يشمل حتى أولئك المغرورون في صدر الإسلام..فما شأنكم و هؤلاء؟! او عليكم أن تنظروا إلى هذا الدين، و إلى النّبي الذي جاء بهذا الدين، و لا تنظروا إلى من آمن به و اتبعه!...

و تبقى أساليب الذين يعادون الحقّ محدوده في إطار الحياه الدنيا، و لكن إذا كان يوم القيامة، فستختلف الحال تماما: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ .

فيوم القيامة، يوم مجازات الأعمال و إجراء العداله الإلهيه، و العداله تقتضى بأن يستهزأ المؤمنون بالكافرين المعاندين للحقّ، و الاستهزاء في ذلك اليوم أحد ألوان عذاب الآخره الأليم الذي ينتظر أولئك المغرورون و المستكبرون.

و

روى عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «المستهزئين بالنّاس في الدنيا يرفع لأحدهم يوم القيامة باب من أبواب الجنّه، فيقال له: هلم، فيجىء بكربه و غمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، ثمّ يفتح له باب آخر، فيقال: هلم هلم، فيجىء بكربه و غمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى أنّه ليفتح له الباب فيقال: هلم هلم، فلا يأتيه من اياسه» (1) .. (و هنا يضحك المؤمنون الذين يطلعون عليه و على بقيه الكفار من جنتهم).

و تقول الآيه التاليه: عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ .

ماذا ينظرون؟ إنهم ينظرون إلى: نعم الله التي لا توصف و لا تنفذ في الجنّه، و إلى كلّ ما فازوا به من الألفاف الإلهيه و الكرامه، و إلى ما أصاب الكفار و المجرمين من العذاب الأليم خاسئين...

و في آخر آيات السّوره، يقول القرآن مستفهما:

ص: ٤٥

هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

(١)

فهذا القول سواء صدر من الله، أو من الملائكة، أو من المؤمنين، فهو في كلِّ الحالات يمثل طعنا و استهزاء بأفكار و ادعاءات أولئك المغرورون، الذين كانوا يتصورون أن الله سيثيبهم على أعمالهم القبيحة، و يأتيهم النداء ردًا على خطل تفكيرهم: هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

و اعتبر كثير من المفسرين أن الآية (جملة مستقلة)، في حين اعتبرها آخرون تابعه للآية التي قبلها، أي: إن المؤمنين سيجلسون على الأرائك ينظرون هل أن الكفار نالوا جزاءهم العادل؟ فإن كانوا يرجون ثوابا فليأخذوه من الشيطان!...و لكن هل بإمكان هذا اللعين المطرود من رحمه الله أن يثيبهم على ما عملوا له؟! «تؤبب»: من (الثوب) على وزن (جوف) و هو رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها، و«الثواب»: ما يرجع إلى الإنسان جزاء أعماله، و يستعمل للخير و الشر أيضا، و لكن استعماله للخير هو الغالب (٢) .

و عليه، فالآية تشير إلى الطعن بالكفار كنتيجة طبيعية لاستهزاءهم بالمؤمنين و بآيات الله في الحياه الدنيا، و ما عليهم إلا أن يتقبلوا جزاء ما كسبت أيديهم.

بحث

إشارة

الاستهزاء... سلاح بئس:

من الحراب التي طالما شهرت في وجوه الأنبياء عليهم السلام عبر التاريخ..حربه الاستهزاء و السخريه، و عكست لنا الآيات القرآنيه مرارا تلك الصور التي تحكى

ص: ٤٤

١-١) - الاستفهام في الآية..استفهام تقريرى.

٢-٢) - مفردات الراغب: ماده (توب).

هذا الموضوع، ولا عجب في ذلك حين صدور الاستهزاء من الناس ابتلوا بالظلم والكفر، لأنّ مصدر كفرهم و ظلمهم هو عقده الغرور والتكبر التي تدفعهم للنظر إلى الآخرين بعين التحقير والتصغير.

ولم ينفلت زماننا المعاش من مدار تلك الأساليب القديمه، فما زال الإعلام الكافر و عبر وسائله التقنيه، ما زال يبذل كلّ ما في جهده في استعمال ذات الحربه القديمه، عسى أن يخرج الحقّ و أتباعه من الميدان، و بواجهات عدّه، و منها تلك التي يسمونها برامج الترفيه و الفكاهه.

ولكنّ المؤمنين أقوى من أن تزلزلهم تلك الألاعيب الماكره الواهيه، و هم مطمئنون تماما بالوعد الإلهي الحق، كما ورد في الآيات أعلاه.

و ما استعمال أساليب السخرية و الغمز و الضحك في قبال دعوه تدعو إلى الحق إلاّ- كاشف عن جهاله و غرور أولئك المساكين.

فحتى على فرض عدم الإيمان بالدين الحق، أو ليس المنطق السليم و الحجّه القاطعه هي سلاح الإنسان العاقل؟ فأين هم من إنسانيتهم أمام ما يمارسونه؟!..

اللهمّ! قنا من الغرور و التكبر.

اللهمّ! ارزقنا طلب الحق و زيّننا بالتواضع.

اللهمّ! اجعل صحيفه أعمالنا في «عليين» و جنبها من الوقوع في «سجين»...

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره المطفّفين

سوره الإنشقاق

اشاره

مكيه و عدد آياتها خمس و عشرون آيه

ص: ٤٩

محتوى السوره

لا- تخرج السوره عن الإطار العام لسور الجزء الأخير من القرآن الكريم، فتبدأ بوصف علامات أشراط القيامة و ما سيحدث من أحداث مروعه فى نهايه العالم و بدايه يوم القيامة، ثم تتحدث ثانيا عن القيامة و الحساب و ما ستؤول إليه عاقبه كلّ من الصالحين و المجرمين، ثم تعطف السوره فى المرحله الثالثه لتوضيح ماهيه الأعمال و العقائد التى تجر الإنسان إلى سخط الله و خلوده بالعذاب مهانا، و فى الرّابعه تنتقل السوره لعرض مراحل سير الإنسان فى حياته(الدنيا و الآخره)و فى آخر مطاف السوره يدور الحديث خامسا عن جزاء الأعمال الحسنه و السيئه

فضيله السوره:

روى عن النبى الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلم، أنّه قال: «من قرأ سوره «انشقت» أعاده الله أن يؤتية كتابه وراء ظهره» (١).

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّه قال: «من قرأ هاتين السورتين و جعلهما نصب عينه فى صلاه الفريضة و النافله لم يحجبه الله من حاجه، و لم يحجزه من الله حاجز، و لم يزل ينظر إليه حتى يفرغ من حساب الناس» (٢).

ص: ٥١

١- ١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٨.

٢- ٢) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣٦.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَ أذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُجَّتْ (٢) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (٤) وَ أذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُجَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْتَهُ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)

التفسير

اشاره

نحو الكمال المطلق:

تبدأ السوره فى ذكرها لأحداث نهايه العالم المهوله بالإشاره إلى السماء فتقول: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) (فتلاشت نجومها و أجرامها و اختل نظام الكواكب فيها)، كإشاره الآيتين (١ و ٢) من سوره الانفطار التى أعلنت عن نهايه العالم بخرابه و فناءه: إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَ إِذَا الْكُوكَبُ انْتَثَرَتْ .

و تحكى الآيه التاليه حال السماء: وَ أذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُجَّتْ .

فلا يتوهم أن السماء بتلك العظمه بإمكانها اظهار أدنى مقاومه لأمر الله..بل ستتستجيب لأمر الله خاضعه طائعه، لأن إرادته سبحانه فى خلقه هى الحاكمه، و لا

ص: ٥٢

يحق لأي مخلوق أن يعصى أمره جلّ و علا.

«أذنت»: من (الاذن) على وزن (أفق)، و هي آله السمع و تستعار لمن كثر استماعه، و في الآية: كناية عن طاعه أمر الأمر و التسليم له.

«حقت»: من (الحق)، أي: و حق لها أن تنقاد لأمر ربّها.

و كيف لها لا تسلّم لأمره عزّ و جلّ، و كلّ وجودها و في كلّ لحظه من فيض لطفه، و لو انقطع عنها بأقل من رمشه عين لتلاشت.

نعم، فالسما و الأرض مطيعتان لأمر ربّهما منذ أول خلقهما حتى نهايه أجلهما، كما تشير الآية (١١) من سورة فصّلت عن قولهما في ذلك: قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

و قيل: يراد بـ«حقت»: إنّ الخوف من القيامة سيجعل السماء تنشق.. و لكنّ التفسير الأول أنسب.

و في المرحلة التاليه تمتد الكارثه لتشمل الأرض أيضا: وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ .

فالجبال - كما تقول آيات قرآنيه اخرى - ستندك و تتلاشى، و ستستوى الأرض في كافه بقاعها، لتلمّ جميع العباد في عرصتها، كما أشارت الآيات (١٠٥ - ١٠٧) من سورة طه إلى ذلك: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا مَا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا! فمحكمه ذلك اليوم من العظمه بحيث تجمع في عرصتها جميع الخلق من الأولين و الآخريين، و لا بدّ للأرض من هذا الانبساط الواسع.

و قيل في معنى الآية: إنّ الله عزّ و جلّ سيمدّ الأرض يوم القيامة أكثر ممّا هي عليه الآن لتسع حشر الخلائق جميعا (١).

ص: ٥٣

و فى ثالث مرحله تقول الآيه التاليه: وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ .

و المعروف بين المفسرين أنّ الآيه تشير إلى إلقاء الأرض بما فيها من موتى فيخرجون من باطن القبور إلى ظاهر الأرض، مرتدين لباس الحياه من جديد.

و قد تناولت آيات اخرى هذا الموضوع، كآليه (٢) من سوره الزلزال:

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، و الآيتين (١٣ و ١٤) من سوره النازعات: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ .

و قال بعض المفسرين: إنّ المعادن و الكنوز المودعه فى الأرض ستخرج مع الأموات أيضا.

و ثمه احتمال آخر فى تفسير الآيه، يقول: إنّ المواد المذابه التى فى باطن الأرض ستخرج نتيجة الزلازل الرهيبه التى تقذفها إلى الخارج، فتملأ الحفر و المنخفضات الموجوده على سطح الأرض، و ستهدأ الأرض بعد أن يخلو باطنها من هذه المواد.

و الجمع بين المعانى التى وردت فى تفسير الآيه، ممكن.

و...: وَ أذِنْتَ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ .

فتسليم الموجودات لما سيحدث من كوارث كونيه مدمره ينم عن جملة امور، فمن جهه: إنّ الفناء سيعم الدنيا بكاملها بأرضها و سمائها و إنسانها و كلّ شىء آخر، و من جهه اخرى: فالفناء المذكور يمثل انعطافه حادّه فى مسير عالم الخليقه، و مقدّمه للدخول فى مرحله وجود جديد، و من جهه ثالثه، فكلّ ما سيجرى سينبأ بعظمه قدره الخالق المطلقه، و خصوصا فى مسأله المعاد.

نعم، فسيرضخ الإنسان، بعد أن يرى بأمّ عينيه وقوع تلك الحوادث العظام، و سيرى حصيله أعماله الحسنه و السيئه.

و تبين الآيه التاليه معالم طريق الحياه للإنسان مخاطبه له: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ .

«الكدح»: -على وزن مدح- السعى و العناية الذى يخلق أثرا على الجسم و الروح، و يقال: ثور فيه كدوح، أى آثار من شدّه السعى.

و جاء فى (تفسير الكشّاف) و (روح المعانى) و (تفسير الفخر الرازى):

الكدح: جهد النفس فى العمل و الكد فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده: إذا خدشه.

و الآيه تشير إلى أصل أساسى فى الحياه البشرىة، فالحياه دوما ممزوجه بالتعب و العناء، و إن كان الهدف منها الوصول إلى متاع الدنيا، فكيف و الحال إذا كان الهدف منها هو الوصول إلى رضوان الله و نيل حسن مآب الآخرة؟! فالحياه الدنيا قد جبلت على المشقه و التعب و الألم، حتى لمن يرفل بأعلى درجات الرفاه المادى.

و ما ذكر «لقاء الله» فى الآيه إلا- لتبيان أنّ حاله التعب و العناء و الكدح حاله مستمره إلى اليوم الموعود، و لا يتوقف إلا بانتهاء عجله حياه الدنيا، و لا فرق فى توجيه معنى «اللقاء» سواء كان لقاء يوم القيامة و الوصول إلى عرصه حاكميه الله المطلقة، أو بمعنى لقاء جزاء الله من عقاب أو ثواب، أو بمعنى لقاء ذاته المقدسه عن طريق الشهود الباطنى.

نعم، فراحه الدنيا لا تخلو من تعب، و الراحة الحقه.. هناك، حيث ينعم الإنسان بين فيافى جنان الخلد.

و كان نداء الآيه مخاطبا عموم «الإنسان»، ليشير إلينا بأن الله عزّ و جلّ قد وضع القدره و القوّه اللازمه لهذه الحركه الإلهيه المستمره فى وجود و تكوين هذا المخلوق، و الذى جعل من أشرف المخلوقات قاطبه.

و استعمال كلمه «ربّ» فيه إشارة إلى ثّمه ارتباط ما بين سعى و كدح الإنسان من جهه و ذلك البرنامج التربوى الذى أعدّه الخالق لمخلوقه فى عمليه توجيه الإنسان نحو الكمال المطلق من جهه اخرى.

نعم، فمشوار حركه الوجود قد بدأ من العدم، و الأقدام سائره فى خطوها صوب لقاء الله، شاء ذلك الوجود أم أبى.

و قد تحدثت لنا آيات قرآنيه اخرى عن السير التكاملى المستمر للمخلوقات نحو خالقها سبحانه و تعالى، و منها.

الآيه (٤٢) من سوره النجم: **وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمْنَاكَ مَا كُنْتَ عَرَفْتَ مُبِينًا**.

و الآيه (١٨) من سوره فاطر: **وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**..بالإضافه إلى آيات مباركات أخر.

و إلى ذلك المطاف، ستنفصل البشريه إلى فريقين: **فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَ يَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا**.

فالذين ساروا على هدى المخطط الربانى لحركه الإنسان على الأرض، و كان كل عملهم و سعيهم لله دائما، و كدحوا فى السير للوصول إلى رضوانه سبحانه، فسيعطون صحيفه أعمالهم يمينهم، للدلاله على صحه إيمانهم و قبول أعمالهم و النجاه من وحشه ذلك اليوم الرهيب، و هو مدعاه للتفاخر و الاعتزاز أمام أهل المحشر.

و حينما توضع أعمال هؤلاء فى الميزان الإلهى الذى لا يفوته شىء مهما قلّ و صغر، فإنّه سبحانه و تعالى: سييسر حسابهم، و يعفو عن سيئاتهم، بل و يبدل لهم سيئاتهم حسنات.

أمّا ما المراد من «الحساب اليسير»؟ فذهب بعض إلى أنّه العفو عن السيئات و الثواب على الحسنات و عدم المداقه فى كتاب الأعمال.

و حتى

جاء فى الحديث الشريف: «ثلاث من كنّ فيه حاسبه الله حسابا يسيرا، و أدخله الجنة برحمته.

قالوا: و ما هى يا رسول الله؟!

ص: ٥٦

قال: تعطى من حرمك، و تصل من قطعك، و تعفو عمن ظلمك» (١).

و جاء فى بعض الروايات، أنّ الدقة و التشديد فى الحساب يوم القيامة تتناسب و درجه عقل و إدراك الإنسان.

فعن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه قال: «إنّما يداق الله العباد فى الحساب يوم القيامة على ما آتاهم من العقول فى الدنيا» (٢).

و وردت أقوال متفاوتة فى تفسير كلمه «الأهل» الوارده فى الآيه إلى أهله .

فمنهم من قال: هم الزوجه و الأولاد المؤمنين، لأنّه سيلتحق بهم فى الجنّه، و هى بحدّ ذاتها نعمه كبيره، لأنّ الإنسان يأنس بقاء من يحب، فكيف و سيكون معهم أبدا فى الجنّه! و منهم من قال: الأهل: الحور العين اللاتى ينتظرنهم فى الجنّه.

و آخريّن قالوا: هم الاخوه المؤمنين الذين كانوا معه فى الدنيا.

و لا مانع من قبول كلّ هذه الأقوال فى معنى الآيه و ما رمزت له.

بحثان

اشاره

١- خذ العلم من على عليه السلام

فى تفسير الآيه المباركه: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ،

روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّها تنشق من المجرّه» (٣).

و الحديث يعتبر من الإعجاز العلمى لأمير المؤمنين عليه السلام، حيث أنّه قد كشف

ص: ٥٧

١-١) -مجمع البيان، فى تفسير الآيه.

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣٧.

٣-٣) -روح المعانى، ج ٣٠، ص ٨٧؛ و فى الدر المنثور، ج ٦، ٣٢٩.

الستار عن حقيقه علميه قائمه لم يكن قد سبقها من علماء تلك الأزمان أحد قبله عليه السّلام، و بقيت هذه الحقيقه خافيه عن أنظار النَّاس (سوى الراسخين فى العلم)، إلى أن تمّ صنع التلسكوبات الكبيره، فتوصل علماء الفلك المعاصرين إليها.

فعالم الوجود، يتكون من مجموعه مجرات، و المجره عباره عن مجموعه عظيمه من النجوم و المنظومات الشمسيه، و لذا فقد اطلق على المجرات اسم (مدن النجوم).

و من هذه المجرات، مجره (درب التبانة) المعروفه و التى يمكن مشاهدتها بالعين المجرده، و المتكونه من مجموعه من النجوم و الشموس على شكل دائره، و يبدو لنا طرفها البعيد عنّا بصوره سحب أبيض، و ما هو فى حقيقته إلا مجموعه من النجوم، تبدو لنا بهذه الصوره نتيجه لبعدها و عجز عيوننا عن تشخيصها.

و ما نراه ليلا على سطح السماء هو طرفها القريب.

و منظومتنا الشمسيه جزء من هذه المجره العظيمه.

و كما يقول حديث أمير المؤمنين عليه السّلام، فإنّ النجوم التى نراها فى السماء اليوم، ستفصل عن المجره، و بها تنشق السماء.

فمن كان يعلم فى زمانه عليه السّلام إنّ النجوم المتناثره على القبه السماويه هى جزء من مجرّه عظيمه؟! نعم، لا يعلم بذلك، إلا من كان قلبه متصلا بعالم الغيب، و من يستقى من علم الله تعالى استقاء.

٢- الدنيا دار بلاء

التعبير ب«كادح» للإشاره إلى أن طريق الحياه شاق و صعب، و خوضه يستلزم العناء و الألم و المشاكل، فى كافه خطوات المسير و لا يستثنى من ذلك الروح أو البدن، بل كليهما و بكلّ ما يحملان من جوارح و جوانح لا يخلوان من التأثر بهذه

و

يحدثنا الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام، فيما روى عنه أنه قال:

«الراحه لم تخلق فى الدنيا و لا- لأهل الدنيا، إنما خلقت الراحه فى الجنّه و لأهل الجنّه، و التعب و النصب خلقا فى الدنيا، و لأهل الدنيا، و ما اعطى أحد منها جفنه إلاّ- أعطى من الحرص مثليها، و من أصاب من الدنيا أكثر، كان فيها أشد فقرا لأنّه يفتقر إلى الناس فى حفظ أمواله، و يفتقر إلى كلّ آله من آلات الدنيا، فليس فى غنى الدنيا راحه...».

و

جاء فى آخر حديثه عليه السلام: «كلّ ما تعب أولياء الله فى الدنيا للدنيا، بل تعبوا فى الدنيا للآخرة». (١)

ص: ٥٩

اشاره

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)

التفسير

اشاره

الذين يستلمون كتابهم من وراء ظهورهم:

بعد أن عرضت الآيات السابقة أحوال فريق أصحاب اليمين، تأتي الآيات أعلاه لتعرض لنا أحوال الفريق الآخر، و توصف لنا كيفية إعطاء كتاب كل منهم مشرعه لتقديم المشاهد الاخرى: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ .. فيصرخ و ينادى الويل لى لقد هلكت فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا .

وَ يَصْلَى سَعِيرًا

ذكرت الآيه بأن المجرمين سيؤتون كتبهم من وراء ظهورهم، فى حين أن آيات اخرى تقول بأن المذنبين سيعطى كتاب كل منهم بيده الشمال.

فهل من تأليف فيما بين العرضين؟ للمفسرين جملة آراء فى ذلك، منها:

قيل: إنَّ يدهم اليمنى تغلَّ إلى أعناقهم، و يعطون الكتاب باليد اليسرى من وراء ظهورهم إيغالا في إذلالهم و إخجالهم.

و قيل: إنَّ كلتي يديهم تربط من خلفهم - كما يفعل بالأسير - و يعطون الكتاب باليد اليسرى من وراء الظهر.

و قيل أيضا: ستكون وجوه المجرمين من الخلف، بدلاله الآية (٤٧) من سورة النساء: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَيَّ أَدْبَارَهَا، فيعطون كتبهم من وراء ظهورهم و يدهم اليسرى، كي يقرءوها بأنفسهم.

و الأنسب أن نقول: سيأخذ أصحاب اليمين كتبهم بافتخار و مباهاة في يدهم اليمنى، و كلَّ منهم يقول: هَاؤُمُ اقْرَؤْا كِتَابِيَهٗ (١) ، و لكن المجرمين سيأخذون كتبهم بأيديهم اليسرى و بسرعه و يضعونها وراء ظهورهم خجلا - و ذلا - و لكي لا يطلع على ما فيها أحد، و لكن، هيهات... فكلَّ شيء حينئذ بارز، كيف لا و هو «يوم البروز»!...

يَدْعُوا تُبُورًا

يصرخ بالويل و الثبور، كما هو متعارف عليه عند نزول بلاء، أو وقوع حادث شديد الخطوره.

و «الثبور»: الهلاك.

و لكن صراخه سوف لا يدر عليه نفعا أبدا أبدا، و لا بدَّ من نيله جزاء ما اقترف: وَ يَصْلَىٰ سَعِيرًا أى يدخل نار جهنم.

و تبين الآية التاليه علَّه تلك العاقبه المخزيه: إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا .

سرورا ممتزجا بالغرور، و غرورا احتوشته الغفله و الجهل برَّبِّ الأرباب سبحانه و تعالى، فالسرور المقصود فى الآية، هو ذلك السرور المرتبط بشده بالدنيا و المنسى لذكر الآخره.

ص: ٦١

و بديهي فالسرور و الارتياح ليس مذموم بذاته، و لكن السرور المذموم هو الذى يغفل فيه الإنسان عن ذكر مولاه عزّ و جلّ، و يغرق به فى بحر شهواته الموصل إلى التيه و الضلاله و الجهل. أمّا سرور المؤمن بلطف الله و نعمائه، و بشاشته عند مصاحبه إخوانه، فما أحلاها و أزكاها.

و يتقرب لنا المعنى من خلال الآية التاليه: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ .

فاعتقاده الفاسد و ظنّه الباطل الدائر على نفى المعاد، مصدر سروره و غروره و هو ما سيوصله إلى الشقاء الأبدى، لأنه ابتعد عن ساحه رضوانه سبحانه و تعالى بعد أن أوقعته شهواته فى هاويه الاستهزاء بدعوه الأنبياء عليهم السلام الربانيه، حتى أوصلته حالته المرضيه تلك لأنّ يستمر فى استهزاءه و سخريته حتى فى حال عودته إلى أهله، كما أشارت الآية (٣١) من سوره المطففين: وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ، و كما وردت الإشاره أيضا على لسان علماء بنى إسرائيل حينما خاطبوا قارون الثرى المغرور الجاهل: لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . (١)

«لن يحور»: لن يرجع، من (الحور) -على زنه غور- بمعنى: الرجوع، التردد، الذهاب، و الإياب (سواء كان فى العمل أو الفكر)، و «حار الماء» فى الغدير: تردد فيه، و يقال «المحور»: للعود الذى تجرى عليه البكره و تدور حوله و المحاوره و (الحوار): المرادوه فى الكلام، و (تحير فى الأمر): تردد فيه بين أن يقدم أو لا يقدم.

و قيل: أصل الكلمه (حبشى).

و روى عن ابن عباس أنه قال: (ما كنت أدري ما معنى «حور» حتى سمعت

ص: ٦٢

١- ١) سوره القصص، الآية ٧٦.

أعرابيه تقول لابنتها: «حورى» أى ارجعى (١).

و ربّما كان استعمال كلمه «الحوارى» فى نعت أصحاب عيسى عليه السّلام أو أى مقربين لأحد، ربّما كان لكثره ترددهم عليه.

وقيل: حورت الشىء، أى بيضته، و سمى أنصار عيسى عليه السّلام الحواريين لتبييضهم قلوب الناس بالمواعظ الهاديه، و «الحوار العين» إشاره إلى بياضهنّ، أو لشفايه بياض عيونهنّ.

وقيل أيضا: إنّ سبب تسميتهنّ ب «الحوار العين» يعود إلى تحير العين فى جمالهنّ الخارق.

و على أيّه حال، فيقصد من الكلمه فى الآيه المبحوثه، الرجوع و المعاد، لإيضاح أنّ عدم الإيمان بالمعاد يؤدى إلى الوقوع فى اتون الغفله و الغرور و ارتكاب المعاصى.

و لنفى العقائد الضاله، تقول الآيه: بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا.

فكل أعمال الإنسان تسجل و تحصى عليه، لتعرض يوم الحساب فى صحيفته.

و الآيه تشارك الآيه السابقه: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ فى كونها دليلا على المعاد أيضا. فتأكيد الآيتين على كلمه «ربّ» يدل على أن الإنسان فى سيره التكاملى صوب ربّه لا ينتهى بالموت، و أنّ الحياه الدنيا لا يمكنها أن تكون هدفا و غايه لهذا الخلق العظيم و هذا المسار التكاملى...

و كذلك كون الله «بصيرا» بأعمال الإنسان و تسجيلها لا بدّ من اعتباره مقدمه للحساب و الجزاء و إلاّ لكان عبثا، و هذا ما لا يكون.

ص: ٦٣

اشاره

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقِ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْتَجِدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

التفسير

اشاره

سنه التغير!

لمزيد من إيضاح ما ورد في الآيات السابقة بخصوص سير الإنسان التكاملى نحو خالقه سبحانه و تعالى... تأتى الآيات لتقول: فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ .

وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ

، أى: و ما جمع.

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ

، أى: إذا اكتمل.

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقِ

«لا» في «لا اقسام»: زائده، وجاءت للتأكيد.

و ثمة من اعتبرها (نافيه)، أى: لا- اقسام، لأنّ الأمر من الوضوح ما لا- يحتاج فيه إلى قسم، أو أنّ القسم بهذا الموضوع لا- يليق و أهميته، أو أنّ ما اقسام به من الأهميه بحيث يليق أنّ لا يقسم به.

إلا أنّ الأوّل (كونها زائده جاءت للتأكيد) أقرب من البقيه.

«الشفق»: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس، و(الإشفاق):

عنايه مختلطه بخوف، لأنّ (المشفق) يجب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه (1).

و يقول الفخر الرازى: تركيب لفظ «الشفق» فى أصل اللغه لرقه الشىء، و منه يقال: ثوب شفق، كأنه لا- تماسك له لرقته، و(الشفقه): رقه القلب.

(و الظاهر أنّ قول الراغب أقرب للصواب).

و على أيه حال، ف«الشفق» هو وقت الغروب، و قد اختلف فى تعيين وقته ما بين الحمرة التى تظهر فى الأفق الغربى عند بدايه الليل، و بين ما يظهر بعد الحمرة من بياض، و المشهور بين العلماء و المفسرين هو التعيين الأوّل، و هو المستعمل على لسان الأدباء أيضا حيث يشبهون دماء الشهداء بالشفق.

إلا- أنّ البعض اختار التعيين الثانى، على ما يبدو عليه من ضعف، و خصوصا إذا ما اعتبرنا (الرقه) هى الأصل اللغوى للكلمه، حيث أنّها ستتناسب مع الحمرة الخفيفه الرقيقه دون الثانى.

و على أيه حال، فقد جاء القسم بالشفق للفت الأنظار إلى ما فى هذه الظاهره السماويه الجميله من معان، فمنه تعلن حاله التحول العام من النهار إلى الليل، إضافة لما يتمتع به من بهاء و جمال، و كونه وقت صلاه المغرب.

و أمّا القسم بالليل، فلما فيه من آثار كثيره و أسرار عظيمه (و قد تناولنا ذلك

ص: ٦٥

(١-١) مفردات الراغب.

«ما وسق» (٢): إشاره إلى عوده الإنسان و الحيوانات و الطيور إلى مساكنها عند حلول الليل (بلحاظ كون الوسق بمعنى جمع المتفرق) (٣)، فيكون عندها سكنا عاما للكائنات الحيه، و هو من أسرار و آثار الليل المهمه، كما أشارت الآية (٦١) من سوره غافر إلى ذلك: **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَشْكُنُوا فِيهِ .**

إِذَا اتَّسَقَ

من (الاتساق)، و هو الاجتماع و الإطراد، و تريد الآية به، اكتمال نور القمر في الليله الرابعه عشر من الشهر القمري، حيث يكون بدرا.

و لا يخفى ما لروعه البدر في تمامه، فنوره الهاديء الرقيق يكسو سطح الأرض، و هو من الرقه و اللطافه بحيث لا يكسر ظلمه الليل و سكونه، و لكنّه ينير درب سالكيه! فهو آيه كبرى من آيات الله، و لذا جاء القسم به.

و ينبغي الالتفات إلى الصله الموجوده فيما أقسمت الآيات بهن: (الشفق، الليل، ما اجتمع فيه، و القمر في حاله البدر) و جميعها موضوعات مترابطه و يكمل بعضها البعض الآخر، و تشكل بمجموعها لوحه فيه طبيعته رائعه، و تحرك عند الإنسان التأمل و التفكير في عظمه و دقه و قدره الخالق في خلقه، و يمكن للإنسان العاقل بتأمل هذه التحولات السريعه من التوجه إلى قدرته جلّ شأنه على المعاد ما يحمل بين طياته من تغيرات في عالم الوجود.

و الأمر المثير هو أنّ القرآن الكريم يشير هنا إلى امور متتابعه الوقوع، فعند ما تغيب الشمس يظهر الشفق معلنا عن بدايه حلول الليل، الذي تتجه الكائنات الحيه فيه إلى بيوتها، ثم يخرج القمر بدرا تاماً (علماً بأنّ البدر في ليله تمامه يخرج مع

ص: ٦٦

١- ١) راجع تفسير الآيات (٧١-٧٣) من سوره القصص.

٢- ٢) «ما»: موصوله، و احتمال كونها (مصدرية) ضعيف، ضميرها محذوف، و التقدير: (و ما وسقه).

٣- ٣) و جاء «الوسق»، أيضا بمعنى حمل بعير، أو ستين صاعاً (و كل صاع يقرب من ثلاثه كيلوات)، و هو مأخوذ من الاجتماع أيضا.

بدايه الليل!).

ثم يأتي جواب القسم الوارد في الآيات أعلاه: لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ، إشاره إلى المراحل و التحولات التي يمرّ بها الإنسان في حياته.

و قد ذكرت تفاسير مختلفه لهذه الآيه المباركه، منها:

١- يقصد بها تلك الحالات المختلفه التي يمرّ بها الإنسان في كدحه و سيره المضنى نحو الله جلّ و علا، فيبدأ بحاله الدنيا، ثم ينتقل إلى عالم البرزخ و منه إلى القيامة و الآخره (مع ملاحظه أنّ «طبق» من (المطابقه)، و هي جعل الشىء فوق شىء آخر بقدره، و جاءت أيضا بمعنى، المنازل التي يطويها الإنسان في عمليه صعوده).

٢- يقصد بها تلك الحالات التي يمرّ بها الإنسان منذ كونه نطفه حتى يموت، (و قد عدّها البعض (٣٧) حاله).

٣- يقصد بها تلك الحالات التي يعيشها الإنسان في حياته من: سلامه و مرض، سرور و غم، اليسر و العسر، السلم و الحرب... إلخ.

٤- يقصد بها تلك الحالات الصعبه التي ستواجه الإنسان يوم القيامة حتى يفرغ من حسابه، و يتجه إلى مصيره (الجنّه أو النار).

٥- يقصد بها تلك الحالات التي مرّت بها الأقسام السالفه بحلاوتها و مرّها، و كذلك الإشاره إلى ألوان التكذيب و الإنكار الذي يقع في هذه الأمّه، و هذا المعنى قد ورد في حديث ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام.

و لا يمنع من اعتبار كلّ ما جاء في التفاسير أعلاه مصاديق لمعنى الآيه.

و قيل: إنّ شخص النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم هو المخاطب في الآيه، و الآيه تشير إلى طبقات السماء التي طواهنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم في معراجة.

و لكن، بلحاظ وجود الضم على «الباء» في «لتركبن»، يتّضح لنا أنّ المخاطب جمع و ليس فرد هذا من جهه، و لو رجعنا إلى الآيات السابقه لرأينا النداء موجه

إلى الناس كافة من جهة اخرى، و عليه، فهذا التفسير بعيد عن مرام الآيه.

و على آيه حال، فعدم استقرار الإنسان على حال ثابتة يدل على فقر الإنسان و احتياجه، لأن كل متغير حادث، و كل حادث له محدث، كما و إن عدم استقرار هذا العالم علامه على حركة الإنسان المستمره نحو الله و المعاد، و كما قالت الآيه: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ .

و من كل ما سبق... يخرج القرآن الكريم بنتيجته: فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

فمع وضوح أدله الحق، مثل أدله: التوحيد، معرفه الله، المعاد، بالإضافة إلى ما من الآفاق فى آيات مثل: خلق... الليل و النهار، الشمس و القمر، النور و الظلمه، شروق الشمس و غروبها، الشفق، ظلمه الليل، اكتمال القمر بدرا، و كذلك الآيات التى فى نفس الإنسان منذ أن يكون نطفه فى رحم امه، و ما يطويه من مراحل حتى يكتمل جنينا، مرورا بما يمر به من حالات فى حياته الدنيا، حتى يدركه الموت...

فمع وجود كل هذه الأدله و الآيات لم لا يؤمنون؟!..

و ينتقل بنا العرض القرآنى من كتاب (التكوين) إلى كتاب (التدوين)، فيقول:

وَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ

القرآن كالشمس يحمل دليل صدقه بنفسه، و تتلأ لأ أنوار الإعجاز من بين جنباته، و يشهد محتواه على أنه من الوحي الإلهى و كل منصف يدرك جيدا لدى قراءته له أنه فوق نتاجات عقول البشر و لا يمكن أن يصدر من انسان مهما كان عالما، فكيف بإنسان لم يتلق تعليما قط و قد نشأ فى بيئه جاهليه موبوءه بالخرافات!...

و يراد ب«السجود» هنا: الخضوع و التسليم و الطاعة (1)، أما السجود المتبادر

ص: ٦٨

١- ١) و من الشواهد على هذا المعنى، بالإضافة إلى شهاده الآيات السابقه و اللاحقه، إن السجود بمعنى وضع الجبين على الأرض عند تلاوه القرآن إنما يجب فى مواضع محدوده جدًا و يستحب فى مواضع اخرى، و فى مواضع اخرى لا هو بالواجب و لا

إلى الذهن بوضع الجبين على الأرض، فهو أحد مصاديق مفهوم السجود، ولعل هذا هو ما ورد في الروايات من سجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند قراءته لهذه الآية.

و السجود في هذه الآية مستحب عند فتاوى فقهاء أهل البيت عليهم السلام، فيما يوجب ذلك فقهاء المذاهب الأربعة، إلا (مالك)، فإنه يقول بالسجود عند الانتهاء من تلاوة السورة (1).

و تأتي الآية التالية لتقول: **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ**.

و التعبير عن ممارسه تكذيب الكافرين في الآية بصيغه المضارع المستمر، للإشاره إلى تكذبيهم المتعنت المستمر و إصرارهم و لجاجتهم و ليس تكذبيهم بسبب ضعف أدله الحق، بل من أجل روح التعصب الأعمى للأسلاف و الدنيا و المصالح الماديه و الحاكمه على قلوبهم المريضه، و أهوائهم الشيطانيه.

و بيان جدى و تهديد جدى، تقول الآية التاليه: **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ**.

فإنه تعالى أعلم بدافع و نيه و هدف ذلك التكذيب، و مهما تستروا على ما فعلوا فلا يجزون إلا بما كسبت أيديهم.

«يوعون»: من (الوعاء) و هو الظرف، كما هو مستقى من

قول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغه: «إن هذه القلوب أوعيه فخيرها أوعاها».

ثم... **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**.

عاده ما تستعمل «البشاره» للأخبار الساره، و جاءت هنا لتتم عن نوع من الطعن و التوبيخ.

و الحال، إن البشاره الحقه للمؤمنين خالصه بما ينتظرهم من نعيم، و ما للكاذبين إلا الغرق في بحر من الحسره و الندم، و ما هم إلا في عذاب جهنم

(1)

بالمستحب و حينما تقول الآية: **وَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمِعُونَ** فقد أطلقت القول، و الإطلاق و الحال هذه يراد به التسليم للقرآن.

ص: ٦٩

يخلدون.

و يستثنى المؤمنون من تلك البشرى المخزيه: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ .

«ممنون»: من (المنّ)، و هو القطع و النقصان، (و منه «المنون» بمعنى الموت).

و إذا ما جمعنا كلّ هذه المعانى، فستكون النعم الاخرويه على عكس الدينويه الناقصه و المنقطعه و المقترنه بمنّيه هذا و ذاك، حيث أنّها لا تنقطع و لا تنقص و ليس فيها منّيه.

أما الاستثناء الذى ورد فى الآيه السابقه، ففيه بحث: هل أنّه «متصل» أو «منقطع».

قال بعض المفسّرين: إنّهُ منقطع، أى: إنّ القرآن الكريم انتقل بالآيه من الحديث حول الكفار الذى عرض فى الآيات السابقه، إلى الحديث عن المؤمنين و ما ينتظرهم من أجر و ثواب.

و الأقرب لسياق الآيات أن يكون الاستثناء متصلاً، و فى هذه الحال يكون هدفه فتح الطريق أمام الكفار للعوده و تشجيعهم على ذلك، لأنّ الآيه تقول: إنّ العذاب الأليم المذكور فى الآيه السابقه سوف لا يصيب من يؤمن منهم و يعمل صالحاً و علاوه على ذلك، سيكون له أجر غير ممنون.

بحث

و قد استنبط العلامة الطبرسى، فى كتابه مجمع البيان، من الآيات الأخيره للسوره ما يلى:

أولاً: حريه إرادته الإنسان و اختياره.

فقال: قوله سبحانه: فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَا يُسْجُدُونَ دلاله على أنّ

ص : ٧٠

السجود فعلهم، لأنّ الحكيم لا يقول: مالك لا تؤمن و لا تسجد، لمن يعلم أنّه لا يقدر على الإيمان و السجود.

ثانياً: إنّ الذمّ على ترك السجود دليل على أنّ الكفار كما أنّهم مكلفون بأصول الدين كذلك بفروعه أيضاً. (هذا القول مبنيّ على اعتبار كلمه السجود الوارده فى الآيه يراد منها(سجود الصلاه)، أو حتى إذا اعتبرنا الكلمه بمفهومها العام، فهى تتضمّن سجود الصلاه كذلك).

اللهمّ! يسّر علينا الحساب يوم حشر الخلق فى ساحه عدلك...

اللهمّ! الكلّ إليك راجعون، فاهدنا الصراط المستقيم فى هديت..

ربّنا! نحن مسلمون و مطأطئون برؤوسنا إجلالاً لقرآنك فوفقنا للعمل بتعليماته و ارشاداته.. و ارزقنا العمل بكتابك الكريم.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره الإنشقاق

سوره البروج

اشاره

مكيه و عدد آياتها اثنان و عشرون آيه

ص: ٧٣

محتوى السّوره:

كان المؤمنون فى بدايه الدعوه المحمّديه-خصوصا فى مكّه-يعانون من شدّه الضيق و أقسى ألوان التعذيب الجسدى و النفسى،الذى انهال به عدوّهم من الكفّار على أن يتركوا إيمانهم بترك عقيدته الحق و الارتداد عن الدين القويم! و بملاحظته كون السّوره مكّيه،فيظهر إنّها نزلت لتقويه معنويات المؤمنين لمواجهه تلك الظروف الصعبة،و لترغيبهم على الصمود أمام الصعاب و الثبات على الإيمان و ترسيخه فى القلوب.

و تناولت السّوره قصّه «أصحاب الأخدود»،الذين حفروا خندقا و سجّروه بالنيران،و هددوا المؤمنين بإلقائهم فى تلك النار إن لم يعودوا إلى كفرهم! و أحرقوا مجموعه منهم بالنار و هم أحياء،و مع ذلك لم يرجعوا عن دينهم..

و تعد السّوره فى بعض آياتها بعذاب جهنم الأليم لأولئك الذين يؤذون المؤمنين و يعذبونهم على إيمانهم،و تدممهم ذما شديدا،فى حين تبشر المؤمنين الصابرين بالجنّه و الفوز بنعيمها.

و فى جانب آخر من السّوره،تعرض لنا مقتطفات من قصّتي فرعون و ثمود و قوميهما الجناه الطغاه،و ما آلوا إليه من ذلّ و هلاك،كلّ ذلك تذكيرا لكفّار مكّه الذين هم أضعف قوّه و أقلّ جندا من أولئك،فعسى أن يراعوا عمّا هم فيه من جهه،و تسليه لقلب الحبيب المصطفى صلّى الله عليه و آله و سلّم و من كان معه من المؤمنين من جهه

اخرى.

و تختتم السوره فى آخر مقاطعها بالإشاره إلى عظمه القرآن الكريم، و إلى الأهميه البالغه لهذا الوحي الإلهى.

و عموماً، فالسوره من سور المقاومه و الثبات و الصبر أمام ضغوط الظالمين و المستكبرين، و آياتها تتضمن الوعد الإلهى بنصر المؤمنين.

و سميت بسوره «البروج» بلحاظ ذكر الكلمه فى أول آيه من السوره بعد ذكر البسمله.

فضيله السوره:

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «من قرأ هذه السوره أعطاه الله من الأجر بعدد كل من اجتمع فى جمعه و كل من اجتمع يوم عرفه عشر حسنات، و قراءتها تنجى من المخاوف و الشدائد». (١)

و بملاحظه أن أحد تفاسير و شَاهِدٍ و مَشْهُودٍ -من آيات السوره- هو يومى الجمعه و عرفه من جهه، و أن السوره حكايه مقاومه و بساله المؤمنين السابقين أمام الشدائد و الضغوط من جهه اخرى، و بملاحظه ذلك سيتضح لنا التناسب الموجود ما بين هذا الثواب الجزيل لمن يقرأها و بين محتوى السوره، و أن الأجر و الثواب إنما يحصل لمن قرأها بتأمل معانيها، و عمل على ضوء هديها.

ص: ٧٦

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْجُبُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)

التفسير

اشاره

الإيمان الراسخ أقوى من حفر النيران!

كما نعلم جميعاً، بأنّ المسلمين في صدر الإسلام الأوّل، كانوا يعيشون في مكّه تحت ظروف قاسيه، بعد أن كسّر أعدائهم بقباحتهم تلك الأنياب القذره، فانهاجوا على المؤمنين بأصناف العذاب و ألوانه..

ولمّا كان الهدف من نزول السّوره، و بما عرضته من صور الأولين هو إنذار

هؤلاء الظالمين المغرورين بأن مصيرهم سيكون مثل مصير الأقوام السالفه من جهه، و من جهه اخرى لتثبيت المؤمنين، و تقويه عزائمهم في صراعهم أمام أذى و اضطهاد أهل مكه.

ابتدأت السوره ب: وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ .

«البروج»: جمع (برج) و هو القصر، و قيل: هو الشيء الظاهر، و تسميه القصور و الأبنيه العاليه بالبروج لظهورها و وضوحها، و قيل للمحلات الخاصه من السور المحيط بالبلد و التي يجتمع فيها الحراس و الجنود (البروج) لظهورها الخاص، و يقال للمرأة التي تظهر زينتها (تبرجت).

و الأبراج السماويه: إمّا أن يكون المراد منها النجوم الزاهره و الكواكب المنيره في السماء، أو المجموعات من النجوم تتخذ مع بعضها شكل شيء معروف في الأرض، و تسمى ب«الصور الفلكيه»، و هي إثنا عشر برجاً، و في كلّ شهر تحاذي الشمس أحد هذه البروج، (طبيعي أن الشمس لا تتحرك تلك الحركه، و إنّما الأرض، تدور حول الشمس فيبدو لنا تغيير موضع الشمس بالنسبه إلى الصور الفلكيه أو الأبراج). (١)

و القسم بهذه البروج يشير إلى عظمه أمرها، التي لم تكن معلومه للعرب الجاهليين وقت نزول الآيه بينما أصبحت معلومه تماماً في هذا الزمان و الأقوى أنّ المراد منها هو النجوم المتأله ليلاً في القبه السماويه.

و لذا نقرأ فيما

روى عن النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، أنّه حينما سئل عن تفسير الآيه قال: «الكواكب» (٢).

و تقول الآيه الثانيه: وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ

ص: ٧٨

١-١) -و الأبراج الاثنا عشر هي: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبله، الميزان، العقرب، القوس، الجدى، الدلو و الحوت.

٢-٢) -الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٣١.

اليوم الذى وعد به جميع الأنبياء و المرسلين عليهم السّلام، و الذى تحدثت عنه مئات الآيات القرآنيه المباركه، اليوم الذى يلتقى فيه جميع الخلق من الأولين و الآخرين للحساب، إنه يوم القيامة الحق.

و فى القسم الثالث و الرابع يقول: **وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ**.

و قد تعرض المفسّرون للآيه بمعان متباينه، و وصلت إلى ثلاثين معنى، و أدناه أهم ما ذكر منها:

١- «الشاهد»: هو النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم، بدلاله الآيه (٤٥) من سوره الأحزاب: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا**.

و «المشهود»: هو يوم القيامة، بدلاله الآيه (١٠٣) من سوره هود: **ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ**.

٢- «الشاهد»: هو ما سيشهد على أعمال الناس، كأعضاء بدنه، بدلاله الآيه (٢٤) من سوره النور: **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**. و «المشهود»: هم الناس و أعمالهم.

٣- «الشاهد»: هو يوم «الجمعه»، الذى يشهد اجتماع فى صلاه مهمه، و «المشهود»: هو يوم «عرفه»، الذى يشهده زوّار بيت الله الحرام، و هو ما روى عن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و الإمام الباقر عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام (١).

٤- «الشاهد»: عيد الأضحى.

و «المشهود»: يوم عرفه.

و

روى أنّ رجلا دخل مسجد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، فإذا رجل يحدث عن رسول الله، قال: فسألته عن الشاهد و المشهود، فقال: (نعم، الشاهد يوم الجمعه، و المشهود يوم عرفه)، فجزته إلى آخر يحدث عن رسول الله، فسألته عن ذلك

ص: ٧٩

فقال: (أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر)، فجزت هما إلى غلام كأنه وجه الدينار، وهو يحدث عن رسول الله، فقلت أخبرني عن «و شاهد و مشهود» فقال: «نعم، أما الشاهد فمحمّد، وأما المشهود فيوم القيامة، أما سمعت الله سبحانه يقول: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وقال ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ.. فسألت عن الأول، فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثاني، فقالوا: ابن عمر، وسألت عن الثالث: فقالوا: الحسن بن علي عليهما السلام (١) ٥- «الشاهد»: الليالي والأيام.. و«المشهود»: بنو آدم، حيث تشهد على أعمالهم، بدلاله ما جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام الذي يقرأ كل صباح و مساء:

«هذا يوم حادث جديد، وهو علينا شاهد عتيدي، إن أحسننا و دعنا بحمد، وإن أسأنا فارقنا بذنب». (٢)

٦- «الشاهد»: الملائكة.. و«المشهود»: القرآن.

٧- «الشاهد»: الحجر الأسود.. و«المشهود»: الحجاج الذين يأتون و يلمسونه:

٨- «الشاهد»: الخلق.. و«المشهود»: الحق.

٩- «الشاهد»: الأئمة الإسلامية.. و«المشهود»: الأمم الأخرى، بدلاله الآية (١٤٣) من سورة البقرة: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .

١٠- «الشاهد»: النبي صلى الله عليه و آله و سلم.. و«المشهود»: سائر الأنبياء عليهم السلام، بدلاله الآية (٤١) من سورة النساء: وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا .

١١- «الشاهد»: النبي صلى الله عليه و آله و سلم.. و«المشهود»: أمير المؤمنين عليه السلام.

و إذا ما أدخلنا الآية في سياق الآيات السابقة لها، فنصل إلى أنّ «الشاهد» هو كلّ من سيقوم بالشهادة يوم القيامة، كشهادة: النبي صلى الله عليه و آله و سلم و كلّ نبي على أمته،

ص : ٨٠

١- ١) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٤٣، و ذكر مضمونه كل من (أبو الفتوح الرازي) و (الطبرسي) في تفسيرهما.

٢- ٢) - الصحيفة السجادية: الدعاء السادس.

الملائكة، بالإضافة إلى شهادته: أعضاء بدن الإنسان، الليل والنهار.. إلخ..

و«المشهود»: الناس أو أعمالهم.

و بهذا، يدغم الكثير من التفاسير المذكوره مع بعضها لتشكيل مفهوم واسع للآيه المباركه.

و يخرج عن هذا الإدغام تلك التفاسير التي تشير إلى: يوم الجمعة، يوم عرفه و يوم الأضحى.

و إن كانت الأيام المذكوره ستشهد على أعمال الإنسان يوم الحشر، بل و كل يوم يجتمع فيه المسلمون يكاد يكون صورته مصغره للحشر على رقعته الحياه الدنيا.

و مع كل ما ذكر توضح صله التألف ما بين التفاسير المذكوره أعلاه، حيث من الممكن جمعها تحت مظله شمول مفهوم الآيه، و هذا بحد ذاته يعكس لنا عظمه القرآن الكريم باحتوائه على هكذا مفاهيم و اصطلاحات.. ف«الشاهد» ينطبق على كل من و ما يشهد، و كذا«المشهود» ينطبق على كل من و ما يشهد عليه، و ما ورودهما بصيغته النكره إلا لتعظيمهما، و هو ما ينعكس على كل التفاسير.

و ثم علاقه خاصه بين الأقسام الأربع و بين ما اقسام به.. فالسما و ما فيها من بروج تحكى عن نظام و حساب دقيق، و«اليوم الموعود» يوم حساب و كتاب دقيق أيضا، و«شاهد و مشهود» أيضا وسيله للحساب الدقيق على أعمال الإنسان، و كل ذلك لتذكير الظالمين الذين يعدّون المؤمنين، عسى أن يكفوا عن فعلتهم السيئه، و لإعلامهم بأن كل ما يفعله الإنسان يسجل عليه و بحساب دقيق جدّا و سيواجه بها فى اليوم الموعود بين عتبات ساحه العدل الإلهى، فسيشهد على أعمال الناس الملائكه الموكلون لهذا الأمر و أعضاء بدن ذات الإنسان و كذا الليل و النهار و.. و.. و ستكون الشهادته فى يوم لا ينفع فيه مال و لا بنين إلا من أتى

اللّٰه بقلب سليم! (١).

و بعد هذه الأقسام الأربع، تقول الآية التاليه: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ .

و المقصود هم الظالمين لا من القى فى النار، فالجمله انشائية و المراد هو اللعن و الدعاء عليهم.

و الأخدود ملئ بالنار الملتهبه: النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ .

و كان الظالمون جالسون على حافه الأخدود يشاهدون المعذبين فيها: إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ .

وَ هُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ

«الأخدود»: -على قول الراغب فى مفرداته-: شقّ فى الأرض مستطيل غائص، و الجمع أخاديد، و أصل ذلك من «خَدَّ» الإنسان، و هو تقعر بسيط يكتنف الأنف من اليمين و الشمال (و عند البكاء تسيل الدموع من خلاله) ثم اطلق مجازا على الخنادق و الحفر فى الأرض، ثم صار معنى حقيقيا لها.

أما من هم الذين عذبوا المؤمنين؟ و متى؟ فللمفسرين و أرباب التواريخ آراء مختلفه، سنستعرضها إنشاء الله فى بحوث قادمه.

و لكنّ القدر المسلم به، إنهم حفروا خندقا عظيما و وجروه بالنيران، و أوقفوا المؤمنين على حافه الخندق و طلبوا منهم واحدا واحدا بترك إيمانهم و الرجوع إلى الكفر، و من رفض القى بين ألسنه النيران حيا ليذهب إلى ربّه صابرا محتسبا! «الوقود»: ما يجعل للاشتعال، و «ذات الوقود»: إشاره الى كثره ما فيها من الوقود، و شدّه اشتعالها، فالنار لا- تخلو من وقود، و لعل ما قيل من أن «ذات الوقود» بمعنى ذات اللهب الشديد، يعود للسبب المذكور، و ليس كما ذهب به البعض من كون «الوقود» يطلق على معينين: «الحطب» و على «شعله النار» أيضا

ص: ٨٢

١- ١) - و عليه، فجواب القسم محذوف و يدل عليه قوله تعالى: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ أَوْ: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ . و التقدير: (اقسم بهذه الأمور إنّ الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات معذبون ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود).

و تأسفوا لعدم التفات المفسرين لهذه النكته! و الآيتان: إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَ هُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، تشيران إلى ذلك الجمع من الناس الذين حضروا الواقعة، و هم ينظرون إلى ما يحدث بكل تلذذ و برود و فى منتهى قساوه القلب (سأديه)! و قيل: الإشارة إلى المأمورين بتنفيذ التهديد، و إجبار المؤمنين على ترك إيمانهم.

و قيل أيضا: إنهم كانوا فريقين، فريق يباشر التعذيب، و آخر حضر للمشاهده، و قد أشرك الجميع فى هذا العمل لرضائهم به.

و هذه صوره طبيعیه الوقوع، حيث هناك من يأمر (الرؤساء)، و من ينفذ (المرؤسون)، و ثمه المشاهدون من غير الأمر و المأمور.

و قيل أيضا: ثمه فريق منهم كان مكلفا بمراقبه عمليه التنفيذ لرفع تقاريرهم إلى السلطان عن كيفية أداء المأمورين لواجباتهم السلطانيه.

و لا يبعد وجود كل ما ذكر من أصناف فى ذلك المشهد المروع، كما و بالإمكان الجمع بين كل الآراء المطروحه.

و مجيء فعل جمله «يفعلون» بصيغه المضارع، للإشارة إلى أن ذلك العمل قد استغرق وقتا طويلا، و ما كان بالحدث السريع العابر.

و تقول الآيه التاليه: **وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .**

نعم، فجرمهم الوحيد إنهم آمنوا بالله الواحد الأحد دون تلك الأصنام الفاقده للعقل و الإحساس.

«نقموا»: من (النقم) - على زنه قلم - و هو الإنكار باللسان أو بالعقوبه، و منه (الانتقام).

هكذا عقوبه لا - تجرى إلا - على ذنب عظيم، و أين الإيمان بالله العزيز الحميد من الذنب؟! إنه الانحطاط الكبير الذى وصل إليه أولئك القوم، قد صور لهم أعزّ

و أفضل ما ينبغي للإنسان أن يفتخر به (الإيمان بالله) على أنه جرم كبير و ذنب لا يغتفر!...

و ينقل لنا القرآن فى الآيه (٥٩) من سوره المائده شبيه هذه الحادثه، حينما قال السحره الذين آمنوا بموسى عليه السلام لفرعون عند ما توعدهم بالعقاب المؤلم، فقالوا له: **وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا** .

و ذكر «العزير الحميد» جواب لما اقترفوا من جريمه بشعه، و احتجاج على أولئك الكفره، إذ كيف يكون الإيمان بالله جرم و ذنب؟! او هو أيضا، تهديد لهم، بأن يأخذهم الله العزير الحميد جراء ما فعلوا، أخذ عزير مقتدر.

و تأتى الآيه الاخرى لتبين صفتين أخريين للعزير الحميد: **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** .

فالصفات الأربعة المذكوره، تمثل رمز معبوديته جلّ و علا، فالعزير و الحميد..

ذو الكمال المطلق، و مالك السماوات و الأرض و الشهيد على كل شىء.. أحق أن يعبد وحده دون غيره، لا شريك له.

إضافه إلى كونها بشاره للمؤمنين، بحضور الله سبحانه و تعالى و رؤيته لصبرهم و ثباتهم على الإيمان، فيدفع فيهم الحيويه و النشاط و القوه.

و من جهه اخرى تهديد للكفار، و إفهامهم بأن عدم منع ارتكاب مثل هذه الجرائم الخبيثه، ليس لعجز أو ضعف منه جلّ شأنه، و إنّما ترك العباد يفعلون ما يرونه هم، امتحانا لهم، و سيرهم فى عاقبه أمرهم جزاء ما فعلوا، و ما للظالمين إلا العذاب المهين.

١- من هم أصحاب الأخدود؟

قلنا إنّ «الأخدود» هو الشق العظيم فى الأرض، أو الخندق.. و هو فى الآيه إشاره إلى تلك الخنادق التى ملاءها الكفار ناراً ليردعوا فيها المؤمنين بالتنازل عن إيمانهم و الرجوع إلى ما كانوا عليه من كفر و ضلال.

و لكن.. متى حدث ذلك؟ فى أى قوم؟ و هل حدث مرّه واحده أم لمّرات؟ فى منطقه أم مناطق؟ جرى بين المفسّرين و المؤرخين مخاض طويل بخصوص الإجابة عن هذه الأسئلة.

و المشهور: إنّ الآيه قد اشارت إلى قصه (ذو نواس)، و هو آخر ملوك «حمير» (١) فى أرض «اليمن».

و كان «ذو نواس» قد تهوّد، و اجتمعت معه حمير على اليهوديه، و سمّى نفسه (يوسف)، و أقام على ذلك حيناً من الدهر، ثمّ أخبر أنّ «نجران» (شمال اليمن) بقايا قوم على دين النصرانيه، و كانوا على دين عيسى عليه السلام و حكم الإنجيل، فحملة أهل دينه على أن يسير إليهم و يحملهم على اليهوديه، و يدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانيه، ثمّ عرض عليهم دين اليهوديه و الدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم و حرص الحرص كلّه، فأبوا عليه و امتنعوا من اليهوديه و الدخول فيها، و اختاروا القتل، فاتخذ لهم أخدوداً و جمع فيه الحطب، و أشعل فيه النّار، فمنهم من احرق بالنّار، و منهم من قتل بالسيف، و مثل بهم كلّ مثله، فبلغ عدد من قتل و احرق بالنّار عشرين ألفاً. (٢)

و أضاف بعض آخر: إنّ رجلاً من بنى نصارى نجران تمكّن من الهرب،

ص: ٨٥

١- ١) - حمير: إحدى قبائل اليمن المعروفه.

٢- ٢) - تفسير على بن ابراهيم القمى، ج ٢، ص ٤١٤.

فالتحق بالروم و شكما ما فعل (ذو نواس) إلى قيصر.

فقال قيصر: إن أرضكم بعيدة، ولكنى سأكتب كتابا إلى ملك الحبشه النصرانى و أطلب منه مساعدتكم.

ثم كتب رسالته إلى ملك الحبشه، و طلب منه الانتقام لدماء المسيحيين التى أريقتم فى نجران، فلما قرأ الرساله تأثر جدًّا، و عقد العزم على الانتقام لدماء شهداء نجران.

فأرسل كتابه إلى اليمن و التقت بجيش (ذو نواس)، فهزمته بعد معركة طاحنه، و أصبحت اليمن ولايه من ولايات الحبشه. (١)

و ذكر بعض المفسرين: إن طول ذلك الخندق كان أربعين ذراعاً، و عرضه اثنى عشر ذراعاً، (و كلّ ذراع يقرب من نصف متر، و أحيانا يقصد به ما يقرب من متر كامل).

و قيل: إنها كانت سبعة أخابيد، و كلّ منها بالحجم الذى ذكرناه. (٢)

و ذكرت القصه فى كتب تاريخه و تفسيريه كثيره، بتفاصيل متفاوته، منها: ما ذكره المفسر الكبير الطبرسى فى (مجمع البيان)، و أبو الفتوح الرازى فى تفسيره، و الفخر الرازى فى (تفسيره الكبير)، و الآلوسى فى (روح البيان)، و القرطبى فى تفسيره، و كذلك ابن هشام فى الجزء الأول من كتاب (السيره) ص ٣٥. و غيرهم كذلك.

و قد تبين ممّا ذكرناه بأن العذاب الإلهى قد أصاب أولئك الذين قاموا بتعذيب المؤمنين، و انتقم منهم فى دنياهم جراء ما هدروا من دماء زكيه بريئه، و أنّ عذاب نار الآخره لفى انتظارهم.

و أول من أوجد المحارق البشريه فى التاريخ هم اليهود، و سرت هذه

ص: ٨٤

١-١) - قصص القرآن، للبلاغى، ص ٢٨٨.

٢-٢) - تفسير روح المعانى، و تفسير أبى الفتوح الرازى، عند تفسير الآيات المذكوره.

الممارسه الخبيثه على أيدي الطواغيت المجرمين، حتى شملت اليهود أنفسهم، كما حدث في ألمانيا النازيه حينما احرق جمع كبير من اليهود في محارق هتلر كما هو المشهور، فذاقوا «عذاب الحريق» في دنياهم قبل آخرتهم.

كما أصاب الخزي و العذاب (ذو نواس اليهودي) و هو مؤسس هذا الأسلوب القذر من الجريمة.

ذكرنا ما اشتهر بين أرباب التاريخ و التفسير من قصّه أصحاب الأخدود، و ثمّه روايات تذكر بأنّ هذه الجريمة البشعه ما اقتصرت على أهل اليمن فقط و لم تقف عند عصر (ذو نواس)، حتى قيل عشره أقوال في ذلك.

و

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «إنّهم كانوا مجوس، أهل كتاب، و كانوا متمسكين بكتابهم، فتناول ملكهم الخمره فوقع على أخته، و بعد أن أفاق ندم، فأعلن حليه زواج الاخت، فلم يقبل الناس، فهدهم فلم يقبلوا، فخذّ لهم الأخدود، و أوقد فيه النيران، و عرض أهل مملكته على ذلك، فمن أبى قذفه في النار، و من أجاب خلّى سبيله» (١).

هذا في أصحاب فارس.. أمّا أصحاب أخدود الشام، فهم قوم مؤمنون أحرقتهم (أنطياخوس) (٢).

و قيل أيضا: إنّ هذه الواقعة تعود لأصحاب نبىّ الله دانيال من بنى إسرائيل، و قد أشير إلى ذلك في كتاب دانيال من التوراه.

و اعتبر الثعلبي: إنّهم هم الذين احرقوا في أخدود فارس (٣) و لا يبعد انطباق قصه «أصحاب الأخدود» على كلّ ما ذكر، و إنّ كان المشهور منها قصّه (ذو نواس) في أرض اليمن.

ص: ٨٧

١-١) -مجمع البيان، و عنه الميزان في تفسير الآيه.

٢-٢) -تفسير الثعلبي، ص ٢٧٥.

٣-٣) -المصدر السابق.

فى قصص الأولين و ما ىجرى عند الآخرىن، ثمه وقائع رائعه فى الثبات على الإىمان فقد تحمل البعض الحرق فى النار و أشد من ذلك على أن ىترك طرىق الحق أو العدول عن دىنه.

و ها هى «آسىه» زوجة فرعون شاخصه بما تحملت من عذاب بسبب تصدىقها بنبى الله موسى علىه السلام و إىمانها برسالته، حتى انتهى بها المطاف للارتواء من كأس الشهاده.

و

فى حدىث عن الإمام على علىه السلام أنه قال: «إنّ الله بعث رجلا حبشيا نبىا، و هم حبشيه، فكذبوه فقاتلهم، فقتلوا أصحابه، فأسروه و أسروا أصحابه، ثم بنوا له حىرا، ثم ملأوه نارا، ثم جمعوا الناس فقالوا: من كان على دىننا و أمرنا فلىعتزل، و من كان على دىن هؤلاء فلىرم نفسه فى النار، فجعل أصحابه ىتهافتون فى النار، فجاءت امرأه معها صبى لها ابن شهر، فلما هجمت هابت و رقت على ابنها، فنادى الصبى: لا تهابى، و ارمىنى و نفسك فى النار، فإنّ هذا و الله فى الله قلىل فرمت بنفسها فى النار و صبىها، و كان ممن تكلم فى المههد» (١).

و يفهم من هذه الزوايه، إنّ فى الحبشه قسم رابع قد انطبقت علىهم قصه «أصحاب الأخدود».

و من تاريخنا.. هناك قصه عمار بن ياسر و أبويه و أمثالهم، و أهم من كل ذلك ما جرى للحسین علىه السلام و أصحابه فى میدان التضحیه و الفداء (كربلاء)، و كىف أنهم قد تسابقوا على شرف نیل و سام الشهاده، كما هو معروف فى التاريخ.

و ها هو عصرنا یرىنا الكثير من صور التضحیه و الفداء فى سبیل إعلاء كلمه

ص: ٨٨

الحقّ و حفظ الدين القويم.

و ينبغي القول هنا: إنّ بقاء الدين الإلهي (على مرّ العصور) مرتهن على ما تقدّم في سبيله من توضّحات مقدسه.

ص: ٨٩

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ
الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦)

التفسير

اشاره

العذاب الالهى للمجرمين:

بعد ذكر عظم جريمه أصحاب الأخدود التى ارتكبت ضد المؤمنين بحرقهم و هم أحياء، يشير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى ما ينتظر أولئك الجناه من عذاب إلهى شديد، ويشير أيضا إلى ما اعدّ للمؤمنين من ثواب و نعيم جراء صبرهم و ثباتهم على إيمانهم بالله.

فتقول الآيه الاولى: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ

«فتنوا»: من مادته (فتن)، -على زنه متن- هو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، وقد استعملت (الفتنه) بمعنى (الاختبار)، و بمعنى (العذاب و البلاء)، و بمعنى (الضلال و الشرك) أيضا.

و هي في الآية بمعنى (العذاب)، على غرار ما جاء في الآيتين (١٣ و ١٤) من سورة الذاريات: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُقُوا فَتَنَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا

تدلّ على أنّ باب التوبة مفتوح حتى لأولئك الجناه المجرمين، و تدلّ أيضا على مدى لطف البارئ جلّ و علا على الإنسان حتى و إن كان مذنباً، و في الجملة تنبيه لأهل مكّه ليسارعوا في ترك تعذيب المؤمنين و يتوبوا إلى الله توبه نصوح.

فباب التوبة لا يغلق بوجه أحد، و ذكر العقاب الإلهي الشديد الأليم إنّما جاء لتخويف الفاسدين و المنحرفين عسى أن يراعوا و يعودوا إلى الحق مولاهم.

و قد ورد في الآية لونيّن من العذاب الإلهي، عَذَابُ جَهَنَّمَ و عَذَابُ الْحَرِيقِ، للإشارة إلى أن لعذاب جهنم ألوان عديده، منها (عذاب النار)، و تعيين «عَذَابُ الْحَرِيقِ» للإشارة أيضا إلى أن الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات و أحرقوهم بالنار، سوف يجازون بذات أساليبهم، و لكن، أين هذه النار من تلك؟! فنار جهنم قد سجرت بغضب الله، و هي نار خالده و يصاحب داخلها الذلّ و الهوان، أمّا نار الدنيا، فقد أوقدها الإنسان الضعيف، و دخلها المؤمنون بعزّه و إباء و شرف ملتحقين بصفوف شهداء رساله السماء الحقه.

و قيل: إنّ عَذَابُ جَهَنَّمَ جزاء كفرهم، و عَذَابُ الْحَرِيقِ جزاء ما اقترفوا بحق المؤمنين الأخيار من جريمه بشعه.

و تعرض لنا الآية التاليه ما سيناله المؤمنون من ثواب: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ

وَأَيُّ فَوْزٍ أَرْقَى وَأَسْمَى مِنَ الْوَصُولِ إِلَى جِوَارِ اللَّهِ، وَالتَّمَتُّعِ فِي نَعِيمِهِ الَّذِي لَا يُوَصَّفُ بِالنِّعَمِ، فَمِفْتَاحُ ذَلِكَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ هُوَ (الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ)، وَ مَا عَدَاهُ فِرْعَانٌ لِهَذَا الْأَصْلِ.

عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَا يَخْتَصُّ بِشَيْءٍ مُحَدَّدٍ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَحْوَرِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ هُوَ: «الْعَمَلُ الصَّالِحُ».

«ذَلِكَ»: إِشَارَةٌ لِلْبَعِيدِ، وَاسْتَعْمَلْتُ هُنَا لَتَبْيَانِ عَظَمِهِ وَ أَهْمِيَةِ الْمَشَارِإِلَيْهِ، أَيُّ: إِنَّ فَوْزَهُمُ الْكَبِيرُ مِنْ عَظَمَةِ الشَّأْنِ، بِقَدْرِ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِ أَحَدٍ.

وَيَعُودُ الْقُرْآنُ مَرَّةً أُخْرَى لِتَهْدِيدِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَفْتَنُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَقُولُ: إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ .

وَلَا تَظُنُّوْا أَنَّ الْقِيَامَةَ أَمْرٌ خَيَالِيٌّ، أَوْ إِنَّ الْمَعَادَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَشْكُ فِي صِحِّهِ تَحَقُّقُهَا، بَلْ: إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَ يُعِيدُ .

«البطش»: تَنَاوَلَ الشَّيْءَ بِصَوْلِهِ وَ قَهْرِهِ، وَ بِاعْتِبَارِهِ مَقْدَمَهُ لِلْعِقَابِ، فَقَدْ اسْتَعْمَلَ بِمَعْنَى الْعِقَابِ وَ الْمَجَازِإِهِ.

«رَبِّكَ»: تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ تَأْكِيدُ دَعْمِ اللَّهِ لِلْمَحْدُودِ لَهُ.

وَ الْجَدِيرُ بِالْمَلَاظِحَةِ، إِنَّ الْآيَةَ تَضَمَّنَتْ جَمْلَةً تَأْكِيدَاتٍ، لِتَبْيَانِ صِرَامَةِ التَّهْدِيدِ الْإِلَهِيِّ بِجَدِيدِهِ وَ قَطْعِهِ.

فِ «الْبَطْشِ» يَحْمِلُ مَعْنَى الشَّدَّةِ الْمُؤَكَّدَةِ، وَ الْجَمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ عَادَةً مَا تَأْتِي لِلتَّأْكِيدِ، وَ وَصَفَ الْبَطْشَ بِأَنَّهُ «شَدِيدٌ»، وَ كَذَا وَجُودُ «إِنَّ»، وَ وَجُودُ لَامِ التَّأْكِيدِ فِي «لَشَدِيدٌ»، هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّأْكِيدِ الْمُتَضَمِّنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَ يُعِيدُ كَدَلِيلِ إِجْمَالِيٍّ عَلَى الْمَعَادِ (١).

ص: ٩٢

١- ١) - وَ هَذَا يَشْبَهُ دَلِيلَ الْآيَةِ (٧٩) مِنْ سُورَةِ «يَس»: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، يُقَالُ: إِنَّ الْفَارَابِيَّ تَمَنَّى لَوْ كَانَ أَرِسْطُو «الْفِيلَسُوفَ الْيُونَانِيَّ الْمَعْرُوفَ» حَيًّا لِيرَى جَمَالَ هَذَا الدَّلِيلِ الْمَحْكَمِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

ثمَّ يعرض لنا القرآن الكريم خمسه أوصاف للبارى جلَّ شأنه: وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ الَّذِي يَغْفِرُ لِلتَّائِبِينَ وَ يَحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ.

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ

صاحب الحكومه المقتدره على عالم الوجود و ذو المجد و العظيمة.

فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ

«الغفور» و«الودود»: كلاهما صيغه مبالغه، ويشيران إلى منتهى الغفران و الود الإلهي، «الغفور» لعباده المذنبين، و«الودود» المحب لعباده الصالحين.

فذكر هذه الأوصاف بعد ما تضمّنته الآيات السابقه من تهديد و وعيد، يبيّن أنّ طريق العوده إلى الله سالك و أنّ باب التوبه مفتوح لكلّ من ولغ في الذنوب، فالبارى جلّت عظمته في الوقت الذي هو شديد العقاب فهو الغفور الرحيم أيضا.

و على هذا الضوء ف«الودود» جاء بصيغه اسم الفاعل، و ليس كما قيل من أنّه اسم مفعول، ليكون المعنى: بأنّ الله له محبّون كثيرون، فهذا المعنى لا ينسجم مع الصفه السابقه «الغفور» و لا يتناسب مع سياق الكلام.

و صفه: «ذو العرش» كناية عن قدرته و حاكميته و مالكيته سبحانه و تعالى، و يتبيّن بهذا الوصف أنّ حكم عالم الوجود بيده جلّ و علا، فما شاء كان، و قوله تعالى: فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ من لوازم هذه الحاكميه المطلقه.

ف«ذو العرش» تشير إلى قدرته تعالى على: المعاد، إحياء الموتى و معاقبه الجبابره و المجرمين و الذين يفتنون المؤمنين و المؤمنات.

«المجيد»: من (المجد)، و هو السعه في الكرم و الجلال، و هي من الصفات المختصه بالله سبحانه، و قلّما تستعمل لغيره. (1)

و بنظره بسيطه إلى هذه الصفات المذكوره سيتراءى أمامنا ذلك الانسجام

ص: ٩٣

(١ - ١) - جاءت كلمه «المجيد» في الآيه مرفوعه (طبق القراءه المشهوره)، تكون صفه لله تعالى و ليس صفه للعرش، و إلا لكانت مجروره.

والترايط فيما بينها فالغفور و الودود لمن له القدره وسعه الكرم كى يفعل ما يريد، لا يمنعه شىء و لا يصد إرادته أمر، لأن إرادته فى مطلق القوّه و الدوام و لا يصيبها تردد أو فسخ، سبحانه و تعالى.

ص: ٩٤

اشاره

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

التفسير

اشاره

ألم تر ما حلّ بجيش فرعون و ثمود!؟

فيما تعرضت الآيات السابقة لقدره الله المطلقة و حاكميته، و لتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين..تعرض الآيات أعلاه لما يؤكد هذا التهديد...

فتخاطب النبي صلى الله عليه و آله و سلم قائله: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ .

تلك الكتائب الجاراه التي وقفت بوجه أنبياء الله عليهم السلام بتصورها الساذج بأنها ستقف أمام قدره الله عزّ و جلّ.

و تشير إلى نموذجين واضحين، أحدهما من غابر الزمان، و الآخر في زمن قريب من صدر دعوه الإسلام: فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ .

فأحدهما ملك الشرق و الغرب، و الآخر وصلت مدنيته لأن يحفر الجبال لبناء البيوت و القصور الفخمه، و لهما من الجبروت ما لم يستطع أحد من الوقوف

بوجههم، ولكنَّ العزيز الجبار أهلكهم بالماء والهواء، مع ما لهاتين المادتين من لطافه و ليونه، و ما يمثلانه باعتبارهما من الوسائل المهمّة المستلزمه لأساسيات حياه الإنسان، فقد أغرقت أمواج و تيارات نهر النيل ذلك الطاغى (فرعون) و جنوده، فيما سلَّط الله الهواء القارص بأعاصير مدمره اجتاحت قوم ثمود حتى قطعت دابرهم، فأهلكوا جميعهم.

القرآن الكريم يذكر مشركى مكّه بذلك النموذجين ليعرفوا أنفسهم أمام الله تعالى، فإنَّ كان الله قد أهلك تلك الجيوش العظيمة و بما تملك من عناصر القوّه بماء و هواء، فهل سيبقى لزام أمورهم من شىء، و هم أضعف من أولئك! علما بأنَّ البشر أمام الله بكلِّ ما يحملون من قوّه فهم سواء، فلا فرق بين ضعيف و قوى..

فأين الخالق من المخلوق! و إنّما اختير قوم «فرعون» و «ثمود» دون بقية الأقسام السالفه كنموذجين للعصاه و الضالين، باعتبارهما كانا يمتلكان قدره و قوّه مميزه على بقية الأقسام، و أهل مكّه على معرفه بتاريخهما إجمالاً.

و تقول الآيه التاليه: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ .

فآيات و دلائل الحق ليست بخافيه على أحد، و لكن العناد و اللجاجه هما اللذان يحجبان عن رؤيه طريق الحق و الإيمان.

و كأن «بل» تشير إلى أنّ عناد و تكذيب أهل مكّه أشدّ و أكثر من قوم فرعون و ثمود و هم مشغولون دائماً بتكذيب الحق و إنكاره و يستخدمون كلّ وسيله فى هذا الطريق، (بلحاظ أنّ «بل» تستعمل عادة للاضراب: أى للعدول من شىء إلى شىء آخر).

و عليهم أن يعلموا بقدره الله: وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ .

فلا يدل الإمهال على الضعف أو العجز، و لا يعنى عدم تعجيل إنزال العقوبه الإلهيه بأنهم قد خرجوا عن قدرته جلّ شأنه.

و ما مجيء من ورائهم إلا للتعبير عن كونهم في قبضه القدره الإلهيه من جميع الجهات، و هو محيط بهم، و ليس لهم من مخلص عن العذاب بحكم العدل الإلهي.

و ثمه من يذهب بإرادته الإحاطه العلميه فى الآيه، أى.. إنَّ الله تعالى محيط بأعمالهم من كلَّ جهه، فلا يغيب عنه سبحانه أى قول أو عمل أو نيه.

و تقول الآيه التاليه: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ذُو مَكَانَةٍ سَامِيَةٍ وَ مَقَامٍ عَظِيمٍ.

فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ

، لا تصل إليه يد العبث، و الشيطنه، و لا يصيبه أى تغيير أو تبديل، أو زياده أو نقصان.

فلا- تتأس يا محمّد بما ينسبونك إليك افتراء، كأن يتهموك بالشعر، السحر، الكهانه و الجنون.. فأصولك ثابتة، و طريقك تير، و القادر المتعال معك.

«مجيد»: - كما قلنا- من (المجد)، و هو السعه فى الكرم و الجلال، و هو ما يصدق على القرآن تماما، فمحتواه واسع العظمه، و معانيه ساميه على كاه الأصدده العلميه، العقائديه، الأخلاقيه الوعظ و الإرشاد، و كذا فى الأحكام و السنن.

«لوح» - بفتح اللام -: هو الصفحه العريضه التى يكتب عليها، و (اللوح) - بضم اللام -: العطش، و الهواء بين السماء و الأرض.

الفعل الذى يشتق من الأوّل يأتى بمعنى الظهور و الانكشاف.

و يراد باللوح هنا: الصفحه التى كتب فيها القرآن، لكنّها ليست كالألواح المتعارفه عندنا، بل (و على قول ابن عباس): إنَّ اللوح المحفوظ طوله ما بين السماء و الأرض و عرضه ما بين المشرق و المغرب! و يبدو أنّ اللوح المحفوظ، هو «علم الله» الذى يملأ الشرق و الغرب، و مصان من أى اختلاق أو تحريف.

نعم، فالقرآن من علم المطلق، و ما فيه يشهد على أنه ليس نتيجة إشراقه عقليه

فى عقل بشر، و لا هو بنتاج الشياطين.

و يحتمل أن يكون هو المقصود به «ام الكتاب» و «كتاب مبین» الواردان فى الآيه (٣٩) من سوره الرعد: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ، و الآيه (٥٩) من سوره الأنعام: وَ لَا رَطْبٌ وَ لَا يَابِسٌ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ .

علما بأنّ تعبير (لوح محفوظ) لم يرد فى القرآن إلّا فى هذا الموضوع فقط.

اللّهم! زدنا معرفه بكتابك العظيم...

اللّهم! ضمّنا بين جناح رحمتك يوم يفوز المؤمنون، و قنا غضبك يوم يهلك الكافرون و المجرمون فى عذاب الحريق...

اللّهم! أنت الغفور الودود الرحيم، فعاملنا بمقتضى صفاتك، و لا تعاملنا بمقتضى أعمالنا...

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره البروج

سوره الطّارق

اشاره

مکيه و عدد آياتها سبع عشره آيه

ص: ۹۹

محتوى السّوره:

تدور مواضيع السّوره حول محورين:

١-محور المعاد و القيامة.

٢-محور القرآن الكريم و أهميته القيمه تبدأ السّوره بجملة أقسام تبعث على التّأمل و التفكير، ثمّ تشير إلى المراقبين الإلهيين على الإنسان.

و تنتقل السّوره لإثبات إمكانيه المعاد من خلال الإشاره الى كيفيه خلق الإنسان من نطفه.

فالقادر على خلق الإنسان من نطفه نتنه لقادر على إعادته حياته بعد موته.

و تعرض لنا السّوره بعد ذلك معالم المرحله التاليه من خلال تبيان بعض ملامح يوم القيامة، ثمّ تذكر جملة أقسام اخرى للتأكيد على أهميه القرآن، و من ثمّ نختم بإنذار الكفار بالعذاب الإلهي.

فضيله السّوره:

روى عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأها أعطاه الله بعدد كلّ نجم في السماء

ص: ١٠١

عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنه قال: «من كانت قراءته في الفريضة ب(و السماء و الطارق) كان له عند الله يوم القيامة جاه و منزله، و كان من رفقاء النبيين و أصحابهم في الجنّة» (٢) و بديهي، أنّ التأمل بمحتوى السوره و العمل على ضوءها هو الذي يضمن حصول ثوابها، و حركة اللسان الفارغه عن كل محتوى و تطبيق، لا تغنى عن الحق شيئاً.

ص: ١٠٢

١-١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٦٩.

٢-٢ - ثواب الأعمال، ص ١٢٢، و عنه نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٤٩.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمِ الثَّاقِبِ (٣) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ
(٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)

التفسير

اشاره

مم خلق الإنسان!؟

تبتدأ السوره-كمثيلا منها من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم-بعده أقسام بليغه تبعث على التأمل، وهي مقدمه لبيان أمر مهم.

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ

.. وَمَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ .. النَّجْمِ الثَّاقِبِ .

«الطارق»:من (الطرق)-على زنه برق-و هو الضرب، ولهذا قيل (الطريق) لما تطرقه أرض المشاه،و(المطرقه)هي الآله التي يطرق بها الحديد و غيره.

و يقال للقادم ليلا(الطارق)،لأنّ البيوت عادة ما تغلق أبوابها ليلا،فكلّ قادم يلزمه و الحال هذه طرق الباب.

و عند ما جاء المنافق(الأشعث بن قيس)لزياره أمير المؤمنين عليه السّلام ليلا،جلب معه الحلوى،ظنا منه أنّ هذه الحلوى ستجعل من أمير المؤمنين عليه السّلام ظهيرا له فى قضيه معينه.

فذكر الأمير عليه السّلام هذه الواقعة متعجبا و ذاما:

«و أعجب من ذلك طرفنا بملفوفه فى وعائها». (١)

و يفسيّر القرآن الكريم«الطارق»بقوله: **الْنَّجْمُ الثَّاقِبُ**،النجم اللامع الذى مع علوّه الشاهق و كأنّه يريد أن يتقّب سقف السماء،و كأنّ نوره المتشعشع يريد أن يتقّب ستار الليل الحالِك،فيجلب الأنظار بميزته هذه.

و لكن،أى نجم هو الطارق؟هل هو الثريا(بعدها الغائر فى عمق السماء)، زحل،الزهرة،أم الشهب(لما لها من نور جذّاب)،أم كل النجوم؟ ثمّه احتمالات متباينه فى هذا الموضوع، و لكن وجود صفة«الثاقب»لهذا النجم تعطى الإشاره إلى أنّ النجوم المتلألئه التى تنقّب أنوارها ظلمه الليل، و تجذب الأنظار إليها،هى المراده و ليس كلّ نجم.

و فسّرت بعض الرّوايات«النجم الثاقب»بكوكب(زحل)من المنظومه الشمسيه لشدّه نوره و لمعانه.

و

روى أنّ منجما سأل الإمام الصادق عليه السّلام،بقوله:فما يعنى بالثاقب؟قال:«لأنّ مطلعته فى السماء السابعه،و أنّه ثقّب بضوءه حتى أضاء السماء الدنيا،فمن ثمّ سمّاه الله النجم الثاقب» (٢).

و يعتبر(زحل)من أبعد النجوم أو الكواكب فى مجموعتنا الشمسيه التى

ص: ١٠٤

١-١) -نهج البلاغه،الخطبه ٢٢٤.

٢-٢) -نور الثقلين،ج ٥،ص ٥٥٠،ح ٤.

يمكن رؤيتها بالعين المجردة، و يقع في المدار السابع للشمس، و لذا عبّر عنه الإمام عليه السلام بأنه في السماء السابعه.

و ما لهذا الكوكب من خصائص تؤهله لأن يقسم به، فهو أبعد ما يمكن رؤيته من منظومتنا الشمسيه، لذا فالعرب يشبهون كل عال به، و يطلقون عليه أحيانا (شيخ النجوم) (١)، و له حلقات رائعه تحيط به، و له أيضا ثمانية أقمار، و تعتبر من حلقاته من أعجب ظواهر السماء.

و مع كل ما توصل إليه علماء الفلك بخصوصه، فتمه أسرار لم يكشف عنها الستار بعد.

و قيل: إن زحل عشره أقمار، يمكن رؤيه ثمانية منها بالناظور العادي (تلسكوب)، و لا يمكن رؤيه الآخرين إلا بالناظير الكبيره (٢).

و ممّا لا شك فيه، إن هذه الحقائق ما كانت مكتشفه في عصر نزول الآيه المباركه، و توصل إليها بعد قرون من نزولها.

و على آيه حال، فيمكن تفسير: النَّجْمُ الثَّاقِبُ بِكوكب زحل، على اعتبار كونه أحد مصاديقه الواضحه، و لا ينافي تفسيره بآيه نجوم اخرى عاليه و وضاه، فالتفسير المصدقي كثير الاستعمال في رواياتنا.

و في الآيه (١٠) من سوره الصافات: إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثاقِبٌ، فوصف «الشهاب» بأنه «ثاقب» يحمل الإشاره لاحتمال أنّ تكون الظاهره السماويه المذكوره هي ظاهره «الشهب»، لتكون أحد تفاسير الآيه المبحوثه، و يؤيد ذلك أيضا بعض ما ذكر في شأن نزول الآيه. (٣)

ص: ١٠٥

١-١ - دائره المعارف دهخدا ماده زحل.

٢-٢ - دائره المعارف دهخدا ماده زحل.

٣-٣ - روح البيان، ج ١٠، ص ٣٩٧.

و لنرى لأى شىء كان هذا القسم: إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ (١).

يحفظ عليه أعماله، و تسجل كل أفعاله، ليوم الحساب.

كما جاء فى الآيات (١٠-١٢) من سورة الإنفطار: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ .

فلا تظنوا بأنكم بعيدون عن الأنظار، بل أينما تكونوا فتمه عليكم ملائكة مأمورين يسجلون كل ما يبدر منكم.. و هذا ما له الأثر البالغ فى عمله إصلاح و تربية الإنسان. مع أن الآيه لم تحدد هويته «الحافظ»، و لكن الآيات الأخرى تبين بأن «الحفظه» هم الملائكة و أن «المحفوظ» هو أعمال الإنسان من الطاعات و المعاصى.

و قيل: يراد بها حفظ الإنسان من الحوادث و المهالك، و لولا ذلك لما خرج الإنسان من الدنيا بالموت الطبيعى، و الأطفال بالخصوص.

أو المراد هو: حفظ الإنسان من وساوس الشيطان، و لولا هذا الحفظ لما سلم أحد من وساوس شياطين الجنّ و الأانس.

و بلحاظ ما تتطرق إليه الآيات التالیه (حول المعاد و الحساب الإلهى)، يكون التفسير الأول أقرب من غيره و أنسب، و لو أن الجمع بين هذه التفاسير الثلاثة غير بعيد عن مراد الآيه.

و العلاقه ما بين المقسوم به و ما أقسم له و وثيقه، حيث أن السماء العالیه و النجوم التى تتحرك فى مسارات منظمه، دليل على وجود النظم و الحساب الدقيق فى عالم الوجود، فكيف يمكن أن نتصور بأن أعمال الإنسان دون باقى الأشياء لا تخضع لهذه السنه، لتبقى سائبه بلا ضبط و تسجيل و ليس عليها من حافظ؟!..!!

ص: ١٠٦

١-١) - «إن» فى الآيه: نافية، و «لما»: بمعنى (إلا).

ثم يستدل القرآن الكريم على المعاد في مقابل من يقول باستحاله المعاد:

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ

و بهذا..أخذ القرآن الكريم بأيدي الجميع و أرجعهم إلى أول خلقهم،مستفهما عما خلق منه الإنسان.

و بدون أن ينتظر الجواب من أحد يجيب القرآن على استفهامه: خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ، و هو ماء الرجل الذى تسبح فيه الحيا من،و يخرج بدفق.

و يستمر فى تقريب المراد: يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ .

«الصلب»: الظهر. و«الترائب»: جمع (تريبه)، و هى -على ما هو مشهور بين علماء اللغه-عظام الصدر العليا و ضلوعه.

و كما يقول ابن منظور فى لسان العرب:قال أهل اللغه أجمعون:الترائب موضع القلاده من الصدر.

و ذكرت معان اخرى للترائب،منها:إنها القسم الأمامى للإنسان(فى قبال الصلب،الذى هو ظهر الإنسان)،إنها اليدان و الرجلان و العينان،إنها عظام الصدر، أو ما يلى الترقوتين منه،و قيل:أربعة أضلاع من يمين الصدر و أربعة من يساره.

و أدناه،نذكر بعض الآراء الكثيره للمفسرين بخصوص المراد من«الصلب و الترائب»الوارده فى الآيه المباركه.

١-«الصلب»إشاره إلى الرجال،و«الترائب»إشاره إلى النساء،لأنّ فى الرجال مظهر الصلابه،و فى النساء مظهر الرقه و اللطافه.

و عليه،فالآيه بصدد ذكر حيمن الرجل و بويضه المرأة،و منهما تتشكل نطفه خلق الإنسان.

٢-«الصلب»إشاره إلى ظهر الرجل،و«الترائب»إشاره إلى صدره،فيكون مراد الآيه نطفه الرجل التى تقع ما بين ظهره و صدره.

٣-إرادته،خروج الجنين من رحم امه،لأنّه يكون بين ظهرها و الجزء

٤- قيل: إنّ في الآيتين سرّاً من أسرار التنزيل، ووجها من وجوه الأعجاز، إذ فيهما معرفه حقائق علميه لم تكن معروفه حينذاك و قد كشف عنها العلم أخيراً.

و إذا رجعنا إلى علم الأجنه وجدنا في منشأ خصيّه الرجل و مبيض المرأه ما يفسر لنا هذه الآيات، التي حيرت الألباب، فقد ثبت أن خصيّه الرجل و مبيض المرأه في بدايه ظهورهما في الجنين يقعان في مجاوره كليه الجنين، أي بين وسط الفقرات (الصلب) و الأضلاع السفلى للصدر (الترائب) ثم مع نمو الجنين ينتقلان تدريجياً إلى الأسفل، و بما أن تكون الإنسان يمثل تركيباً من نطفه الرجل و المرأه و المحل الأصلي لجهاز توليد النطفه فيهما هو بين الصلب و الترائب، أختار القرآن لذلك هذا التعبير. و هذا ما لم يكن معروفاً حينذاك.

و بعبارة اخرى: إنّ كلّ من الخصيّه و المبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى و يقع بين الصلب و الترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً و مقابل أسفل الضلوع. (١)

و يشكل على هذا التفسير ب: إنّ القرآن إنّما يقول: **مَاءٌ دَافِقٌ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ**، فهو يمرّ من بينهما حال الخروج، في حين لا يقول التفسير المذكور ذلك، و يشير إلى محل توليده بينهما أثناء النمو الجنيني، بالإضافة إلى أنّ تفسير «الترائب» بأسفل الضلوع لا يخلو من نقاش.

٥- مراد الآيه، هو المنى، لأنّه في الحقيقة مأخوذ من جميع أجزاء البدن، و لذا عند ما يقذف إلى الخارج فإنّه يقترن مع انفعال و هيجان البدن كلّه و بعده فتور البدن بأجمعه، فيكون مقصود «الصلب» و «الترائب» في هذه الحال تمام قسمي بدن الإنسان، الإمامي و الخلفي.

ص: ١٠٨

٦- وقيل أيضا: إنّ المصدر الأساس لتكوين المنى هو النخاع الشوكى الواقع فى ظهر الإنسان، ثم القلب و الكبد، فالأول يقع تحت أضلاع الصدر، والآخر بين المكانين المذكورين، وعلى هذا الأساس قالت الآية: مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ .

و يكفينا الرجوع إلى الآيات المبسوثة لدفع الغموض الحاصل، فالآيات تشير إلى ماء الرجل دون المرأه، بقريته «ماء دافق»، و هذا لا يصدق إلا على الرجل، و عليه يعود الضمير فى «يخرج».

و عليه، فينبغى إخراج المرأه من هذه الدائره، ليكون البحث منصبا على الرجل فقط، و هو المشار إليه فى الآية.

و«الصلب و الترائب» هما ظهر الرجل و قسمه الأمامى، لأن ماء الرجل إنّما يخرج من هاتين المنطقتين (١).

و هذا التفسير واضح، خال من أى تكلف، ينسجم مع ما ورد فى كتب اللغة بخصوص المصطلحين.

كما و يمكن أن تكون الآية قد أشارت إلى حقيقه علميه مهمه لم يتوصل إلى اكتشافها بعد، و ربّما المستقبل سيكشف ما لم يكن بالحسبان.

و نصل مع القرآن إلى نتيجة ما تقدم من الذكر الحكيم: إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ .

فالإنسان ترابا قبل أن يكون نطفه، ثم مرّ بمراحل عديده مدهشه حتى أصبح إنسانا كاملا، و ليس من الصعوبه بحال على الخالق أن يعيد حياه الإنسان بعد أن نخرت عظامه و صار ترابا، فالذى خلقه من التراب أول مره قادر على إعادته مره اخرى.

ص: ١٠٩

١ - ١) - عند ما تتحدث الآيات القرآنيه الاخرى عن خلق الإنسان، فإنّها غالبا ما تشير إلى نطفه الرجل، باعتبارها أمرا محسوسا (راجع الآية ٤٦ من سوره النجم، و الآية ٣٧ من سوره القيامه).

وقد ورد هذا المعنى فى الآيه (٥) من سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنتُمْ فى رَيْبٍ مِّنَ البُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ﴾، بالإضافة إلى الآيه (٦٧) من سورة مريم: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾.

و تصف لنا الآيه التاليه ذلك اليوم الذى سيرجع فيه الإنسان: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (١).

«تبلى»: من (البلوى)، بمعنى الاختبار و الامتحان، و هو هنا الظهور و البروز، لأن الامتحان يكشف عن حقيقه الأشياء و يظهرها.

«السرائر»: جمع (سريره)، و هى صفات و نوايا الإنسان الداخليه.

نعم، فأسرار الإنسان السدينه ستظهر فى ذلك اليوم، «يوم السبروز» و «يوم الظهور»، فسيظهر على الطبيعه كل من: الإيمان، الكفر، النفاق، بئيه الخير، بئيه الشر، الإخلاص، الرياء...

و سيكون ذلك الظهور مدعاه فخر و مزيد نعمه للمؤمنين، و مدعاه ذلّه و مهانه و حسره للمجرمين...

و ما أشد ما سيلاقى من قضى وطرا من عمره بين الناس بظاهر حسن و نوايا خبيثه! و ما أتعسه حينما تهتك أقنعته المزيفه فيظهر على حقيقته أمام كل الخلائق! و ربّما ذلك من أشدّ عذاب جهنم عليه...

و تصف لنا الآيه (٤١) من سورة الرحمن هيتهم بالقول: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ، و كذا الآيات (٣٨-٤١) من سورة عبس: وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوَجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ.

نعم، فكما إن «الطارق» و النجوم الأخرى تظهر من خفائها ليلا- على صفحه السماء، فكذا حال الإنسان فى عرصه يوم القيامه، فالحفظه و المراقبين الإلهيين

ص: ١١٠

(١-١) - «يوم» ظرف زمان متعلق بالرجع فى الآيه السابقه.

المكلفين لتسجيل أعمال الإنسان سيظهرون كل شيء، كظهور ضوء النجم في الليل الداج.

عن معاذ بن جبل أنه قال، سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: وما هذه السرائر التي تبلى بها العباد في الآخرة؟ فقال: «سرائرکم هي أعمالکم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابه وكل مفروض، لأن الأعمال كلها سرائر خفيه، فإن شاء الرجل قال صليت ولم يصل، وإن شاء قال توضيت ولم يتوضأ، فذلك قوله تعالى يوم تبلى السرائر» (١).

و لكن أشدَّ صعاب ذلك اليوم على الإنسان: **فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ**.

فلا يملك تلك القوَّة التي تخفى أعماله و نياته، وليس له ذلك الظهير الذي يعينه عن الخلاص من عذاب الله سبحانه و تعالى.

وقد ورد هذا المعنى في آيات قرآنية أخرى، ففي ذلك اليوم: لا ناصر و لا معين، و لا يقبل فداء، و لا رجعة، و ليس من وسيله للفرار من قبضه العدل حينها، إلا وسيله واحده للنجاه و هي «الإيمان و العمل الصالح» فقط.

ص: ١١١

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٧٢. و مثله في تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٣٦.

اشاره

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصِيلٍ (١٣) وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُهُمْ رُؤِيدًا (١٧)

التفسير

اشاره

خواء خطط الأعداء:

بعد أن تضمّنت الآيات السابقة استدلالاً على المعاد، بطريق توجيه الإنسان إلى بدايه خلقه، تعود هذه الآيات إلى المعاد مرّه اخرى، لتشير إلى بعض الأدله الاخرى عليه فتقول: وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ .. وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ .. إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصِيلٍ .. وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ .

«الرجع»: من (الرجوع)، بمعنى العود، و يطلق على الأمطار اسم (الرجع) لأنها تبدأ من مياه الأرض و البحار، ثم تعود إليها تاره اخرى عن طريق الغيوم، أو لأن هطول المطر يكون في فواصل زمنيّه مختلفه.

و يسمّى الغدير رجعا.. إنا للمطر الذى فيه، و إنا لتراجع أمواجه، و تردده فى

«الصدع»: هو الشق في الأجسام الصلبه.

و بملاحظه معنى «الرجع» فى الآيه السابقه، نصل إلى أن مراد الآيه بالصدع هو شق الأرض اليابسه بالأمطار، و خروج النباتات منها.

فالقسمان يشيران إلى إحياء الأراضى الميتة بالأمطار، و هذا ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم كدليل على إمكانه المعاد، كما فى قوله تعالى فى الآيه (١١) من سوره «ق»: «وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ .

و هنا تتجسد بلاغه الأسلوب القرآنى، من خلال ربطه الدقيق فيما بين ما يقسم به و ما يقسم له.

و بعبارة اخرى، فالسوره قد استندت إلى المقارنه فيما بين خلق الإنسان من نطفه و بين إحياء الأرض الميتة بالأمطار، فى استدلالها، و جاء شبيه هذا الاستدلال فى الآيه (٥) من سوره الحج: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فى رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ ... وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أُنْبَتَتْ مِّنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .

و قيل أيضا: إن الآيه: «وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ» تشير إلى دوران الكواكب فى مسارات معينه، كدوران الأرض حول نفسها و حول الشمس، و حركه الكواكب السياره للمنظومه الشمسيه، و كذلك شروق و غروب الشمس و القمر و النجوم، حيث أن كل هذه الحركات تتضمن الرجوع و العوده.

و هذا الرجوع علامه لرجوع الناس العام إلى الحياه.

و لكن من خلال ما تقدم يظهر لنا أن التفسير الأول أنسب و أقرب لقرائن السوره، حيث أنه أشاره إلى مسأله شق الأرض مع أدله المعاد.

«القول الفصل»: هو القول أو الحديث الذى يفرق بين الحق و الباطل، و قيل:

هو فى الآيه يشير إلى المعاد، بقرينه الآيات السابقه، و قيل أيضا: هو إشاره إلى القرآن، و هناك بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام تؤيد هذا المعنى. و قد ورد التعبير عن القيامه ب«يوم الفصل» فى الكثير من الآيات القرآنيه.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد هو الإشاره إلى الآيات القرآنيه و التى تتضمن الحديث عن المعاد، و بذلك يتم الجمع بين التفسيرين.

فقد روى عن الإمام على عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «إنها ستكون فتنه!» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟! قال: «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، و خبر ما بعدكم، و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، و من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله.» (١)

و تسلى الآيات التالیه قلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين من جهه، و تتوعد أعداء الإسلام من جهه اخرى: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، فَالْكَافِرِينَ يَظْطَرُونَ مِنْ جِهَةٍ، و أنا أخطط لإحباط تلك الخطط من جهه اخرى.. وَ أَكِيدُ كَيْدًا.

فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا

،حتى يروا عاقبتهم! نعم، إنهم دوما يكيدون فى حربك و الحرب ضد دينك.

فتاره بالاستهزاء..

و اخرى بالحصار الاقتصادى..

و مرّه بتعذيب المؤمنين..

و اخرى يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه كى تنتصروا..

و يقولون عنك: ساحرا، كاهنا، مجنونا..

ص: ١١٤

١- ١) - تفسير روح المعانى، ج ٣٠، ص ١٠٠؛ و تفسير المراغى، ج ٣٠، ص ١١٨؛ عن صحيح الترمذى و سنن الدارمى.

و يمارسون النفاق: بأن يؤمنوا بك صباحا و يكفروا مساء، كى يؤثروا على البسطاء..

و يقولون لك: أبعد الفقراء و المستضعفين عنك حتى تتبعك و أحيانا يقولون: آمن ببعض آلهتنا حتى تؤمن بك..

و يكيدون لإبعادك و قتلك..

و الخلاصه: فشغلهم الشاغل هو: التخطيط المستمر لمواجهةك، لتفريق من آمن بك، و الضغط على أصحابك، أو قتلك لإطفاء نور الله بذلك! و لا يعلمون بأن الله متم نوره و لو كرهوا.

«الكيد» (١): ضرب من الاحتيال و التغلب على المشكل بتهيئه المقدمات، و فيه جنبه خفيه، و قد يكون مذموما و ممدوحا كقوله تعالى: كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ (٢)، و إن كان يستعمل فى المذموم أكثر.

و مراد الآيه هو كيد الأعداء كما هو واضح، و قد تعرضنا لبعض نماذجه أعلاه، فيما تناولت هذا الموضوع آيات قرآنيه كثيره.

و لكن.. ما المقصود بالكيد الإلهي؟ قيل: إنه الإمهال الذى ينتهى بالأخذ الشديد و العذاب الأليم.

و قيل أيضا: إنه نفس العذاب الذى ينتظرهم.

و الأنسب أن يقال: إنه تلك الألفاظ الإلهيه التى غمرت النبى صلى الله عليه و آله و سلم و من معه من المؤمنين، و ما كان يصيب أعداء الإسلام من فشل مخططاتهم و خيبه مساعيهم.

و يحمل التاريخ الإسلامى بين طياته شواهد كثيره على هذا المعنى.

و تأمر الآيات النبى صلى الله عليه و آله و سلم -على الأخص- بأن يمهلهم و لا يتعجل على

ص: ١١٥

(١-١) -مفردات الراغب.

(٢-٢) -سوره يوسف، الآيه ٧٦.

عذابهم، وأنَّ يتَمَّ الحجَّه عليهم، فعسى أن يعود قسم منهم إلى رشده و يسلم و أساسا فالعجله لمن يخاف الفوت، و هذا ما لا يصدق على القاهر القادر سبحانه و تعالى.

و الملاحظ فى الآيه، إنَّها شرعت ب فَمَهَّلِ الكَافِرِينَ فيما أكَّدت ذلك بقولها «أمهلهم»، فالأول من باب (التفعل)، و الثانى من باب (الأفعال) و قد جاء للتأكيد دون تكرار اللفظ بعينه.

«رويدا»: من (الرود) -على وزن عود- و هو التردد فى طلب الشىء يرفق، و لها هنا معنى مصدرىا مع تصغير، أى أمهلهم مهله صغيره (١).

و بهذا يوصى الله عزَّ و جلَّ نبيِّه الكريم صلَّى الله عليه و آله و سلَّم فى هذه الجملة المختصره ثلاث مرات بامهال و مداراه الكافرين و هذا فى الحقيقه درس للمسلمين فى الكيفيه التى ينبغى العمل بها عند مواجهه أعداءهم، و خصوصا إذا ما كانوا أعداء أقوىاء و شرسين، فلا بدَّ من الصبر و التأنى و الدقه فى حساب خطوات المواجهه، و ينبغى عدم التسرع فى العمل، و كذا عدم تنفيذ القرارات غير المدروسه.

مضافا إلى التبليغ و الدعوه إلى الحق لا بدَّ فيها من تجنب العجله و التسرّع حتَّى تتاح الفرصه لكلِّ من يمكن هديه، فلا بدَّ من تفهيم الإسلام بكل لطف و سعه صدر مع الدليل القاطع، و بهذا تتمَّ الحجَّه على الآخرين.

أمَّا السبب فى طلب الإمهال القليل، ففيه احتمالين:

الأول: كان الإمهال لحين حدوث معركه بدر، حيث أحرز المسلمون فيها نصرا ميينا على الكفار بعد مدَّه قليله من نزول الآيه.

و معركه بدر أول ضربه موجعه تلقاها المشركون من المسلمين، ثمَّ تلتها ضربات فى معركه الأحزاب و معركه خيبر و غيرها، ممَّا أفشل مخططات الكفره

ص: ١١٦

١ - ١) -ف «رويدا» فى محل مفعول مطلق، و المعنى: أمهلهم إمهالا - قليلا - أميا ما قيل من كونها تحمل معنى الأمر، فهو بعيد، لأنَّ ذلك سيستلزم للآيه ثلاثه أوامر. و مع أنَّ «رويدا» جاءت بمعنى الأمر، و على صيغه اسم فعل، لكن الأنسب لها فى هذا الموضع أن تكون منصوبه كمفعول مطلق.

لدحر الإسلام.

و حينما وافى عمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الأجل، كان نور الإسلام قد غطى كلَّ أرجاء شبه الجزيرة العربية، و لم يمض قرن واحد على عمر الرسالة الخاتمة حتى تفيئت معظم أجزاء العالم تحت ظله الآمن.

الثانى: لأنَّ عذاب القيامة سيقع حتما، و كلَّ حتمى الوقوع قريب.

و على أيّ حال، فقد بدأت السوره بالقسم بالسماء و النجوم، و انتهت بتهديد الكافرين و المتآمرين على الحقّ، و فيما بين البدء و الانتهاء، تعرضت إلى بعض أدله المعاد بأسلوب رائع و مؤثر، و إلى بيان شيق للرقابه الإلهيه على أعمال الإنسان، بالاضافه إلى ما قدمته من تسليه لترطيب خواطر المؤمنين، بلسان فى غايه اللطف البليغ.

اللّهم، ردّ كيد أعداء دينك، و لا سيما المتأخرين منهم الذين عاثوا فى الأرض فسادا، و اقطع دابر المتجبرين...

اللّهم، سدّ عوراتنا يوم تبلى السرائر...

اللّهم، لا قوّه لنا و لا ناصر سواك، فلا تكلنا لغيرك...

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره الطّارق ***

ص: ١١٧

سوره الأعلی

اشاره

مکیه و عدد آیاتها تسع عشره آیه

ص: ۱۱۹

محتوى السّوره:

تحتوى السّوره على قسمين من المواضع:

القسم الأوّل: يحوى خطابا إلى النّبىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، يأمره البارى سبحانه فيه بالتسبيح و أداء الرساله، ثمّ ذكر سبعا من صفات الله عزّ وجلّ، لها صلّه ربط بالأمر الرّبانى إلى النّبىّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم.

القسم الثّانى: يتحدّث عن المؤمنين الخاشعين، والكافرين الأشقياء، ويتناول باختصار العوامل التى تؤدى إلى كل من السعاده و الشقاء الحقّ.

و فى آخر السّوره، يأتى التأكيد على أنّ ما جاء فى هذه السّوره ليس هو حديث القرآن الكريم فقط، بل و تناولته كتب و صحف الأولين أيضا، كصحف إبراهيم و موسى عليهما السّلام.

فضيله السّوره:

روى عن النّبىّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم، أنّه قال: «من قرأها أعطاه الله عشر حسنات بعدد كلّ حرف أنزل الله على إبراهيم و موسى و محمّد عليهم السّلام» (١).

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أيضا، أنّه قال: «من قرأ سيّج اسم ربّك الأعلى فى فرائضه أو نوافله قيل له يوم القيامة ادخل الجنّه من أى أبواب الجنّه

ص: ١٢١

شئت إن شاء الله» (١).

و ورد فى روايات عديده: إنَّ النبىَّ صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم أو أئمه أهل البيت عليهم السَّلام، كانوا إذا قرءوا سَبَّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، قالوا: «سبحان ربِّي الأعلى» (٢).

و

روى عن أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السَّلام، إنَّه قال: صليت خلفه عشرين ليله، و ليس يقرأ إلاَّ سَبَّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، و قال: «لو تعلمون ما فيها لقرأها الرجل كلَّ يوم عشرين مره، و أن من قرأها فكأنما قرأ صحف موسى و إبراهيم الذى وفى» (٣).

و خلاصه القول:

فيبدو أنَّ السَّوره من الأهميه بحيث:

«كان رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم يحب هذه السَّوره: سَبَّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى كما روى عن الإمام على عليه السَّلام (٤).

و قد اختلف فى مكان نزول الآيه، فمع أنَّ المشهور، نزولها فى مكه، لكنَّ ثمة من يقول بنزولها فى المدينه.

و يرجح العلامه الطباطبائى (قدس سره) أن يكون قسمها الأول مكيا و الآخر مدينا، فيقول: و سياق الآيات فى صدر السَّوره سياق مكى، و أميا ذيلها، أعنى قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى إلخ فقد ورد فى طرق أئمه أهل البيت عليهم السَّلام، و أنَّ المراد به «زكاه الفطره» و «صلاه العيد»، و من المعلوم أنَّ الصوم و ما يتبعه من زكاه الفطره و صلاه العيد إنَّما شرَّعت بالمدينه بعد الهجره (٥).

و يحتمل أيضا أنَّ الأمر بالصلاه العيد و الزكاه الواردين فى آخر السَّوره، هما

ص: ١٢٢:

١-١ - المصدر السابق.

٢-٢ - نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٤٤.

٣-٣ - المصدر السابق.

٤-٤ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٧٢.

٥-٥ - تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٣٨٦.

أمران عامان، و ما صلاه و زكاه الفطره إلا مصداقان لهما، و التفسير بالمصداق كثير في روايات أهل البيت عليهم السلام.

و عليه..فلا يبعد أن تكون السوره كلها مكّيه كما هو المشهور، بقريته انسجام مقاطع الآيات الاولى منها و الأخيره أيضا.

و يصعب اعتبار كون بعضها مكّي و الآخر مدني، خصوصا و أنّ الروايات تذكر، بأنّ كلّ مجموعه من المسلمين حينما يصلون المدينة، كانوا يقرءون هذه السوره لأهل المدينة (١).

فمن المستبعد أن يقرأ صدر السوره في مكّه، و من ثمّ ينزل ذيلها في المدينة.

ص: ١٢٣

١-١) -للتفصيل- راجع الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٣٧.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)

التفسير

إشاره

تسبيح الله:

تبدأ السوره بخلاصه دعوه الأنبياء عليهم السلام، حيث التسبيح و التقديس أبدا لله الواحد الأحد، فتخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم بالقول: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى .

يذهب جمع من المفسرين إلى أنّ المراد بال«اسم» هنا هو (المسمى)، في حين قال آخرون هو (اسم الله) سبحانه و تعالى.

و ليس ثمة فرق كبير بين القولين، فالإسم يدل على المسمى.

و على أيّ حال، فمراد الآية أن لا يوضع اسمه جلّ شأنه في مصاف أسماء الأصنام، و يجب تنزيه ذاته المقدسه من كلّ عيب و نقص، و من كلّ صفات المخلوق و عوارض الجسم، أى أن لا يحد.

فينبغي على المؤمنين ألا يتعاملوا مع اسمه الجليل كتعامل عبده الأصنام، بأن يضعوا اسمه تعالى مع أسماء أصنامهم، ولا يفعلوا كما يفعل المجسمه، ممن وقعوا في خطأ كبير و فاحش حينما نسبوا إلى الباري جلّ جلاله الصفات الجسميه.

الأعلى

:أى الأعلى من كل: أحد، تصوّر، تخيل، قياس، ظن، وهم، و من أى شرك بشقيه الجلى و الخفى.

رَبِّكَ

:إشاره إلى أنه غير ذلك الربّ الذى يعتقد به عبده الأصنام.

و بعد ذكر هاتين الصفتين (الربّ و الأعلى)، تذكر الآيات التاليه خمس صفات تبين ربوبيه الله العليا:.. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى فَسَوَّى □ □ من (التسويه)، و هى الترتيب و التنظيم، و يضم هذا المفهوم بين جناحيه كلّ أنظمه الوجود، مثل: النظام السماوى بنجومه و كواكبه، و الأنظمه الحاكمه على المخلوقات فى الأرض، و لا سيما الإنسان من حيث الروح و البدن.

أمّا ما قيل، من كونها إشاره إلى نظام اليد أو العين أو اعتدال القامه، فهذا فى واقعه لا يتعدى أن يكون إلّا بيان لمصداق محدود من مصاديق هذا المفهوم الواسع.

و على أيّه حال، فنظام عالم الخلقه، بدءا من أبسط الأشياء، كبصمات الأصابع التى أشارت إليها الآية (٤) من سوره القيامه بَلَى □ قَادِرِينَ عَلَى □ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ □، و انتهاء بأكبر منظومه سماويه، كلها شواهد ناطقه على ربوبيه الله سبحانه و تعالى، و أدله إثبات قاطعه على وجوده عزّ و جلّ.

و بعد ذكر موضوعى الخلق و التنظيم، تنتقل بنا الآية التاليه إلى حركة الموجودات نحو الكمال: وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى □.

و المراد ب(قَدَّرَ)، هو: وضع البرامج، و تقدير مقادير الأمور اللزومه للحركه باتجاه الأهداف المرسومه التى ما خلقت الموجودات إلّا لأجلها.

و المراد ب(هدى) هنا، هى: الهدايه الكونيه، على شكل غرائز و سنن طبيعيه

حاكمه على كل موجود(ولا فرق في الغرائز و الدوافع سواء كانت داخلية أم خارجيه).

فمثلا، إنَّ الله خلق ثدى المرأة و جعل فى اللبن لتغذيه الطفل، و فى ذات الوقت جعل عاطفه الامومه شديده عند المرأة، و من الطرف الآخر جعل فى الطفل ميلا غريزيا نحو ثدى امه، فكل هذه الاستعدادات و الدوافع و شدّه العلاقه الموجوده بين الام و الابن و الثدي مقدّر بشكل دقيق، كى تكون عمليه السير نحو الهدف المطلوب طبيعيه و صحيحه.

و هذا التقدير الحكيم ما نشاهده بوضوح فى جميع الكائنات.

و بنظره ممعنه لبناء كل موجود، و ما يطويه فى فتره عمره من خطوات فى مشوار الحياه، تظهر لنا بوضوح الحقيقه التاليه: (ثمّه برنامج و تخطيط دقيق يحيط بكل موجود، و ثمّه يد مقتدره تهديه و تعينه على السير على ضوء ما رسم له)، و هذه بحد ذاتها علامه جليّه لربوبيه الله جلّ و علا.

و قد اختص الإنسان بهدايه تشريعيه إضافه للهدايه التكوينيّه يتلقاها عن طريق الوحي و إرسال الأنبياء عليهم السلام، لتكتمل أمامه معالم الطريق من كافه جوانبه.

و توصلنا الآيه (٥٠) من سوره طه لهذا المعنى، و ذلك لَمَّا نقلت لنا سؤال فرعون إلى موسى عليه السّلام بقوله: **فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى**، فأجابه عليه السلام: **رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**.

و قد فهم قول موسى عليه السّلام بشكل مجمل فى زمانه، و حتى فى زمان نزول الآيه المباركه فى صدر الدعوه الإسلاميه، و لكنّ مع دوران عجله الأيام، و تقدم العلوم البشريه، توصل الإنسان إلى معارف كثيره و منها ما يختص بمعرفه أنواع أحوال الموجودات الحيّيه، فتوضح قول موسى عليه السّلام أكثر فأكثر، حتى كتبت آلاف الكتب فى موضوع (التقدير) و (الهدايه التكوينيّه)، و مع ما توصل إليه العلماء من معلومات

باهره، إلا- إنهم يؤكّدون على أنّ ما بقى خافى عليهم، هو أكثر بكثير ممّا توصلوا لمعرفته! و تشير الآيه التاليه إلى النباتات، و ما يخصّ غذاء الحيوانات منها: وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى .

و استعمال كلمه أَخْرَجَ فيه وصف جميل لعملية تكوّن النباتات، حيث إنّهُ يتضمّن وجودها داخل الأرض فأخرجها البارى منها.

و ممّا لا شك فيه إنّ التغذية الحيوانيه هي مقدمه لتغذيه الإنسان، و بالنتيجه فإنّ فائده عمليه تغذيه الحيوان تعود إلى الإنسان.

ثُمَّ: فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى .

«الغشاء»: هو ما يطفح و يتفرق من النبات اليابس على سطح الماء الجارى، و يطلق أيضا على ما يطفح على سطح القدر عند الطبخ، و يستعمل كناية عن: كلّ ضائع و مفقود، و جاء فى الآيه بمعنى: النبات اليابس المتراكم.

«أحوى»: من (الحوه)- على زنه قوّه- و هي شدّه الخضره، أو شدّه السواد، و كلاهما من أصل واحد، لأنّ الخضره لو اشتدّت قربت من السواد، و جاء فى الآيه بمعنى: تجمع النبات اليابس و تراكمه حتّى يتحول لونه تدريجيا إلى السواد.

و يمكن أن يكون اختيار هذا التعبير فى مقام بيان النعم الإلهيه، لأحد أسباب ثلاث:

الأول: إنّ حال هذه النباتات يشير بشكل غير مباشر إلى فناء الدنيا، لتكون دوما درسا و عبره للإنسان، فهى بعد أن تنمو و تخضر فى الربيع، شيئا فشيئا ستيس و تموت بعد مرور الأيام عليها، حتى يتحول جمالها الزاهى فى فصل الربيع إلى سواد قاتم، و لسان حالها يقول بعدم دوام الدنيا و انقضائها السريع.

الثانى: إنّ النباتات اليابسه عند ما تتراكم، فستتحول بمرور الوقت إلى سماد طبيعى، ليعطى الأرض القدره اللازمه لإخراج نباتات جديده اخرى

الثالث: إنَّ الآيه تشير إلى تكوّن الفحم الحجري من النباتات و الأشجار.

فكما هو معلوم، إنَّ الفحم الحجري، و الذي يعتبر من المصادر المهمّة للطاقة، قد تكوّن من النباتات و الأشجار التي يبست منذ ملايين السنين، و دفنت في الأرض حتى تحجرت و اسود لونها بمرور الزمان.

و يعتقد بعض العلماء، بأنّ مناجم الفحم الحجري قد تكوّنت من جراء النباتات اليابسه المدفونه في داخل الأرض منذ (٢٥٠) مليون سنه تقريبا! و لو أخذنا بنظر الاعتبار مقدار الاستهلاك الفعلي للفحم الحجري في العالم، لوجدنا أنّها تؤمن احتياج الناس لأكثر من (٤٠٠٠) سنه.

و تفسير الآيه بالمعنى الأخير دون غير بعيد حسب الظاهر، و لا يستبعد أن تكون الآيه قد أرادت كل ما جاء في المعاني الثلاث أعلاه.

و على أيّه حال، فللغذاء الأحوى منافع كثيره..فهو غذاء جيد للحيوانات في الشتاء، و يستعمل كسماد طبيعي للأرض، و كذا يستعمله الإنسان كوقود.

فما ذكرته الآيات من صفات الربوبيه، الأعلى، الخلق، التسويه، التقدير، الهدايه و إخراج المرعى، توصلنا إلى الربوبيه الحقّه لله جلّ و علا، و بقليل من التأمل يتمكن أيّ إنسان من إدراك هذا المعنى، ليصل نور الإيمان إلى قلبه، فيشكر المنعم على ما أعطى.

بحث

مسأله التقدير و الهدايه العامه للموجودات، التي تناولتها الآيات الآنفه الذكر كمظهر من مظاهر ربوبيه الله عزّ و جلّ، تعتبر من المسائل الحيويه و التي كلما تقدم الزمان و توسعت مدارك و علوم الإنسان، ازداد في الوصول إلى حقائق جديده تضاف إلى معلوماته السابقه.

فالاكتشافات العلميه الجديده فى كل يوم تحيطنا علما لرؤيه وجوه جديده رائعه لتقدير الله مخلوقاته و هدايته لها.

و يزيّن المفسّرون تفاسيرهم ببعض النماذج من تلك الأسرار الرائعه فى خصوص الهدايه التكوينيّه لحركه الحيوانات، و اعتمد البعض على ما ذكره العالم المعروف (كريسى موريسن) فى كتابه (أسرار خلق الإنسان)، و إليكم مختصرا ممّا جاء فيه:

١- تقطع الطيور المهاجره- فى بعض الأحيان- آلاف الكيلومترات فى السنه، عابره الصحارى و الغابات و البحار، و عند عودتها تعرف طريق موطنها الأصلي بكل دقه، و لا تضل عنه أبدا.

و من النحل ما يتعد عن خليته لمسافات بعيدة جدّا، و لكنّه يعود إلى خليته بكلّ سهوله و يسر، فى حين نرى الإنسان فى حال عودته إلى وطنه يحتاج إلى عناوين و علامات دقيقه، حتى لا- يضل الطريق! ٢- الحشرات تتمتع بعيون مجهرية ذات دقه فائقه حيّرت عقول العلماء، من حيث بنائها و قدرتها على النظر فى حين أن عيون الصقور تلسكوبية تعينها على النظر لمسافات بعيدة جدّا.

٣- حينما يسير الإنسان بين عتمه الليل الداكنه فلا بدّ له من إضاءه تعينه فى مسيره، إلا أنّ كثيرا من الطيور تصل أهدافها فى حلكه الليل الدامس، مستعينه بما لعيونها من قدره على التحسس بالأشعه ما دون الحمراء! و لبعضها مراكز حساسه تشبه فى عملها الرادارات المتطورة! ٤- للكلاب حسه شم مميزه، تستطيع من خلالها معرفه أى كائن حى يقع فى طريقها، و هذا ما لا يتوفر عند الإنسان، بالرغم من التقدم التقنى الذى وصل إليه.

٥- حسه السمع عند جميع الحيوانات أقوى و أدق من سمع الإنسان بدرجات، على الرغم من استعمال الإنسان للأجهزه العلميه المتطورة فى سمعه،

بحيث يستطيع أن يستمع إلى حركة أجنحه ذبابه على بعد عدّه كيلومترات منه! و لعل السرّ في هذا التفاوت بين قدره حواس الإنسان و الحيوان، يرجع إلى القدره العقليه المودعه في الإنسان، و التي بها يسد كلّ نقص، فيما لا تمتلك الحيوانات هذه القدره الفعاله ٦- و ثمّه حركه عجيبيه عند بعض الأسماك الصغيره، فهي تقضى السنين من عمرها في البحار، و لكن حين يحين وقت وضع البيض، فإنّها تترك البحار متجهه إلى تلك الأنهار التي فيها ولدت، فتسير بعكس التيار لمدّه طويله حتى تصل إلى مسقط رأسها، المكان المناسب لتكاثرها! ٧- و الأَعْجَب منها حياه بعض الأسماك و حيوانات الماء التي تسلك في حياتها عكس الصنف السابق.

ص: ١٣٠

اشاره

سُنُقِرُوكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيْسِرُوكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَبَّبَهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)

التفسير

اشاره

التوفيق الرباني:

فيما كان الحديث في الآيات السابقه عن ربوبيه الله و توحيدده جلّ شأنه، و الهدايه العامه للموجودات، و كذا عن تسبيح الرب الأعلى.. تأتي الآيات أعلاه لتتحدث عن: القرآن و النبوه، و هدايه الإنسان، و كذا البيان القرآني للتسبيح.

فتقول الآيه الاولى مخاطبه النبي صلى الله عليه و آله و سلم: سُنُقِرُوكَ فَلَا تَنْسَى .

فلا- تتعجل نزول القرآن، و لا تخف من نسيان آياته، فالذي أرسلك بهذه الآيات لهدايه البشريه كفيل بحفظها، و يخطها على قلبك الطاهر بما لا يمكن لآفه النسيان من قرض و لو حرف واحد منها أبدا.

و تدخل الآيه فى سياق الآيه (١١٤) من سوره طه: **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**، و كذا الآيه (١٦) من سوره القيامه:

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ تدخل فى سياقهما.

و لإثبات قدرته سبحانه و تعالى، و أنّ كل خير منه، تقول الآيه: **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**.

و لا يعنى هذا الاستثناء بأن النسيان قد أخذ من النبى صلى الله عليه و آله و سلم وطرا، و إنما هو لبيان أنّ قدره حفظ الآيات هى موهبه منه سبحانه و تعالى، و مشيئته هى الغالبه أبدا، و إلا لترزعت الثقه فى قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و بعباره اخرى، إنما جاء الاستثناء لتبيان الفرق بين علم الله تعالى الذاتى، و علم النبى صلى الله عليه و آله و سلم المعطى له من بارئه.

و الآيه تشبه إلى حد ما ما جاء فى الآيه (١٠٨) من سوره هود، بخصوص خلود أهل الجنه: **وَأَمَّا الَّذِينَ سُبِقُوا فِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ**.

ف **خَالِدِينَ فِيهَا** دليل على عدم خروج أهل الجنه منها أبدا، فإذن..عباره **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** تكون إشاره إلى حاكميه الإراده و القدره الإلهيه، و ارتباط كل شىء بمشيئته جلّ و علا، سواء فى بدايه الوجود أم فى البقاء.

و ممّا يشهد على ذلك أيضا.. أنّ حفظ بعض الأمور و نسيان اخرى تعتبر حاله طبيعيه بين بنى آدم، و لكنّ الله تعالى ميز حبيبه المصطفى بأن جعل فيه ملكه حفظ جميع آيات القرآن، و الأحكام و المعارف الإسلاميه، حينما خاطبه ب: **سُنِّقِرُوكَ فَلَا تَنْسَى**.

و قيل: أريد بهذا الاستثناء تلك الآيات التى نسخ محتواها و نسخت تلاوتها أيضا.

و لكن لعدم ثبوت وجود هكذا آيات، فلا يمكننا الاعتماد على هذا القول

وقيل أيضا: إنَّ الاستثناء يختص بقراءة بعض الآيات، فعلى هذا يكون مفهوم الآية هو: إننا سنقرئك آيات القرآن إلا بعض الآيات التي أراد الله عزَّ وجلَّ أن تبقى في مخزون علمه..

و لا يتوافق هذا القول مع سياق الآية.

أمَّا جملة: إِنَّهُ يَغْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى فليبيان علمه أمر تضمّنته جملة سَنُقْرُكَ أَي: إنَّ العليم جلَّ اسمه عالم بجميع حقائق الوجود، أمَّا ما يوحيه إليك، فهو ما يحتاج إليه البشر، ويصلك بالكامل دون أن ينقص منه شيء.

وقيل أيضا: إنَّ مراد الآية هو: على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن لا يتعجل في أخذ الوحي، وأن لا يخشى نسيانه، فالله الذي يعلم الأمور ما خفى منها و ما ظهر، سوف لا يتركه و قد تعهد له بالحفظ.

و على أيه حال، فمن معجز النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قابليته على حفظ الآيات و السور الطوال بعد تلاوه واحده من جبرائيل عليه السلام، دون أن ينسى منها شيئا أبدا.

و تخاطب الآية التاليه النبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مسليه له: وَ نُسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (١).

أي، إخبار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بصعوبه الطريق في كافه محطاته، من تلقى الوحي و حفظه حتى البلاغ و النشر و التعليم و العمل به، و تطمئنه بالرعايه و العنايه الربانيه، بتدليل صعابه من خلال تيسيرها له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و يمكن كذلك أن تكون إشاره الآية إلى أن طبيعه رساله الإسلاميه و التكاليف التي تضمّنتها، طبيعه سهله و سمحه، خاليه من الحرج و المشقّه.

و هذا المعنى يعطى شموليه أكثر لمفهوم الآية، بالرغم من أن أكثر المفسرين قد حددوا الآية ببعده واحد من أبعاد مفهومها.

١-١) قال بعض المفسرين: إنَّ مفهوم الآية هو: «نيسر اليسرى لك»، و إنما حصل فيها التقديم و التأخير للتأكيد، و هذا على أن لا تكون «نيسرك» بمعنى (نوفكك)، و إلا لم تكن هناك حاجه للتقديم و التأخير.

و حقًا، فلو لا توفيق الله و تيسيره للنبي صلى الله عليه و آله و سلم لما أمكنه من التغلب على كل تلك المشاكل و الصعاب التي واجهته في حياته الرسالية، و حياته الشريفة تنطق بذلك.

فراه بسيطًا في لباسه، قنوعًا في طعامه، متواضعًا في ركوبه، و تاره ينام على الفراش و اخرى على التراب بل و على رمال الصحراء أيضا.

فليس في حياته الشريفة أي تكلف، و لا أدنى تشريف من التشرifications الزائفة الواهية المحيطه بزعماء و رؤساء أي قوم أو أمه.

و بعد أن تبين الآيات العنايه الربانيه للنبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، تنتقل إلى بيان مهمته الرئيسي: فَذَكَرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى .

قيل: للإشارة هنا إلى أن التذكير بحد ذاته نافع، و قليل أولئك من الذين لا ينتفعون به، و الحد الأدنى للتذكير هو إتمام الحجّه على المنكرين، و هذا بنفسه نفع عظيم (1).

و لكن ثمة من يعتقد أن في الآية محذوف، و التقدير: (فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع)، و هذا يشبه ما جاء في الآية (18) من سورة النحل: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ، فذكر «الحر» و أضمر (البرد) لوضوحه بقريته المقابله.

و هناك من يؤكّد على أن الجملة الشرطيه في الآية، لها مفهوم، و المراد: أنه يجب عليك التذكير إذا كان نافعًا، فإن لم يكن نافعًا فلا يجب.

و قيل: «إن»: في الآية -ليست شرطيه، و جاءت بمعنى (قد) للتأكيد و التحقيق، فيكون مراد الآية: (ذكر فإن الذكرى مفيدة و نافعه).

و يبدو لنا أن التفسير الأول مرجح على بقية التفاسير الثلاث، بقريته سلوك

ص: ١٣٤

١- ١) - و ما في الآية بخلاف ما جاء في الآية (٦) من سورة البقره: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، لأنها تختص بفته قليله من الناس، و إلا - فأكثر الناس يتأثرون بالبلاغ المبين، و إن كانوا بدرجات متفاوتة، و عليه. فالجملة الشرطيه في الآية المبحوثة من قبيل القيد بالغالب الأعم.

النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فِي نَشْرِهِ الْإِسْلَامَ، تَبْلِيغِهِ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ كَانَ يَعِظُ وَ يَنْذِرُ الْجَمِيعَ.

و تقسم الآيات التالية للناس إلى قسمين، من خلال مواقفهم تجاه الوعظ و الإنذار، الذي مارسه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ.... سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى نعم، فإذا ما فقد الإنسان روح «الخشية»، و الخوف مما ينبغي أن يخاف منه، و إذا لم تكن فيه روحية طلب الحق -و التي هي من مراتب التقوى- فسوف لا- تنفع معه المواعظ الإلهية، و لا- حتى تذكيرات الأنبياء ستنتفعه، على هذا الأساس كان القرآن «هدى للمتقين».

و تذكر الآية التالية القسم الثاني، بقولها: وَ يَتَجَبَّبَهَا الْأَشْقَى (١).

و جاء عن ابن عباس، إن الآية السابقة: سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى نزلت في (عبد الله بن أم مكتوم) (٢)، ذلك البصير المؤمن الذي جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ طلباً للحق و التبصر به.

و روى، إن الآية: وَ يَتَجَبَّبَهَا الْأَشْقَى نزلت في (الوليد بن المغيرة) و(عتبة بن ربيعة) من رؤوس الشرك و الكفر (٣).

و قيل: يراد بالأشقى، المعاندين للحق بعداء، فالناس على ثلاثة أقسام: إمّا عارف و عالم، و إمّا متوقف شاك، أو معاند، و أفراد الطائفة الأولى و الثانية ينتفعون من التذكير طبعياً، فيما لا ينفع القسم الثالث منهم، و ليس للتذكير من أثر عليه سوى إتمام الحجّة. و يفهم من سياق الآية، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ كان ينذر و يعظ حتى المعاندين، لكنهم كانوا يتجنبونه و يهربون منه.

يبدو من خلال الآيتين الآنفتي الذكر أن «الشقاء» يقابل «الخشية» في حين

ص: ١٣٥

١-١) -يعود ضمير «يتجنبها» على «الذكرى» الواردة في الآيات السابقة.

٢-٢) -تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١١٠.

٣-٣) -تفسير الكشاف؛ روح المعاني (في ذيل الآيات المبحوثة).

أن (السعادة) هي التي تقابله، و لعل هذا التقابل يستبطن حقيقه كون أساس سعادته الإنسان مبنيه على إحساسه بالمسؤوليه و خشيته.

و يعرض لنا القرآن عاقبه القسم الثاني: الَّذِي يَصَلَى النَّارَ الْكُبْرَى .. ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى .

أى، لا- يموت ليخلص من العذاب، و لا- يعيش حياه خاليه من العذاب، فهو أبدا يتقلقل بالعذاب بين الموت و الحياه! و لكن ما هي «النار الكبرى»؟ قيل: إنها أسفل طبقه فى جهنم، و أسفل السافلين، و لم لا يكون ذلك و هم أشقى الناس و أشدهم عنادا للحق.

و قيل أيضا: إن وصف تلك النار ب«الكبرى» مقابل (النار الصغرى) فى الحياه الدنيا.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم، و قد أطفئت سبعين مره بالماء ثم التهبت و لولا ذلك ما استطاع آدمى أن يطيقها» (١).

و فى وصف نسبه بلاء الدنيا إلى بلاء الآخره، يقول أمير المؤمنين عليه السلام، فى دعاء كميل: «على أن ذلك بلاء مكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدته...».

ص: ١٣٦

اشاره

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) يَلِيْلٌ تُؤْتِيْنونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيْمَ وَ مُوسَى (١٩)

التفسير

اشاره

أسس دعوه الأنبياء جميعا عليهم السلام:

بعد أن عرضت الآيات السابقة صورته العذاب و معاناه أهله، يأتي الحديث عن الذين نفعتهم الذكرى، ممن استمعوا إلى دعوه الهدى فطهروا أنفسهم من المعاصي و الآثام، و خشعت قلوبهم لذكر الله.. و يقول القرآن: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى .

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى

فأساس الفلاح بالنجاه من العذاب و الفوز بالنعيم الخالد، يعتمد على ثلاثة أركان رئيسيه: «التركيه»، «ذكر اسم الله» و «الصلاه».

و قيل في معنى «التركيه» عدّه أقوال:

الا

أول: تطهير الروح و تزكيتها من الشرك، بقرينه الآيات السابقه، و باعتبار أن التطهير من الذنوب و عباده الله، يعتمد بالأساس على التطهير من الشرك، فهو مقدمته اللازمه.

الثانى: تطهير القلب من الرذائل الأخلاقية، و القيام بالأعمال الصالحه، بدلاله آيات الفلاح الوارده فى كتاب الله الكريم، كآيات الاولى من سوره المؤمن التى ذكرت أعمالا- صالحه بعد أن قالت: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، و كذا الآيه (٩) من سوره الشمس التى قالت، بعد ذكر مسأله التقوى و الفجور: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا .

الثالث: «زكاه الفطره» التى تؤدى يوم عيد الفطر، لأنها تدفع أولا- ثم يصلى صلاه العيد، و هذا المعنى قد ورد فى جملة روايات، رويت عن الإمام الصادق عليه السلام (١)، كما و روى فى كتب أهل السنه ما يؤيد هذا المعنى نقلا عن أمير المؤمنين عليه السلام (٢).

و يواجه القول الثالث بالإشكال التالى: إن سوره الأعلى مكّيه، فى حين أن تشريع زكاه الفطره و صوم شهر رمضان و صلاه العيد قد نزل فى المدينه.

فأجاب البعض: لا مانع من اعتبار أوائل آيات السوره مكّيه و أواخرها مدينه، فتكون الآيات المبحوثه مدينه.

و يحتمل أن يكون التفسير المذكور من قبيل بيان مصداق واضح للآيه، و ليس مطلق مراد الآيه.

الزّابع: يراد ب«التزكيه» فى الآيه بمعنى: إعطاء الصدقه.

المهم أن «التزكيه» ذات مداليل واسعته تشمل: تطهير الروح من الشرك، تطهير الأخلاق من الرذائل، تطهير الأعمال من المحرمات و الرياء، تطهير الأموال و الأبدان بإعطاء الزكاه و الصدقات فى سبيل الله،

ص: ١٣٨

١-١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٥٦، الحديثين (١٩ و ٢٠).

٢-٢) -روح المعانى، ج ٣٠، ص ١١٠، و تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٧٤٠.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا .

و بهذا تجمع كلّ الأقوال المذكوره لتدخل فى مفهوم التزكيه الواسع المداليل .

و الجدير بالذكر أنّ الآيات محل البحث تتحدث عن التزكيه أولا، ثمّ ذكر الله ثمّ الصلاه .

و قد أشار بعض المفسرين إلى هذه المراتب، بعد أن جدولها بالمراحل العمليه الثلاثه للمكلف:

الاولى: إزاله العقائد الفاسده من القلب .

الثانيه: حضور معرفه الله و صفاته و أسمائه فى القلب .

الثالثه: الإشتغال بخدمته و فى سبيله جلّ و علا .

و يمكن القول: إنّ الصلاه فرع لذكر الله، فإذا لم يذكر الإنسان ربّه، لم يسطع نور الإيمان فى قلبه، و عندها فسوف لن يقوى على الوقوف للصلاه، و الصلاه الحقه هى تلك التى يصاحبها التوجه الكامل و الحضور التام بين يديه عزّ و جلّ و هذان التوجه و الحضور إنّما يحصلان من ذكره سبحانه و تعالى .

أمّا ما ذكره البعض، من أنّ ذكر الله هو قول «الله أكبر» أو «بسم الله الرحمن الرحيم» فى بدايه الصلاه، فإنّما هو بيان لأحد مصاديق الذكر ليس إلّا .

و يشير البيان القرآنى إلى العامل الأساس فى عمليه الانحراف عن جاده الفلاح: بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .. وَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى .

و نقل الحديث النبوى الشريف هذا المعنى، بقوله: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئه» (1) .

فالإنسان العاقل لا يجيز لنفسه أن يبيع الدار الباقية بأمتعته فانيه، و لا أن يستبدل اللذائذ المحدوده و المحفوفه بألوان الآلام بالنعم الخالده و النقيه الخالصه .

ص: ١٣٩

(١ - ١) - و روى الحديث بصور عدّه عن الإمام الصادق عليه السّلام و الإمام السجاد عليه السّلام، و ورد معنى الحديث عن الأنبياء عليهم السّلام أيضا، ممّا يشير إلى أهميته البالغه .

و تختم السوره ب: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى .. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى (١).

و لكن، ما المشار إليه ب«هذا»؟ فبعض قال: إنه إشاره إلى الأمر بالتركيبه و ذكر اسم الله و الصلاه و عدم إثارة الحياه الدنيا على الآخره.

و ذلك من أهم تعاليم جميع الأنبياء عليهم السلام، كما و ورد هذا الأمر في جميع الكتب السماويه.

و اعتبره آخرون: إنه إشاره لجميع ما جاء في السوره، حيث أنها ابتدأت بالتوحيد مروراً بالنبوه حتى ختمت بالأعمال.

و على أيه حال، فهذا التعبير يبين أهميته محتوي السوره، أو خصوص الآيات الأخيره منها، حيث اعتبرها من الأصول الأساسيه للأديان، و مما حملة جميع الأنبياء عليهم السلام إلى البشريه كافه.

«الصحف»: جمع و (صحيفه)، و هي اللوح الذي يكتب عليه.

و نستدل بالآيه الأخيره بأن لإبراهيم و موسى عليهما السلام كتباً سماويه.

و

روى عن أبي ذر رضى الله عنه، إنه قال: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟ فقال: «مائة ألف نبي و أربعة و عشرون ألفاً».

قلت: يا رسول الله، كم المرسلون منهم؟ قال: «ثلاثمائة و ثلاثه عشر، و بقيتهم أنبياء».

قلت: كان آدم عليه السلام نبياً؟ قال: «نعم، كلمه الله و خلقه بيده.. يا أبا ذر، أربعة من الأنبياء عرب: هود و صالح و شعيب و نبيك». قلت: يا رسول الله، كم أنزل الله من كتاب؟

ص: ١٤٠

١ - ١) - يمكن أن تكون «صحف إبراهيم و موسى» توضيحاً للصحف الأولى، كما و يمكن أن تكون إشاره لأحد مصاديق الصحف، و إلا فهي تشمل جميع كتب الأنبياء السابقين.

قال: «مائة و اربعة كتب، أنزل الله منها على آدم عليه السّلام عشر صحف، و على شيث خمسين صحيفه، و على أخنوخ و هو إدريس ثلاثين صحيفه، و هو أوّل من خط بالقلم، و على إبراهيم عشر صحائف، و التوراه و الإنجيل و الزّبور و الفرقان» (١).

(أنزلت على موسى و عيسى و داود و محمّد على نبينا و آله و عليهم السلام).

و«الصحف الاولى»: مقابل «الصحف الأخيره» التي أنزلت على المسيح عليه السلام و على النّبي الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم.

بحث

اشاره

شرح الحديث الشريف: «حَبّ الدنيا رأس كلّ خطيئه»

لما كان تفضيل الآخره على الدنيا من الأمور الجليئه لدى المؤمنين، فكيف تصيب الغفله الإنسان المؤمن فيقع في فخ الخطايا و الذنوب؟! و يكمن الجواب في جملة واحده: عند غلبه الشهوات على وجود الإنسان و مصدر قوّه الشهوات هو: حَبّ الدنيا.

يتضمّن حَبّ الدنيا: حَبّ المال، المقام، الشهوه الجنسيه، حَبّ التفوق، حَبّ الذات، و حَبّ الانتقام... إلخ.. و إذا ما غلب هذا الحَبّ على وجود الإنسان فسيهتز كيانه بإعصار شديد و لا تستطيع كلّ معارف و علوم و عقائد الإنسان من أن تقف أمام جموحه، حتى يصل الإنسان لفقدان قدره التشخيص، فيقدم بالنتيجه الدنيا على الآخره.

ف

«حَبّ الدنيا رأس كلّ خطيئه» أمر محسوس و مجرّب في حياتنا و حياه الآخرين و هو دائم الوقوع أمام ناظرينا.

ص: ١٤١

الآخرين و هو دائم الوقوع أمام ناظرينا.

و عليه..فلا سبيل لقطع جذور المعاصى إلا بإخراج حبّ الدنيا و عشقها من القلب.

ينبغى علينا أن ننظر إلى الدنيا بواقعيه و عقلائيّه،فالدنيا ليست أكثر من مرحله انتقاليه أو معبر أو مزرعه الآخريه،فما يبذر اليوم يحصد غدا،و لا بدّ للإنسان أن العاقل ن يختار الطريق الذى يوصله إلى الهدف المنشود فيما إذا وقف بين مفترق طريقين،واحد يؤدى للحصول على متاع الدنيا الزائل،و الآخر يوصل إلى نيل رضا البارى سبحانه و تعالى.

و نظره-و إن كانت سريعه-إلى ملفات الجرائم سترينا واقعيه الحديث المذكور،و إذا ما تأملنا فى بواعثها الحقيقه،فسيوضح الحديث أكثر فأكثر.

و لا تخرج علل الحروب و سفك الدماء(حتى بين الاخوه و الأصدقاء)عن هذا الإطار المهلك(حبّ الدنيا).

فكيف النجاه،و كلنا أبناء هذه الدنيا و«لا يلام الولد على حبّه لأمه» كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السّلام؟! إنّ زورق النجاه من تلاطم أمواج و هيجان حبّ الدنيا لا- يبنى إلا- بالتربيه الفكرية و العقائديه،و من ثمّ تهذيب النفس و مجاهدتها،بالإضافه إلى الإعتبار من عواقب عبده الدنيا.

فما كانت عاقبه الفراعنه مع كلّ ما كان لهم من قوّه؟!و أين هو الآن قارون و كنوزه التى لا يقدر مجموعه من الرجال على حمل مفاتيحها إلا- بشقّ الأنفس؟! و حتى القوى المتسلطه فى عصرنا المعاش،ليس لهم سوى فتره زمنيّه محدوده، فترى عروشها تتهاوى،و هم بين فار و مختبئ فى أقذر المكنات و بين من سيلفه التراب،لينتقل بعدها إلى العالم الذى كان يكذب وجوده..أو ليس ذلك أفضل واعظ لنا؟!

ص: ١٤٢

سئل عن أى الأعمال أفضل عند الله؟

قال: «ما من عمل بعد معرفه الله عزّ وجلّ و معرفه رسوله أفضل من بغض الدنيا، فإنّ لذلك لشعبا كثيره، و للمعاصي شعب.

فأول ما عصى الله به «الكبر»، معصيه إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين، ثمّ «الحرص» و هى معصيه آدم و حواء حين قال الله عزّ وجلّ لهما: فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فأخذا ما لا حاجة بهما إليه، فدخل ذلك على ذريتهما إلى يوم القيامة، و ذلك إنّ أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه، ثمّ «الحسد» و هى معصيه ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حبّ النساء، و حبّ الدنيا (١)، و حبّ الرئاسة، و حبّ الراحة، و حبّ الكلام، و حبّ العلو و الثروه، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلّهن فى حبّ الدنيا، فقال الأنبياء و العلماء بعد ذلك: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئه (٢).

اللهم، اخرج حبّ الدنيا من قلوبنا..

اللهم، خذ بأيدينا إلى صراطك القويم، و أبلغنا مغرنا..

اللهم، إنّك تعلم الجهر و ما يخفى، فاغفر لنا ما ظهر من ذنوبنا و ما خفى..

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره الأعلى

ص: ١٤٣

١-١) - يبدو أنّ «حبّ الدنيا» هنا، بمعنى (حبّ البقاء فى الدنيا)، باعتباره كأحد الشعب السبعة، و يبدو أنّه يرادف (طور الأمد).

٢-٢) - اصول الكافى، ج ٢، ص ٢٣٩، باب حبّ الدنيا و الحرص عليها، الحديث ٨، و فى هذا الباب توجد روايه اخرى بهذا الشأن.

سوره الغاشيه

اشاره

مكيه و عدد آياتها ست و عشرون آيه

ص: ۱۴۵

محتوى السوره:

تدور محتويات السوره على ثلاثه محاور:

الأول: بحث «المعاد»، و بيان حال المجرمين بما فيه من شقاء و تعاسه، و وصف حال المؤمنين و هم يرفلون بنعيم لا ينضب.

الثانى: بحث «التوحيد»، و يتناول موضوع خلق السماء و الجبال و الأرض، و نظر الإنسان إليها.

الثالث: بحث «النبوه»، مع عرض لبعض وظائف النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و عموماً، فالسوره تسير على منهج السور المكيه فى تقويه أسس الإيمان و الاعتقاد.

فضيله السوره:

ورد فى فضيله هذه السوره فى الحديث النبوى الشريف: «من قرأها حاسبه الله حساباً يسيراً». (١)

و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «من أدمن قراءه هل أتاك حديث الغاشيه فى فرائضه أو نوافله غشاه الله برحمته فى الدنيا و الآخرة، أو أعطاه الأمن يوم القيامة من عذاب النار» (٢).

و بديهى أن الثواب المذكور لا يحصل إلا لمن تلاها بتأمل و عمل.

ص: ١٤٧

١-١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٧٧.

٢-٢ - المصدر السابق.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلِي نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)

التفسير

اشاره

المتعبون..الأخسرون!

تبتدأ السوره بذكر اسم جديد ليوم القيامة: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ .

«الغاشيه»:من (الغشاوه)،و هي التغطيه،و سميت القيامة بذلك لأنّ حوادثها الرهيبه ستغطي فجاءه كلّ شىء.

و قيل:بما أنّ الأولين و الآخرين سيجمعون فى ذلك اليوم،فالقيامة تغشاهم جميعا.

و قيل أيضا:يراد بها نار جهنم،لأنّها ستغطي وجوه الكافرين و المجرمين

و يبدو لنا التفسير الأول أنسب من غيره.

و ظاهر الآيه: إنها خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، و ما حوته من صيغه الاستفهام فليبان عظمه و أهميه يوم القيامة.

و يبدو بعيدا ما احتمله البعض من كون خطاب الآيه موجه إلى كل إنسان.

و تصف الآيات التاليه، حال المجرمين في يوم القيامة، فتقول أولا: **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ**.

لا- شك أن الوضع النفسى و الروحى، تنعكس آثاره على وجه صاحبه، لذا فسترى تلك الوجوه و قد علتها علائم الخسران و الخشوع لما أصابها من ذلّ و خوف و وحشه و هم بانتظار ما سيحل بهم من عذاب مهين أليم.

و قيل: «الوجوه» هنا، بمعنى وجهاء القوم و رؤساء الكفر و الطغيان، لما سيكون لهم من ذل و هوان و عذاب أشد من غيرهم.

و لكنّ المعنى الأول أنسب و تصف حال تلك الوجوه ثانيا: **عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ**.

فكلّ ما سعوا و كدوا فيه فى الحياه الدنيا سوف لا يجنون منه إلاّ التعب و النصب، و ذلك: لأنّ أعمالهم غير مقبوله عند الله، و ما جمعوه من أموال و ثروات قد ذهبت لغيرهم، و لا يملكون من ذكر صالح يعقبهم فى الدنيا و لا ولد صالح يدعو و يستغفر الله لهم، فما اصدق هذا القول بحقهم: **عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ**.

و قيل: المراد، إنّهم يعملون فى الدنيا، و لهم التعب و الألم فى الآخره.

و قيل أيضا: إنّ المجرمين سيقومون بأعمال شاقّه داخل جهنم، زياده فى عذابهم.

و يبدو التفسير الأول أصح من غيره.

و خاتمه مطاف تلك الوجوه التعبه الدليله أنّ: **تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً**.

«تصلّى»: من (صلّى) - على زنه نفى - و هو دخول النار و البقاء فيها،

و الاحتراق بها (١).

و لن يقف عذابهم عند هذا الحد، بل أنهم و بسبب حراره النيران يصيبهم العطش الشديد و حينئذ: تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيِهِ .

«آنيه»: مؤنث آنى من (الأنى)-على زنه حلى-و هو التأخير، و يستعمل لما يقرب وقته، و جاء فى الآيه بمعنى: الماء الحارق الذى بلغ أقصى درجه حرارته و جاء فى الآيه (٢٩) من سوره الكهف: وَ إِن يَسْتَعْجِلْ بِمَا يُعَذِّبُوا بِمَا كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَ سَاءَتْ مُرْتَفَقًا وَ تحكى لنا الآيه التاليه عن طعام المجرمين: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ وَ قد تعددت الآراء فى معنى «الضريح».

فقال بعض: نبت ذو شوكة لا صق بالأرض، تسميه قريش (الشبرق) إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو (الضريح)، لا تقربه دابه و لا بهيمه و لا ترعاه، و هو سم قاتل. (٢).

و قال الخليل (أحد علماء اللغه): الضريح نبات أخضر متن الريح، يرمى به البحر.

و عن ابن عباس: هو شجر من نار، و لو كانت فى الدنيا لأحرقت الأرض و ما عليها.

و

جاء فى الحديث النبوى الشريف: «الضريح شىء يكون فى النار يشبه الشوك، أشد مراره من الصبر، و أنتن من الجيفه، و أحر من النار، سمّاه الله ضريعا».

و قال بعض آخر: هو طعام يضرعون عنده و يذلون، و يتضرعون منه إلى الله

ص: ١٥٠

١-١) -صلى بالنار، لزمها و احترق بها.

٢-٢) -تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١١٩.

(و يذكر أن الضرع) بمعنى الضعف و الذله و الخضوع). (١)

و لا تعارض بين هذه التفاسير، و يمكن قبولها كلها فى تفسير الآيه المذكوره.

و تصف لنا الآيه التاليه ذلك الطعام: لَا يُشْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ .

فهو ليس لسد جوع أو تقويه بدن، و إنما هو طعام يخصص به، ايغالا- فى العذاب، كما ورد هذا المعنى فى الآيه (١٣) من و سوره المزمّل: وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَ عَذَابًا أَلِيمًا .

فالذين شرهوا فى تناول ألد المأكولات فى دنياهم، على حساب ظلم الناس و التجاوز على حقوقهم، و منعوا لقمه العيش عن كثير من المحرومين، فليس فى طعام آخرتهم سوى العذاب الأليم.

و نعود لنكرر القول: إنّ ما نصفه و نتصوره عن نعيم الجنّه و عذاب جهنم، لا يتعدى عن كونه مجرد إشارات و أشباح نراها من بعيد و نحن نعيش فى سجن الدنيا المحدود، و إلاّ- فحقيقه ما سينعم به أهل الجنّه و ما يعانيه أهل النار فمما لا يمكن لأحد وصفه!.

ص: ١٥١

١ - ١) - بحثنا موضوع طعام أهل النار، الذى يسميه القرآن تاره ب«الضريع» و اخرى ب«الزقوم» و ثالثه ب«غسلين»، و ما بينها من تفاوت.. فى ذيل الآيه (٣٦) من سوره الحاقه.

اشاره

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسِيِّمٍهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيَةٍ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزُرَابِيٌّ مَبْتُوثَةٌ (١٦)

التفسير

اشاره

صور من نعيم الجنه:

بعد ذكر ما سيتعرض له أهل النار، تنتقل عدسه السوره لتنتقل لنا مشاهدا رائعه لنعيم أهل الجنه.. ليتوضح لنا الفرق ما بين القهر الإلهي و الرحمه الإلهيه، و ما بين الوعيد و البشاره.

فتقول الآيه الاولى: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ، على عكس وجوه المذنبين المكسوه بعلائم الذله و الخوف.

«ناعمه»: من (النعمة)، و تشير هنا إلى الوجوه الغارقه في نعمه الله، ووجه طريه، مسروره و نورانيه، كما أشارت لهذا الآيه (٢٤) من سوره المطففين: تَعْرِفُ

فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ .

و ترى الوجوه: لِسَعِيهَا رَاضِيَةٌ .

على عكس أهل جهنم، فوجوههم «عامله ناصبه»، أمّا أهل الجنّة، فقد حان وقت حصادهم لما زرعوا في دنياهم، و حصلوا على أحسن ما يتمنون، فتراهم في غايه الرضى و السرور.

و ما زرعوا سيتضاعف ناتجه بإذن الله و لطفه أضعافا مضاعفه، فتاره عشره أضعاف، و اخرى سبعمائه ضعف، و ثالثه يجازون على ما عملوا بغير حساب، كما أشارت الآية (١٠) من سوره الزمر إلى ذلك بقولها: **إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** و يدخل البيان القرآنى فى التفصيل أكثر: **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** .

«عاليه»: قيل بإرادته المكان (فى طبقات الجنّة العليا)، و قيل أريد بها المقام الرفيع، و مع أنّ التفسير الثانى أرجح، إلاّ أنّه لا مانع من الجمع بينهما:

و كذا...: **لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيَةٍ** . (١)

فليس هناك ثمه: جدال، كلام نفاق، عداوه، حقد، حسد، كذب، تهمه، افتراء، غيبه و لا أى إيذاء، بل و لا حتى الكلام الفارغ.

فهل يوجد مكان أهدأ و أجمل من ذلك؟! و لو تأملنا حقيقه مشاكلنا فيما بيننا، لرأينا أنّ الغالب منها ما كان ناشئا عن سماع هكذا أحاديث، و التى تؤدى إلى عدم الاستقرار النفسى، و إلى تهديم أركان الترابط الاجتماعى فينهار النظام و تشتعل نيران الفتنة لتأكل الأخضر و اليابس معا.

و بعد ذكر القرآن لما يتمتع به أهل الجنّة من نعمه روحيه، يبيّن بعض النعم الماديه فى الجنّة: **فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ** .

ص: ١٥٣

١-١) - «لاغيه»: بالرغم من كونها اسم فاعل، و لكنّها تأتى بما يرادف (اللغو)، أى (ذات لغو).

ظاهر كلمه «عين» فى الآيه، إنها عين واحده بدليل مجيئها نكره، إلا أنه بالرجوع إلى بقيه الآيات فى القرآن الكريم، يتبين لنا أنها للجنس، فهى و الحال هذه تشمل عيوننا مختلفه، و من قرائن ذلك ما جاء فى الآيه (١٥) من سورة الذاريات: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ .

وقيل: فى كل قصر من قصور أهل الجنه، ثمه «عين جاريه»، و هو المراد فى الآيه، و من ميزه تلك الأنهار أنها تجرى حسب رغبه أهل الجنه، فلا داعى معها لشق أرض أو وضع سد.

و ينهل أهل الجنه أشربه طاهره و متنوعه، فتلك العيون و على ما لها من رونق و روعه، فلكل منها شراب معين له مواصفاته الخاصه به.

و ينتقل الوصف إلى أسره الجنه: فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ .

«سرر»: جمع (سرير)، و هو من (السرور)، بمعنى المقاعد التى يجلس عليها فى مجالس الانس و السرور (١).

و جعلت تلك الأسره من الارتفاع بحيث يتمكن أهل الجنه من رؤيه كل ما يحيط بها و التمتع بذلك.

يقول ابن عباس: إذا أراد أن يجلس عليها، تواضعت له حتى يجلس عليها، ثم ترتفع إلى موضعها. (٢)

و يحتمل أيضا: وصفت بالمرفوعه إشارة إلى رفعتها و علو شأنها.

وقيل: إنها من الذهب المزين و المرصع بالزبرجد و الدرّ و الياقوت.

و لا مانع من الجمع بين ما ذكر.

و لما كان شرب الشراب يستلزم ما يشرب به، فقد قالت الآيه التالیه:

وَ أَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ

ص: ١٥٤

١-١) - مفردات الراغب، ماده (سرر).

٢-٢) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٧٩.

و متى ما أرادوا الشرب ارتفعت تلك الأكواب لتصل بين أيديهم و قد ملئت من شراب تلك العيون، فيستلذون بما لا وصف له عند أهل الدنيا.

«أكواب»: جمع (كوب)، و هو القدح، أو الظرف الذى له عروه.

و بالاضافه إلى ذكر الـ«أكواب» فقد ذكر القرآن الكريم تعابير اخرى لها، مثل: «أباريق» جمع (إبريق) و هو ظرف معروف، و«كأس» بمعنى القدح المملوء بالشراب، كما جاء فى الآيتين (١٧) و(١٨) من سوره الواقعه: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَ أَبَارِيقٍ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ و يستمر الحديث عن جزئيات نعيم الجنه: وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ .

«نمارق»: جمع (نمرقه)، و هى الوساده الصغيره التى يتكأ عليها.

«مصفوفه»: إشاره إلى تعددها بنظم خاص، ليظهر أنّ لأهل الجنه جلسات انس جماعيه، التى لا يتخللها أى لغو و باطل، و يدور الحديث فيها حول الألفاف الإلهيه و نعمه الخالده، و عن الفوز الحقيقى الذى أبعدهم عن عذاب الآخره، و كيف أنّهم قد نجوا و خلصوا من الآم و أتعاب الدنيا.

ثم تكون الإشاره إلى فرش الجنه الفاخره: وَ زُرَابِيٌّ مَبْثُوثَةٌ .

«زرابيه»: جمع (زرب) أو (زريته)، و هى الفرش و البسط الفاخره ذات المتكأ.

ذكرت الآيات المبحوثه سبع نعم رائعه من نعم الجنه، و كلّ منها أكثر روعه من الاخرى.

و الخلاصه: فمَنْزِل الجنه لا- مثل له من كلّ الجهات، فهو الخالى من أى ألم أو عذاب أو حرب أو جدال.. و تجد فيه كلّ ألوان الثمار و الأنعام و العيون الجاريه و الأشربه الطاهره و الولدان المخلدين و الحور العين و الأسره المرصعه و الفرش الفاخره و أقداح جميله فى متناول اليد و جلساء أصفياء، إلى غير ذلك ممّا لا- يمكن عدّه بلسان أو وصفه بقلم و لا حتى تخيله إذا ما سرحت المخيله فى عالمها

الرحب!..

و كلّ ما ذكر و غيره سيكون فى انتظار من آمن و عمل صالحا، بعد حصوله على إذن الدخول إلى تلك الدار العالیه.

و فوق هذا و ذاك فثمّه «لقاء الله»، الذى ليس من فوز يوازيه.

ص: ١٥٦

اشاره

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكَرْ إِذْ مَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)

التفسير

اشاره

الإبل..من آيات خلق الله:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة بتفصيل عن الجنه و نعيمها،تأتى هذه الآيات لتوضيح معالم الطريق الموصل إلى الجنه و نعيمها.

فمفتاح المعرفه «معرفه الله»،و وصولا لهذا المفتاح تذكر الآيات أربعه نماذج لمظاهر القدره الإلهيه و بديع الخلقه،داعيه الإنسان للتأمل،عسى أن يصل إلى ما ينبغي له أن يصل إليه.

و تشير أيضا إلى أن قدره الله المطلقه هى مفتاح درك المعاد..

فتقول الآية الاولى: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ .

و لكن، لم يختص ذكر «الإبل» قبل غيره؟ للمفسرين حديث طويل في ذلك، لكن الواضح إن الآيات في أول نزولها كانت تخاطب أهل مكة قبل غيرهم، والإبل أهم شيء في حياة أهل مكة في ذلك الزمان، فهي معهم ليل نهار و تنجز لهم ضروب الأعمال و تدر عليهم الفوائد الكثيره.

أضف إلى ذلك أن لهذا الحيوان خصائص عجيبة قد تفرّد بها عن بقية الحيوانات، و يعتبر بحق آية من آيات خلق الله الباهره.

و من خصائص الإبل:

١- لو نظرنا إلى موارد الاستفادة من الحيوانات الأليفة، فسرى أنّ قسما منها لا يستفاد إلا من لحومها، و القسم الآخر يستفاد من ألبانها على الأغلب، و قسم لا يستفاد منه إلا في الركوب، و قسم قد تخصص في حمل و نقل الأثقال، و لكنّ الإبل تقدم كلّ هذه الخدمات (اللحم، اللبن، الركوب و الحمل).

٢- قدره حمل و تحمل الإبل أكثر بكثير من بقية الحيوانات الأهليه، حتى أنّها لتبرك على الأرض فتوضع الأثقال عليها ثمّ تنهض بها، و هذا ما لا تستطيع فعله بقية الحيوانات الأهليه.

٣- تتحمل العطش لأيام متتاليه (بين السبعه إلى عشره أيام)، و قابليتها على تحمل الجوع مذهله.

٤- يطلق عليها اسم (سفينه الصحراء)، لما لها من قابليه فائقه على طي مسافات طويله في اليوم الواحد، رغم الظروف الصحراويه الصعبه، فلا يعرقل حركتها صعوبه الأرض أو كثرة المنخفضات الرملية، و هذا ما لا نجده في أي حيوان آخر و بهذه المواصفات.

٥- مع إنّها تتغذى على أي شوك و أيّ نبات، فهي تشبع بالقليل أيضا.

ص: ١٥٨

٦-لعينها و اذنها و أنفها قدره كبيره على مقاومه الظروف الجويه الصعبه فى الصحراء، و حتى العواصف الرملية لا تقف حائلا أمام مسيرها.

٧-و الإبل مطيعه و سهله الانقياد، لدرجه أنّ بإمكان طفل صغير أن يأخذ بزمام مجموعه كبيره من الإبل و تتحرك معه حيث يريد.

و الخلاصه: إنّ ما يتمتع به هذا الحيوان من خصائص تدفع الإنسان لأن يلتفت إلى قدره الخالق سبحانه و تعالى.

و ها هو القرآن ينادى بكلّ وضوح: يا أيّها الضالون فى وادى الغفله ألاّ تتفكرون فى كيفيه خلق الإبل، لتعرفوا الحق و تخرجوا من ضلالكم؟! و لا بدّ من التذكير، بأنّ «النظر» الوارد فى الآيه، يراد به النظر الذى يصحبه تأمل و دراسه.

و ينتقل بنا البيان القرآنى فى الإبل إلى السماء: وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ .

السماء التى خيرت العقول بعظمتها و عجائبها و ما فيها من نجوم و ما لها من بهاء و روعه..السماء التى يتصاغر وجود الإنسان أمامها ليعد لا شىء بالنسبه لها..

السماء التى لها من دقه التنظيم و الحساب الدقيق ما بهر فيها عقول العلماء المتخصصين.

ألا- ينبغى للإنسان أن يتفكر فى أمر مدبر هذا الخلق، و ما الأهداف المرجوه من خلقه؟! فكيف أصبحت تلك الكواكب فى مساراتها المحدوده؟ و ما هو سرّ استقرارها فى أماكنها و بكلّ هذه الدقه؟ و لم لم يتغيّر محور حركتها بالرغم من مرور ملايين السنين عليها؟!!! و مع تطور الاكتشافات العلميه الحديثه، نرى أنّ عالم السماء و ما يحويه يزداد عظمه و جلالا بدرجات ملموسه نسبه إلى ما كان عليه قبلا...

مع كلّ هذا و ذاك، ألا يكون أمر خلق السماء مدعاه للتأمل و التفكير،

و الخضوع و التسليم لربوبيه الخالق الواحد الأحد؟! و ينقلنا إلى الجبال: وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ .

الجبال التي تشمخ بتعمق جذورها في باطن الأرض، و تحيط بالأرض على شكل حلقات و سلاسل لتقلل من شدّه الزلازل الناشئه من ذوبان المواد المعدنيه في باطن الأرض، و كذا ما لها من دور في حفظ الأرض من عمليه المدّ و الجزر الناشئه من تأثيرات الشمس و القمر.. الجبال التي لو لا وجودها بهذه الهيئه لما توفرت ظروف عيش الإنسان على سطح الأرض، لما تمثله من سد منيع أمام قوّه أثر العواصف.. و أخيراً، الجبال التي تحفظ الماء في داخلها لتخرجه لنا على صوره عيون فياضه نعم الأرض ليخضر بساطها بأنواع المزراع و الغابات.

و لعل ذلك كلّه كان وراء وصفها «أوتادا» في القرآن الكريم.

فهى عموماً.. مظهر الابيه و الصلابه و الشموخ، و هى مصدر خير و بركه معطاه، و لعل ذلك من علل تفتح ذهنيه الإنسان عندها، كما و ليس من العبث أن يتخذ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم جبل النور و غار حراء محلاً لعبادته قبل البعثه المباركه.

«نصبت»: من (النصب)، و هو التثبيت، و ربّما رمز هذا التعبير إلى بدايه خلق الجبال أيضاً.

فقد توصل العلم الحديث إلى أنّ تكون الجبال يعتمد على عوامل عديده و قسمها إلى عدّه أنواع:

فمنها: ما تكون نتيجة للتراكمات الحاصله على الأرض.

و منها: ما تكون من الحمم البركانيه.

و منها: ما تكون نتيجة لتفتت الأرض بواسطة الأمطار.

و كذا منها: ما تكون نتيجة للترسبات الحاصله في أعماق البحار و من بقايا الحيوانات (كالجبال و الجزر و المرجانيه).

نعم، فالجبال و بكلّ ما فيها و لها تعدّ آيه من آيات القدره الإلهيه، لمن رآها

بعين بصيره و لبّ شغول.

ثم إلى الأرض: وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ .

فلينظر الإنسان إلى كيفية هطول الأمطار على الجبال لتسيل من بعدها محمله الأترابه كى تتكون بها السهول الصافيه، لتكون صالحه للزراعه من جهه و مهينه لما يعمل بها الإنسان من جهه اخرى..و لو كانت كلّ الأرض عباره عن جبال و وديان، فما أصعب الحياه على سطحها و الحال هذه! و لا بدّ لنا من التأمل و التفكير فى من جعلها تكون على هذه الهينه الملائمه تماما لحياه الإنسان؟..

و لكن، ما علاقته الربط بين الإبل و السماء و الجبال و الأرض، حتى تذكرها الآيات بهذا التوالى؟ يقول الفخر الرازى فى ذلك: إنّ القرآن نزل على لغة العرب، و كانوا يسافرون كثيرا لأدبّ بلدتهم بلده خاليه من الزراعيه، و كانت أسفارهم فى أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيرا ما يسرون عليها فى المهامه و القفار مستوحشين، منفردين عن الناس، و من شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكير فى الأشياء، لأنه ليس معه من يحادثه، و ليس هناك شىء يشغل به سمعه و بصره، و إذا كان كذلك لم يكن له بدّ من أن يشغل باله بالفكره، فإذا فكر فى ذلك وقع بصره أول الأمر على الجمل الذى ركبه، فيرى منظرا عجيبا، و إذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، و إذا نظر يمينا و شمالا لم ير غير الجبال، و إذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنّه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوه و الانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعيه الكبر و الحسد على ترك النظر، ثمّ إنّّه فى وقت الخلوه فى المفازه البعيده لا يرى شيئا سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع الله بينها فى هذه الآيه (١).

ص: ١٦١

و إذا ما ابتعدنا المحيط العربي القديم و ما كان فيه، و توسعنا فى مجال تأملنا ليشمل كَلِّ محيط البشرى، لتوصلنا إلى أنّ هذه الأشياء الأربع تدخل فى حياه الإنسان بشكل رئيسى، حيث من السماء مصدر النور و الأمطار و الهواء، و الأرض مصدر نمو أنواع النباتات و ما يتغذى به، و كذا الجبال فبالإضافة لكونها رمز الثبات و العلو ففيها مخازن المياه و المواد المعدنية بألوانها المتنوعه، و ما الإبل إلا نموذج شاخص متكامل لذلك الحيوان الأهلى الذى يقدم مختلف الخدمات للإنسان.

و عليه، فقد تجمعت فى هذه الأشياء الأربع كَلِّ مستلزمات «الزراعه» و «الصناعه» و «الثروه الحيوانيه»، و حرى بالإنسان و الحال هذه أن يتأمل فى هذه النعم المعطاءه، كى يندفع بشكل طبيعى لشكر المنعم سبحانه و تعالى، و بلا شك فإنّ شكر المنعم سيدعوه لمعرفة خالق النعم أكثر فأكثر.

و بعد هذا البحث التوحيدى، يتوجه القرآن الكريم لمخاطبه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فذكر: **إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ.. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ**.

نعم، فخلق السماء و الأرض و الجبال و الحيوانات ينطق بعدم عبثه هذا الوجود، و أنّ خلق الإنسان إنّما هو لهدف...

فذكرهم بهدفيه الخلق، و بين لهم طريق السلوك الربانى، و كن رائدهم و قدوتهم فى مسيره التكامل البشرى.

و ليس باستطاعتك إجبارهم، و إن حصل ذلك فلا فائده منه، لأنّ شوط الكمال إنّما يقطع بالإراداه و الإختيار، و ليس ثمّه من معنى للتكامل الإجبارى.

و قيل: إنّ هذا الأمر الإلهى نزل قبل تشريع «الجهاد»، ثم نسخ به! و ما أعظم هذا الاشتباه!! فرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مارس عمليه التذكير و التبليغ منذ الوهله الاولى للبعثه الشريفه و استمر على هذا النهج حتى آخر لحظه من حياته الشريفه المباركه، و لم

تتوقف العمليه عن الممارسه من بعده، حيث قام بهذه المهمه الأئمه عليهم السّلام و العلماء من بعدهم، حتى وصلت ليومنا و سوف لن نتوقف بإذن الله تعالى، فأى نسخ هذا الذى يتكلمون عنه! ثم إن عدم إجبار الناس على الإيمان يعتبر من ثوابت الشريعه الإسلاميه السّمحاء، أما هدف الجهاد فيتعلق بمحاربه الطغاه الذين يقفون حجر عثره فى طريق دعاه الحقّ و طالبيه.

و ثمّه آيات اخرى فى القرآن قد جاءت فى هذا السياق، كالأيه (٨٠) من سوره النساء: وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْضِيْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا، و كذا الأيه (١٠٧) من سوره الأنعام، و الأيه (٤٨) من سوره الشورى-فراجع «مصيطر»: من (السطر)، و هو المعروف فى الكتب، و (المصيطر): الذى ينظم السطور، ثم استعمل لكلّ من له سلطه على شىء، أو يجبر أحدا على عمل ما.

و فى الآيتين التاليتين.. يأتى الاستثناء و نتيجه: إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَ كَفَرَ ..

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ

و لكن، إلى أيه جمله يعود الاستثناء؟ ثمّه تفاسير مختلفه فى ذلك:

الأول: إنّه استثناء لمفعول الجملة «فذكر»، أى: لا- ضروره لتذكير المعاندين الذين رفضوا الحق جمله و تفصيلا، كما جاء فى الآيه (٨٣) من سوره الزخرف:

فَذَرُهُمْ يُخَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ .

الثانى: إنّه استثناء لجمله محذوفه، و التقدير: فذكر إن الذكرى تنفع الجميع إلا- من تولى و كفر، كما جاء فى الآيه (٩) من سوره الأعلى: فَذَكَّرْهُ إِنَّ نَفْعَ الذُّكْرِى، (على أن يكون لها معنا شرطيا).

الثالث: إنّه استثناء من الضمير «عليهم» فى الآيه السابقه، أى: (إنك لست

عليهم بمصيطر إلا من تولى و كفر فانت مأمور بمواجهتها (١).

كل ما ذكر من تفاسير مبنى على أن الاستثناء متصل، ولكن ثمة من يقول بأن الاستثناء منقطع، فيكون معناه بما يقارب معنى (بل)، فيصبح معنى الجملة: (بل من تولى و كفر فإن الله متسلط عليهم) أو (إنه سيعاقبهم بالعذاب الأكبر).

و من بين هذه التفاسير، ثمة تفسيران مناسبان.

الأول: القائل بالاستثناء المتصل لجملة لست عليهم بمصيطر فيكون إشاره لاستعمال القوه في مواجهه من تولى و كفر.

الثاني: القائل بالاستثناء المنفصل، أى، سينالهم العذاب الأليم، الذى ينتظر المعاندين و الكافرين.

و يراد ب الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ «عذاب الآخرة» الذى يقابل عذاب الدنيا الصغير نسبة لحجم وسعه عذاب الآخرة، بقرينه الآيه (٢٦) من سورة الزمر: فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ .

و كذلك يحتمل إرادته نوع شديد من عذاب الآخرة، لأن عذاب جهنم ليس بمتساو للجميع.

و بحديه قاطعه، تقول آخر آيتين فى السوره: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ .. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ .

و الآيتان تتضمنان التسليه لقلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى مواجهته لأساليب المعاندين، لكى لا يبتئس من أفعالهم، و يستمر فى دعوته.

و هما أيضا، تهديد عنيف لكل من تسول له نفسه فيقف فى صف الكافرين و المعاندين، فيخبرهم بأن حسابهم سيكون بيد جبار شديد! بدأت سورة الغاشيه بموضوع القيامة و ختمت به أيضا، كما تمت الإشارة فيما

ص: ١٦٤

١- ١) - و نستفيد من حديث شريف ورد فى (الدر المنثور).. أنه صلى الله عليه و آله و سلم كان مأمورا بمحاربه عبده الأصنام، و فى غير ذلك فهو مأمور بالتذكير.

بين البدء و الختام إلى بحث التوحيد و النبوه، و هما دعامتا المعاد.

كما و تضمّنت السّوره عرضا لبعض ما سيصيب المجرمين من عقاب، و عرضت في قبال ذلك ما سينعم به المؤمنون في جنّات النعيم الخالده.

كما و أكّدت السّوره على حريه الإنسان في اختيار الطريق الذي يسلكه، و ذكّرت بعوده الجميع إلى مولا هم الحق، و هو الذي سيحاسبهم على كلّ ما فعلوا في دنياهم كما و بيّنت السّوره أن مهمّه الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم هي إبلاغ الرساله، و أنّه غير مسئول عن كفر و انحراف النّاس و ذنوبهم، و هذه هي مهمّه مبلغى طريق الحقّ.

اللّهم، ارحمنا يوم تعود الخلائق إليك و يكون حسابهم عليك..

اللّهم، نجّنا برحمتك الكبرى من عذابك الأكبر..

اللّهم، إنّ مواهب أهل الجنّه التي أوردت هذه السّوره قسما منها عظيمه و مذهله. فإنّ كُنّا لا نستحقّها بأعمالنا فتفضل علينا بها بلطفك و رحمتك.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره الغاشيه

سوره الفجر

اشاره

مكيه و عدد آياتها ثلاثون آيه

ص: ١٦٧

محتوى السّوره:

كبقية السور المكيه،فسوره الفجر ذات آيات قصار و أسلوب واضح و مصحوب بالإنذار و التحذير..

و تقدّم لنا الآيات الاولى أقساما نادره فى نوعها لتهديد الجبارين بالعذاب الإلهى.

و تنقل لنا بعض آياتها ما حلّ ببعض الأقوام السالفه ممن طغوا فى الأرض و عاثوا فسادا(قوم عاد،ثمود و فرعون)،و جعلهم عبره لاولى الأبصار،و درسا قاسيا لكلّ من يرى فى نفسه القوّه و الاقتدار من دون الله.

ثمّ تشير باختصار إلى الامتحان الربانى للإنسان،و تلومه على تقصيره فى فعل الخيرات..

و فى آخر ما تتحدث عنه السّوره هو«المعاد»و ما سينتظر المؤمنون ذوى النفوس المطمئنه من ثواب جزيل،و أيضا ما سينتظر المجرمين و الكافرين من عقاب شديد.

فضيله السّوره:

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم،أنه قال: «من قرأها فى ليل عشر غفر الله له،و من

قرأها سائر الأيام كانت له نورا يوم القيامة» (١).

كما و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «اقرأوا سورة الفجر في فرائضكم و نوافلكم فإنها سورة الحسين بن علي، من قرأها كان مع الحسين بن علي يوم القيامة في دوحته من الجنة». (٢)

يمكن أن يكون وصف السورة بسورة الإمام الحسين عليه السلام بلحاظ أنه أفضل مصاديق ما جاء في آخر آياتها، حيث فيما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الأخيرة من السورة: إنَّ «النفس المطمئنة» هو الحسين بن علي عليهما السلام.

أو قد يكون بلحاظ ل«ليال عشر» المقسوم بها في أول السورة، حيث من ضمن تفاسيرها أنها: ليالي محرم العشره، المتعلقة بشهادة الإمام الحسين عليه السلام و على أيه حال، فتوابها لمن تبصر في قراءتها و عمل على ضوئها.

ص: ١٧٠

١-١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٨١.

٢-٢ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٨١.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) وَ لَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ (٥)

التفسير

اشاره

و الفجر..!

بدأت السوره بخمسه أقسام:

الأول: وَ الْفَجْرِ .. وَ الثَّانِي: وَ لَيَالٍ عَشْرٍ .

«الفجر»: في الأصل، بمعنى الشقّ الواسع، و قيل للصبح «الفجر» لأنّ نوره يشقّ ظلمه الليل.

و كما هو معلوم فالفجر فجران، كاذب و صادق.

الفجر الكاذب: هو الخيط الأبيض الطويل الذي يظهر في السماء، و يشبه بذب الثعلب، تكون نقطه نهايته في الأفق، و قسمه العريض في وسط السماء.

الفجر الصادق: هو النور الذي يبدأ من الأفق فينتشر، و له نورانيه و شفافية خاصه، كنه من الماء الزلال يغطى أفق الشرق ثم ينتشر في السماء.

و يعلن الفجر الصادق عن انتهاء الليل و ابتداء النهار، و عنده يمسك الصائمون، و تصلى فريضه الصبح.

و فسر «الفجر» فى الآيه بمعناه المطلق، أى: بياض الصبح.

و لا شك فهو من آيات عظمه الله سبحانه و تعالى، و يمثل انعطافا فى حركه حياه الموجودات الموجوده على سطح الأرض، و منها الإنسان، و يمثل كذلك حاكميه النور على الظلام، و عند مجيئه تشرع الكائنات الحيه بالحركه و العمل، و يعلن انتهاء فتره النوم و السكون.

و قد أقسم الله تعالى ببدايه حياه اليوم الجديد.

و فسره بعض، بفجر أوّل يوم من محرم و بدايه السنه الجديده.

و فسره آخرون، بفجر يوم عيد الأضحى، لما فيه من مراسم الحج المهمه و لاتصاله بالليالي العشره الاولى من ذى الحجه.

و قيل أيضا: إنه فجر أوّل شهر رمضان المبارك، أو فجر يوم الجمعة.

و لكن مفهوم الآيه أوسع من أن تحدد بمصداق من مصاديقها، فهى تضم كل ما ذكر.

و ذهب البعض إلى أوسع ممّا ذكر حينما قالوا: هو كلّ نور يشع وسط ظلام..

و عليه، فبزوغ نور الإسلام و نور المصطفى صلى الله عليه و آله و سلّم فى ظلام عصر الجاهليه هو من مصاديق الفجر، و كذا بزوغ نور قيام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) فى وسط ظلام العالم (كما جاء فى بعض الروايات) (١).

و من مصاديقه أيضا، ثوره الحسين عليه السلام فى كربلاء الداميه، لشقها ظلمه ظلام بنى اميه، و تعريه نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقى أمام الناس.

و يكون من مصاديقه، كلّ ثوره قامت أو تقوم على الكفر و الجهل و الظلم على

ص: ١٧٢

١- (١) - راجع تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٥٧، الحديث ١.

و حتى انقذاح أول شراره يقظه في قلوب المذنبين المظلّمه تدعوهم إلى التوبه، فهو «فجر».

و ممّا لا شك فيه أنّ المعانى هي توسعه لمفهوم الآيه، أمّا ظاهرها فيدل على «الفجر» المعهود.

و المشهور عن «ليال عشر»: إنّهن ليالى أول ذى الحجّه، التى تشهد أكبر اجتماع عبادى سياسى لمسلمى العالم من كافه أقطار الأرض، (و ورد هذا المعنى فيما رواه جابر بن عبد الله الأنصارى عن النبى صلّى الله عليه وآله و سلّم) (١).

و قيل: ليالى أول شهر محرم الحرام.

و قيل أيضا: ليالى آخر شهر رمضان، لوجود ليله القدر فيها.

و الجمع بين كلّ ما ذكر ممكن جدّا.

و ذكر فى بعض الروايات التى تفسّر باطن القرآن: إنّ «الفجر» هو «المهدى» المنتظر «عجل الله تعالى فرجه الشريف».. و «ليال عشر» هم الأئمّه العشر قبله عليهم السلام..

و «الشفع» فى الآيه -هما علىّ و فاطمه عليهما السلام.

و على آيه حال، فالقسم بهذه الليالى يدل على أهميتها الاستثنائية نسبه لبقية الليالى، و هذا هو شأن القسم (٢)، و لا مانع من الجمع بين كلّ ما ذكر من معان.

و يأتى القسم الثالث و القسم الرابع: وَ الشَّفَعِ وَ الوَتْرِ .

للمفسّرين آراء كثيره فيما أريد ب «الشفع و الوتر» حتى ذكر بعضهم عشرين قولاً (٣)، فيما ذهب آخرون لذكر (٣٦) قولاً فى ذلك (٤).

ص: ١٧٣

١-١ - تفسير أبى الفتوح الرازى، ج ١٢، ص ٧٤.

٢-٢ - جاءت «ليال عشر» بصيغه النكره للدلاله على عظمتها و أهميتها، و إلاّ فهى تنطبق على كلّ ما ذكر أعلاه.

٣-٣ - تفسير الفخر الرازى، ج ٣١، ص ١٦٤.

٤-٤ - نقل ذلك كلّ من: العلّامه الطباطبائى فى الميزان عن بعض المفسّرين فى الجزء ٢٠، ص ٤٠٦.. و فى كتاب روح المعانى

عن كتاب التحرير و التحجير، ج ٣٠، ص ١٢٠.

و أهم تلك الأقوال، ما يلي:

١-مراد الآيه العددان الزوجى و الفردى،فيكون القسم بجميع الأعداد،تلك الأعداد التى تدور عليها و بها كّل المحاسبات و الأنظمه و المغطيه لجميع عالم الوجود،و كأنه سبحانه و تعالى يقول:قسما بالنظم و الحساب.

و حقيقه الحساب و النظم فى عالم الوجود،تمثل الاسس الواقعيه التى تقوم عليها الحياه الإنسانيه.

٢-المراد ب«الشفع»المخلوقات،لوجود قرين لكلّ منها،و المراد ب«الوتر» البارى جلّ شأنه،لعدم وجود شبيه له و لا نظير.

إضافه إلى أنّ الممكنات تتركب من (ماهيه)و(وجود)،و هو ما يعبر عنه بالفلسفه ب(الزوج التركيبي)،أمّا الوجود المطلق الخالى من الماهيه فهو«الله» حده،(و أشارت بعض الروايات المنقوله عن المعصومين عليهم السلام إلى ذلك) (١).

٣-المراد ب«الشفع و الوتر»جميع المخلوقات،لأنّها من جهه بعضها زوج و البعض الآخر فرد.

٤-المراد ب«الشفع و الوتر»الصلاه،لأنّ بعضها زوجى و البعض الآخر فردى،(و ورد هذا المعنى فى بعض روايات أهل البيت عليهم السلام أيضا) (٢)..أو هما ركعتى الشفع و ركعه الوتر فى آخر صلاه الليل.

٥-المراد ب«الشفع»يوم الترويه(الثامن من شهر ذى الحجه،حيث يستعد الحجاج للوقوف على جبل عرفات)،و«الوتر»يوم عرفه(حيث يكون حجاج بيت الله الحرام فى عرفات)..أو«الشفع»هو يوم عيد الأضحى(العاشر من ذى الحجه،و«الوتر»هو يوم عرفه.

ص: ١٧٤

١-١) -روى ذلك أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم راجع مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٨٥.

٢-٢) -المصدر السابق.

ووردت الإشارة إلى هذا المعنى في روايات أهل البيت عليهم السّلام أيضا (١) و المهم.. إنّ الألف و اللام في «الشفع و الوتر» إنّ كانا للتعميم، فكلّ المعانى تجتمع فيهما، و كلّ معنى سيكون مصداق من مصاديق «الشفع» و «الوتر»، و لا داعى و الحال هذه إلى حصر التّفسير بإحدى المعانى المذكوره، بل كلّ منها تطبيق على مصداق بارز.

أمّا إذا كانا للتعريف، فستكون إشارتهما إلى زوج و فرد خاصين، و فى هذه الحال سيكون تفسيران من التّفاسير المذكوره أكثر من غيرهما مناسبة و قربا مع مراد الآيه، و هما:

الأوّل: المراد بهما يومى العيد و عرفه، و هذا ما يناسب ذكر الليالى العشر الاولى من شهر ذى الحجّه، و فيهما تؤدى أهم فقرات مناسك الحج.

الثانى: أنّهما يشيران إلى «الصلاه»، بقريته ذكر «الفجر»، و هو وقت السحر و وقت الدعاء و التضرع إلى الله عزّ و جلّ.

و قد ورد هذان التّفسيران فى روايات عن أئمّه أهل البيت المعصومين عليهم السّلام.

و نصل هنا، إلى القسم الخامس: وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٢).

فما أدقّ هذا التعبير و أجمله؟! أفقد نسب السير إلى الليل، و ذلك لأنّ «يسر» من (سرى) و هو السير ليلا- على قول الراغب فى مفرداته.

و كأنّ الوصف يقول: بأنّ الليل موجود حسى، له حس و حركه، و هو يخطو فى ظلمته وصولا لنور النهار.

نعم، قسما بالظلام السائر نحو النور، قسما بالظلام المتحرك، لا الثابت الذى يثير الخوف و الرعب فى الإنسان، و الليل يكون ذا قيمه فيما لو كان سائرا نحو النور.

ص: ١٧٥

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -«يسر»: فى الأصل (يسرى) من (السرى)، و حذفت الياء للتخفيف، و لمناسبه الآيات السابقه.

وقيل: هو ظلمه الليل التي تتحرك على سطح الكره الأرضيه، و الليل نافع بحركته و تناوبه مع النهار على سطح الأرض، لينعم نصفها بالسبات و النوم، و ينعم النصف الآخر بالحركه و العمل تحت نور الشمس الرائع.

اختلف المفسّرون فى مراد الآيه من «الليل»، هل هو مطلق الليل أم ليله مخصوصه، فإن كانت الألف و اللام للتعميم فجميع الليالى، كآيه من آيات الله و مظهر من مظاهر الحياه المهمه.

و إن كانت الألف و اللام للتعريف، فليله عيد الأضحى، بلحاظ الآيات السابقه، حيث يتجه حجاج بيت الله الحرام من (عرفات) إلى (المزدلفه) -المشعر الحرام- و يقضون ليلهم فى ذلك الوادى المقدس، و عند الصبح يتجهون نحو (منى).

(و قد ورد فى هذا روايات عن أئمه أهل البيت عليهم السلام) (١).

و الذين حضروا مثل تلك الليله فى عرفات و مشعر، قد رأوا كيف يتحرك أكثر من مليون مسلم و هم متجهون من عرفات إلى المشعر و كأن الليل بكّله يتحرك و تشاطره فى ذلك الأرض و كذا الزمان.

و هناك يتلمس الإنسان معنى وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ بِكُلِّ دَقَائِقِهِ.

و على أيّه حال، فالليل سواء كان بمعناه المطلق أم المحدد فهو من آيات عظمه الخالق سبحانه و تعالى، و هو من الضرورات الحياتيه فى عالم الوجود.

فالليل يكيّف حراره الجو، و يعم على جميع الكائنات الاستقرار و السكون بعد جهد الحركه و التنقل، و فوق هذا و ذاك ففيه أفضل أوقات الدعاء و المناجاه مع الله جلّ و علا.

و أمّا ليله عيد الأضحى (ليله الجمع) فهي من أعجب الليالى فى ذلك الوادى

ص: ١٧٦

المقدس (المشعر الحرام).

و تتجسد تلك العلاقة الموجوده بين الأشياء الخمس التي أقسم بها (الفجر، ليال عشر، الشفع، الوتر، الليل إذا يسر) إذا ما اعتبرناها ضمن أيام ذى الحجة و مراسم الحج العظيمه.

و فى غير هذا فسيكون إشاره إلى مجموعه من حوادث عالم التكوين و التشريع المهمه، و التي تبين جلال و عظمه الخالق سبحانه و تعالى.

ثم تأتي الآيه التاليه لتقول: هَيْلٌ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِمَدَى حِجْرِ. «الحجر» هنا بمعنى: العقل، و فى الأصل بمعنى (المنع)، كأن يقال: حجر القاضى فلاناً، أو كأن يطلق على الغرفه (حجره) لأنها محل محفوظ و يمنع دخوله من قبل الآخرين، و كذلك يقال للحضن (حجر) -على وزن فكر- لحفظه و إحاطته، و اطلق على العقل (حجر) لمنعه الإنسان عن الأعمال السيئه، كما أن مصطلح (العقل) هو بمعنى (المنع) أيضاً، و منه (العقال) الذى به تربط أرجل البعير ليمنعه من الحركة.

و لكن... أين جواب القسم؟ ثمه احتمالان، هما:

الأول: قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ بِالْمُؤْصَدِ .

الثانى: جواب القسم محذوف و تدلّ عليه الآيات التاليه، التي تتحدث عن عقاب الطغاه، و التقدير: (قسماً بكلّ ما قلناه لنعدبن الكافرين و الطغاه).

ص: ١٧٧

إشاره

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبُّكَ لَبَالِغٌ صَادٍ (١٤)

التفسير

إشاره

إمهال الظالمين.. والانتقام!

بعد أن تضمّنت الآيات الأولى خمسة أقسام حول معاقبه الطغاه، تأتي هذه الآيات لتعرض لنا نماذج من طواغيت الأرض من الذين توفرت لهم بعض سبل القوّه و القدره، فأهوتهم أهوائهم في قاع الغرور و الكفر و الطغيان، و تبين لنا الآيات المباركه ما حلّ بهم من عاقبه أليمه، محذره المشركين في كلّ عصر و مصر على أن يرعوا و يعودوا إلى رشدهم بعد أن يعيدوا حسابهم و يستيقظوا من غفلتهم، لأنهم مهما تمتعوا بقوّه و قدره فلن يصلوا لما وصل إليه الأقسام السالفه، و ينبغي الاتعاظ بعاقبتهم، و إلاّ فالهلاك و العذاب الأبدى و لا غير سواه.

و تبتدأ الآيات ب: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ .

المراد «بالرؤية» هنا، العلم و المعرفة لما وصلت إليه تلك الأقوام من الشهره بحال بحيث أصبح من جاء بعدهم يعرف عنهم الشيء الكثير و كأنه يراهم بأم عينيه و لذا جاء في الآية: أَلَمْ تَرَ .

و مع أنّ المخاطب في الآية هو النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، إلا أنّ الخطاب موجّه إلى الجميع.

«عاد»: هم قوم نبي الله هود عليه السّلام، و يذكر المؤرخون أنّ اسم «عاد» يطلق على قبيلتين.. قبيله كانت في الزمن الغابر البعيد، و يسميها القرآن الكريم ب«عاد الاولى»، كما في الآية (٥٠) من سورة النجم، (و يحتمل أنّها كانت قبل التاريخ).

و يحددون تاريخ القبيله الثانيه بحدود (٧٠٠) سنة قبل الميلاد، و كانت تعيش في أرض الأحقاف أو اليمن.

و كان أهل عاد أقوياء البنيه، طوال القامه، لذا كانوا يعتبرون من المقاتلين الأشداد، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من تقدّم مدنى، و كانت مدنهم عامره و قصورهم عاليه و أراضيهم يعمها الخضار.

و قيل: إنّ «عاد» هو اسم جدّ تلك القبيله، و كانت تسمى القبيله ب(عاده).

و يضيف القرآن قائلا: **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** .

اختلف المفسّرون في علام يطلق اسم «إرم». هل هو شخص أم قبيله أم مدينه؟ ينقل الزمخشري في الكشاف عن بعضهم، قوله: إنّ عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح، و سمّيت القبيله باسم الجدّ و هو (إرم).

و يعتقد آخرون: إنّ (إرم) هم «عاد الاولى»، و «عاد» هي القبيله الثانيه، يقال أيضا: إنّ «إرم» هو اسم مدينتهم. (١)

ص: ١٧٩

١-١) - تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٧٤٧، و ذكر ذلك أيضا القرطبي في تفسيره، و غيره.

و ما يناسب الآيه التاليه، أن يكون (إرم) هو اسم مدينتهم.

«عماد»: بمعنى العمود و جمعه «عمد» و هى على ضوء التفسير الأول، تشير إلى ضخامه أجسادهم كأعمده البناء، و على ضوء التفسير الثانى تشير إلى عظمه أبنيتهم و علو قصورهم و ما فيها من أعمده كبيره.

و على القولين فهى: إشاره إلى قدره و قوه قوم عاد. (١)

و لكنّ التفسير الثانى (أعمده قصورهم العظيمه) أنسب.

و لذا تقول الآيه التاليه: **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**.

و الآيه تبين أنّ المراد بـ «إرم» المدينه و ليس شخص أو قبيله، و لعل هذه الآيه هى التى دعت بعض كبار المفسرين من اختيار هذا التفسير، و نراه كذلك راجحا (٢).

و قد ذكر بعض المفسرين قصه اكتشاف مدينه «إرم» العظيمه فى صحارى شبه الجزيره العربيه و صحارى عدن، و تحدثوا بتفصيل عن رونقها و بنائها العجيب، و لكنّ القصه أقرب للخيال منها للواقع.

و على أيه حال، فقوم «عاد» كانوا من أقوى القبائل فى حينها، و مدنهم من أرقى المدن من الناحيه المدينه، و كما أشار إليها القرآن الكريم: **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**.

و ثمه قصص كثيره عن «جنه شداد بن عاد» فى كتب التاريخ، حتى أنها أصبحت مضربا للأمثال لما شاع عنها بين الناس و على مرّ العصور، إلا أنّ ما ورد بين متون كتب التاريخ لا يخرج عن إطار الأساطير التى لا واقع لها.

و تذكر الآيه التاليه جمع آخر من الطغاه السابقين: **و تَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ**، و صنعوا منها البيوت و القصور.

ص: ١٨٠

١-١) - و على ضوء التفسير الأول يكون التعبير بـ «ذات» لأنّ الطائفه و القبيله مؤنث لفظى.

٢-٢) - «إرم» ممنوع من الصرف، لذا فقد نصب فى حاله الجر.

«ثمود»: من أقدم الأقبام، ونبئهم صالح عليه السلام، وكانوا يعيشون في (وادي القرى) بين المدينة و الشام، وكانوا يعيشون حياه مرفهه، و مدنهم عامره.

و قيل: «ثمود» اسم جد القبيله، و قد سميت به (١).

«جابوا»: من (الجوبه) - على زنه توبه - و هي الأرض المقطوعه، ثم استعملت في قطع كل أرض، و جواب كلام، هو ما يقطع الهواء فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع، (أو لأنه يقطع السؤال و ينهيه).

و على أيه حال، فمراد الآيه: قطع أجزاء الجبال و بناء البيوت القويه، كما أشارت إلى ذلك الآيه (٨٢) من سوره الحجر - حول ثمود أنفسهم: - وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ، و الآيه (١٤٩) من سوره الشعراء، و التي جاء فيها: ...بُيُوتًا فَارِهِينَ .

و قيل: قوم ثمود أول من قطع الأحجار من الجبال، و صنع البيوت المحكمه في قلبها.

«واد»: في الأصل (وادي)، و هو الموضع الذي يجرى فيه النهر، و منه سمي المفرج بين الجبلين واديا، لأن الماء يسيل فيه.

و المعنى الثاني أكثر مناسبة بقرينه ما ورد في القرآن من آيات تتحدث عن هؤلاء القوم، و ما ذكرناه آنفا يظهر بأنهم كانوا ينحتون بيوتهم في سفوح الجبال (٢).

و

روى: إن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم عند ما وصل إلى وادي ثمود - شمال الجزيره العربيه - في طريقه إلى تبوك، قال و هو راكب على فرسه: «أسرعوا، فهي أرض ملعونه» (٣).

ص: ١٨١

١ - ١) - «ثمود»: من (الثمد)، و هو الماء القليل الذي لا ماده له، و المثمود: إذا كثر عليه السؤال حتى فقد ماده ما له، و يقال أنها كلمه أعجميه (مفردات الراغب).

٢ - ٢) - الباء في «الواد»: تعطي معنى الظرفيه.

٣ - ٣) - روح البيان، ج ١٠، ص ٤٢٥ (ما مضمونه).

مَمَا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ ثَمُودَ قَوْمٌ قَدِ وُصِلُوا إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ التَّمَدُّنِ فِي زَمَانِهِمْ، وَ لَكِنَّ مَا يَذْكَرُ عَنْهُمْ فِي بَعْضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، يَبْدُو وَ كَأَنَّهُ مَبَالِغٌ فِيهِ أَوْ اسْطُورَةٌ، كَأَن يَقُولُوا: إِنَّهُمْ بَنَوْا أَلْفًا وَ سَبْعِمِائَةَ مَدِينَةٍ مِنَ الْحِجْرِ! وَ تَتَعَرَّضُ الْآيَةُ التَّالِيَةُ لِقَوْمٍ ثَالِثٍ: وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ .

أى: ألم تر ما فعل ربك بفرعون الظالم المقتدر؟! «أوتاد»: جمع (وتد)، وهو ما يثبت به.

و لم وصف فرعون بذى الأوتاد؟ و ثمّه تفاسير مختلفه:

الأول: لأنه كان يملك جنودا و كتائبًا كثيره، و كانوا يعيشون في الخيم المثبته بالأوتاد.

الثاني: لما كان يستعمل من أساليب تعذيب من يغضب عليهم، حيث غالبا ما كان يدق على أيديهم و أرجلهم بأوتاد ليثبتها على الأرض، أو يضعهم على خشبه و يثبتهم بالأوتاد، أو يدخل الأوتاد في أيديهم و أرجلهم و يتركهم هكذا حتى يموتوا.

و ورد هذا الكلام في روايه نقلت عن الإمام الصادق عليه السلام (١).

و تنقل كتب التاريخ إنه قد عذب زوجته «آسيه» بتلك الطريقه البشعه حتى الموت، لأنها آمنت بما جاء به موسى عليه السلام و صدقت به.

الثالث: «ذى الأوتاد»: كناية عن قدره و استقرار الحكم.

و لا تنافى فيما بين التفاسير الثلاثة، و يمكن إدخالها جميعها في معنى الآية.

و ينتقل القرآن العرض ما كانوا يقومون به من أعمال: الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ .. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ

ص: ١٨٢

(١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٧١، الحديث (٦)، كما نقله عن علل الشرائع.

الفساد الذى يشمل كل أنواع الظلم و الاعتداء و الانحراف، و الذى هو نتيجة طبيعیه من نتائج طغيانهم، فكل من يطغى سيؤول أمره إلى الفساد لا محال.

و يذكر عقابهم الأليم و عبارته موجزه: فَصَّبَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ «السوط»: هو الجلد المضفور الذى يضرب به، و أصل السوط: خلط الشئ بعضه ببعض، و هو هنا كناية عن العذاب، العذاب الذى يخلط لحم الإنسان بدمه فيؤذيه أشد الإيذاء.

و

جاء فى كلام أمير المؤمنين عليه السّلام عن الامتحان: «و الذى بعثه بالحقّ للتبليّن بلبله و لتغربلن غربله و لتساطن سوط القدر» (١).

«صَبَّ عَلَيْهِمْ»: تستعمل فى الأصل لانسكاب الماء، و هنا إشارة إلى شدّه و استمرار نزول العذاب، و يمكن أن يكون إشارة لتطهير الأرض من هؤلاء الطغاه أمّا أنسب معانى «السوط» فهو المعروف بين الناس به.

فعلى إيجاز الآيه، لكنّها تشير إلى أنواع العذاب الذى أصابهم، فعاد أصيبوا بريح بارده، كما تقول الآيه (٦) من سوره الحاقه: وَ أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، و أهلك قوم ثمود بصيحه سماويه عظيمه، كما جاء فى الآيه (٥) من سوره الحاقه أيضا: فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ، و الآيه (٥٥) من سوره الزخرف تنقل صورته هلاك قوم فرعون: فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ .

و تحذر الآيه التاليه كلّ من سار على خطو أولئك الطواغيت: إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ .

«المرصاد»: من (الرصّد)، و هو الاستعداد للترقب، و هو فى الآيه يشير إلى عدم وجود أى ملجأ أو مهرب من رقابه الله و قبضته، فمتى شاء سبحانه أخذ المذنبين بالعقاب و العذاب.

ص: ١٨٣

و بديهي، أنّ التعبير لا- يعني أنّ الله تعالى له مكان و كمين يرصد فيه الطواغيت، بل كناية عن إحاطه القدره الإلهيه بكلّ الجبارين و الطغاه و المجرمين، و سبحانه و تعالى عن التجسيم و ما شابه.

و

قد ورد في معنى الآيه عن الإمام على عليه السلام قوله: «إنّ ربك قادر على أن يجزى أهل المعاصي جزاءهم» (١).

و

عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «المرصاد قنطره على الصراط، لا يجوزها عبد بمظلمه عبد» (٢).

و هذا مصداق جليّ للآيه، حيث أنّ المرصاد الإلهي لا ينحصر بيوم القيامة و الصراط، بل هو تعالى بالمرصاد لكلّ ظالم حتى في هذه الدنيا، و ما عذاب تلك الأقوام الآنفة الذكر إلّا دليل واضح على هذا.

«ربّك»: إشارة إلى أنّ هذه السنّه الإلهيه لم تقف عند حدّ الذين خلوا من الأقوام السالفه، بل هي ساريه حتى على الظالمين من امتك يا محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم.. و في ذلك تسليه لقلب النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و تطينا لقلوب المؤمنين، فالوعد الإلهي قد أكّد على عدم انفلات الأعداء المعاندين من قبضه القدره الإلهيه أبدا أبدا، و فيه تحذير أيضا لأولئك الذين يؤذون النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و يظلمون المؤمنين، تحذير بالكف عن ممارساتهم تلك و إلّا سيصيبهم ما أصاب الأ-كث منهم قدره و قوّه، و عندها فسوف لن تقوم لهم قائمه إذا ما أتتهم ريح عاصفه أو صيحه مرعبه أو سيل جارف يقطع دابرهم.

روى عن النّبي الأ-كرم صلّى الله عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «أخبرني الروح الأمين أنّ الله لا إله غيره إذا وقف الخلائق و جميع الأولين و الآخرين، أتى بجهنّم ثمّ يوضع عليها صراط أدق من الشعر و أحد من السيف، عليه ثلاث قناطر... الأولى: الأمانه

ص: ١٨٤

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٨٧.

٢-٢) -المصدر السابق.

و الرحم، و الثانيه: عليها الصلاه، و الثالثه: عليها عدل رب العالمين لا إله غيره، فيكلفون الممر عليها، فتحبسهم الرحم و الأمانه، فإن نجوا منها حبستهم الصلاه، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى رب العالمين جلّ ذكره، و هو قول الله تبارك و تعالى: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١).

و

عن الإمام على عليه السلام: «و لئن أمهل الله الظالم فلن يفوت أخذه، و هو له بالمرصاد، على مجاز طريقه، و بموضع الشجى من مساع ريقه» (٢).

ص: ١٨٥

١- ١) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٧٣، عن روضه الكافي الحديث ٤٨٦، اقتباس.

٢- ٢) - نهج البلاغه، الخطبه ٩٧.

اشاره

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَ لَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨) وَ تَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)

التفسير

اشاره

موقف الإنسان من تحصيل النعمه و سلبها!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن عقاب الطغاه، و تحذيرهم و إنذارهم، تأتي هذه الآيات لتبين مسأله الابتلاء و التمحيص و أثرها على الثواب و العقاب الإلهي، و تعتبر مسأله الابتلاء من المسائل المهمه في حياه الإنسان.

و تشرع الآيات ب: فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ .

و كأنه لا يدري بأن الابتلاء سنه ربانيه تاره يأتي بصوره اليسر و الرخاء

و اخرى بالعسر و الضراء.

فلا- ينبغى للإنسان أن يغتر عند الرخاء، ولا- أن ييأس عند ما تصيبه عسره الضراء، ولا ينبغى له أن ينسى هدف وجوده فى الحاليتين، و عليه أن لا يتصور بأن الدنيا إذا ما أرخت نعمها عليه فهو قد أصبح مقربا من الله، بل لا بد أن يفهمها جيّدا و يؤدّى حقوقها، و إلا فسيفشل فى الامتحان.

و من الجدير بالملاحظه، أنّ الآيه ابتدأت بالحديث عن إكرام الله تعالى للإنسان «فأكرمه و نعمه»، فى حين تلومه على اعتقاده بهذا الإكرام فى آخرها:

فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ

، و ذلك.. لأنّ الإكرام الأول هو الإكرام الطبيعى، و الإكرام الثانى بمعنى القرب عند الله تعالى.

وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ

فيأخذه اليأس، و يظن إنّ الله قد ابتعد عنه، غافلا- عن سنّه الابتلاء فى عمليه التربيّه الربّانيه لبنى آدم، و التى تعتبر رمزا للتكامل الإنسانى، فمن خلال نظره و معايشه الإنسان للابتلاء يرسم بيده لوحه عاقبته، فأما النعيم الدائم، و أما العقاب الخالد.

و توضح الآيتان بأنّ حاله اليسر فى الدنيا ليست دليل قرب الله من ذلك الإنسان، و كذا الحال بالنسبه لحاله العسر فلا تعنى بعد الله عن عبده، و كلّ ما فى الأمر أنّ الحاليتين صورتان مختلفتان للامتحان الذى قرّره الحكمة الإلهيه، ليس إلا.

و تأتى الآيه (٥١) من سوره فضّلت فى سياق الآيتين: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ .

و كذا الآيه (٩) من سوره هود: وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسِكُفُورٌ .

و تنبهنا الآيتان أيضا، بأن لا نقع فى خطأ التشخيص، فنحكم على فلان بأن

اللّٰهُ راضى عنه لأنّه يفعم بالنعم الإلهيه، و أن فلان قد سخط عليه اللّٰهُ لأنّه محروم من نعم كثيره، و لا بدّ لنا من الرجوع إلى المعايير الثابته عند القيام بعمله التشخيص و التقييم، فالعلم و الإيمان و التقوى هي أسس التقييم، و ليس ظاهر التمتع بحاله السراء..

فما أكثر الأنبياء الذين تناوشتهم أياب البلايا و المصائب، و ما أكثر الكافرين و الطغاه الذين تنعموا بمختلف ملاذ الدنيا، إنّها من سنن طبيعه الحياه الدنيا، و لكن..

أين الأنبياء من الكافرين و.. عقبى الدار؟! فالآيه إذن، تشير إلى فلسفه البلاء، و ما يصيب الإنسان من محن و إحن فى دنياه.

و توجه الآيتان التاليتان نظر إلى الإنسان و الأعمال التى تؤدى بحقّ للبعد عن اللّٰهُ، و توجب عقابه: كَلَّا فليس الأمر كما تظنون من أنّ أموالكم دليل على قربكم من اللّٰهُ، لأنّ أعمالكم تشهد ببعدهم عنه، بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ .. وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ .

و الملاحظ أنّ الآيه لم تخص اليتيم بالإطعام بل بالإكرام، لأنّ الوضع النفسى و العاطفى لليتيم أهم بكثير من مسأله جوعه.

فلا ينبغى لليتيم أن يعيش حاله الانكسار و الذله بفقدان أبيه، و ينبغى الاعتناء به و إكرامه لسدّ الثغره التى تسببت برحيل أبيه، و قد أولت الأحاديث الشريفه و الروايات هذا الجانب أهميه خاصه، و أكدت على ضروره رعايه و إكرام اليتيم.

فعن الإمام الصادق عليه السلام، إنّهُ قال: «ما من عبد يمسح يده على رأس يتييم رحمه له إلا أعطاه اللّٰهُ بكلّ شعره نورا يوم القيامه» . (١)

و تقول الآيه (٩) من سوره الضحى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ .

ص: ١٨٨

(١ - ١) - بحار الأنوار، ج ١٥، ص ١٢٠ (الطبعه القديمه).

و هذه الدعوه الربّانيه تقابل ما كان سائدا في عصور الجاهليه، كيف و كانوا يتعاملون مع اليتامى، و لا تنفصل جاهليه اليوم عن تلك الجاهليه، فنرى من لم يدخل الإيمان قلبه، كيف يتوسل بمختلف الحيل و الألاعيب لسرقه أموال اليتامى، و الأشد من هذا فإنهم يتركون اليتامى جانبا بلا اهتمام و لا رعايه ليعيشوا غمّ فقدان الآباء و بأشدّ صوره! فإكرام اليتيم لا ينحصر بحفظ أموالهم- كما يقول البعض- بل يشمل حفظ الأموال و غيرها.

«تحاضون»: من (الحض)، و هو الترغيب، فلا يكفى إطعام المسكين بل يجب على الناس أن يتواصوا و يبحث بعضهم البعض الآخر على ذلك لتعم هذه السنّه التربويه كلّ المجتمع (١).

و قد قرنت الآيه (٣٤) من سوره الحاقه عدم الإ-كرام بعدم الإيمان بالله عزّ و جلّ: إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَ لَا يَحْضُ عَلٰى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٢).

و تعرض الآيه التاليه ثالث أعمالهم القبيحه: وَ تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (٣).

مما لا شكّ فيه أنّ الاستفاده من الميراث المشروع عمل غير مذموم، و لذا فيمكن أن يكون المذموم في الآيه أحد الأمور التاليه:

الأوّل: الجمع بين حقّ الإنسان و حقّ الآخرين في الميراث، لأنّ كلمه «لمّ» بمعنى الجمع، و فسّرها الزمخشري في الكشاف بمعنى الجمع بين الحلال و الحرام.

و كانت عاده العرب في الجاهليه أن يحرموا النساء و الأطفال من الإرث لاعتقادهم بأنّه نصيب المقاتلين (لأنّ أكثر أموالهم تأتيهم عن طريق السلب و الإغاره).

ص: ١٨٩

١- ١) -«تحاضون»: في الأصل (تتحاضون)، و حذفت إحدى التائين للتخفيف.

٢- ٢) -«طعام» هو في الآيه ذو معنى مصدرى أى: (إطعام).

٣- ٣) -«لمّ»: بمعنى الجمع، و تأتي بمعنى الجمع مع الإصلاح أيضا.

الثانى: عدم الإنفاق من الإرث على المحرومين و الفقراء من الأقرباء و غيرهم، فإن كنتم تبخلون بهذه الأموال التى وصلت إليكم بلا عناء، فأنتم أبخل فيما تكّدون فى تحصيله، و هذا عيب كبير فيكم.

الثالث: هو أكل إرث اليتامى و التجاوز على حقوق الصغار، و ذلك من أفبح الذنوب، لأنّ فيه استغلال فاحش لحقّ من لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

و الجمع بين هذه التّفاسير الثلاث ممكن (١).

ثمّ يأتى الذّمّ الزّابع: وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢).

فأنتم..عبده دنيا، طالبى ثروه، عشاق مال و متاع..و من يكون بهذه الحال فمن الطبيعى أن لا يعتنى فى جمعه للمال، أ كان من حلال أم من حرام، و من الطبيعى أيضا أن يتجاوز على الحقوق الشرعيه المترتبه عليه، بأن لا ينفقها أو ينقص منها..و من الطبيعى كذلك إنّ القلب الذى امتلأ بحبّ المال و الدنيا سوف لا يبقى فيه محل لذكر الله عزّ و جلّ.

و لذا نجد القرآن الكريم بعد ذكره لمسأله امتحان الإنسان، يتعرض لأربعة اختبارات يفشل فيها المجرمين.

إكرام اليتيم.

إطعام المسكين.

أسهم الإرث.

و جمعه من طريق مشروع و غير مشروع.

و جمع المال بدون قيد أو شرط.

و الملاحظ أنّ الاختبارات المذكوره إنّما تدور حول محور الأموال، للإشاره ما للمال من مطبات مهلكه، و لو تجاوزها الإنسان لسهلت عليه بقيه العقبات فى

ص: ١٩٠

١- ١) - «تراث»: فى الأصل (وراث)، ثمّ أبدلت الواو تاء.

٢- ٢) - «الجم»: بمعنى الكثير، كما جاء فى (مصباح اللغه)، و (المقاييس)، و (الجمّه) الشعر المتجمع فى مقدمه الرأس.

طريقه نحو التكامل و الرقى و السمو.

و ثمه من يكون متذبذبا فى الأمانه(بين أن يؤدى أو يخون)،و هكذا إنسان غالبا ما تصرعه و وساوس الشيطان و ترميه فى جانب الخيانه..أميا أولئك الصادقون فى إيمانهم فهم الأمناء حقا فى الرعايه و الاهتمام لأداء الحقوق الواجبه و المستحبه للآخرين،و لا تراهم يتهاونون بأدنى درجات التهاون،و مثلهم هو الذى يتمكن من صعود سلم الرفعه و السمو على طريق الإيمان و التقوى.

و الخلاصه:من تجاوز اختبار المال بنجاح،فهو أهل للاعتماد،و من أهل التقوى و الورع،و هو خير أخ و صديق،و غالبا ما تراه صالحا فى كافة مجالات حياته و المجتمع.

و لذلك،نرى الاختبارات هنا دارت حول محور المال.

ص: ١٩١

اشاره

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ لِحِجَاءِ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَيْفًا صَفًّا (٢٢) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَ أَنَّى لَهُ الذُّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَ لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا (٢٦)

التفسير

اشاره

يوم لا تنفع الذكرى!

بعد أن ذمت الآيات السابقة الطغاه و عبده الدنيا و الغاصبين لحقوق الآخرين، تأتي هذه الآيات لتحذرهم و تهددهم بوجود القيامة و الحساب و الجزاء.

فتقول أولًا: «كلا» (فليس الأمر كما تعتقدون بأن لا حساب و لا جزاء، و أن الله قد أعطاكم المال تكريما و ليس امتحانا).. إذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا .

«الدك»: الأرض اللينه السهله، ثم استعملت في تسويه الأرض من الارتفاعات و التعرجات، و(الدكان): المحل السوى الخالى من الارتفاعات و(الدكه): المكان السوى المهيأ للجلوس.

و جاء تكرر «دكا» فى الآيه للتأكيد.

و عموماً، فالآيه تشير إلى الزلازل و الحوادث المرعبه التى تعلن عن نهايه الدنيا و بدايه يوم القيامه، حيث تتلاشى الجبال و تستوى الأرض، كما أشارت لذلك الآيات (١٠٦-١٠٨) من سوره طه: وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لَا أَمْتًا .

و بعد أن ينتهى مرحله القيامه الاولى (مرحله الدمار)، تأتى مرحله الثانيه، حيث يعود الناس ثانيه للحياه ليحضرُوا فى ساحه العدل الالهى: وَ جَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا .

نعم، فسيقف الجميع فى ذلك المحشر لإجراء الأمر الالهى و تحقيق العداله الربانيه، و قد بينت لنا الآيات ما لعظمه ذلك اليوم، و كيف أن الإنسان لا سبيل له حينها إلا الرضوخ التام بين قبضه العدل الالهى.

وَ جَاءَ رَبُّكَ

: كناية عن حضور الأمر الالهى لمحاسبه الخلائق، أو أن المراد:

ظهور آيات عظمه الله سبحانه و تعالى، أو ظهور معرفه الله عزّ و جلّ فى ذلك اليوم، بشكل بحيث لا يمكن لأى كان إنكاره، و كأنّ الجميع ينظرون إليه بأم أعينهم.

و بلا شك، إنّ حضور الله بمعناه الحقيقى المستلزم للتجسيم و التحديد بالمكان، هذا المعنى ليس هو المراد، لأنّ سبحانه و تعالى مبرّأ من الجسميه و خواص الجسميه (١).

و قد ورد هذا المعنى فى كلام للإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام (٢).

كما و تؤيد الآيه (٣٣) من سوره النحل هذا التفسير بقولها:

ص: ١٩٣

١- ١) - يقول الفخر الرازى فى تفسيره: إن فى الآيه محذوف، تقديره (أمر) أو (قهر) أو (جلال آيات) أو (ظهور و معرفه).. و ظهرت هذه التقديرات فى كتب غيره من المفسرين أيضاً، و خصوصاً التقدير الأول.

٢- ٢) - راجع تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٤١٦.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ .

صَفًّا صَفًّا

إشارة إلى ورود الملائكة عرصه يوم القيامة على هيئة صفوف، و يحتمل تعلق الصفوف بكل السماوات.

و تقول الآية التالية: وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَ أَتَىٰ لَهُ الذُّكْرَىٰ .

و ما نستنبطه من الآية، إنَّ جهنم قابله للحركة، فتقرب للمجرمين، كما هو حال حركة الجنة للمتقين: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (١).

و ثمَّ من يعطى للآية معنى مجازياً، و يعتبرها كناية عن ظهور الجنة و النار أمام أعين المحسنين و المسيئين.

و لكن، لا دليل على الأخذ بخلاف الظاهر، و من الأفضل التعامل مع ظاهر الآية، لأنَّ حقائق عالم القيامة لا يمكن فهمها و تصورها بشكل دقيق لمحدوديه عالمنا أمام ذلك العالم من جهة؟ و لاختلاف القوانين و السنن التي تحكم ذلك العالم من جهة اخرى.. ثم، ما المانع في تحرك كل من الجنة و النار في ذلك اليوم؟ و

روى: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، تَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ عَرَفَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى أَصْحَابِهِ مَا رَأَوْا مِنْ حَالِهِ، وَ انْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالُوا: يَا عَلِيُّ لَقَدْ حَدَثَ أَمْرٌ قَدْ رَأَيْنَاهُ فِي نَبِيِّ اللَّهِ، فَجَاءَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاحْتَضَنَهُ ثُمَّ قَالَ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَ أُمِّي، مَا الَّذِي حَدَثَ الْيَوْمَ؟».

قال: «جاء جبرائيل عليه السلام فأقرأني وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ .

قال: فقلت: كيف يجاء بهم؟ قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شرده لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثمَّ أتعرض لجهنم، فتقول: ما لي و لك يا محمد، فقد

ص: ١٩٤

حَرَمَ اللهُ لِحْمَكِ عَلَيَّ، فلا يبقى أحد إلا قال: نفسى نفسى، و إن محمدا يقول: رب أمتى أمتى» (١).

نعم، فحينما يرى المذنب كل تلك الحوادث تهتز فرائضه و يتزلزل رعبا، فيستيقظ من غفلته و يعيش حاله الهمّ و الغمّ، و يتحسر على كل لحظه مرّت من حياته بعد ما يرى ما قدّمت يده، و لكن. هل للحسره حينها من فائده؟! و كم سيتمنى المذنب لو تسنح له الفرصه ثانيه للرجوع إلى الدنيا و إصلاح ما أفسد، و لكنّه سيرى أبواب العوده مغلقه، و لا من مخرج!...

و يوّد التوبه.. و هل للتوبه من معنى بعد غلق أبوابها؟! و يريد أن يعمل صالحا.. و لكن أين؟ فقد طويت صحائف الأعمال، و يومها يوم حساب بلا عمل!..

و عندها.. بملا يصرخ كيانه: يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي .

و فى قوله نكته لطيفه، فهو لا يقول قدّمت لآخرتى بل «لحياتى»، و كأنّ المعنى الحقيقى للحياه لا يتجسد إلا فى الآخره.

كما أشارت لهذه الآيه (٦٤) من سوره العنكبوت: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

نعم، ففى دنياهم: يسرقون أموال اليتامى، لم يطعموا المساكين، يأخذون من الإرث أكثر ممّا يستحقون و يحبون المال حبا جمّا.

و فى أخراهم، يقول كلّ منهم: يا ليتنى قدّمت لحياتى الحقيقيه الباقيه.. و لكنّ التمنى ليس أكثر من رأس مال المفلسين.

و تشير الآيه التاليه إلى شدّه العذاب الإلهى: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا .

نعم، فمن استخدم فى دنياه كلّ قدرته فى ارتكاب أسوء الجرائم و الذنوب،

ص: ١٩٥

فلا يجنى في آخرته إلا أشد العذاب...

فيما سينعم المحسنون و الصالحون في أحسن الثواب، و يخلدون بحال ما لا عين رأت و لا اذن سمعت، فالله «أرحم الراحمين» لمن أخلص التيه و عمل، و «أشد المعاقبين» لمن تجاوز حدود هدف خلقه.

و تكمل الآية التاليه تصوير شدّه العذاب: \square \square لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ .

فوثاقه ليس كوثاق الآخرين، و عذابه كذلك، كلّ ذلك بما كسبت يدها حينما أوثق المظلومين في الدنيا بأشدّ الوثاق، و مارس معهم التعذيب بكلّ وحشيه، متجرد عن كلّ ما وهبه الله من إنسانيه.

ص: ١٩٦

اشاره

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارجعي إلى ربك راضية مرضية (٢٨) فادخلي في عبادي (٢٩) وادخلي جناتي (٣٠)

التفسير

اشاره

الشرف العظيم:

و تنتقل السوره في آخر مطافها إلى تلك النفوس المطمئنه ثقه بالله و بهدف الخلق، بالرغم من معاشتها في خضم صخب الحياه الدنيا، فتخاطبهم بكل لطف و لين و محبه، حيث تقول: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ .. ارجعي إلى ربك راضية مرضية .. فادخلي في عبادي .. و ادخلي جناتي .

فهل ثمه أجمل و ألطف من هذا التعبير!...

تعبير يحكى دعوه الله سبحانه و تعالى لتلك النفوس المؤمنه، المخلصه، المحبه و الواثقه بوعدده جل شأنه.. دعوتها لتعود إلى ربها و مالكتها و مصلحتها الحقيقي...

دعوه مفعمه برضا الطرفين، رضا العاشق على معشوقه، و رضا المعشوق على عاشقه....

و تتوج تلك النفوس الطاهره بتاج العبوديه، لتدخل في صف المقرّبين عند الله، و لتحصل على إذن دخول جنان الخلد، و ما قوله تعالى: «جنتي» إلا للإشارة إلى أنّ المضيف هو الله جلّ جلاله... فما أروعها من دعوه! و ما أعظمه و أكرمه من داع! و ما أسعده من مدعو! و يراد بالنفس هنا: الروح الإنسانيه.

«المطمئنه»: إشاره إلى الاطمئنان الحاصل من الإيمان، بدلاله الآيه (٢٨) من سوره الرعد: [□] [□] أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .

و يعود اطمئنان النفس، لاطمئنانها بالوعد الإلهيه من جهه، و لاطمئنانها لما اختارت من طريق..

و هي مطمئنه في الدنيا سواء أقبلت عليها أم أدبرت، و مطمئنه عند أهوال حوادث يوم القيامه الرهيبه أيضا.

أما (الرجوع إلى الله)، فهو -على قول جمع من المفسرين- رجوع إلى ثوابه و رحمته..

و لكنّ الأنسب أن يقال: إنّه رجوع إليه جلّ و علا، رجوع إلى جواره و قربه بمعناها الروحي المعنوي، و ليست بمعناها المكاني و الجسماني.

و ثمّ سؤال يرد إلى الذهن.. متى ستكون دعوته المباركه، هل ستكون بعد مفارقه الروح البدن، أم في يوم القيامه؟؟ لو أخذنا بظاهر الآيات المباركه، فسياقها يرتبط بالقيامه، و إن كان تعبير الآيه ذو شموليه.

«راضيه»: لما ترى من تحقق الوعود الإلهيه بالثواب و النعيم بأكثر ممّا كانت تتصور، و شمول العبد برحمه و فضل الله سيدخل في قلبه الرضا بكلّ ما يحمل الرضا من معان و أكثر.

«مرضيه»: لرضا الله تبارك و تعالى عنها.

فعبء بما ذكر من أوصاف، بلا شك مكانه الجنه، وذلك لأنه عمل بكل ما يملك في سبيل رضوان معبوده الأحد الصمد، و وصل في عمله لمقام الرضا التام و التسليم الكامل لخالقه تبارك و تعالى، حتى نال و سام حقيقه العبوديه، و دخل طائعا و واثقا في صف عباد الله الصالحين..

و قد خص بعض المفسرين سبب نزول هذه الآيات في (حمزه سيد الشهداء)، و لكن بلحاظ كون السوره مكيه، فيمكن اعتبار ذلك أحد تطبيقات (مصاديق) الآيات و ليس شأنا للنزول، كما هو الحال في ما ذكرنا في أول السوره بشأن الإمام الحسين عليه السلام.

روى أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قد سأله قائلاً: جعلت فداك يا ابن رسول الله، هل يكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: «لا والله، إنه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا ولي الله، لا تجزع، فوالذي بعث محمداً لأنا أرببك و أشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر، قال: و يمثل له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أمير المؤمنين و فاطمه و الحسن و الحسين و الأئمة من ذريتهم عليهم السلام، فيقال له: هذا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أمير المؤمنين و فاطمه و الحسن و الحسين و الأئمة عليهم السلام رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينظر، فينادى روحه مناد من قبل رب العزة فيقول: «يا أيتها النفس المطمئنه (إلى محمداً و أهل بيته) ارجعي إلى ربك راضيه (بالولايه) مرضيه (بالثواب) فادخلي في عبادي (يعني محمداً و أهل بيته) و ادخلي جنتي»، فما شئ أحب إليه من استلال روحه و اللحوق بالمنادي» (١).

اللهم! اجعل نفوسنا مطمئنه ليشملنا خطابك الكريم..

اللهم! و لا ينال ذلك إلا بلطفك، فاعمرنا به..

ص: ١٩٩

اللّهُمَّ! مَنْ عَلَيْنَا بِكَرَمِكَ الَّذِي لَا يَنْفَدُ، وَاجْعَلْنَا مِنَ النُّفُوسِ الْمَطْمَئِنَّةِ..

اللّهُمَّ! لَا يَكُونُ الْإِطْمِئْنَانُ إِلَّا بِذِكْرِكَ، فَوَفِّقْنَا إِلَيْهِ بِفَضْلِكَ..

آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ نَهَايَهُ سُورَةُ الْفَجْرِ

ص: ٢٠٠

سوره البلد

اشاره

مكيه و عدد آياتها عشرون آيه

ص: ٢٠١

محتوى السّوره:

هذه السّوره المباركه على قصرها تحمل حقائق كبرى:

١- فى بدايه هذه السّوره، بعد قسم ذى محتوى عميق، تقرّر الآيه أنّ حياه الإنسان فى هذه الدنيا مقرونه بمشاكل و أتعاب؛ و بذلك تعدّ الإنسان من جهه ليصارع العقبات، و من جهه اخرى تبعده عن طلب الراحة المطلقة فى هذا العالم، فالراحه المطلقة و النعيم المطلق فى الحياه الآخره لا غيرها.

٢- فى مقطع آخر من هذه السّوره، إشاره إلى أهم النعم الإلهيه، ثم ذكر جحود الإنسان بهذه النعم.

٣- و فى آخر هذه السّوره تقسيم الناس إلى: «أصحاب اليمين» و «أصحاب المشئمه»، ثم يأتى ذكر جانب من أعمال المجموعه الأولى و صفاتها (المجموعه المؤمنه الصالحه) و ما ينتظرها من جزاء، ثم المجموعه الثّانيه، (و هى الكافره المجرمه) و ما تواجهه من مصير.

عبارات السّوره قاطعه قارعه، و الجمل قصيره ذات إيقاع قوى، و الألفاظ واضحه مؤثره معبره، و شكل آياتها تدلّ على أنّها مكّيه.

فضيله السّوره:

روى عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها أعطاه الله الأمن من غضبه يوم

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «من كان قراءته في فريضة» لا أقسم بهذا البلد» كان في الدنيا معروفاً أنه من الصالحين، و كان في الآخرة معروفاً أن له من الله مكاناً، و كان يوم القيامة من رفقاء النبيين و الشهداء و الصالحين» (٢).

ص: ٢٠٤

١-١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٠.

٢-٢ - ثواب الأعمال، نقلاً عن نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٧٨.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَالْإِيدِ وَالْمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧)

التفسير

اشاره

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ

(١)

في مواضع كثيره يبدأ القرآن بالقسم عند تعرضه للحقائق الهامه...بالقسم الذي يؤدي بدوره إلى حركه في الفكر و العقل..بالقسم المرتبط ارتباطا خاصا بالموضوع المطروح.

و في هذا الموضع تبدأ الآيه بالقسم:قسما بهذه المدينه المقدسه مكّه: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ لتقرر حقيقه من حقائق حياه الإنسان،هي إن هذه الحياه مقرونه

ص: ٢٠٥

بالآلام و الأسقام.

وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ

لم يرد ذكر «مكة» في الآية صريحا، لكن الدلالات تشير إلى أن المقصود بالبلد مكة، فالسورة مكية، وأهميته هذه المدينة المقدسه لا تبلغها مدينه، و المفسرون مجمعون على ذلك.

أرض مكة مشرفه و معظمه، لأنّ فيها أول مركز للتوحيد و لعباده الله سبحانه، و كان هذا المركز مطاف أنبياء الله العظام...و لذلك أقسم الله بها...و لكنّ السورة تشير إلى عامل آخر أضفى على هذه المدينة شرفا و كرامه: وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ...فالبلد استحق أن يقسم به الله لوجودك أنت أيها النبي الكريم فيه! فلا- يتصورن كفار مكة أنّ القرآن يقسم ببلدهم تكريما لهم و لأوثانهم، لا فهذا البلد مكرم لما يحمله من تاريخ الرسالات السماويه..و لما يحتضنه من رساله خاتمه، و نبي خاتم.

و في الآية تفسير آخر يعتبر (لا) في الآية السابقه نافية و يكون المعنى: «لا أقسم بهذا البلد المقدس حال كون حرمة قد هتكت و الأنفس و الأموال و الأعراض فيه قد أحلت و أبيحت».

و يكون ذلك-على هذا التفسير-توييحا و تقريرا لكفار قريش و هم الذين يعتبرون أنفسهم خدمه الحرم و سدنته، و يكتنون له احتراما يفوق كلّ احترام حتى أن الرجل منهم يرى قاتل أبيه فيه فلا يتعرّض له...بل حتى قيل إنّ الرجل يحمل معه شيئا من لحاء أشجار مكة فلا يتعرّض له أحد. فلما ذا إذن لم تراعوا هذه الآداب و التقاليد في حقّ النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم؟! لما ذا تماديتم في إيذائه و إيذاء صحابته، حتى سولت لكم أنفسكم استباحه دمه؟! و قد ورد هذا التفسير في حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

ص: ٢٠٦

أيضا (١).

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ

للمفسرين آراء عديده عن المقصود بالوالد و الولد فى الآيه.

قيل: إنَّ الوالد إبراهيم الخليل و الولد إسماعيل الذبيح.

و التفسير هذا يتناسب مع القسم بمكه...و نعلم أنَّ إبراهيم و ابنه رفا القواعد من البيت، و بذلك وضع حجر أساس البلد الأمين. و العرب فى الجاهليه كانوا يجلّون إبراهيم و ابنه و يفخرون فى الانتساب إليهما.

و قيل: إنَّ المقصود بالوالد و الولد آدم و ذريته.

و قيل: آدم و الأنبياء من ذريته.

و قيل: كلّ والد و ما ولد. متوالى الأجيال.

و تعاقبها بالولاده من أعجب بدائع الكون، و لذلك خصّها الله تعالى بالقسم و لا يستبعد الجمع بين هذه التفاسير و إن كان الأوّل أنسب.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ

و هذا هو الهدف النهائى للقسم «الكبد» كما يقول الطبرسى فى مجمع البيان فى الأصل بمعنى «الشده» و لذا يقال للبن إذا استغلظ «تكبد اللبن» و لكن كما يقول الراغب فى مفرداته أن «كبد» ألم يصيب الكبد، ثم اطلق على كلّ ألم و مشقه.

نعم...الإنسان يمرّ فى دوره حياته بمراحل كلّها مشوبه بالألم و مقرونه بالعناء. منذ أن يستقرّ نطفه فى رحم امه حتى ولادته، ثم بعد ولادته فى مراحل طفولته و شبابه و شيخوخته يعانى من ألوان و المشاق و الآلام، هذه طبيعه الحياه، و من توقّع منها غير ذلك خيبت ظنّه. يقول الشاعر:

طبعت على كدر و أنت تريدها

صفوا من الأكدار و الأقدار

ص: ٢٠٧

و مكلف الأيام ضد طباعها

متطلب في الماء جذوه نار

و هذه الحالة تشمل كل أبناء البشر دونما استثناء، بمن فيهم أنبياء الله و أولياؤه الصالحون.

و إذا خيل إلينا أن ثمة مجتمعات تبدو بعيدة عن الآلام و الأتعاب و تعيش في دعه و رفاه، فذلك نتيجة نظره سطحيه، و لو تعمقنا في دراسته هذه المجتمعات، و نظرنا إليها عن كثب لتلمسنا ما تعانيه من عميق الألم و شدّه النصب.. ثم إذا كان هناك استثناءات مكانيه و زمانيه محدوده من هذه الحالة العامه فلا ينتقض القانون العام للحياه أ يحسب أن لن يقدر عليه أحد. (١)

فما يحيط بالإنسان من مكابده يدل على ضعف قدرته، هذه الحقيقه تردّ على أولئك الذين يمتطون مركب الغرور، و يخالون أنّهم في مأمن من العقاب الإلهي أو أنّهم مانعتهم حصونهم و مناصبهم و ثروتهم، فيرتكبون الذنوب و يمارسون العدوان و يديرون ظهورهم لشريعه الله.

و يحتمل أن المقصود هم الأثرياء الذين يتصورون أن لا أحد بإمكانه سلب ثروتهم منهم... و قيل أن المراد من الآية الأشخاص الذين يتصورون بأنه لا أحد يحاسبهم على أعمالهم.

و لكن مفهوم الآية عام بإمكانه أن يستوعب جميع هذه التفسير.

و قيل إن الآية أشارت إلى «أبي الأسد بن كلد» و هو رجل من «جمح» كان قويا شديدا الخلق بحيث يجلس على أديم عكاظي فتجزّه عشره رجال من تحته فينقطع و لا يبرح من مكانه (٢).

غير أن إشاره الآية إلى فرد، أو أفراد مغرورين لا يمنع شموليه مفهومها.

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا بُدًّا

ص: ٢٠٨

١-١) - «أن» في الآية مخففه من الثقيله و التقدير: أنه لن يقدر عليه أحد.

٢-٢) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٣.

إشاره إلى قول الذين يطلب منهم أن ينفقوا أموالهم فى الخيرات، فيأبون و يقولون بغرور: إننا أنفقنا فى هذا السبيل كثيرا من الأموال، بينما لم ينفق هؤلاء شيئا، وإن أعطوا لأحد شيئا فللرياء و لتحقيق هدف شخصى.

و قيل إنها نزلت فى نفر أنفقوا الأموال الطائله فى معاده الرسول و الرساله، و تباهاوا بذلك، يؤيد ذلك قول «عمرو بن عبدود» فى حرب الخندق حين عرض عليه على عليه السلام الإسلام قال: فأين ما أنفقت فيكم مالا لبدأ؟ (١) أى أنفقت مالا كثيرا فى عداوه النبى.

و قيل إنها نزلت فى بعض رجال قريش و هو «الحرث بن عامر»، و ذلك أنه أذنب ذنبا، فستفتى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فأمره أن يكفر. فقال: لقد ذهب مالى فى الكفارات و النفقات، منذ دخولى دين محمد (٢).

و الجمع بين التفسير المذكوره جائز، و إن كان التفسير الأول أكثر انسجاما مع سياق الآيات التاليه:

و الفعل «أهلكت» يوحى إباده الأموال و عدم الحصول على عائد منها.

و «لبد»: تعنى الشىء المتراكم، و هنا تعنى المال الوفير.

أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ

إنه غافل عن هذه الحقيقه... حقيقه اطلاع البارى تعالى على كل الأمور و على ظواهر الأعمال، بل على ما يختلج فى أعماق النفس و القلب، و ما يدور فى الخلد و التيه... و هل من المعقول أن لا يحيط المطلق الحق بكل شىء؟ هؤلاء الغافلون دفعهم جهلهم لأن يروا أنفسهم بمعزل عن الرقابه الإلهيه.

نعم، الله سبحانه يعلم مصدر حصولهم على هذه الأموال، و يعلم السبيل الذى أنفقوها فيه.

ص: ٢٠٩

١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٨٠، الحديث ١٠.

٢-٢) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٣.

روى عن ابن عباس أنّ النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم قال: «لا تزول قدما العبد حتى يسأل عن أربعه: عن عمره فيما أفناه، و عن ماله من أين جمعه، و فى ما ذا أنفق، و عن عمله ماذا عمل به، و عن حبنا أهل البيت» (١).

بعبارة موجزة: كيف يعترى الإنسان الغرور و يدعى القدره و حياته ممزوجة بالآلام و الأكدار؟! و كيف يدعى أنه أنفق مالا كثيرا فى سبيل الله بينما البارى سبحانه عليهم بنواياه، عليم بالطريق غير المشروع للحصول على هذه الأموال، و عليم بأهداف الرياء و الذاتيه فى إنفاق هذه الأموال.

ص: ٢١٠

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٤، و بهذا المعنى أيضا ورد فى تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٣٥.

اشاره

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ (٩) وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)

التفسير

اشاره

نعمه العين و اللسان و الهدايه:

استتباعا للآيات السابقه و ما دار فيها من حديث عن الغرور و الغفله فى الطاغين، تذكر هذه الآيات الكريمه جانبا من أهم ما أنعم الله به على الإنسان من نعم ماديه و معنويه... كى تكسر روح الغرور، و تدفع إلى التفكير فى خالق هذه النعم، و لكى تحرك روح الشكر فى نفس الكائن البشرى و من ثم تسوقه إلى معرفه الخالق:

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ؟ وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ؟ وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ

فى هذه العبارات القصيره إشاره إلى ثلاث نعم ماديه هامه و نعمه معنويه كبرى هى بمجموعها من أعظم النعم الإلهيه: نعمه العين و اللسان و الشفه من جانب، و نعمه الهدايه و معرفه الخير و الشر من جانب آخر.

«النجد» فى الأصل يعنى المكان المرتفع، و يقابلها «تهامه» و هى الأرض

المنخفضه، و هنا كناية عن الخير و الشرّ و عن سير السعاده و الشقاء (1).

و يكفى أن نذكر في النعم السابقه أن:

«العين» أهم وسيله لارتباط الإنسان بالعالم الخارجى، عجائب العين تدفع الإنسان حقًا إلى الخضوع أمام خالقه، الطبقات السبع للعين و هى المسماه بالقرنيه، و المشيميه، و العنبيه، و الجلديه، و الزلاليه، و الزجاجيه، و الشبكيه، لكلّ منها تركيب عجيب دقيق مدهش، روعيت فيها القوانين الفزيائيه و الكيمياويه المتعلقه بالنور و انعكاساته على أدق وجه، حتى إن أعقد أجهزه التصوير تعتبر تافهه مقارنة بهذا العضو.

لو لم يكن فى الكون سوى الإنسان، و لم يكن من وجود الإنسان سوى العين، لكانت مطالعه هذا العضو كافيه وحدها لمعرفة علم الله الواسع و قدرته الجباره جلّ و علا.

و أمّا «اللسان»، فهو أهم وسائل ارتباط الإنسان بغيره من أبناء جلدته، و نقل المعلومات و تبادلها بين أبناء البشر فى الجيل الواحد و فى الأجيال المتعاقبه، و بدون هذه الوسيله الهامه من وسائل الارتباط ما كان بإمكان الإنسان إطلاقاً أن يرتقى إلى ما ارتقى إليه فى العلم و المعرفه.

و «الشفتان»: تلعبان أولاً دوراً فى هاماً فى النطق، إذ أن الشفتين مخرج لكثير من الحروف، و الشفتان تقومان بدور أيضاً فى هضم الطعام و المحافظه على رطوبه الفم، و شرب الماء، ترى لو انعدمت الشفتان فما ذا كان وضع الإنسان فى أكله و شربه و نطقه و المحافظه على ماء فمه و حتى جمال وجهه و شكله؟! إنّ درك الحقائق يتمّ أولاً بالعين و اللسان... و لذلك تقدم ذكرهما فى

ص: ٢١٢

١-١) - روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قيل له: إنّ أناساً يقولون فى قوله (و هديناه النجدين) أنّهما الشيطان (أى ثديا الأم) فقال: «لا، هما الخير و الشرّ» مجمع البيان، ذيل الآيات المذكوره، و ضمننا التعبير ب«نجد» على الخير من أجل عظمته و فى مورد الشرّ من باب التغليب.

السياق...ثم تبع ذلك ذكر الهدايه،الهدايه العقلية و الفطريه وَ هِدَايَاتُ النَّجْدَيْنِ ، و يشمل التعبير أيضا«الهدايه التشريعيه»التي ينهض بمسؤوليتها الأنبياء و الأولياء.

نعم...لقد أنعم الله على الإنسان بالبصر و البصيره،و أنعم عليه بهدايه الإرشاد إلى الطريق و التحذير من مغبه الانحراف عنه،كى تكتمل الحجّه على الإنسان.

و مع كلّ هذه النعم،نعم الهدايه،لو انحرف الإنسان عن جاده الحقّ،فلا يلومنّ إلا نفسه.

عباره وَ هِدَايَاتُ النَّجْدَيْنِ إضافة لما لها من مدلول على مسأله الإختيار و حريه الإنسان،تدلّ أيضا على ما يتطلبه طريق الخير من جهد و عناء،لأنّ «النجد»مكان مرتفع و تسلق المكان المرتفع يتطلب كدا و سعيًا و جهدا،غير أن طريق الشرّ له مشاكله و مصاعبه أيضا،فأولى بالإنسان أن يبذل الجهد و السعى على طريق الخير.

مع ذلك،فانتخاب الطريق بيد الإنسان...الإنسان هو الذى يتحكم فى عينه و لسانه فيم يستعملها...فى الحلال أو الحرام،و هو الذى يختار إحدى الجادتين «الخير»أو«الشر».

و

فى الحديث القدسى أن الله سبحانه يخاطب أبناء آدم يقول: «يا ابن آدم إنّ نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعتكك عليه بطبقتين فأطبق،و إن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعتكك عليه بطبقتين فأطبق...» (1).

فالله سبحانه منح هذه النعم،و منح وسائل السيطره عليها،و تلك من الألفاف الإلهيه الكبرى.

و الملفت للنظر أنّ الآيات التى نحن بصددھا أشارت إلى الشفتين بعد اللسان،

ص: ٢١٣

و لكن لم تشر إلى الجفنين بعد ذكر العين، و لعل ذلك يعود إلى أهميه الشفتين فى الكلام و الطعام و غيرها من الأمور أهميه تفوق بكثير أهميه الجفنين، و قد يعود أيضا إلى أن السيطره على اللسان أهم و أخطر بكثير من السيطره على العين.

بحوث

اشاره

١-عجائب العين

العين يشبهونها عاده بآله التصوير(الكاميرا)،فهى تلتقط الصور من عدستها الدقيقه،بدلا من أن تعكسها على اللوح الحساس(الفيلم)كما تفعل الكاميرا، تعكس الصور على شبكيه العين،و من ثم تنتقل عن طريق الأعصاب البصريه إلى الدماغ.

آله التصوير الدقيقه الظريفه هذه قد تلتقط يوميا ملايين الصور،غير أنها من جهات مختلفه لا- يمكن مقارنتها حتى بأعقد و أحدث أجهزه التصوير،لأنه:

١-فتحته تنظيم النور(ديافراغم)فى جهاز العين،و هو بؤبؤ العين،يعمل بشكل تلقائى أمام تغيير النور،فيتقلص أمام النور القوى،و يتسع أمام النور الضعيف،بينما أجهزه التصوير بحاجه إلى تنظيم بيد المصور.

٢-عدسه العين خلافا لأنواع عدسات أجهزه التصوير تتغير بتغير بعد الصوره عنها،فيكون قطرها حيناً ٥،١ ملم،و يصل أحيانا إلى ٨ ملم،و هذا التغيير يتم بواسطه عضلات تتقلص و تنبسط حسب بعد الصوره المرئيه،فعدسه العين تستطيع أن تعمل ما عمله مئات العدسات الزجاجيه.

٣-العين تستطيع أن تتحرك فى الجهات الأربع بمساعده العضلات و تلتقط الصور فى الأنحاء المختلفه.

٤-و المهم،أن أجهزه التصوير بحاجه إلى تبديل أفلامها،فإذا انتهت حلقة

ص: ٢١٤

فيلم، فلا بدّ من فيلم آخر. لكن عين الإنسان تلتقط الصور طوال عمر الإنسان دون أن تحتاج إلى تعويض شيء، و يعود السبب إلى أن الشبكيه التي تنعكس عليها الصور تحتوى على نوعين من الخلايا «المخروطيه»، و «الأسطوانيه» فيها ماده حساسه للغايه تجاه النور تتحلل بأقل شعاع من نور فى الشبكيه و تتحول إلى أمواج تنتقل إلى الدماغ، ثم يزول الأثر و تستعد الشبكيه لالتقاط صور جديده.

٥- أجهزه التصوير مصنعه من مواد قويه جدًا، لكن جهاز العين لطيف و ظريف إلى درجه كبيره، لذلك وضع فى محفظه عظيمه مستحكمه، و العين مع ظرافتها و لطافتها أكثر دواما بكثير من الحديد و الفولاذ.

٦- مسأله تنظيم النور ذات أهميه فائقه للمصورين، و قد يطول الزمن بالمصور كى يستطيع تنظيم إضاءه الصوره، بينما تستطيع العين فى جميع ظروف النور القوى و المتوسط و الضعيف بل حتى فى الظلام شريطه وجود بصيص من النور أن تلتقط الصوره، و هذا من عجائب العين.

٧- حين ننتقل فجأه من النور إلى الظلمه، أو حين تنطفئ مصابيح الغرفه فى الليل، لا- تستطيع أعيننا فى البرهه الاولى أن ترى شيئاً، ثم بالتدريج تعتاد العين على الظرف الجديد فترى ما حولها، و هذا التعود هو تعبير بسيط عن التحول المعقد الذى يحدث فى العين، و يؤدى خلال لحظات بسيطه إلى الانسجام بين العين و الظروف الجديده.

و عكس ذلك يحدث عند ما ننتقل من الظلام إلى النور، فالعين فى البدايه لا تتحمل النور القوى، و لكن بعد لحظات تتواءم مع الظرف الجديد، و مثل هذه الخصائص لا توجد إطلاقاً فى أجهزه التصوير.

٨- أجهزه التصوير تستطيع أن تصور زاويه محدوده ممّا يقع أمامها، بينما عين الإنسان تستطيع أن تلتقط كلّ ما فى نصف الدائره الافقيه أيامها بزوايه مقدارها ١٨٠ درجه تقريباً.

٩- من عجائب العينين أنّهما تلتقطان الصورة لتعكسها معا في نقطه واحده، و إذا اختل هذه التنظيم تصاب العين بالحول و يرى الفرد الشيء الواحد شيئين.

١٠- من الطريف أن صوره الأجسام تنعكس على الشبكيه مقلوبه، بينما لا نرى نحن الأشياء مقلوبه.

١١- سطح العين يجب أن يبقى رطبا دائما، و إذا جفّ اضرّ بالعين كثيرا، و هذه الرطوبه تفرزها الغدد الدمعيه، فتدخل العين من جانب و تخرج عن طريق قنوات دقيقه تقع في جانب من العين إلى الأنف، فترطب الأنف أيضا.

و إذا جفت الغدد الدمعيه، تتعرض العين للخطر، و تتعذر حركه الأجفان، و إن زاد نشاط هذه الغدد أكثر من المطلوب يسيل الدمع باستمرار على الوجه، و إذا انسدّ طريق القنوات التي تدفع الدمع من العين إلى الأنف، فلا بدّ للفرد أن ينشغل دائما بتجفيف الماء المتصيب على وجهه.

١٢- تركيب الدمع معقد فيه أكثر من عشره عناصر تشكل معا أفضل سائل للحفاظ على العيم.

بعبارة موجزه عجائب العين من الكثره بحيث تتطلب كتابه المجلدات الضخام، و ليست هي أكثر من شحمه صغيره، و حقًا ما قاله أمير المؤمنين على عليه السّلام:

«اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم و يتكلم بلحم، و يسمع بعظم، و يتنفس من خرم» (١).

٢- عجائب اللسان

اللسان بدوره من الأعضاء الهامه في بدن الإنسان، و ينهض بأعباء هامه فهو عامل مهم في مضغ الطعام و بلعه، يدفع باللحمه إلى الأسنان و يلتقطتها دون أن

ص: ٢١٦

يتعرض هو للقطع.

وقد يحدث نادرا أن يقع اللسان فى مصيده الأسنان أثناء الأكل، فنستغيث من الألم، و نفهم عندئذ مدى مهاره اللسان فى تجنب الانزلاق تحت الأسنان مع أنه ملاصق لها!! و اللسان بعد ذلك ينظف جوف الفم و الأسنان من بقايا الطعام.

و أهم من ذلك، دور اللسان فى الكلام بتحركه السريع المتواصل المنظم فى الجهات الست، و هو دور عجيب، و الإمعان فيه يثير الدهشه و الحيره فقد يسرّ الله تعالى للإنسان وسيله سهله للتكلم و فى تناول الجميع فلا يصيبها تعب و لا نصب و لا ملل و لا تكلف الإنسان خرجا!! و أعجب من ذلك موضوع استعداد الإنسان للكلام، و هذا الاستعداد أودعه الله فى الإنسان ليستطيع من خلال تكوين الجمل باشكال لا تعدّ و لا تحصى أن يبين ما لا نهايه له من الغايات.

و أهم من ذلك أيضا تنوع اللغات و قابليه الإنسان على وضع لغات مختلفه، و تتضح هذه الأهميه من خلال مطالعه مفردات آلاف اللغات المنتشره فى العالم...

حقاً «العظمه لله الواحد القهار!».

٣- هدايه النجدين

«النجد» كما ذكرنا الارتفاع أو الأرض المرتفعه، و«النجدين» هنا طريق الخير و طريق الشر، و

ورد فى الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «يا أيها الناس! هما نجدان: نجد الخير و نجد الشرّ، فما جعل نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير». (١)

ص: ٢١٧

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٤؛ و تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٥٥.

تحمل «التكليف» والمسؤولية غير ممكن دون شك، بغير المعرفة والوعي وحسب هذه الآية فإنَّ الله سبحانه منح الإنسان هذه المعرفة.

وهذه المعرفة يحصل عليها الإنسان من ثلاثه طرق: من الإدراكات العقلية والاستدلال، ومن طريق الفطره والوجدان دون الحاجه إلى الاستدلال، ومن طريق الوحي وتعاليم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وكل ما يحتاجه البشر ليطوى مسيره تكامله قد بينه الله سبحانه له بواحد من هذه الطرق أو في كثير من الحالات بالطرق الثلاثه معا.

و يلاحظ أن الحديث المذكور يصرح بأن نجد الشر ليس أحبَّ إلى طبع الإنسان من نجد الخير، وهذا يردّ على القائلين بأن الإنسان مطبوع على الشرّ وإن سلوك طريق الشرّ أيسر له وأسهل.

ومن المؤكّد أن البيئه الاجتماعيه لو خلت من التربيه الخاطئه والانحرافات لوفرت الأجواء لرغبه مترايده في الإنسان نحو الخير، ولعل تعبير «نجد» وهي الأرض المرتفعه لطريق الخير يعود إلى أن الأرض المرتفعه ذات هواء أنقى وجوّ أبهج، وإنما اطلق النجد للشور أيضا من باب التغليب (١).

وقيل أيضا أنّ التعبير بالنجدين إشاره إلى ظهور طريقى الخير والشرّ و بروزهما، كبروز و ظهور الأرض المرتفعه.

ص: ٢١٨

(١ - ١) - كما يقال للشمس والقمر: القمران.

اشاره

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمِمَّا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبِهِ (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبٍ (١٥) أَوْ
مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِالآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)

التفسير

اشاره

العقبه!

بعد ذكر النعم الكبيره فى الآيات السابقه، تنحى هذه الآيات باللانتمه على أولئك الذين يكفرون بهذه النعم، و لا يسخرونها على طريق النجاه، يقول سبحانه:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ

(١)

ص: ٢١٩

١- ١) -الظاهر أن (لا) فى الآية «نافيه» و«خبريه» و نستبعد أن تكون على وجه الدعاء على ضمير الفعل أو أن تكون

و ما المقصود من العقبه؟ الآيات التاليه تفسرها:

وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ

من هنا فالعقبه التي لم يتهياً الكافرون بأنعم الله لاجتيازها هي: فك رقبه عبد من الرقبه أى تحريره أو إطعام فى يوم الضائقه الاقتصاديه و المجاعه، يتيمًا ذا قربي أو فقيرا قد لصق بالتراب من شدّه فقره، العقبه هي مجموعه أعمال الخير التي تتجه لخدمه الناس و الأخذ بيد الضعفاء و المعوزين، كما إنّها أيضا مجموعه من المعتقدات الصحيحه الخالصه تشير إليها الآيات التاليه.

نعم، إن اجتياز هذه العقبه ليس بالأمر اليسير لما لأغلب الناس من التصاق بالمال و الثروه.

ليس الإسلام و الإيمان بالقول و الادعاء، بل أمام كلّ إنسان مسلم و مؤمن عقبات يجب أن يجتازها الواحده بعد الاخرى، مستمدا العون من الله سبحانه و من روح الإيمان و الإخلاص.

بعضهم ذهب إلى أنّ «العقبه» هنا تعنى أهواء النفس التي حثّ الرسول الأ-كرم صلّى الله عليه و آله و سلّم على مقاومتها و مجاهدتها، و يسمى ذلك «الجهاد الأكبر»، و استنادا إلى هذا التفسير يكون فك الرقبه و إطعام المسكين من المصاديق البارزه لاجتياز عقبه هوى النفس.

و من المفسرين من قال إنّ «العقبه» هي الصراط الصعب يوم القيامه، كما جاء

فى حديث رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم:

(١)

استفهاميه، و الإشكال الوحيد الذى يرد على أنّها خبريه هو عدم تكرارها لأنّ (لا) النافيه حين تدخل على الفعل الماضى تكرر عاده كقوله سبحانه: فَلَا صِدْقَ وَ لَا صِيْلَى، و لم تتكرر فى الآية. و يذكر «الطبرسى» فى «مجمع البيان» مواضع من أقوال العرب لم تتكرر فيها (لا) النافيه مع دخولها على الفعل الماضى، و إلى ذلك ذهب أيضا «الفخر الرازى» و «القرطبى»، و قيل إنّ (لا) إذا كانت بمعنى «لم» لا يلزم تكرارها و بعضهم احتمل التكرار فى التقدير و المعنى: فلا اقتحم العقبه و لا فك رقبه، و لا أطعم فى يوم ذى مسغبه.

«إن أمامكم عقبه كؤودا لا يجوزها المثقلون، و أنا أريد أن أخفف عنكم لتلك العقبه» (١).

و هذا الحديث طبعاً لا يمكن أن يكون تفسيراً للآيه، غير أن بعض المفسرين فهموا منه ذلك، و هذا الفهم لا يتناسب مع التفسير الصريح لكلمه «العقبه» فى الآيات التاليه، إلا إذا اعتبرنا عقبه الكؤود يوم القيامه تجسيدا للطاعات الثقيله الصعبه فى هذا العالم، و اجتياز تلك العقبات فرع لاجتياز هذه الطاعات «تأمل بدقه».

تعبير «اقتحم» فى الآيه أصله من «الاقترام» و هو الدخول فى عمل صعب مخيف (مفردات الراغب)، أو الولوج و العبور بشده و مشقه (تفسير الكشاف) و هذا يعنى أن اجتياز هذه العقبه ليس بالأمر اليسير، كما أنه تأكيد على ما ورد فى أول السوره بشأن ما يكابد الإنسان فى حياته: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ .

و

عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «إنَّ الجنه حفت بالمكاره و إنَّ النار حفت بالشهوات» (٢).

ملاحظات

و هنا يلزم الالتفات إلى عدّه ملاحظات:

١- المقصود من «فك رقبه» على الظاهر هو تحرير العبد و الرقيق.

روى أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال: يا رسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنه.

ص: ٢٢١

١-١) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٥.

٢-٢) - نهج البلاغه، الخطبه ١٧٦.

أجابه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ عَرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ (١) أَعْتَقَ النَّسْمَةَ وَفَكَ الرَّقْبَةَ».

فقال الأعرابي: أو ليسا واحدا؟! قال: «لا، اعتق النسمة أن تنفرد بعقوبتها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها» ثم قال: «و الفيء على ذى الرحم الظالم، فإن لم يكن ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكف لسانك إلا من الخير» (٢).

٢- قال بعض المفسرين أن معنى «فك رقبته» تحرير الفرد رقبته من الذنوب بالتوبة، أو تحرير نفسه من العذاب الإلهي بتحمل الطاعات، غير أن ما جاء في الآيات التالية من توصية باليتيم والمسكين يؤيد أن المقصود هو تحرير رقبته العبد.

٣- «المسغبة» من «سغب» على وزن «غضب» وهو الجوع، و«يوم ذى مسغبة» أى وقت المجاعة، والجياح موجودون في المجتمع عادة، والآية إنما تؤكد على إطعامهم في زمان الجماعه لأهميه الموضوع، وإلا فإن الجياح هو دائما من أفضل الأعمال.

و

روى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «من أشبع جائعا في يوم سغب داخله الله يوم القيامة من باب من أبواب الجنة لا يدخلها إلا من فعل مثل ما فعل» (٣).

٤- «المقربة» بمعنى القرابه و الرحم، والتأكيد على الأقرباء من اليتامى فى الآيه إنما هو لمراعاة الأولويه و للتأكيد على تصاعد المسؤوليه تجاههم، لا لحصر الإطعام بهذا القسم من اليتامى.

ص: ٢٢٢

١- ١) - أى لقد طرحت بوضوح سؤالك، وإن كنت أجملت فى الكلام.

٢- ٢) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٨٣.

٣- ٣) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٥.

ثم إن غمط حقوق اليتامى فى ذلك العصر خاصه على يد الأقرباء استدعى التحذير من هذه العقبه بالذات.

و ذهب «أبو الفتوح الرازى» إلى أن «المقربه» ليست من القرابه، بل من «القرب» إشاره إلى التصاق بطون الجياع من شدّه الجوع (1) .
و نستبعد كثيرا هذا المعنى فى تفسير الآيه.

٥- «المتربه» مصدر ميمى من «ترب»، و ساكن التراب من شدّه فقره هو ذو المتربه، و التأكيد على هذا النمط من المساكين لأولويتهم أيضا، إذ إطعام أى مسكين عمل مستحسن .

و

روى أن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام إذا أكل أتى بصحفه فتوضع قرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتى به فيأخذ من كلّ شىء شيئا فيضع فى تلك الصفحه ثم يأمر بها للمساكين، ثم يتلو هذه الآيه: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ثم يقول: «علم الله عزّ و جلّ أنّه ليس كلّ إنسان يقدر على عتق رقبه فجعل لهم السبيل إلى الجنّه» (2) . م ثم تواصل الآيه التاليه بيان طبيعه هذه العقبه، و سبل اجتيازها فتقول: [□] تَمَّ كَانٍ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ .

فالقادرون على اجتياز هذه العقبه متحلون بالإيمان و متواصون بالصبر و الاستقامه على الطريق، و متواصون بالرحمه و العطف.

و بهذا السياق القرآنى لبيان طبيعه العقبه نفهم أن القادرين على اجتيازها هم المتحلون بالإيمان و الخلق الكريم كالتواصى بالصبر و الرحمه، و ذوو أعمال البرّ و الإحسان كتحريم العبيد و إطعام الأيتام و المساكين، إنهم بعبارة أولئك الذين يلجون ميادين الإيمان و الأخلاق و العمل و يخرجون منها ظافرين منتصرين.

ص: ٢٢٣

١-١) -تفسير أبى الفتوح الرازى، ج ١٢، ص ٩٦.

٢-٢) -تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٩٥، نقلا عن الكافى.

العطف بالحرف «ثم» لا يعنى دائما التأخير الزمنى، أى لا يعنى أن عمليه الإطعام و الإنفاق يجب أن تتقدم على الإيمان، بل إن هذا الحرف فى مثل هذه الموارد- كما صرح بذلك جمع من المفسرين- لبيان علو المرتبه، إذ من المؤكد أن رتبه الإيمان و التوصيه بالصبر و المرحله أسمى و أعلى من مساعده المحتاجين، بل الأعمال الصالحه تنبثق من ذلك الإيمان و تلك الأخلاق، و كل ما يفعله الإنسان تجد جذوره فى معتقداته و أخلاقياته.

و احتمال بعضهم أن «ثم» تفيد هنا التأخير الزمنى، لأن أعمال الخير قد تكون منطلقا للتوجه نحو الإيمان، و هى بخاصه ذات تأثير فى ترسيخ دعائم الأخلاق، إذ أن أخلاق الإنسان تبدأ بشكل «فعل» ثم تتحول إلى «حاله» ثم تتحول إلى «عاده» ثم تصبح «ملكه».

و التعبير بكلمه «تواصوا» و تعنى تبادل التوصيه، لها دلالة اجتماعيه هامه، هى إن عمليه التواصى بالسير على طريق الحق و بالاستقامه على طاعه الله و مكافحه جموح الأهواء النفسيه، و بالحبّ و الرحمه ليست عمليه فرديه يل يجب أن يتخذ طابعا اجتماعيا عامًا فى كل المجتمع الإيماني، و كل الأفراد مسئولون أن يوصى بعضهم الآخر بحفظ هذه الأصول. و عن هذا الطريق أيضا تتعمق عرى التلاحم و الاجتماعى.

و قال بعضهم إن «الصبر» فى الآيه إشاره إلى توطين النفس على طاعه الله و الاهتمام بأوامره، و «المرحمه» إشاره إلى علاقه الودّ مع الناس، و نعلم أن أساس الدين هو تنظيم هذه الرابطة بين العبد و ربه، و بين الإنسان و أخيه الإنسان.

و فى خاتمه هذه الأوصاف تذكر السوره مكانه المتحلين بها فتقول: **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُؤْمِنَةِ**.

فصحيفه أعمالهم تسلم إليهم، فى محضر الله سبحانه و تعالى، بيدهم اليمنى.

و يحتمل أن تكون «الميمنه» من «اليمن» و البركه، أى إن أصحاب هذه

الصفات ذوو بركة لأنفسهم و لمجتمعهم.

ثمّ تعرض الآيه لتصوير حاله الفاشلين فى اجتياز «العقبه» فتقول:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ

و«المشئمه» من «الشؤم» تقابل «الميمنه» من «اليمن»، أى إنّ هؤلاء الكافرين مشؤمون لا- يمن فيهم و لا- بركه، بل هم عامل شقاء لأنفسهم و لمجتمعهم ثمّ إنّ علامه شؤم الفرد يوم القيامه تسلّمه صحيفه أعماله بيده اليسرى، و من هنا ذهب بعض المفسرين إلى أنّ «المشئمه» هى اليسار مقابل اليمين، أى إنّ الذين كفروا بآيات الله الذين يتسلمون صحائف أعمالهم بيدهم اليسرى خاصّه و أنّ مادّه «شؤم» جاءت فى اللغه بمعنى اليسار أيضا (١).

و فى الآيه الأخيره من السوره إشاره قصيره ذات دلالة عميقه إلى جزاء هذه الفئه الأخيره: عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ .

و«الإيصاد» إحكام الغلق، و واضح أنّ الإنسان- حين يكون فى غرفه حارّه الجوّ- يتوق إلى فتح أبوابها، ليهبّ عليه نسيم يطفئ الهواء، فما بالك إذا كان فى محرقة جهنّم و الأبواب كلها موصده عليه؟! اللهم! اقنا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراما...

اللهم! وفقنا لاجتياز ما يعترى طريقنا من عقبات.. و لا توفيق إلّا بك.

اللهم! اجعلنا من أصحاب الميمنه: و احشرنا مع الصالحين و الأبرار.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره البلد

ص: ٢٢٥

(١-١) - تفسير أبى الفتوح الرازى، ج ١٢، ص ٩٧، و لسان العرب، مادّه شأم.

سوره الشمس

اشاره

مکيه و عدد آياتها خمس عشره آيه

ص: ۲۲۷

محتوى السّوره:

هذه السّوره هي في الواقع سوره تهذيب النفس، و تطهير القلوب من الأدران، و معانيها تدور حول هذا الهدف، و في مقدمتها قسم بأحد عشر مظهرا من مظاهر الخلقه و بذات الباري سبحانه، من أجل التأكيد على أن فلاح الإنسان يتوقف على تزكيه نفسه، و السّوره فيها من القسم ما لم يجتمع في سوره اخرى.

و في المقطع الأخير من السّوره ذكر لقوم «ثمود» باعتبارهم نموذجا من أقوام طغت و تمردت، و انحدرت-بسبب ترك تزكيه نفسها-إلى هاويه الشقاء الأبدي، و العقاب الإلهي الشديد.

و هذه السّوره القصيره-في الواقع-تكشف عن مسأله مصيريه هامه من مسائل البشريه، و تبين نظام القيم في الإسلام بالنسبه إلى أفراد البشر.

فضيله السّوره:

يكفي في تلاوه هذه السّوره أن نذكر

حديثا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«من قرأها فكأنما تصدق بكلّ شيء طلعت عليه الشمس و القمر» (١) و من المؤكّد أنّ هذه الفضيله الكبرى لا- ينالها إلا من استوعب محتواها بكلّ وجوده، و وضع مهمّه تهذيب النفس نصب عينيه دائما.

ص: ٢٢٩

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَ
مَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاهَا (١٠)

التفسير

أكبر عدد من القسم القرآني تتضمنه هذه السوره، هو في حساب «أحد عشر»، و في حساب آخر «سبعه» أقسام... و يبين أن السوره
تعرض لموضوع خطير هام...موضوع عظيم كعظمه السماء و الأرض و الشمس و القمر...موضوع حياتي مصيري.

لنبدأ أولاً بشرح ما جاء في السوره من قسم، لتعرض بعد ذلك إلى الموضوع الآيه الاولى تقول: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا .

و لقد ذكرنا آنفا أن القسم فى القرآن يستهدف مقصدين:

الأول: بيان أهميه ما جاء القسم من أجله.

و الثانى: أهميه ما أقسم به القرآن، لأنَّ القسم عادة يكون بالمهم من الأمور من هنا تعمل هذه الأقسام على تحريك الفكر فى الإنسان كى يعنى النظر فى هذه الموضوعات الهامة من عالم الخليقه، و ليتخذ منها سبيلا إلى الله سبحانه و تعالى.

«الشمس» ذات دور هام و بناءً جدًّا فى الموجودات الحيه على ظهر البسيطة فهى إضافة إلى كونها مصدرا للنور و الحرارة- و هما عاملان أساسيان فى حياه الإنسان- تعتبر مصدرا لغيرهما من المظاهر الحياتيه، حركة الرياح، و هطول الأمطار، و نمو النباتات، و جريان الأنهر و الشلالات، بل حتى نشوء مصادر الطاقه مثل النفط و الفحم الحجري... كل واحد منها يرتبط- بنظره دقيقه- بنور الشمس.

و لو قدر لهذا المصباح الحياتى أن ينطفئ يوما لساد الظلام و السكوت و الموت فى كل مكان.

«الضحى» فى الأصل انتشار نور الشمس، و هذا ما يحدث حين يرتفع قرص الشمس عن الأفق و يغمر النور كل مكان، ثم يطلق على تلك البرهه من اليوم اسم «الضحى»، و القسم بالضحى لأهميته، لأنه وقت هيمنه نور الشمس على الأرض.

و القسم الثالث بالقمر: وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا. و هذا التعبير- كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين- إشاره إلى القمر حين يكتمل و يكون بدرا كاملا فى ليله الرابع عشر من كل شهر، ففى هذه الليله يطل القمر من أفق المشرق متزامنا مع غروب الشمس. فيسطع بجماله الثير و يهيمن على جو السماء، و لجماله و بهائه فى هذه الليله أكثر من أيه ليله اخرى جاء القسم به فى الآيه الكريمه.

و احتمال بعضهم أن يكون فى تعبير الآيه إشاره إلى تبعيه القمر بشكل دائم للشمس، و اكتساب النور من ذلك المصدر المشع، غير أن عبارته وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا تكون فى هذه الحاله قيذا توضيحيا.

و ثمة احتمالات اخرى ذكرت في تفسير الآيه لا تستحق الذكر.

و القسم الرابع بالنهار: وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا .

و«التجليه»هى الإظهار و الإبراز.و اختلف المفسرون في مرجع الضمير في «جلاها»قال أكثرهم يعود إلى الأرض أو الدنيا،أى:قسما بالنهار إذا أظهر الأرض بضوئه.و ليس فى الآيات السابقه إشاره إلى الأرض،و لكنها تتضح من قرينه المقام.

و بعضهم قال إن الضمير يعود إلى الشمس،و يكون القسم بالنهار حين يجلى الشمس،صحيح أنّ الشمس تظهر النهار و لكن يمكن أن نقول مجازا إنّ النهار يجلى الشمس.غير أنّ التفسير الأول أنسب.

على كلّ حال،القسم بهذه الظاهره السماويه الهامه،يبين أهميتها الكبرى فى حياه البشر و فى جميع الأحياء،فالنهار رمز الحركه و الحياه،و كلّ الفعاليات و النشاطات و مساعى الحياه تتمّ عادة فى ضوء النهار.

و القسم الخامس بالليل: وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (١).

بالليل بكلّ ما فيه من بركه و عطاء...إذ هو يخفف من حراره شمس النهار،ثم هو مبعث راحه جميع الموجودات الحيه و استقرارها،و لو لا ظلام الليل لما كان هناك هدوء و استقرار،لأنّ استمرار سطوع الشمس يؤدى إلى ارتفاع فى درجه الحراره و تلف كلّ شىء،و نفس هذه المشكله تحدث لو اختل الوضع الحالى لنظام الليل و النهار،فعلى ظهر القمر،حيث ليله يعادل أسبوعين من كرتنا الارضيه و نهاره يعادل أيضا أسبوعين،ترتفع درجه الحراره إلى ما يقارب ثلاثمائه درجه

ص: ٢٣٢

١ - ١) - و فى ضمير «يغشاها»ذهب المفسرون إلى اتجاهين،منهم من قال:إنّه يعود إلى «الأرض»لأنّ الليل يسدل استاره على الأرض.و منهم من قال إلى «الشمس»إذ الليل يحجب وجه الشمس،و المعنى هذا مجازى طبعا،لأنّ الليل لا يحجب الشمس حقيقه،بل يظهر بعد غروب الشمس.و الواقع أنّ الضمير فى الآيه السابقه إن عاد إلى «الأرض»فهنّا يعود إليها أيضا.و إن عاد إلى الشمس يعود إليها هنا أيضا.

مئويه فى وسط النهار، و معها لا- ببقى موجود حى نعرفه، على قيد الحياه، و فى وسط الليل تنخفض درجه الحراره كثيرا تحت الصفر بحيث يتجمد حتما أى موجود حى لو قدر له أن يكون هناك.

و يلاحظ أن الأفعال المذكوره فى الآيات السابقه وردت بصيغه الماضى بينما وردت فى هذه الآيه بصيغه المضارع، و لعل هذا الاختلاف يشير إلى أنّ ظهور الليل و النهار من الحوادث التى لا تختص بزمان معين، بل تشمل الماضى و الحاضر. من هنا كانت الأفعال ماضيه تاره و مضارعه اخرى لبيان عموميه هذه الحوادث فى مجرى الزمان.

و فى القسمين السادس و السابع تحلّق بنا الآيه إلى السماوات و خالق السماوات: **وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا .**

أصل خلقه السماوات بما فيها من عظمه مدهشه من أعظم عجائب الخليفه.

و بناء كلّ هذه الكواكب و الأجرام السماويه و ما يحكمها من أنظمه أعجوبه اخرى... و أهم من كلّ ذلك... خالق هذه السماوات.

و يلاحظ فى عبارته «وَ مَا بَنَاهَا» أنّ «ما» تستعمل فى العرييه لغير العاقل، و لا يصح استعمالها فى موضع الحديث عن البارى العليم الحكيم سبحانه. و لذا ذهب بعض إلى أنّها مصدرية لا- موصوله، و بذلك يكون معنى الآيه الكريمة: «و السماء و بنائها» غير أنّ الآيات التاليه: **وَ نَفْسٍ وَ مَاءٍ سَوَاهٍ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا،** لا يدع بما لا للشك أنّ «ما» موصوله، و تعود إلى الله سبحانه خالق السماوات، و ورد فى مواضع اخرى من القرآن الكريم استعمال «ما» للعاقل، كقوله سبحانه:

فَأَنْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ .

من المفسّرين من قال إنّ «ما» استعملت هنا لتطرح مسأله المبدأ بشكل مبهم كى يستطيع البشر بالدراسه و النظر أن يتوصلوا إلى علم بالمبدأ سبحانه و حكمته، ليتبدل بعد ذلك «ما» إلى «من» أى من الشىء المجهول الذى يعبر عنه ب«ما» إلى

معلوم، غير أن التفسير الأوّل أنسب.

القسم الثامن و التاسع بالأرض و خالق الأرض: وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَحَّاهَا .

بالأرض التي تحتضن حياه الإنسان و جميع الموجودات الحيّه...الأرض بجميع عجائبها: بجبالها، و بحارها، و سهولها، و وديانها، و غاباتها، و عيونها، و أنهارها، و مناجمها، و ذخائرها...و بكلّ ما فيها من ظواهر يكفى كلّ واحد منها لأن يكون آيه من آيات الله و دلالة على عظّمته.

و أعظم من الأرض و أسمى منها خالقها الذي «طحاها» و «الطحو» بمعنى البسط و الفرش، و بمعنى الذهاب بالشئ و إبعاده أيضا. و هنا بمعنى «البسط»، لأنّ الأرض كانت مغموره بالماء، ثمّ غاض الماء في منخفضات الأرض، و برزت اليابسه، و انبسطت، و يعبر عن ذلك أيضا بدحو الأرض، هذا أوّلا.

و ثانيا: كانت الأرض في البدايه على شكل مرتفعات و منخفضات و منحدرات شديده غير قابله للسكن عليها. فهطلت أمطار مستمره سوّت بين هذه التعاريج، و تسطحت الأرض فكانت صالحه لمعيشه الإنسان و للزراعة.

يرى بعض المفسّرين أنّ في الآيه إشارة عابره إلى حركة الأرض، لأنّ من معاني «الطحو» الدفع الذي يمكن أن يكون إشارة إلى حركة الأرض الانتقاليه حول الشمس، أو إلى حركتها الوضعيه حول نفسها، أو إلى الحركتين معا.

و أخيرا القسم الحادى عشر و القسم الثانى عشر بالنفس الإنسانيه و بارئها:

وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا

قيل إنّ المراد بالنفس هنا روح الإنسان، و قيل إنّ جسمه و روحه معا.

و لو كان المراد من النفس الروح، «سواها» تعنى إذن نظمها و عدّل قواها ابتداء من الحواس الظاهره و حتى قوّه الإدراك، و الذاكره، و الانتقال، و التخيل، و الابتكار، و العشق، و الإراده، و العزم و نظائرها من الظواهر المندرجه فى إطار «علم النفس».

و لو كان المراد من النفس الروح و الجسم معا،فالتسويه تشمل أيضا ما فى البدن من أنظمه و أجهزه يدرسها علم التشريح و علم
الفلسفه.

و فى القرآن الكريم وردت «نفس» بكلا- المعنيين، بمعنى الروح، كقوله سبحانه فى الآيه (٤٢) من سوره الزمر: **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْمَائِئَاتِ**
حِينَ مَوْتِهَا...

و بمعنى الجسم، كقوله سبحانه فى الآيه (٣٣) من سوره القصص: **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ .**

و الأنسب هنا أن يكون معنى النفس هنا شاملا للمعنيين لأن قدره الله سبحانه تتجلى فى الإثنين معا.

و يلاحظ أن الآيه ذكرت كلمه «نفس» نكره و فى ذلك إشاره إلى ما فى النفس من عظمه تفوق قدره التصور و إلى ما يحيطها
من إبهام، يجعلها موجودا مجهولا.

و هذا ما حدا ببعض العلماء المعاصرين أن يتحدث عن الإنسان فى كتابه تحت عنوان: «الإنسان ذلك المجهول».

الآيه التاليه تناول أهم ظاهره فى الخلقه و تقول: **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا .**

نعم، حين اكتملت خلقه الإنسان و تحقق وجوده، علمه الله سبحانه الواجبات و المحظورات. و بذلك أصبح كائنا مزيجا فى خلقته
من «الحمأ المسنون» و «نفخه من روح الله»، و مزيجا فى تعليمه من «الفجور» و «التقوى». أصبح بالتالى كائنا يستطيع أن يتسلق سلم
الكمال الإنسانى ليقف فوق الملائكه، و من الممكن أن ينحط لينحدر عن مستوى الأنعام و يبلغ مرحله بل هم أضل. و هذا يرتبط
بالمسير الذى يختاره الإنسان عن إرادته.

«ألهمها» من الإلهام، و هو فى الأصل بمعنى البلع و الشرب، ثم استعمل فى إلقاء الشئ فى روع الإنسان من قبل الله تعالى، و كأن
الإنسان يتلع ذلك الشئ و يتشربه بجميع وجوده.

و جاء بمعنى «الوحي» أيضا. بعض المفسرين يرى أن الفرق بين «الإلهام» و«الوحي»، هو إن الفرد الملهم لا- يدرى من أين أتى بالشئ الذى ألهم به، و فى حالة الوحي يعلم بالمصدر و بطريقه وصول الشئ إليه.

«الفجور» من ماده «فجر» و تعنى - كما ذكرنا سابقا- الشق الواسع و سمى بياض الصبح بالفجر لأنه يشق ستار الظلام. و لما كانت الذنوب تهتك ستار الدين فإنها سميت بالفجور.

المقصود بالفجور فى الآيه طبعا الأسباب و العوامل و الطرق المؤديه إلى الذنوب.

و«التقوى» من الوقايه و هى الحفظ، و تعنى أن يصون الإنسان نفسه من القبائح و الآثام و السيئات و الذنوب.

و يلزم التأكيد أن الآيه الكريمه: فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا لا- تعنى أن الله سبحانه قد أودع عوامل الفجور و التقوى فى نفس الإنسان، كما تصوّر بعضهم، و استنتج من ذلك دلاله الآيه الكريمه على وجود التضاد فى المحتوى الداخلى للإنسان! بل تعنى أن الله تعالى علم الإنسان هاتين الحقيقتين و ألهمه إياهما، و بين له طريق السلامه و طريق الشرّ، و مثل هذا المفهوم ورد فى الآيه (١٠) من سوره البلد: وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ .

بعباره اخرى، إن الله سبحانه قد منح الإنسان قدره التشخيص و العقل، و الضمير اليقظ بحيث يستطيع أن يميز بين «الفجور» و«التقوى» عن طريق العقل و الفطره، لذلك ذهب بعض المفسرين إلى أن الآيه تشير فى الحقيقه إلى مسأله «الحسن و القبح العقليين» و قدره الإنسان على إدراكهما.

و من بين النعم الطائله التى أسبغها الله على الإنسان تركز هذه الآيه على نعمه الهام الفجور و التقوى، و إدراك الحسن و القبح، لأنها من أهم المسائل المصيريه التى تواجه حياه الإنسان.

بعد هذه الأقسام المهمّة المتتاليه يخلص السياق القرآني إلى النتيجة فيقول:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا

و التزكيه تعنى النمو، «و الزكاه» فى الأصل بمعنى النمو و البركه، و

ورد عن على عليه السلام قوله: «المال تنقصه النفقه و العلم يزكو على الإنفاق» (١).

ثمّ استعملت الكلمه بمعنى التطهير، و قد يعود ذلك إلى أن التطهير من الآثام يؤدي إلى النمو و البركه، و الآيه الكريمه تحتل المعنيين.

نعم، الفلاح لمن ربّى نفسه و نَمَّاهَا، و طَهَّرَهَا من التلوث بالخصائل الشيطانيه و بالذنوب و الكفر و العصيان.

و المسأله الأساسيه فى حياه الإنسان هى هذه «التزكيه»، فإن حصلت سعد الإنسان و إلا شقى و كان من البائسين.

ثمّ يعرج السياق القرآني على المجموعه المخالفه فيقول: وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا.

«خاب»: من الخيبه، و هى فوت الطلب، كما يقول الراغب فى المفردات و الحرمان و الخسران.

«دسّاهَا» من ماده «دس» و هى فى الأصل بمعنى إدخال الشىء قسرا، و جاء فى الآيه (٥٩) من سوره النحل قوله سبحانه: أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ، إشاره إلى عادته الجاهليين فى و أد البنات، أى إدخالهن فى التراب كرها و قسرا و منه «الدسيسه» التى تقال للأعمال الخفيه و الضاره.

و ما هى المناسبه بين معنى الدسّ، و قوله سبحانه: وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا.

قيل: إنّ هذا التعبير كناية عن الفسق و الذنوب، فأهل التقوى و الصلاح يظهرون أنفسهم، بينما المذنبون يخفونها، و يذكر أنّ العرب الكرماء جرت عادتهم

ص: ٢٣٧

على نصب خيامهم على المرتفعات، وإشعال النيران قربها في الليل، لتكون بادية للمازّه ليل نهار، بينما أهل البخل و اللؤم يقبعون في المنخفضات كي لا يأتيهم أحد.

وقيل: إنّ المقصود اندساس المذنبين بين صفوف الصالحين.

وقيل: إنّ المذنب يدس نفسه أو هويته الإنسانيه في المعاصي و الذنوب.

وقيل: إنه يخفى المعاصي و الذنوب في نفسه.

و التعبير-على كل حال- كناية عن التلوّث بالذنوب و المعاصي و الخصائل الشيطانيه، و بذلك يقع في المنطقه المقابله للتركيه.

و الآيه تحتمل في مفهومها الواسع كلّ هذه المعاني.

و بهذا المعيار يتمّ تمييز الفائزين عن الفاشلين في ساحه الحياه. «تزكيه النفس و تنميتها بروح التقوى و طاعه الله» أو «تلوّثها بأنواع المعاصي و الذنوب».

الإمامان الباقر و الصادق عليهما السلام قالا في تفسير الآيه الكريمه: «قد أفلح من أطاع و خاب من عصي» (١).

و

عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال حين تلا الآيه: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها و مولاها، و زكّها أنت خير من زكّها» (٢).

و هذا الحديث يدل على أن اجتياز تعاريج المسيره الحياتيه و العبور من العقبه لا يتيسّر حتى لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم إلا بتوفيق الله تعالى، أي لا يتيسّر إلا بعزم العبد و تأييد الباري، و لذلك

ورد في حديث آخر عن الرسول الأ-عظم صلّى الله عليه و آله و سلّم في تفسير الآيتين قوله: «أفلحت نفس زكّها الله و خابت نفس خيبتها الله من كلّ خير» (٣).

ص: ٢٣٨

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٨.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٥٧.

١- ارتباط القسم القرآني بجواب القسم

ما الارتباط بين هذه الأقسام الأحد عشر المتتاليه فى السوره، و بين الحقيقه التى جاءت لأقسام لتأكيدھا؟ يظهر أن الله سبحانه و تعالى يريد أن يقول لعباده: إننى و فرت لكم كل الوسائل الماديه و المعنويه لسعادتكم، فبنور الشمس و القمر أضأت لكم الحياه و باركتھا و نظمت لكم الليل و النهار و الحركه و السكون، و مهدت الأرض لحياتكم.

و من جهه اخرى، خلقت أنفسكم بكل الكفاءات اللازمه، و وهبتكم الضمير اليقظ، و ألهمتكم معرفه حسن الأمور و قبجھا، فلا ينقصكم شئ إذن لطى طريق السعاده، لماذا إذن- مع كل هذا- لا تكون أنفسكم و تستسلمون للدسائس الشيطانيه؟

٢- دور الشمس فى عالم الحياه

الحديث عن الشمس- و هى مركز المنظومه الشمسيه و أميره كواكبھا- يدور تاره حول عظمتھا و هو ما تطرقنا إليه سابقا، و تاره اخرى حول بركاتھا و آثارھا، و هذا ما سنعرض له بتلخيص فى النقاط التاليه:

١- حياه البشر و جميع الموجودات الحيه الأخرى بحاجه فى الدرجه الاولى إلى الحراره و النور، و الحاجه إلى هذين الأمرين الحياتيين تؤمنھا بشكل كامل متعادل هذه الكره العظيمه المتوجهه.

٢- جميع المواد الغذائيه يتم إعدادھا بوسيله نور الشمس، حتى الأحياء فى قاع البحار و المحيطات تتغذى على النباتات التى تنمو على سطح المحيطات أو فى خضمّ الأمواج مستفيدة من نور الشمس ثم تترسب إلى القيعان.

٣- كل الألوان و مظاهر الجمال المشهوده فى الطبيعه ترتبط بشكل من

الأشكال بنور الشمس، وهذه مسأله علميه ثابتة و خاصه فى الفيزياء.

٤- الأمطار التى تحيى الأرض بعد موتها تهطل من الغيوم و الغيوم أبخره متصاعده من البحار و المحيطات نتيجة لسطوع الشمس عليها، مصادر المياه التى تتغذى من الأمطار بما فيها الأنهار و العيون و القنوات و الآبار العميقه هى إذن من بركات نور الشمس.

٥- الرياح التى تؤدى مهمه تلطيف الجو، و تنقل السحب، و تلقيح النبات، و نقل الحرارة من المناطق الحاره على الكره الأرضيه إلى المناطق الباردة، و نقل البروده من المناطق الباردة إلى الحاره، إنما تفعل ذلك بفضل سطوع نور الشمس، و تغيير درجه الحرارة فى المناطق المختلفه من المعموره.

٦- مصادر الطاقه بما فيها الشلالات، و السدود العظيمه فى المناطق الجبلية، مصادر النفط و مناجم الفحم كلها ترتبط بشكل من الأشكال بالشمس، و لولاها لما وجدت هذه المصادر، و لتبدلت الحركة على وجه الأرض إلى سكون.

٧- بقاء نظام المنظومه الشمسيه مدين للتعادل القائم بين قوى الجذب و الدفع الموجوده بين كره الشمس من جهة، و السيارات التى تدور حولها من جهة اخرى.

و بذلك تنهض الشمس بدور فعال فى حفظ هذه السيارات فى مدارها.

من مجموع ما ذكرنا نفهم السبب فى بدء القسم فى هذه السوره المباركه بالشمس.

و هكذا القمر و نور النهار و ظلام الليل، و الكره الأرضيه، لكل واحد منها دور هام فى حياه الإنسان و غير الإنسان، و لذلك جاء القسم بها جميعا، و أهم من كل ذلك الإنسان بروحه و جسمه فهو أعجب من الجميع و أشد غموضا و سراً منها.

و سنعود إلى أهميه تهذيب النفس فى نهايه السوره

اشاره

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَهُ اللَّهُ وَ سَيِّئَاتِهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

التفسير

اشاره

عاقبه مره للطغاه:

عقب التحذير الذى أطلقته الآيه السابقه بشأن عاقبه من ألقى بنفسه فى أو حال العصيان، قدمت هذه الآيات مصداقا تاريخيا واضحا لهذه السنه الإلهيه، و تحدثت عن مصير قوم «ثمود» بعبارات قصيره قاطعه ذات مدلول عميق.

«الطغوى» و«الطغيان» بمعنى واحد و هو تجاوز الحد، و فى الآيه تجاوز الحدود الإلهيه و العصيان أمام أوامره (١).

«قوم ثمود» من أقدم الأقسام التى سكنت منطقه جليله بين «الحجاز» و«الشام». كانت لهم حياه رغده مرفهه، و أرض خصبه، و قصور فخمه، غير أنهم لم

ص: ٢٤١

١- ١) - ذكر بعض علماء اللغه أن «الطغوى» مشتقه من ماده ناقص و اوى (طغو) و«الطغيان» من ماده ناقص يائى (طغى).

يُؤدوا شكر هذه النعم، بل طغوا و كذبوا نبيهم صالحا، و استهزءوا بآيات الله، فكان عاقبه أمرهم أن أيدوا بصاعقه سماويه.

ثم تستعرض السوره مقطعا بارزا من طغيان القوم و تقول: إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا .

و«أشقى» ثمود، هو الذى عقر الناقه التى ظهرت باعتبارها معجزه بين القوم، و كان قتلها بمثابة إعلان حرب على النبى صالح.

ذكر المفسرون أن اسم هذا الشقى «قدار بن سالف» و

روى أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلى بن أبى طالب عليه السلام: من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقه.

قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت لا أعلم يا رسول الله.

قال: الذى يضربك على هذه، و أشار إلى يافوخه (1)

فى الآيه التالىة تفاصيل أكثر عن طغيان قوم ثمود:

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا

المقصود من «رسول الله» نبى قوم ثمود صالح عليه السلام، و عبارته «ناقه الله» إشارة إلى أن هذه الناقه لم تكن عاديه، بل كانت معجزه، تثبت صدق نبوه صالح، و من خصائصها - كما فى الزوايه المشهوره أنها خرجت من قلب صخره فى جبل لتكون حجه على المنكرين.

«الناقه» منصوبه بفعل محذوف، و التقدير «ذروا ناقه الله و سقياها»، و يستفاد من مواضع اخرى فى القرآن الكريم أن النبى صالحا عليه السلام كان قد أخبرهم أن ماء القرية يجب تقسيمه بينهم و بين الناقه، يوم لهم و يوم للناقه:

ص: ٢٤٢

(١-١) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٩، و وردت الروايه باختصار فى تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٧١٦٨.

وَبَيَّنُّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَهُ بَيْنَهُمْ كُلَّ شَرْبٍ مُخْتَصِرٌ

(١)

و حذرهم من أن الإساءة إلى الناقة: وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ (٢).

الآية التالية تقول: فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا، و«العقر»-على وزن كفر-معناه الأساس والأصل والجذر، و«عقر الناقة» قطع أساسها وإهلاكها.

وقيل: «العقر» بتر أسافل أطراف الناقة، مما يؤدي إلى سقوطها و هلاكها.

ويلاحظ أن قاتل الناقة شخص واحد أشارت إليه الآية بأشقاها، بينما نسب العقر إلى كل طغاه قوم ثمود: «فَعَقَرُوهَا»، وهذا يعنى أن كل هؤلاء القوم كانوا مشاركين في الجريمة، وذلك أولاً: لأن مثل هذه المؤامرات يخطط لها مجموعته ثم ينفذها فرد واحد أو أفراد.

و ثانياً: لأن هذه الجريمة تمت برضا القوم فهم شركاء في الجريمة بهذا الرضا، و

عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى، فقال سبحانه: فَعَقَرُوهَا فَأَصِيبُوهَا نَادِمِينَ» (٣) و عقب هذا التكذيب أنزل الله عليهم العقاب فلم يترك لهم أثراً: فَدَمِدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا .

«دمدم» تعنى أهلك، و تأتي أحيانا بمعنى عذب و عاقب و أحيانا بمعنى سحق و استأصل، و بمعنى سحق أو أحاط (٤).

و«سواها» من التسوية و هى تسوية الأبنية بالأرض نتيجة صيحه عظيمه و صاعقه و زلزه، أو بمعنى إنهاء حاله هؤلاء القوم، أو تسويتهم جميعاً فى العقاب

ص: ٢٤٣

١-١) - القمر، الآية ٢٨.

٢-٢) - الشعراء، الآية ١٥٦.

٣-٣) - نهج البلاغه، الخطبه ٢٠١.

٤-٤) - مفردات الراغب، و لسان العرب، و مجمع البيان.

و العذاب، حتى لم يسلم أحد منهم.

و من الممكن أيضا الجمع بين هذه المعاني.

الضمير في «سواها» يعود إلى قبيله ثمود، وقد يعود إلى مدنهم و قراهم التي سواها رب العالمين مع الأرض.

و قيل إن الضمير يعود إلى مصدر «دمدم» أي إن الله سوى غضبه و سخطه على القوم ليشملهم جميعا على حد سواء، و التفسير الأول أنسب.

و من الآيه نستنتج بوضوح أن عقاب هؤلاء القوم كان نتيجة لذنوبهم و كان متناسبا مع تلك الذنوب، و هذا عين الحكمة و العدالة.

في تاريخ الأمم نرى غالبا بروز حالة الندم فيهم حين يرون آثار العذاب و لجوءهم إلى التوبه، أما قوم ثمود، فالغريب أنهم حين رأوا علامات العذاب طفقوا يبحثون عن نبيهم صالح ليقتلوه (1). و هذا دليل على ارتكاسهم في العصيان و الطغيان أمام الله و رسوله. لكن الله نجا صالحا و أهلك قومه شر إهلاك.

و تختتم السوره الحديث عن هؤلاء القوم بتحذير قارع لكل الذين يتجهون في نفس هذه المسيره المنحرفه فتقول: **وَلَا يَخَافُ عُقَابَهَا**.

كثيرون من الحكام قادرين على إنزال العقاب لكنهم يخشون من تبعات عملهم، و يخافون ردود الفعل التي قد تحدث نتيجة فعلهم، و لذلك يكفون عن المعاقبه. قدرتهم -إذن- محفوفه بالضعف و علمهم ممزوج بالجهل. لا يعلمون مدى قدرتهم على مواجهه التبعات. بينما الله سبحانه قادر متعال، علمه محيط بكل الأمور و عواقبها، و قدرته على مواجهه النتائج لا يشوبها ضعف، فهو سبحانه و تعالى لا يخاف عقابها، و لذلك فإن مشيئته في العقاب نافذه حازمه.

فالطغاه -إذن- عليهم أن يتبها و يحذروا غضب الله و سخطه و نعمته.

ص: ٢٤٤

بحوث

اشاره

١- ملخص حديث قوم ثمود

قوم «ثمود»- كما ذكرنا- كانوا يقطنون أرضا بين الشام و يثرب تسمى (وادي القرى)... يعبدون الأوثان... و يمارسون ألوان الآثام. بعث الله سبحانه فيهم «صالحا» عليه السلام يدعوهم إلى طريقه الهدايه و النجاه، لكنهم أبوا إلا أن يعكفوا على أوثانهم و يمارسوا طغيانهم.

و عند ما طلبوا من نبيهم معجزه، أرسل الله إليهم «ناقه» بطريق إعجازى من قلب جبل، و لكنهم كلفوا بامتحان يتلخص فى تقسيم ماء المدينه بينهم و بين الناقه... يوم لها و يوم لهم. و فى الأثر أن القوم كانوا يستفيدون من لبن الناقه فى يوم منعهم من الماء، لكن المعجزه لم تخفف من غلواء لجاجهم و عنادهم، فخططوا لقتل الناقه و القتل صالح أيضا لأنهم رأوا فيه عقبه أمام شهواتهم و ميولهم.

خطه «قتل الناقه» نفذت كما ذكرنا على يد شقى قسى اسمه «قدار بن سالف»، و كان ذلك فى الحقيقه إعلان حرب على الله، لأنهم أرادوا بقتل هذه الناقه التى كانت معجزه نبي الله صالح أن يطفئوا نور الهدايه، عندئذ أنذرهم صالح أن يتمتعوا فى بيوتهم بما شأوا من اللذات ثلاثه أيام لينزل العذاب بعدها عليهم جميعا. (سوره هود- الآيه ٦٥).

هذه الأيام الثلاثه كانت فى الواقع فرصه لإعاده النظر، و آخر مهله للعوده و التوبه، لكنهم أبوا إلا طغيانا بل ازدادوا عتوا، و هنا حلّ عليهم العذاب الإلهى،

و جاءت الصيحة السماويه (١) لتدك أرضهم، و لتبيدهم في دورهم: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ لَجَائِمِينَ (٢).

تفاصيل قصه ثمود وردت في المجلد السادس من هذا التفسير.

٢- أشقى الأولين و أشقى الآخرين

جمع من علماء الشيعة و السنه منهم الثعلبي، و الواحدى، و ابن مردويه، و الخطيب البغدادي، و الموصلى، و أحمد بن حنبل، و غيرهم باسنادهم عن عمار بن ياسر، و جابر بن سمره، و عثمان بن صهيب، عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلى عليه السلام: «يا على! أشقى الأولين عاقر الناقه، و أشقى الآخرين قاتلك، و فى روايه: من يخضب هذه من هذا(و أشار إلى لحيته و يافوخه)» (٣).

و ثمه تشابه فى الواقع بين قاتل ناقه صالح، قدار بن سالف، و قاتل أمير المؤمنين عليه السلام، عبد الرحمن بن ملجم المرادى. لم يكن الاثنان يحملان عداً شخصياً، بل كان هدف الإثنين إطفاء نور الله و القضاء على معجزه و آيه من آيات الله، و كما إن العذاب الإلهى عمّ قوم ثمود بعد حادثه الناقه، كذلك عمّ المسلمين بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام داهيه دهماء تمثلت فى التسلط الأموى المتجبر الذى سام المسلمين سوء العذاب.

و يذكر أنّ الحاكم الحسكاني أورد روايات كثيره مستفيضة فى هذا المجال (٤).

ص: ٢٤٦

١- ١) -الصيحة السماويه أو الصاعقه، صوت عظيم تصحبه هزّه شديده و حرائق، و هى بالتعبير العلمى شراره كهربائيه كبرى تحدث نتيجة تفرغ كهربائى من الغيوم المحمله بشحنات موجبته إلى الأرض ذات الشحنات السلبيه.

٢- ٢) -هود، الآيه ٦٧.

٣- ٣) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٨٧.

٤- ٤) -شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٣٥-٣٤٣.

كلما ازداد عدد أقسام (جمع قسم) القرآن ازدادت أهميه الموضوع، و في هذه السوره المباركه أكبر عدد من الأقسام، خاصه و أنّ القسم بالذات الإلهيه المقدسه تكرر ثلاث مرات، ثمّ جاء التركيز على أن النجاح و الفلاح في تزكيه النفس، و أن الخيبه و الخسران في ترك التزكيه.

و هذه في الواقع أهم مسأله في حياه الإنسان، و القرآن الكريم إذ يطرح هذه الحقيقه إنّما يؤكد على أنّ فلاح الإنسان لا يتوقف على الأوهام و لا- على جمع المال و المتاع و نيل المنصب و المقام، و لا- على أعمال أشخاص آخرين (كما هو معروف في المسيحيه بشأن ارتباط فلاح الإنسان بتضحيه السيد المسيح)... بل الفلاح يرتبط بتزكيه النفس و تطهيرها و سمّوها في ظل الإيمان و العمل الصالح.

و شقاء الإنسان ليس أيضا وليد قضاء و قدر و بالإجبار، و لا نتيجة مصير مرسوم، و لا بسبب فعل هذا و ذاك، بل هو فقط بسبب التلوث بالذنوب و الانحراف عن مسير التقوى.

و في الأثر أن زوج العزيز (زليخا) قالت ليوسف لما أصبح حاكم مصر:

«إِنَّ الْحِرْصَ وَالشَّهْوَةَ تَصِيرُ الْمُلُوكَ عبيداً، و أن الصبر و التقوى يصير العبيد ملوكاً، فقال يوسف: قال الله تعالى: إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» (١).

و عنها أيضا قالت لما رأت موكب يوسف مارا من أمامها:

«الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، و جعل العبيد بطاعتهم ملوكاً» (٢) نعم، عباده النفس تؤدي إلى وقوع الإنسان في أغلال الرقيه بينما تزكيه

ص: ٢٤٧

١-١) -المحجه البيضاء، ج ٥، ص ١١٦.

٢-٢) -المحجه البيضاء، ج ٥، ص ١١٧.

نعم، عباده النفس تؤدي إلى وقوع الإنسان في أغلال الرقيه بينما تزكيه النفس توفر أسباب التحكم في الكون.

ما أكثر الذين وصلوا بعبوديتهم لله تعالى درجه جعلتهم أصحاب ولايه تكوينيه، و مكنتهم بإذن الله أن يؤثروا في حوادث هذا العالم و أن تصدر منهم الكرامات و خوارق العادات!! إلهي! أعنا على أنفسنا و على كبح جماح أهوائنا.

إلهي! لقد ألهمتنا «الفجور» و «التقوى» فوفقنا للاستفاده من هذا الإلهام.

إلهي! دسائس الشيطان خفيه غامضه في نفس الإنسان، فوفقنا لمعرفتها.

آمين يا رب العالمين نهايه سوره الشمس

ص: ٢٤٨

سوره اللیل

اشاره

مکیه و عدد آیاتها إحدى و عشرون آیه

ص: ۲۴۹

محتوى السوره:

هذه السوره مكّيه تحمل كلّ خصائص السور المكّيه من قصر فى الآيات، و حراره فى طرح المحتوى، و تركّز أساسا على القيامه و على ما فى ذلك اليوم من جزاء و عقاب.

بعد القسم بثلاث ظواهر فى بدايه السوره يأتى تقسيم الناس إلى منفقين متّقين، و بخلاء منكرين، و تذكّر عاقبه كلّ مجموعته؛ اليسر و السعاده و الهناء للمجموعه الاولى، و العسر و الضنك و الشقاء للمجموعه الثانيه.

و فى مقطع آخر من السوره إشاره إلى أنّ الهدايه من الله سبحانه لعباده هى إنذارهم من النّار يوم القيامه.

ثمّ تذكّر السوره فى نهايتها من يدخل هذه النّار و من ينجو منها، مع ذكر أوصاف الفريقين.

فضيله تلاوه السوره:

ورد فى فضيله تلاوه هذه السوره

عن النّبي الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّ قال: «من قرأها أعطاه الله حتى يرضى، و عافاه من العسر و يسّر له اليسر» (1).

ص: ٢٥١

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَإِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَدَّلَ وَإِسْتَتَنَّ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسِيسِرُهُ
لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)

سبب النزول

روى عن ابن عباس في نزول هذه السورة: «أن رجلا- كانت له نخله فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، و كان الرجل إذا جاء
فدخل الدار و صعد النخله ليأخذ منها التمر، فربما سقطت التمره فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من النخله حتى يأخذ التمر
من أيديهم، فإن جدتها في في أحدهم أدخل إصبعه حتى يأخذ التمره من فيه. فشكا ذلك الرجل إلى النبي صلى الله عليه و آله
و سلم، و أخبره بما يلقي من صاحب النخله، فقال له النبي صلى الله عليه و آله و سلم: اذهب. و لقي رسول الله صاحب النخله
فقال:

تعطيني نخلتك المائه التي فرعها في دار فلان و لك بها نخله في الجنة؟ فقال له

الرجل: إن لي نخلا كثيرا، وما فيه نخله أعجب إليّ ثمره منها.

قال: ثم ذهب الرجل، فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول الله: يا رسول الله: أتعطيني ما أعطيت الرجل نخله في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: نعم.

فذهب الرجل ولقى صاحب النخلة فساومها منه فقال له: أشعرت أن محمدا أعطاني بها نخله في الجنة فقلت له يعجبني ثمرتها وإن لي نخلا كثيرا فما فيه نخله أعجب إليّ ثمره منها؟ فقال له الآخر: أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا أن أعطى ما لا أظنه أعطى.

قال: فما مناك؟ قال: أربعون نخله فقال الرجل: جئت بعظيم، تطلب بنختك المائله أربعين نخله؟! ثم سكت عنه، فقال له: أنا أعطيك أربعين نخله.

فقال له: أشهد إن كنت صادقاً، فمرّ إلي أناس فدعاهم فأشهد له بأربعين نخله، ثم ذهب إلى النبي فقال: يا رسول الله إن النخلة صارت في ملكي، فهي لك.

فذهب رسول الله إلى صاحب الدار، فقال له: النخلة لك و لعيالك، فأنزل الله تعالى: **وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ** السّوره و عن عطاء قال: اسم الرجل (أبو الدحداح)» (١)

التفسير

إشاره

التقوى و الإمداد الإلهي:

هذه السّوره المباركه أيضا تبتدئ بثلاثه أقسام تثير التفكير في المخلوقات و في الخالق.

تقول: **وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ**

ص: ٢٥٣

فالقسم الأول بالليل حين يغطى... يغطى بظلامه نصف الكرة الأرضية... أو يغطى قرص الشمس، وهذا القسم تأكيد على أهميه الليل و دوره الفاعل في حياه الأفراد، من تعديله لحراره الشمس، و نشره السكينه على كل الموجودات الحيه، و توفير الجوّ لعباده المتهجدين و مناجاه الصالحين.

و يستمر السياق القرآنى فى القسم بالقول: وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (١).

و النهار يبدأ من اللحظه التى يطلع فيها الفجر، فيشق قلب ظلام الليل، ثم يمتد ليملأ كل السماء، و يغمر كل شىء بالنور... بهذا النور الذى هو رمز الحركه و الحياه، و العامل على نمو كل الموجودات الحيه.

فى القرآن الكريم تركيز على مسأله نظام «النور» و «الظلمه» و دورهما فى حياه البشر، لأنهما من نعم الله الكبرى و من آياته العظمى سبحانه.

ثم القسم الأخير فى السوره بالخالق المتعال: وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى .

فوجود الجنسين فى عالم «الإنسان» و «الحيوان» و «النبات»... و المراحل التى تمرّ بها النطفه منذ انعقادها حتى الولاده... و الخصائص التى يمتاز بها كل جنس متناسبه مع دوره و نشاطه... و الأسرار العميقه المخبوءه فى مفهوم الجنسيه... كلها من دلالات و آيات عالم الخلقه الكبير... و بها يمكن الوقوف على عظمه الخالق.

و التعبير ب«ما» عن الخالق سبحانه كناية عن عظمه الذات الإلهيه، و ما يحيط بهذه الذات من غموض تجعله سبحانه فوق كلّ وهم و خيال و ظن و قياس.

قال بعضهم أن «ما» فى الآيه مصدرية، و معناها أقسم بخلق الذكر و الأنثى

ص: ٢٥٤

١ - ١) - يلاحظ فى السوره المباركه أن الفعل «يغشى» بصيغه المضارع، أما «تجلى» فصيغه الماضى، قيل إنّ ذلك يعود إلى عصر نزول السوره، حيث كانت الجاهليه فى بدايه الدعوه مخيمه بظلامها على الأرض، و فى هذه الحاله سيكون القسم بظلام الجاهليه، و ليس ذلك بجديد، و من الأفضل القول إن هذا الفعل الماضى يفيد معنى المضارع لوقوعه بعد «إذا» الشرطيه؛ أو إنّ أصل الفعل «تجلى» حذف إحدى التائين، عندئذ سيكون الفعل مؤنثاً، و لا يكون فاعله «نهار» بل سيكون التقدير: «إذا تجلى الشمس فيه».

و هذا الاحتمال ضعيف فى معنى الآيه.

الحقيقه أنّ القسمين الأول و الثانى يشاران إلى الآيات «الآفاقية»، و القسم الثالث إلى الآيات «الأنفسيه» (١).

ثمّ يأتى الهدف النهائى من كلّ هذه الأقسام بقوله سبحانه: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ ۖ اتَّجَاهَاتُ سَعْيِكُمْ مُخْتَلَفَةٌ، و نتائجها مختلفه أيضا، هذا يعنى أن أفراد البشر لا يستقرون فى حياتهم على حال... بل هم فى سعى مستمر... و فى استثمار دائم للطاقتى التى أودعها الله فى نفوسهم... فانظر أيها الإنسان فى أى مسير تبذل هذه الطاقه التى هى رأس مال وجودك... فى أى اتجاه... و فى سبيل أيه غايه؟! حذار من تبديد كلّ هذه الطاقات فى سبيل نتيجته تافهه... و حذار من بيعها بثمان بخس! «شتى» جمع «شتيت» من ماده «شتت» أى فرّق الجمع، و هنا بمعنى التفرق و التشعب فى المساعى من حيث الكيفيه و الهدف و النتيجه.

ثمّ يأتى تقسيم الناس على قسمين، و يبين خصائص كلّ قسم، يقول سبحانه:

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَ اتَّقَىٰ، وَ صَدَقَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ

المقصود من الإعطاء فى قوله: «أعطى» هو الإنفاق فى سبيل الله و مساعده المحتاجين.

و التأكيد على «التقوى» عقب الإعطاء قد يشير إلى ضروره تنزيه النيه و إخلاص القصد عند الإنفاق، و إلى الحصول على المال من طريق مشروع، و إنفاقه فى طريق مشروع أيضا، و إلى خلوه من المنّ و الأذى... فكلّ هذه الصفات تجتمع فى عنوان التقوى.

قال بعض إن «أعطى» إشاره إلى العبادات المالىه و «اتقى» إشاره إلى سائر

ص: ٢٥٥

١- ١) - هذا التقسيم للآيات مستلهم من قوله سبحانه: سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ .

العبادات العمليه من أداء الواجبات و ترك المحرمات، غير أن التفسير الأول أنسب مع ظاهر الآيه، و مع سبب نزولها.

و«الحسنى» مؤنث «أحسن» إشاره إلى مثوبه الله و جزاء الأوفى، و التصديق بالحسنى هو الإيمان بها، و فى سبب النزول ذكرنا أن «أبا الدحداح» أنفق أمواله لإيمانه بما سيعوضه الله فى الآخره. و الحسنى وردت بهذا المعنى أيضا فى قوله سبحانه: وَ كَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى (١).

قيل إن المقصود هو «الشريعة الحسنى»، و التصديق بالحسنى هو الإيمان بالإسلام، الذى هو أكمل الأديان.

و قيل إنها كلمه «لا إله إلا الله»، و قيل: إنها الشهادتان.

غير أن سياق الآيات و سبب النزول و ذكر «الحسنى» بمعنى «الجزء الحسن» فى كثير من الآيات كله يرجح التفسير الأول.

عبارة فَتَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى قد تكون إشاره إلى التوفيق الإلهى و إلى تيسير الطاعه لمثل هؤلاء الأفراد، أو فتح طريق الجنه أمامهم و ما يقابلونه من استقبال الملائكه و تحيتهم، أو كل ذلك.

من المؤكّد أنّ الذين سلكوا طريق الإنفاق و التقوى، و اطمئنوا إلى جزاء الله و ثوابه فى الآخره، تتذلل أمامهم المشاكل و ينعمون فى الدنيا و الآخره بالسكينه و الاطمئنان.

أضف إلى ما سبق، قد يكون الإنفاق المالى شاقا و ثقيلًا- على طبع الإنسان فى البدايه، و لكن بتوطين النفس على ذلك و الاستمرار فيه، يتحول إلى أمر ميسور...

بل أمر فيه لذّه و ارتياح.

ما أكثر الأفراد الأسخياء الذين ينشرون لحضور الضيف على مائدتهم، و لا

ص: ٢٥٦

يرتاحون إذا خلت مائدتهم يوما من ضيف... وهذا نوع من تيسير الأمور لهؤلاء.

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا أن الإيمان بالمعاد و بثواب الآخرة يهون المشاكل و الصعاب، و يجعل بذل المال بل النفس ميسورا، و يخلق الدافع نحو طلب الشهادة في ميادين الجهاد عن رغبه مقرونه باحساس باللذه و النشوه.

«اليسرى» من اليسر، و هي في الأصل بمعنى إسراج الفرس و الجامها و إعدادها للركوب. ثم أطلقت الكلمه على كل عمل سهل ممهد (١).

و في الجبهه المقابله تقف المجموعه الاخرى التى تتحدث عنها الآيات التاليه:

وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى، وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى

«من بخل» فى هذه المجموعه مقابل «من أعطى» فى تلك.

كلمه «استغنى» أى طلب الغنى، قد تكون إشاره إلى ذريعتهم لبخلهم، و وسيلتهم لاكتناز المال، أو قد تكون إشاره إلى ظنهم بأنهم مستغنون عن ثواب الآخرة، عكس الطائفه الاولى المنشده إلى مثوبه الله، أو قد تكون بمعنى الإحساس بالاستغناء عن طاعه الله و بالتالى التخبط المستمر فى الآثام.

من بين هذه التفاسير الثلاثه يبدو التفسير الأول أنسب، و إن أمكن أيضا الجمع بين الثلاثه.

المقصود من التكذيب بالحسنى، هو إنكار ثواب الآخرة، أو إنكار الدين الإلهى.

فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى

... و التيسير للعسر بالنسبه لهذه المجموعه، يقابله التيسير لليسر للمجموعه الاولى التى يشملها الله بتوفيقه، و ييسر لها طريق الطاعه و الإنفاق، و بذلك تتذلل أمامها مشاكل الحياه... أما هذه المجموعه فتحرم التوفيق، و يتعسر عليها شق الطريق و تواجه الضنك و النصب فى الدنيا و الآخرة، و هؤلاء

ص: ٢٥٧

البخلاء الخاؤون من الإيمان يشقّ عليهم فعل الخير و خاصّه الإنفاق، بينما هو للمجموعه الاولى مقرون باللذّه و الإنشراح. (١)

ثمّ يأتي التحذير لهؤلاء البخلاء المغفلين بالآيه: وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى .

لا يستطيع أن يصطحب ماله من هذه الدنيا، ولا يستطيع هذا المال-إذا اصطحبه-أن يقيه من السقوط في نار جهنّم.

«ما» في الآيه قد تكون نافية، و قد تكون للاستفهام الإنكاري، أيّ ماذا يجديه المال إذا سقط في حفره القبر أو في هاويه جهنّم؟! «تردى» من (الردى) بمعنى الهلاك، و بمعنى السقوط من مكان مرتفع يؤدي إلى الهلاك، و قيل إن أصل الكلمه بمعنى السقوط: و لما كان السقوط من مكان مرتفع يؤدي إلى الهلاك، فقد أطلقت الكلمه و أريد بها الهلاك، و التردى في الآيه قد يعنى السقوط في القبر، أو في جهنّم، أو بمعنى الهلاك الذي هو جزاء هؤلاء.

و بهذا... تحدثت الآيات الكريمات عن مجموعتين: الاولى: مؤمنه، تقيه، سخيّه؛ و الثانيه: خاويه الإيمان، عديمه التقوى، بخيله و نموذج المجموعتين موجود في سبب نزول الآيات بوضوح.

المجموعه الاولى، طوت طريقها بيسر بتوفيق الله، و اتجهت نحو الجنّه و نعيمها، بينما المجموعه الثانيه، واجهت في مسيرتها الحياتيه المشاكل المتفاقمه جمعت الأموال الطائله، و تركتها و ولت تجرّ أذيال الحسره و الهمّ و الويال، و لم تنل سوى العقاب الإلهي.

ص: ٢٥٨

١ - ١) - «اليسرى» مؤنث أيسر، و «العسرى» مؤنث أعسر، إنّما جاء بصيغه المؤنث إمّا لأنّهما صفتان للأعمال و التقدير: فسيسره لأعمال يسرى... أو - لأعمال عسرى، أو صفتان لحوادث الحياه، و إن كان الموصوف مفردا فقد يكون «طريقه» أو «خله».

إشاره

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصِفُهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَسَوْفَ يُرْضَىٰ (٢١)

التفسير

إشاره

الإفناق و النجاه من النار:

عقب الآيات الكريمة السابقة التي قسمت الناس على مجموعتين: مؤمنه سخيّه، و عديمه الإيمان بخيله، و بينت مصير كلّ منهما، تبدأ هذه الطائفة من الآيات بالتأكيد أن على الله الهدايه لا الإجبار و الإلزام، و يبقى الإنسان هو المسؤول عن اتخاذ القرار اللازم، و أن انتخاب الطريق المستقيم يعود بالنفع على الإنسان نفسه و لا حاجه لله سبحانه بعمل خير يقدمه الفرد. يقول تعالى: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ الهدى عن طريق التكوين (الفطره و العقل) أو عن طريق التشريع (الكتاب و السنه)... فقد بينا ما يلزم و أدينا الأمر حقّه.

و بعد وَ إِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَ الْأُولَى (١) فلا حاجة بنا لإيمانكم و طاعتكم، و لا طاعتكم تجدينا نفعاً و لا معصيتكم تصيبنا ضرراً، و كلٌّ منهج الهداية لصالحكم أنفسكم.

حسب هذا التفسير الهداية تعنى «اراءه الطريق»، و يحتمل أن تكون الآيتان لتشجيع المؤمنين الأسخياء، و التأكيد على أن الله سبحانه سيشملهم بمزيد من الهداية، و ييسر لهم الطريق فى هذه الدنيا و فى الآخرة، فالله قادر على ذلك لأن له الآخرة و الأولى.

صحيح أن الدنيا مقدمه على الآخرة زمنياً، و لكن الآخرة أهم و هى الهدف النهائى، و لذلك تقدم ذكرها على الدنيا فى الآيه الإندار و التحذير من سبل الهداية، و لذلك قال سبحانه: فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَطَّى .

«تلظى» من اللظى، و هو الشعلة المتوهجه الخالصه و الشعلة الخالصه من الدخان ذات حراره أكبر، و تطلق «لظى» أحيانا على جهنم (٢) .

ثم تشير الآيه إلى المجموعه التى ترد هذه النار المتلظيه الحارقه و تقول:

لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى

و فى وصف الأشقى تقول الآيه: الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى .

معيار الشقاء و السعاده-إذن-هو الكفر و الإيمان و ما ينبثق عنهما من موقف عملى، إنه لشقى حقاً هذا الذى يعرض عن كل معالم الهداية و عن كل الإمكانيات المتاحة للإيمان و التقوى...بل إنه أشقى الناس.

عبارة الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى قد يكون التكذيب إشاره إلى الكفر، و التولى إشاره إلى ترك الأعمال الصالحه، إذ هو ملازم للكفر، و قد يشير الفعلان إلى ترك

ص: ٢٦٠

١-١) -«اللام» فى (للآخرة) و (للأولى) و كذلك فى (للهدى) لام تأكيد تدخل على خبر إن، و دخلت هنا على اسمها لتقدم الخبر.

٢-٢) -تلظى أصلها تلظى حذف إحدى التائين للتخفيف.

الإيمان، و يكون التكذيب بنبي الإسلام، و التولى الإعراض عنه.

كثير من المفسرين يعالجون هنا مسألة ترتبط بما طرحته الآيه من اختصاص جهنم بالكافرين: لا يضلّاهما إلاّ الأشقى... الذي كذب و تولى، و هذا يتنافى مع آيات اخرى و روايات تتحدث عن شمول عذاب جهنم للمؤمنين المذنبين أيضا.

و الآيتان استدل بهما المرجئه في قولهم: لا تضرّ مع الإيمان معصيه!

و لتوضيح ما يبدو هنا من تعارض يجب الالتفات إلى مسألتين: الاولى - المقصود بصلى جهنم هنا الخلود فيها، و الخلود مختص بالكافرين، و القرينه على هذا القول تلك الآيات التي تتحدث عن دخول غير الكافرين أيضا جهنم.

و الاخرى، أنّ الآيتين المذكورتين و ما بعدهما حيث يقول تعالى: وَ سَيُجْزَىٰ بِهَا الْأَتْقَىٰ تريد بمجموعها أن تبين فقط حال مجموعتين: عديمه الإيمان البخيله، و المؤمنه السخيه التقيه، و تذكر أنّ مصير الاولى جهنم، و الثانيه الجنه، و لا تتطرق أساسا إلى المجموعه الثالثه و هي المؤمنه المذنبه.

بعبارة اخرى الحصر هنا من النوع الإضافي، أي كأن الجنه خلقت للمجموعه الثانيه فقط، و جهنم للمجموعه الاولى فحسب، و بهذا البيان تتضح الإجابة على إشكال آخر بشأن التضاد بين الآيتين اللتين نحن بصددهما و ما يلي من آيات تحصر النجاه بالأتقى.

ثمّ تتحدث السوره عن مجموعته قد جنبت النار و أبعدت عنها، تقول الآيه:

وَ سَيُجْزَىٰ بِهَا الْأَتْقَىٰ

و من هو هذا الأتقى؟ تقول الآيه الكريمه: الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ .

و عبارة «يتزكى» تشير إلى قصد القربه، و خلوص النيه، سواء أريد منها معنى النمو الروحي و المعنوي، أم قصد بها تطهير الأموال، لأنّ التركيزه جاءت بمعنى «التمنيه»، و بمعنى «التطهير». قال تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

وَتُرَكِّبُهُمْ بِهَا، وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ

(١)

، أى تربيهم و تنميههم بها.

و للتأكيد على خلوص النية فى إنفاقهم تقول الآية: وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ فَلَا أَحَدٌ قَدْ أَنْعَمَ عَلَىٰ هَذَا «الأتقى» ليكون إنفاقه جزاء على هذه النعمة.

بل هدفه رضا الله لا غير: إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ .

بعبارة اخرى: كثير من الإنفاق بين الناس يتم ردًا على إنفاق مشابه سابق من الجانب الآخر، طبعاً ردّ الإحسان بالإحسان عمل صالح، لكن حسابه يختلف عمّا يصدر عن الأتقياء من إنفاق مخلص.

الآيات المذكورة أعلاه تقول: إنفاق المؤمنين الأتقياء ليس رياء و لا ردًا على خدمات سابقة قدمت إليهم، بل دافعها رضا الله لا غير، و من هنا كان إنفاقهم ذا قيمة كبرى.

التعبير بكلمه «وجه» هنا يعنى «الذات»، أى رضا ذات البارى تقدست أسماؤه.

و عبارة «ربه الأعلى» تشير إلى أن هذا الإنفاق يتم عن معرفه كامله... عن معرفه برؤيه البارى تعالى، و علم بمكانته الساميه العليا، و هذا الاستثناء ينفى أيضا كل نيه منحرفه، مثل الإنفاق من أجل السمعه و الوجاهه و أمثالها... و يجعله منحصرًا فى طلب رضا الله سبحانه (٢).

و فى خاتمه السوره ذكر بعبارة موجزه لما ينتظر هذه المجموعه من أجر عظيم تقول الآية: وَ لَسَوْفَ يَرْضَىٰ .

نعم، و لسوف يرضى، فهو قد عمل على كسب رضا الله، و الله سبحانه سوف

ص: ٢٦٢

(١-١) - التوبه، الآية ١٠٣.

(٢-٢) - «ابتغاء» منصوبه على الاستثناء، و الاستثناء فى الآية منقطع، أى إن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه أى: ما لأحد عنده من نعمه إلا- ابتغاء وجه ربه، و يجوز أن يكون النصب على أن الكلمه مفعول له على المعنى، لأن معنى الكلام، لا- يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه.

يرضيه، إرضاء مطلقاً غير مشروط إرضاء واسعاً غير محدود... إرضاء عميق المعنى يستوعب كلّ النعم... إرضاء لا يمكننا اليوم حتى تصوّره... و أى نعمه أكبر من هذا الرضى! نعم، الله أعلى، و جزاؤه أعلى، و لا أعلى من رضا العبد رضا مطلقاً.

احتمل بعض المفسّرين أن يكون الضمير فى «يرضى» عائداً إلى الله سبحانه أى إنّ الله سوف يرضى عن هذه المجموعه، و هذا الرضا أيضاً نعمه ما بعدها نعمه.

نعمه رضا الله عن هذا العبد بشكل مطلق غير مشروط، و من المؤكّد أنّ هذا الرضا يتبعه رضا العبد الأتقى.

فالإثنان متلازمان، و قد جاء فى الآيه (٨) من سوره البينه قوله سبحانه:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٢٨) مِنْ سُورَةِ الْفَجْرِ:

رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. لَكِنَّ التَّفْسِيرَ الْأَوَّلَ أَنْسَبَ.

بحثان

اشاره

١- حول سبب نزول سوره الليل

يقول الفخر الرازى: اجمع المفسّرون منّا على أنّ المراد منه (أى من قوله تعالى: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى أبو بكر (رض)، و اعلم أنّ الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الروايه، و يقولون أنّها نزلت فى حقّ على بن أبى طالب عليه السلام.

ثمّ يعرب الرازى عن وجهه نظره فى هذا المجال و يقول: و إنّما قلنا إنّّه لا يمكن حملها على على بن أبى طالب لأنّه قال فى صفه هذا الأتقى وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، و هذا الوصف لا يصدق على على بن أبى طالب لأنّه كان فى تربيته النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم، لأنّه أخذه من أبيه، و كان يطعمه و يسقيه و يكسوه و يرييه، و كان الرّسول منعماً عليه نعمه يجب جزاؤها، أمّا أبو بكر فلم يكن للنّبى عليه

الصلاه و السلام عليه نعمه دنيويه، بل أبو بكر كان ينفق على الرسول عليه السلام (١).

نحن لا نتطرق عادة في هذا التفسير لمثل هذه المسائل. لكن مثل هذه المحاولات الراميه إلى إثبات الأحكام الذهنيه المسبقه بالاستناد إلى آيات قرآنيه يبلغ بها الأمر أن تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يليق بمقامه الشامخ (٢)، ممّا يستدعينا أن نتوقف عندها قليلا.

أولاً: ما يقوله الفخر الرازي بشأن إجماع أهل السنه على نزول السوره في أبي بكر منقوض بما أورده كثير من مفسري أهل السنه منهم القرطبي في تفسيره عن ابن عباس بشأن نزول كل سوره «الليل» في «أبي الدحداح» (٣).

و القرطبي حين يصل إلى تفسير الآيه: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى يَعِيد القول أنّ المقصود به أبو الدحداح، وهذا المفسر يورد ما ذكره أكثر المفسرين بشأن نزول السوره في أبي بكر، غير أنه لا يقبل هذا الرأي.

ثانياً: ما قيل بشأن اتفاق الشيعة على نزول الآيه في علي عليه السلام غير صحيح أيضاً، إذ أورد كثير من مفسري الشيعة قصه أبي الدحداح على أنها سبب نزول السوره.

نعم، لقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام بأن «الأتقى» شيعة علي و أتباعه، و الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى هو أمير المؤمنين علي عليه السلام، لكن الظاهر أنّ هذه الروايات لا تتحدث عن سبب النزول، بل هي من قبيل ذكر المصاديق الواضحه و البارزه.

ص: ٢٦٤

١-١) - الفخر الرازي التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٢٠٥.

٢-٢) - المدرسه الأمويه كان لها أثرها بدرجه و اخرى على كثير من العلماء على مرّ التاريخ، و تقوم على أساس الحط من شخصيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، و نفى كل منقبه لعلي و اله عليهم السلام «المترجم».

٣-٣) - تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٨.

ثالثاً: «الأَتقى» فى السّوره لىست هنا بمعنى أتقى النَّاس، بل بمعنى المتقى، و الشاهد على ذلك كلمه «الأشقى» التى هى لا تعنى أشقى النَّاس، بل هم الكفار الذين ييخلون بأموالهم فلا ينفقونها، أضف إلى ذلك أنّ الآيه نزلت فى حياه رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلم، أ يصح أن يكون أبو بكر مقدّماً فى التقوى على النَّبى نفسه؟! لماذا نلجأ إلى إثبات أحكامنا الذهنيه المسبقه إلى كل وسيله حتى الحط من شخصيه رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلم.

إنّه قيل أنّ للنَّبى حساباً آخر، نقول: لماذا لم يكن للنَّبى حساب آخر فى الآيه: وَمَا لِلْأَحَدِ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ؟ ففى هذه الآيه يرفض الفخر الرازى أن تكون فى على، لأنّه مشمول بنعم النَّبى الدنيويه.

رابعاً: أى إنسان لىست لأحد نعمه عليه فى حياهه، و لم يقدم له أحد هديه أو يدعوه لضيافه؟! اهل كان أبو بكر كذلك فى حياهه؟! ألم يستجب لضيافه أو يقبل هديه أو خدمه دنيويه طوال حياهه؟! اهل هذا معقول؟! المقصود من الآيه الكريمه:

وَمَا لِلْأَحَدِ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ

لىس إذن أن يكون هذا الأتقى غير مشمول بأيه نعمه دنيويه من أحد.

بل المقصود إن إنفاقه لىس من أجل حق نعمه أغدقت عليه، أى أنّه حين ينفق، فإنّما ينفق فى سبيل الله لا فى سبيل خدمه أسديت إليه و يريد أن يجزى عليها.

خامساً: آيات سوره الليل تنبئ أنّ السّوره نزلت فى واقعه ذات قطبين:

«الأَتقى» و «الأشقى»، و إنّ اعتبرنا قصه أبى الدحداح سبباً للنزول، فالقطبان يتضحان، و إن قلنا إنّ الأتقى أبو بكر فىبقى السؤال عمّن هو «الأشقى».

الشيعه لا- يصرون على نزول الآيه فى على عليه السّلام ففى شأنه نزل كثير من القرآن، و لكن إن كان نزولها فى على، يتبين من جهه اخرى من هو «الأشقى»، إذ ورد فى تفسير الآيه (١٢) من سوره الشمس: إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا روايات كثيره بطرق

أهل السنه أن المقصود من الأشقى قاتل على بن أبي طالب عليه السلام. (و هذه الروايات جمعها- كما ذكرنا- الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل).

بالاختصار، رأى الفخر الرازي في هذه الآية ضعيف غايه الضعف و ملئ بالاشتباه، و لذلك رفضه الآلوسى في روح المعاني و قال: «... و استدل بذلك الإمام على أنه (أبو بكر) أفضل الامه و ذكر أنّ في الآيات ما يأبى قول الشيعة أنّها في على و أطال الكلام في ذلك و أتى بما لا يخلو عن قيل و قال» (١).

٢- فضيله الإنفاق في سبيل الله

الإنفاق في سبيل الله، و مساعده المحرومين عن إخلاص تيه و بدون منه ممّا أكد عليه القرآن الكريم في مواضع عديده و اعتبره من علامات الإيمان.

و الروايات تؤكد كثيرا على هذا المفهوم، و تعدّ الإنفاق المنطلق من دافع رضا الله و البعيد عن كل رياء و منّ و أذى من أفضل الأعمال.

و في نهاية المطاف نورد بعض هذه الروايات:

-١-

عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من الإيمان حسن الخلق، و إطعام الطعام:

و إراقه الدماء» (٢). (النحر في سبيل الله).

-٢-

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السلام قال: «إنّ أحبّ الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن، شبعه مسلم أو قضاء دينه»

(٣) -٣-

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «ما أرى شيئا يعدل زياره المؤمن إلّا إطعامه، و حقّ على الله أن يطعم من أطعم مؤمنا من طعام الجنّة» (٤).

ص: ٢٦٦

١-١) - لا ننسى أنّ نذكر أنّ الآلوسى رجل متعصب نسبيا للمدرسه الأمويه، لكنّه مع ذلك لم يوافق الفخر الرازي في رأيه.

٢-٢) - بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٦٥، ح ٣٨.

٣-٣) - المصدر السابق، ح ٣٥.

سأل رجل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَاطْيَابُ الْكَلَامِ» (١).

٥-و مسك الختام

حديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ عَالَ أَهْلَ بَيْتِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَهُمْ وَلَيْلَتَهُمْ غُفِرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ» (٢).

اللَّهُمَّ! وَفَقْنَا لِأَنَّ نَكُونَ مِنَ الْعَامِلِينَ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ.

اللَّهُمَّ! اجْعَلْ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً لِرُجْهِكَ الْكَرِيمِ.

اللَّهُمَّ! إِنَّا نَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ أَنْ تَشْمَلَنَا بِنِعْمَتِكَ وَرَحْمَتِكَ حَتَّى نَنعَمَ بِالرِّضَى وَتَكُونَ عَنَّا رَاضِيًا.

آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ نَهَايَةُ سُورَةِ اللَّيْلِ

ص: ٢٦٧

١-١) -بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٨٨، ح ١١٣.

٢-٢) -المصدر السابق، ص ٣٨٩، ح ٢.

سوره الضحی

اشاره

مکیه و عدد آیاتها إحدى عشره آیه

ص: ۲۶۹

محتوى السّوره:

هذه السّوره نزلت فى مكّه، وحسب بعض الرّوايات أنّها نزلت حين كان الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم متألّما بسبب تأخر نزول الوحى، وتقول الأعداء نتيجة هذا الانقطاع المؤقت، نزلت السّوره كغيث على قلب النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأمدته بطاقه جديده، وقطعت ألسن الأعداء.

هذه السّوره تبدأ بقسمين، ثمّ تبشر النّبي بأن الله لا يتركه أبداً.

ثمّ تبشّره بعطاء ربّانى تجعله راضياً ثمّ تعرض له صوراً من حياته السابقه تتجسّد فيها الرحمه الإلهيه التى كانت تشمله دائماً و تحميه و تسنده فى أشدّ اللحظات.

و فى نهايه السّوره تتكرر الأوامر الإلهيه برعايه اليتيم و السائل، و بإظهار النعم الإلهيه (شكراً لهذه النعم).

فضيله السّوره:

و يكفى فى فضيله هذه السّوره ما

روى عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «من قرأها كان ممن يرضاه الله، و لمحَمَّد أن يشفع له، و له عشر حسنات بعدد كلّ يتيم و سائل» (١).

ص: ٢٧١

و فضيله التلاوه هذه هى طبعا من نصيب من يقرأ و يعمل بما يقرأ.

جدير بالذكر أنّ الرّوايات تذكر هذه السّوره و السّوره التى تليها: أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ عَلَى أَنَّهَا سوره واحده، و لذلك لا بدّ من قرائتهما معا بعد سوره الحمد فى الصلاه (لوجوب قراءه سوره كامله بعد الحمد فى الصلاه حسب مذهب أهل البيت عليهم السلام)، و نظير ذلك فى سورتي «الفيل» و «الإيلاف».

و لو أمعنا النظر فى سورتي الضحى و الإنشراح لألفينا ارتباط موضوعاتهما ارتباطا وثيقا يحتمّ أن تكون الثانيه استمرارا للأولى و إنّ فصلت بينهما البسملة.

علماء الفقه (فى مدرسه أهل البيت) يجمعون على عدم كفايه واحده من السّورتين بعد الحمد فى الصلاه، و لهم بحوث فى كتب الفقه بشأن وحدتهما و تلاوتهما.

ص: ٢٧٢

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَاللَّخِرَةَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)

سبب النزول

روى عن ابن عباس قال: احتبس الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسة عشر يوماً، فقال المشركون إنَّ محمداً قد ودعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه، فنزلت السوره و

روى أنه لَمَّا نزلت السوره قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجبرائيل عليه السلام: «ما جئت حتى اشتقت إليك، فقال جبرائيل: و أنا كنت أشدُّ إليك شوقاً و لكنني عبد مأمور و ما ننزل إلا بأمر ربك».

و قيل: سألت اليهود رسول الله عن ذى القرنين و أصحاب الكهف و عن الروح،

فقال: سأخبركم غداً، و لم يقل إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي هذه الأيام، فاغتم لشماته الأعداء فنزلت السوره تسليه لقلبه، (و نستبعد هذه الروايه لأن اتصال اليهود بالنبي و طرحهم الأسئلة عليه كان فى المدينه لا فى مكه عاده).

وقيل: إنَّ المسلمين قالوا ما ينزل عليك الوحي يا رسول الله. فقال: و كيف ينزل عليّ الوحي و أنتم لا تنقون براجمكم (هي عقد الأصابع يجتمع فيها الوسخ) و لا تَقلمون أظفاركم (١).

و اختلفت الروايات في مدّة انقطاع الوحي، قيل اثنا عشر يوماً، و قيل خمسة عشر، و قيل تسعة عشر، و قيل خمسة و عشرون، و قيل أيضاً أربعون.

و في روايه إنَّها ليلتان أو ثلاث.

التفسير

إشاره

يعطيك فترضى:

في بدايه السوره المباركه قسمان:الأوّل بالتّور، و الثّاني بالظلمه، و يقول سبحانه:

وَ الضُّحَىٰ

و هو قسم بالنهار-حين تغمر شمسك كلّ مكان.

وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ

أى إذا عمّت سكينته كلّ مكان.

«الضحى» يعنى أوائل النهار، أى حين يرتفع قرص الشمس في كبد السماء، و يعم نورها الأرض، و هو في الحقيقه أفضل ساعات النهار، لأنّه-على حدّ تعبير بعضهم-شباب النهار، و فيه لا يكون الجوّ حاراً في فصل الصيف، و يكون الدفء قد عمّ في فصل الشتاء و تصبح خلاله روح الإنسان مستعدّه لممارسه النشاط.

«سجى» من السّجّو أو السّجّو، أى سكن و هدأ، و تأتي الكلمه أيضاً بمعنى غطّى، و أقبل ظلامه. و الميت الملفوف بالكفن «مسجّى»، و في الآيه بمعنى سكن و هدأ، و الليله الخاليه من الرياح تسمى «ليله ساجيه» أى هادئه، و البحر حين

ص: ٢٧٤

يستقر و يخلو من الأمواج الصاخبه يسمى «بحر ساج».

و المهم فى الليل-على أى حال-هدوؤه و سكينته ممّا يضىفى على روح الإنسان و أعصابه هدوء و ارتياحاً، و يعدّه لممارسه نشاط يوم غد، و هو لذلك نعمه مهمّه استحقت القسم بها.

بين القسمين و محتوى السوره تشابه كبير و ارتباط وثيق. النهار مثل نزول نور الوحي على قلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و الليل كانقطاع الوحي المؤقت، و هو أيضا ضرورى فى بعض المقاطع الزمنيه.

و بعد القسمين، يأتى جواب القسم، فيقول سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَىٰ﴾ .

«قلى» من «قلا»-على وزن صدا-و هو شدّه البغض، و من القلو أيضا بمعنى الرمى. و كلا المعنيين يعودان إلى أصل واحد-فى رأى الراغب الأصفهانى- فكأن المقلو هو الذى يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله.

على أى حال، فى هذا التعبير سكن لقلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تسلّ له، ليعلم أن التأخير فى نزول الوحي إنّما يحدث لمصلحه يعلمها الله تعالى، و ليست-كما يقول الأعداء-لترك الله نبيّه أو لسخطه عليه. فهو مشمول دائما بلطف الله و عنايته الخاصّه، و هو دائما فى كنف حمايه الله سبحانه.

وَ لِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ

أنت فى هذه الدنيا مشمول بالطاق الله تعالى، و فى الآخره أكثر و أفضل. أنت آمن من غضب الله فى الأمد القريب و البعيد. و باختصار أنت عزيز فى الدنيا و الآخره... فى الدنيا عزيز و فى الآخره أعزّ...

قيل إن «الآخره» و «الأولى» يشيران إلى بدايه عمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و نهايته، أى إنّك ستستقبل فى عمرك نصرا و نجاحا أكثر ممّا استدبرت. و فى ذلك إشاره إلى اتساع رقعته انتشار الإسلام و انتصارات المسلمين المتلاحقه على الأعداء،

و فتوحهم فى الغزوات، و نموّ دوحه التوحيد، و اندثار آثار الشرك و عباده الأوثان.

و لا مانع من الجمع بين التفسيرين.

و تأتى البشرى للنبي الكريم لتقول له:

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ

، و هذا أعظم أكرام و أسمى احترام من ربّ العالمين لعبده المصطفى محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم. فالعطاء الربانى سيغدق عليه حتى يرضى...

حتى ينتصر على الأعداء و يعمّ نور الإسلام الخافقين، كما أنّه سيكون فى الآخرة أيضا مشمولاً بأعظم الهبات الإلهية.

النبي الأعظم صلّى الله عليه و آله و سلّم باعتباره خاتم الأنبياء، و قائد البشرية، لا يمكن أن يتحقق رضاه فى نجاته فحسب، بل إنّه سيكون راضيا حين تقبل منه شفاعته فى أمته. و من هنا جاءت الروايات لتؤكد أن هذه الآية أكثر آيات القرآن الكريم دلالة على قبول الشفاعة منه عليه أفضل الصلاة و السلام.

و

فى حديث رواه محمّد بن على عليهما السّلام عن عمّه محمّد الحنفية عن أبيه أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «أشفع لأمّتى حتى ينادينى ربّى: أرضيت يا محمّد؟ فأقول: نعم يا ربّ رضيت»

ثمّ إنّ أمير المؤمنين التفت إلى جماعه و قال:

«يا أهل العراق تزعمون أن أرجى آية فى كتاب الله عزّ و جلّ: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ... الآية، و إنّنا أهل البيت نقول أرجى آية فى كتاب الله: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ و هى و الله الشفاعة ليعطيها فى أهل لا إله إلاّ الله حتى تقول: ربّ رضيت». (١)

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: دخل رسول الله على فاطمة عليها السّلام و عليها كساء من خله الإبل و هى تطحن بيدها و ترضع ولدها فدمعت عينا رسول الله لما

ص: ٢٧٦

أبصرها فقال: «يا بنتاه تعجلى مراره الدنيا بحلاوه الآخره فقد أنزل الله عليّ و لسوف يعطيك ربك فترضى» (١).

بحث

أشاره

فلسفه انقطاع الوحي:

يتبين من الآيات الكريمه فى هذه السوره أنّ النبىّ صلّى الله عليه و آله و سلّم يملك لنفسه شيئاً إلاّ من عند الله...لم يكن له اختيار حتى فى نزول الوحي. متى ما شاء الله ينزل الوحي و متى ما شاء ينقطع، و لعل انقطاع الوحي كان ردّاً على أولئك الذين كانوا يطالبون النبىّ بمعاجز مقترحه وفق أذواقهم، أو كانوا يقترحون عليه تغيير بعض الأحكام و النصوص، و كان صلّى الله عليه و آله و سلّم يقول لهم: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحى إِلَيَّ... (٢).

ص: ٢٧٧

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٧٦٥.

٢-٢) -يونس، الآية ١٥.

اشاره

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

التفسير

اشاره

الشكر على كل هذه النعم الإلهيه:

ذكرنا أنّ هدف هذه السوره المباركه تسليه قلب النبى صلى الله عليه وآله وسلم و بيان الطاف الله التى شملته، و هذه الآيات المذكوره أعلاه تجسد للنبى ثلاث هبات من الهبات الخاصه التى أنعم الله بها على النبى، ثم تأمره بثلاثه أوامر.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى

فقد كنت يا محمد فى رحم امك حين توفى والدك فأويتك إلى كنف جدك عبد المطلب (سيد مكه).

و كنت فى السادسة حين توفيت والدتك، فزاد يتمك، لكننى زدت حبك فى قلب «عبد المطلب».

و كنت فى الثامنه حين رحل جدك «عبد المطلب»، فسخرت لك عمك «أبا

طالب»، و ليحافظ عليك كما يحافظ على روحه.

نعم، كنت يتيما فأويتك.

وقيلت فى معنى هذه الآيه آراء اخرى تبتعد عن ظاهرها. كقولهم إنّ اليتيم هو الفريد فى فضائله و خصائله الحميده، فتقول مثلا للجوهره الفريده «درّه يتيمه»... و يكون المعنى حينئذ أنّ الله وجدك فى فضائلك فريدا ليس لك نظير، و لذلك اختارك للنبوّه. و كقولهم: إنّك كنت يوما يتيما، و أصبحت ملاذا للأيتام و قائدا للبشرية.

المعنى الأول دون شك أنسب و بظاهر الآيه الصق.

ثمّ يأتى ذكر النعمه الثانيه:

وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ

نعم، لم تكن أيها النبى على علم بالنبوّه و الرساله، و نحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدى به الإنسانيه، و هذا المعنى ورد فى قوله تعالى أيضا: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا . (١)

واضح أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان فاقدا لهذا الفيض الإلهى قبل وصوله مقام النبوه، فالله سبحانه أخذ بيده و هداه و بلغ به هذا المقام، و إلى هذا تشير الآيه (٣) من سوره يوسف: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ .

من المؤكّد أنّه لو لا الهدايه الإلهيه و الإمداد الغيبى ما استطاع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن يهتدى المسير نحو الهدف المقصود.

من هنا فإنّ المقصود من الضلاله فى كلمه «ضاللا» فى الآيه ليس نفى الإيمان و التوحيد و الطهر و التقوى عن النبى، بل بقرينه الآيات التى أشرنا إليها تعنى نفى

ص: ٢٧٩

العلم بأسرار النبوة و بأحكام الإسلام، و تعنى عدم معرفه هذه الحقائق، كما أكد على ذلك كثير من المفسرين. لكنّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد البعثه اهتدى إلى هذه الأمور بعون الله تعالى. (تأمل بدقه).

فى الآيه (٢٨٢) من سوره البقره، عند ذكر الشهاده و سبب استشهاد أكثر من شاهده واحده فى كتابه عقود الدين يقول سبحانه: أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى .

و الضلاله فى هذه الآيه تعنى «النسيان» بقربنه قوله «فتذكر».

و فى الآيه تفاسير اخرى من ذلك.

إنك كنت حامل الذكر غير معروف، و الله أنعم عليك من المواهب الفريده مما جعلك معروفًا فى كل مكان.

و من هذه التفاسير، إنك تهت و ضللت الطريق مرّات فى عهد الطفوله (مرّه فى شعاب مكّه حين كنت فى حمايه عبد المطلب، و مرّه حين كانت حليمه السعديه تأتى بك إلى مكّه لتسلمك إلى عبد المطلب فتهت فى الطريق. مرّه ثالثه حين كنت برفقه عمك أبى طالب ضمن قافله متجهه إلى الشام فضللت الطريق فى ليله ظلماء و الله سبحانه هداك فى كل هذه المرات و أعادك إلى حضن جدك أو عمك).

و يذكر أنّ كلمه «ضال» تعنى «المفقود» و تعنى «التائه». ففى عبارته: «الحكمه ضاله المؤمن»، الضاله تعنى الشىء المفقود.

و من ذلك جاءت هذه المفرده أيضا بمعنى المخفى و الغائب و لذا ورد فى الآيه (١٠) من سوره السجده قوله تعالى على لسان منكرى المعاد: أ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أى ء إذا غبنا و اختفينا فى بطن الأرض.

و إذا كانت كلمه «ضالا» فى الآيه تعنى «المفقود» فلا يبرز إشكال فى الموضوع... و لكن إذا كانت بمعنى «التائه» فالمقصود منها عدم الاهتداء إلى طريق النبوة و الرساله قبل البعثه، و بعباره اخرى لم يكن النبى مالكا لشىء فى ذاته

الوجوديه، و ما كان عنده فمن الله، و بهذا المعنى يندفع كل إشكال أيضا.

وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنِي

(١)

لقد جعلناك تستأثر باهتمام «خديجه» هذه المرأه المخلصه الوفيه لتضع كل ثروتها تحت تصرفك و من أجل تحقيق أهدافك، و بعد ظهور الإسلام رزقك مغام كثيره فى الحروب ساعدتك فى تحقيق أهدافك الرساليه الكبرى.

و

عن على بن موسى الرضا عليه السلام فى تفسير هذه الآيات قال:

أَلَمْ يَجِدْكُمْ يَتِيمًا فَآوَى

،قال: فردا لا- مثل فى المخلوقين، وآوى الناس إليك. وَ وَجَدَكَ ضَالًّا- أى ضاله فى قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك. وَ وَجَدَكَ عَائِلًا، تعول أقواما بالعلم فأغناهم بك» (٢).

هذه الروايه تتحدث طبعاً عن بطون الآيه، و إلا فإن ظاهرها هو ما ذكرناه.

و لا يتصورن أحد أن تفسير الآيات بظاهرها يحط من مكانه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، أو يضىف عليه صفات سلبيه من قبل البارى تعالى، بل إنها فى الواقع بيان ما أغدق الله على نبيه من ألطف و إكرام و احترام، حين يتحدث المحبوب عن ألطافه بحق العاشق الواله، فإن حديثه هذا هو عين اللطف و المحبه، و هو دليل على عنايته الخاصه، و العاشق بسماعه هذه الألفاظ تسرى فى جسده روح جديده، و تصفو نفسه و يغمر قلبه سكينه و هدوء.

فى الآيات التاليه ثلاثه أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجه الآيات السابقه... و الخطاب، و إن كان متجها إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، فإنه يشمل أيضا كل المسلمين.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ

ص: ٢٨١

أنّ (عال) إذا كانت أجوفاً يائياً فهي بمعنى افتقر، وإن كانت أجوفاً واوياً فبمعنى كثر عياله. (و لا- نستبعد أن يكون المعنيان متلازمين).

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.

«تقهر» من القهر- كما يقول الراغب- الغلبه مع التحقير، و لكن تستعمل في كل واحد من المعنيين، و معنى التحقير هنا هو المناسب.

و هذا يدل على أنّ هناك مسأله أهم من الإطعام و الإنفاق بشأن الأيتام، و هى اللطف بهم و العطف عليهم و إزاله إحساسهم بالنقص العاطفى، و لذا

جاء فى الحديث المعروف عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعره تمرّ على يده نور يوم القيامة» (١).

كأنّ الله يخاطب نبيه قائلاً: لقد كنت يتيماً أيضاً و عانيت من آلام اليتيم، و الآن عليك أن تهتم بالأيتام كل اهتمام و أن تروى روحهم الظمأى بحبّك و عطفك.

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ

«نهر» بمعنى ردّ بخشونه، و لا يستبعد أن تكون مشتركه فى المعنى مع «نهر» الماء، لأنّ النهر يدفع الماء بشدّه.

و فى معنى «السائل» عدّه تفاسير.

الأول: أنّه المتجه بالسؤال حول القضايا العلميه و العقائديه و الدينيه، و الدليل على ذلك هو أنّ هذا الأمر تفرّيع ممّا جاء فى الآيه السابقه: وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ، فشكر هذه الهدايه الإلهيه يقتضى أن تسعى أيها النّبي فى هدايه السائلين، و أن لا تطرد أى طالب للهدايه عنك.

و التفسير الآخر: هو الفقير فى المال و المتاع، و الأمر يكون عندئذ ببذل الجهد فى هذا المجال، و بعدم ردّ هذا الفقير السائل يائسا.

و الثالث: أنّ المعنى يشمل الفقير علميا و الفقير ماديا، و الأمر بتلبيه احتياجات السائل فى المجالين، و هذا المعنى يتناسب مع الهدايه الإلهيه لنبيه صلّى الله عليه و آله و سلّم، و مع إيوائه حين كان يتيماً.

ص: ٢٨٢

و ذهب بعضهم إلى حصر معنى السائل في طالب المعرفة العلمي، زاعما أن كلمة السائل لم ترد في القرآن الكريم بمعنى طالب المال و المتاع (١)، بينما تكرر في القرآن هذا المعنى كقوله تعالى: وَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (٢) و بهذا المعنى أيضا وردت في المعارج-٢٥، و في البقره-٧٧.

وَ أَقَامَا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

و الحديث عن النعمة قد يكون باللسان، و بتعابير تنم عن غايه الشكر و الامتنان، لا عن التفاخر و الغرور. و قد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة في سبيل الله، إنفاقا يبين مدى هذه النعمة. هذه هي خصله الإنسان السخي الكريم... يشكر الله على النعمة، و يقرن الشكر بالعمل، خلافا للسخفاء البخلاء الذين لا يكفون عن الشكوى و التأوه، و لا يكشفون عن نعمه و لو حصلوا على الدنيا و ما فيها، و جوههم يعلوها سيماء الفقر، و كلامهم مفعم بالتذمر و الحسره، و عملهم يكشف عن فقر! بينما

روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نَعِمَهُ يَحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ» (٣) من هنا يكون معنى الآية: بين ما أغدق الله عليك من نعم بالقول و العمل، شكرا على ما أغناك الله إذ كنت عائلا.

بعض المفسرين ذهب إلى أن النعمة في الآية هي النعمة المعنويه و منها النبوه و القرآن، و الأمر للنبي بالإبلاغ و التبيين، و هذا هو المقصود من الحديث بالنعمة.

و يحتمل أيضا أن يكون المعنى شاملا للنعم الماديه و المعنويه، لذلك

ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: «حدث بما أعطاك

ص: ٢٨٣

١-١) -تفسير محمد عبده، جزء عم، ص ١١٣.

٢-٢) -الذاريات، الآية ١٩.

٣-٣) -نهج الفصاحه، حديث ٦٨٣.

اللّٰه، وفضلك، و رزقك، و أحسن إليك و هداك» (١).

و

عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من اعطى خيرا فلم ير عليه، سَمَى بغِيض الله، معاديا لنعم الله» (٢).

و

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «إنَّ الله جميل يحب الجمال، و يحب أن يرى أثر النعمة على عبده» (٣).

بحوث

إشارة

١- القيادة المنطقه من المعاناه و الآلام

الآيات الكريمة في هذه السورة، ضمن سردها النعم الإلهية على رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلّم، تعكس أيضا مسأله يتم النبي في صباه، و ظروفه المادية الصعبة التي عاناها، و الأتعاب و الآلام التي قاساها، و من بين هذه الآلام انطلق، و يجب أن يكون كذلك.

القائد الإلهي الإنساني يجب أن يذوق مراره العيش، و يتلمس بنفسه الظروف القاسية، و يشعر بكل وجوده الحرمان، كي يستطيع أن يفهم صحيح ما تعانيه الفئات المحرومة، و يتحسس آلام الناس و معاناتهم في معيشتهم.

يجب أن يفقد أباه في صغره كي يشعر بآلام الأطفال الأيتام، و لا بد أن يبقى جائعا لأيام و أن ينام عاصب البطن، كي يفهم بكل وجوده آلام الجياع.

لذلك كان صَلَّى الله عليه و آله و سلّم تغرورق عينه بالدموع حين يرى يتيما، و كان يظم ذلك اليتيم

ص: ٢٨٤

١-١) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٧.

٢-٢) - تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٩٢، و قريب من هذا المعنى في الكافي، ج ٦، كتاب الزى و التجميل، حديث ٢.

٣-٣) - فروع الكافي، ج ٦، ص ٤٣٨.

إلى صدره و يداعبه بكل حراره.

يجب أن يتفهّم ما يعانیه مجتمعه من فقر ثقافى، كى يعتزّ بكل من يأتیه لطلب معرفه أو علم، و يستقبله بصدر رحب.

ليس النبىّ الخاتم وحده، بل قد يكون كلّ الأنبياء منطلقين من حياه المعاناه و الألم، و هكذا كلّ القاده الحقيقين الناجحين كانوا كذلك... و يجب أن يكونوا كذلك.

من كان يرفل فى نعومه العيش، و فى الثراء و القصور، و كان ينال كلّ ما يريد، كيف يستطيع أن يدرك آلام المحرومين، و كيف يستطيع أن يتفهّم معاناه الفقراء و البائسين ليهب لمساعدتهم؟!

فى حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «ما بعث الله نبيا قطّ حتى يسترعيه الغنم يعلمه بذلك رعيه النّاس» (١).

و فى رعى الغنم دروس فى تحمل الآلام، و فى الصبر أمام موجود ضعيف قليل الشعور، كما إنّه استلهم لدروس التوحيد و العرفان من خلال حياه الصحراء و العيش فى أحضان الطبيعه.

و فى روايه أنّ «موسى بن عمران» سأل ربّه عن سبب اختياره لمقام النبوه، فجاءه الجواب: أتذكر يوما أنّ حملا قد فرّ من قطع غنمك فتبعته حتى أخذته ثمّ قلت له: لماذا أتعبت نفسك، ثمّ حملته على كتفك، و جئت به إلى القطيع، و لذلك اخترتك راعيا لخلقى، و هذا يعنى أنّ الله تعالى رأى فى موسى قدره فائقه على التحمل تجاه هذا الحيوان ممّا يدلّ على قوّه روحيه فائقه أهله لهذه المنزله الكبيره.

ص: ٢٨٥

لا يخلو مجتمع من أيتام فقدوا الأب في صغرهم، و هؤلاء الأطفال يجب أن يتمتعوا بحمايه من مختلف الجهات.

فمن الناحيه العاطفيه، يشعر هؤلاء بنقص، إذا لم يسدّ فإنهم سيشتبون أفرادا غير سالمين، و كثيرا ما يكونون قساة مجرمين خطرين. و من الناحيه الإنسانيه يجب أن يعيش هؤلاء في حمايه و رعايه كسائر أبناء المجتمع، أضف إلى ذلك يجب أن يشعر أفراد المجتمع بضمنان مستقبل أبنائهم الذين قد يصابون باليتيم في يوم من الأيام.

الأيتام قد يكونون أصحاب تركه ماليه يجب أن تصان بكلّ دقه، و قد يكونون معدمين ماليا فيجب الاهتمام بهم من هذه الناحيه، و الآخرون يتحملون مسؤوليه التعامل مع هؤلاء بكل اهتمام و رفق كي يزيلوا عنهم غبار عناء الوحده. لذلك ركزت آيات القرآن الكريم و نصوص الشريعه الأخرى على هذه المسأله ذات البعد الأخلاقي و البعد الاجتماعي و الإنساني.

و

عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم قال: «إِنَّ الْيَتِيمَ إِذَا بَكَى اهْتَر لَبَكَاةَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، يَقُولُ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ يَا مَلَائِكَتِي مَنْ أَبْكَى هَذَا الْيَتِيمَ الَّذِي غِيبَ أَبُوهُ فِي التُّرَابِ؟ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: أَنْتَ أَعْلَمُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا مَلَائِكَتِي، فَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنْ لِمَنْ أَسْكَنَهُ و أَرْضَاهُ أَنْ أَرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

و أكثر من ذلك

روى عنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم قال: «إِذَا بَكَى الْيَتِيمَ وَقَعَتْ دُمُوعُهُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ» (٢).

و

روى عنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم: «أَنَا و كَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ إِذَا اتَّقَى اللَّهُ عَزَّ و جَلَّ،

ص: ٢٨٦

(١-١) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.

(٢-٢) - تفسير الفخر الرازي، ج ٣١، ص ٢١٩.

و أشار بالسبابه و الوسطى» (١).

و لأهميه هذه المسأله قرنها على أمير المؤمنين فى وصيته المعروفه بالصلاه و القرآن و

قال: «اللّٰه اللّٰه فى الأيتام فلا تغبوا أفواههم و لا يضيعوا بحضرتكم» (٢).

و

عن أحد الصحابه قال: كُنّا جلوسا عند رسول اللّٰه فأتاه غلام فقال: غلام يتيّم و أخت لى يتيّمه، و أم لى أرمله، أطعمنا ممّا أطعمك اللّٰه، أعطاك اللّٰه ممّا عنده حتى ترضى، قال: ما أحسن ما قلت يا غلام، أذهب يا بلال فأتنا بما كان عندنا فجاء بواحد و عشرين تمره، فقال: سبع لك و سبع لأختك و سبع لأمك، فقام إليه معاذ بن جبل فمسح رأسه و قال: جبر اللّٰه يتمك و جعلك خلفا من أبيك و كان من أبناء المهاجرين.

فقال رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم: رأيتك يا معاذ و ما صنعت.

قال: رحمته.

قال صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم: «لا يلى أحد منكم يتيما فيحسن ولايته، و وضع يده على رأسه إلا كتب اللّٰه له بكل شعره حسنه و محا عنه بكل شعره سيئه، و رفع له بكل شعره درجه» (٣).

فى المجتمعات الكبيره مثل مجتمعاتنا اليوم، لا- يمكن للمسلمين أن يكتفوا طبعاً بالأعمال الفرديه، بل لا بدّ أن تتمركز القوى لرعايه الأيتام وفق برنامج اقتصادى و ثقافى و تعليمى مدروس، كى ينشأ هؤلاء الأيتام أفراداً لاثنين للمجتمع الإسلامى. و هذا يتطلب تعاوناً اجتماعياً عاماً.

٣- التحدّث بالنعيم

إظهار نعمه الربّ، حين يكون بدافع الشكر و الثناء، لا على سبيل التفاخر

ص: ٢٨٧

١- (١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٩٧، ح ٢٣.

٢- (٢) -نهج البلاغه، قسم الرسائل، الرساله رقم ٤٧.

٣- (٣) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.

و الاستعلاء، يدفع الإنسان نحو التكامل على سلم العبوديه، كما إن له أيضا آثارا اجتماعيه إيجابيه، و آثارا نفسيه تبعث على السكينه و الاستقرار.

الإنسان الذاكر لنعم ربّه لا يشتدّ عليه ضغط النواقص. إذا أصيب في عضو من أعضاء بدنه يخفف عليه ألم الإصابه شكره على سلامه بقيه الأعضاء، و إذا فقد شيئا لا يجزع لأنّه شاكر على ما بقى عنده من امكانات.

هؤلاء الذاكرون لنعم الله لا يعتربهم يأس و قنوط في الشدائد و الهزات، و لا يصيبهم قلق و اضطراب، قلوبهم هادئه و نفوسهم مطمئنه و قدرتهم على مواجهه المشاكل كبيره.

إلهي! نعمك أكثر من أن نحصيها و نتحدث بها، فلا تسلبها عنّا، بل زدها بكرمك.

ربّاه! نحن في هذه الدنيا مغمورون ببحر كرمك فلا تحرمنّا من عطائك يوم القيامه.

يا ربّ العالمين! وفقنا لأن نكون في مساعده المحرومين مسارعين، و لحقوق الأيتام محافظين.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره الضحى

سوره الشرح

اشاره

مكيه و عدد آياتها ثمانى آيات

ص: ٢٨٩

محتوى السّوره:

المعروف أنّ هذه السّوره نزلت بعد سوره «الضحى» و محتواها يؤيد ذلك، لأنّها تسرد أيضا قسما من الهبات الإلهيه لرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

فى سوره «الضحى» عرض لثلاث هبات إلهيه بعضها ماديه و بعضها معنويه، و فى هذه السّوره ذكر لثلاث هبات أيضا غير أنّ جميعها معنويه، و تدور السّوره بشكل عام حول ثلاثه محاور. الأوّل: بيان النعم الثلاث، و الثّانى: تبشير النّبي بزوال العقبات أمام دعوته، و الثّالث: الترغيب فى عباده الله الواحد الأحد.

و لذلك ورد عن أهل البيت عليهم السّلام ما يدلّ أنّ هاتين السّورتين سوره واحده كما ذكرنا، و وجب قراءتهما معا فى الصلاه لوجوب قراءه سوره كامله بعد الحمد.

و من أهل السنه من ذهب إلى ذلك أيضا، كما نقل الفخر الرازى عن طاوس و عمر بن عبد العزيز أنّهما يقرءانها معا فى الصلاه و يحذفان البسمله بينهما (حسب فتاوى فقهاء مذهب أهل البيت قراءه البسمله فى كليهما واجبه، و ما نقله المرحوم الطبرسى بشأن حذف بعض الفقهاء البسمله هنا لا يبدو صحيحا).

و الفخر الرازى بعد نقل آراء القائلين بوحده السّورتين، يرد عليهم مستدلا بالفرق الموجود بين السّورتين، ذلك لأن سوره و الضحى -فى رأيه- نزلت حين كان الرّسول متألما و مغتما لما ناله من أذى الكفار، بينما السّوره التّاليه نزلت فى حاله انشراح الرّسول و ابتهاجه (١).

ص: ٢٩١

و هذا استدلال غريب، فالسورتان كلاهما تتحدثان عمّا مضى من حياة الرسول، و كان ذلك حين تجاوز النبي كثيرا من مشاكل الدعوه، و حين أصبح قلبه الطاهر مفعما بالأمل و السرور. كلا السورتين تتحدثان عن الهبات الإلهيه و تذكّران بأيام المحن و الصعاب كى يكون ذلك تسليه لقلب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و تصعيدا للأمل فى نفسه.

على أى حال ارتباط محتوى السورتين ارتباطا وثيقا أمر لا يقبل الشك، و هكذا الكلام فى سورتى الفيل و قريش كما سيأتى إن شاء الله.

بشأن مكان نزول السوره، يتبين ممّا سبق أنّها نزلت فى مكّه، و لكن آيه:

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ حَدث بالبعض إلى الإعتقاد أنّها نزلت فى المدينه، حيث ارتفع ذكر النبي و شاع صيته فى كل مكان، و ليس هذا الدليل بقانع، لأنّ النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم ذاع صيته قبل الهجره رغم كل العقبات و المشاكل و كان الحديث عن دعوته على الألسن فى جميع المحافل، كما إنّ خبر الدعوه انتشر فى الحجاز عامّه و المدينه خاصّه من خلال الوافدين على مكّه فى موسم الحج.

فضيله السوره:

ورد فى فضيله هذه السوره عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «من قرأها أعطى من الأجر كمن لقى محمّدا مغتما ففرّج عنه» (١).

ص: ٢٩٢

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

التفسير

اشاره

نعم إلهيه:

سياق الآيات ممزوج بالحب و الحنان و بألطف رب العالمين لنبيه الكريم.

أهم هبه إلهيه تشير إليها الآية الاولى: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ .

«الشرح»: في الأصل - كما يقول الراغب - توسعه قطع اللحم بتحويلها إلى شرائح أرق. و«شرح الصدر» سعته بنور إلهي و بسكينه و اطمئنان من عند الله، و«شرح معضلات الحديث» التوسع فيه و توضيح معانيه الخفيه، و«شرح الصدر» في الآية كناية عن التوسعه في فكر النبي و روحه، و لهذه التوسعه مفهوم واسع،

تشمل السعه العلميه للنبي عن طريق الوحي و الرساله،و تشمل أيضا توسعه قدره النبي في تحمله و استقامته أمام تعنت الأعداء و المعارضين.

و لذلك حين امر موسى بن عمران عليه السلام بدعوه فرعون: اذْهَبْ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى دعا ربه و قال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (١).

و في موضع آخر يخاطب الله نبيه بقوله سبحانه: فَمَا صَبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ (٢) أى لا تكن كيونس الذى ترك الصبر فوقع فى المشاكل و لاقى أنواع الإرهاق.

و شرح الصدر يقابله «ضيق الصدر»، كما فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعَلْنَا أَنفُسَكَ بِمَا يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ (٣).

و لا يمكن أساسا لقائد كبير أن يجابه العقبات دون سعه صدر. و من كانت رسالته أعظم (كرساله النبي الأكرم) كانت الضروره لشرح صدره أكبر،... كى لا- تزعزعه العواصف و لا- تثنى عزمه الصعاب و لا تبعث فى نفسه اليأس مكائد الأعداء، و لا يضيق بالملتوى من الأسئلة. و هذه كانت أعظم هبه إلهيه لرسول رب العالمين.

لذلك

روى عنه صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: لقد سألت ربي مسأله و ددت أتى لم أسأله. قلت:

أى رب إنّه قد كان أنبياء قبلى منهم من سخرت له الريح و منهم من كان يحى الموتى. قال، فقال: ألم أجدك يتيما فأويتك؟ قال: قلت: بلى. قال: ألم أجدك ضالا فهديتك؟ قال: قلت: بلى أى رب، قال: ألم أشرح لك صدرك و وضعت عنك وزرك؟ قال: قلت: بلى أى رب (٤).

ص: ٢٩٤

١- ١) - طه، الآية ٢٥-٢٦.

٢- ٢) - القلم، الآية ٤٨.

٣- ٣) - الحجر، الآية ٩٧.

٤- ٤) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٨.

و هذا يعنى أنّ نعمه شرح الصدر تفوق معاجز الأنبياء. و المتمعن فى دراسه حياه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و ما فيها من مظاهر تدل على شرح عظيم لصدره تجاه الصعاب و المشاق يدرك بما لا يقبل الشك أن الأمر لم يتأت لرسول الله بشكل عادى، بل إنه حتما تأييد إلهى ربانى.

و قيل أنّ شرح الصدر إشاره لحادثه واجهت الرسول فى طفولته حين نزلت عليه الملائكه فشقت صدره و أخرجت قلبه و غسلته، و ملائته علما و حكمه و رأفه و رحمه. (١)

المقصود طبعا من القلب فى هذه الروايه ليس القلب الجسمانى، بل إنه كناية و إشاره إلى الإمداد الإلهى من الجانب الروحى، و إلى تقويه إرادته النبى و تطهيره من كل نقص خلقى و وسوسه شيطانيه.

و لكن، على أى حال، لا يتوفر عندنا دليل على أنّ الآية الكريمة مختصه بالحادثه المذكوره، بل لها مفهوم واسع، و قد تكون هذه القصه أحد مصاديقها.

و بسعه الصدر هذه اجتاز الرسول صلى الله عليه و آله و سلم العقبات و الحواجز و الصعاب على أفضل وجه، و أدى رسالته خير أداء.

ثمّ يأتى ذكر الموهبه الثانیه.

وَ وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ

أى ألم نضع عنك الحمل الثقيل.

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ

«الوزر» بمعنى الثقل، و منها «الوزير» الذى يحمل أعباء الدوله، و سميت الذنوب «وزرا» لأنها تثقل كاهل صاحبها.

«انقض» من (النقض) أى حلّ عقده الحبل، أو فصل الأجزاء المتماسكه من البناء، و «الانتقاض» صوت انفصال اجزاء البناء عن بعضها، أو صوت فقرات

ص: ٢٩٥

١ - ١) - تفسير الدر المنثور (نقلا عن تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٤٥٢) و تفسير الفخر الرازى، ج ٣٢، ص ٢. و هذه الروايه ذكرها البخارى و الترمذى و النسائى أيضا فى قصه المعراج.

الظهر حين تنوء بعبء ثقیل.

و الكلمه تستعمل أيضا فى نكث العهود و عدم الالتزام بها، فيقال نقض عهده.

و الآيه تقول إذن، الله سبحانه وضع عنك أيها النبي ذلك الحمل الثقيل القاصم الظهر.

و أى حمل وضعه الله عن نبيه؟ القرائن فى الآيات تدل على أنه مشاكل الرساله و النبوه و الدعوه إلى التوحيد و تطهير المجتمع من ألوان الفساد، و ليس نبي الإسلام وحده بل كل الأنبياء فى بدايه الدعوه واجهوا مثل هذه المشاكل الكبرى، و تغلبوا عليها بالإمداد الإلهي وحده، مع فارق فى الظروف، فبيئه الدعوه الإسلاميه كانت ذات عقبات أكبر و مشاكل...نزوله.

و قيل أيضا: أن «الوزر» يعنى ثقل «الوحي» فى بدايه نزوله.

و قيل: إنه عناد المشركين و تعنتهم.

و قيل: إنه أذاهم.

و قيل: إنه الحزن الذى ألم بالنبي لوفاه عمه أبى طالب و زوجه خديجه.

و قيل: أيضا إنه العصمه و إذهاب الرجز.

و الظاهر أن التفسير الأول أنسب من غيره و التفاسير الأخرى تفريع من التفسير الأول.

و فى الموهبه الثالثه يقول سبحانه.

و رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ

فاسمك مع اسم الإسلام و القرآن قد ملأ الآفاق، و أكثر من ذلك اقترن اسمك باسم الله سبحانه فى الأذان يرفع صباح مساء على المآذن. و الشهاده برسالتك لا تنفك عن الشهاده بتوحيد الله فى الإقرار بالإسلام و قبول الدين الحنيف.

و أى فخر أكبر من هذا؟ و أى منزله أسمى من هذه المنزله.

و

روى عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى تفسير هذه الآيه قال: «قال لى جبرائيل قال الله

عزّ و جلّ: إذا ذكرت ذكرت معي». (و كفى بذلك منزله).

و التعبير بكلمه (لك) تأكيد على رفعه ذكر النبي رغم كل عدااء المعادين و موانع الصادين.

و قد ذكرنا أنّ هذه السوره مكّيه، بينما الآيه الكريمه تتحدث عن انتشار الإسلام، و تجاوز عقبات الدعوه، و إزاله الأعباء التي كانت تثقل كاهل الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم، و ارتفاع ذكر النبي في الآفاق... و هذا ما حدث في المدينه لا في مكّه.

قيل: إنّ السوره تبشّر النبي بما سيلقاه في المستقبل، و كان ذلك سبباً لزوال الحزن و الهم من قلبه، و قيل أيضاً: إنّ الفعل الماضي هنا يعنى المستقبل.

و لكن الحق أنّ قسماً من هذه الأمور قد تحقق في مكّه خاصّه في أواخر السنين الثلاث عشره الاولى من الدعوه قبل الهجره، تغلغل الإيمان في قلوب كثير من الناس و خفت وطأه المشاكل، و ذاع صيت النبي في كلّ مكان، و تهيأت الأجواء لانتصارات أكبر في المستقبل.

شاعر النبي «حسان بن ثابت» ضمّن معنى الآيه الكريمه في أبيات جميله، و قال:

و ضمّ الإله اسم النبي إلى اسمه

إذ قال في الخمس المؤذن أشهد

و شقّ له من اسمه ليجلّه

فدو العرش «محمود» و هذا «محمّد»

الآيه التاليه تبشّر النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بأعظم بشرى، و تقول:

فإنّ مع العسر يسراً

و يأتي التأكيد الآخر:

إنّ مع العسر يسراً

لا- تغتم أيّها النبي، فالمشاكل و العقبات لا تبقى على هذه الحاله، و دسائس الأعداء لن تستمر، و شظف العيش و فقر المسلمين سوف لا يظلّ على هذا المنوال.

الذى يتحمل الصعاب، و يقاوم العواصف سوف ينال يوما ثمار جهوده، و ستخدم عربده الأعداء، و تحبط دسائسهم، و يتمهد طريق التقدم و التكامل و يتدلل طريق الحق.

بعض المفسرين ذهب إلى أنّ هذه الآيات تشير إلى فقر المسلمين في معيشتهم خلال الفتره الاولى من الدعوه، لكن المفهوم الواسع للآيات يستوعب كلّ ألوان المشاكل. أسلوب الآيتين يجعلهما لا تختصان بشخص النبي صلى الله عليه و آله و سلم و بزمانه، بل بصوره قاعده عامه مستنبطه ممّا سبق. و تبشّر كلّ البشريه المؤمنه المخلصه الكادحه، و تقول لها: كلّ عسر إلى جانبه يسر، و لم ترد في الآيه كلمه «بعد» بل «مع» للدلاله على الاقتران.

نعم، كلّ معضله ممزوجه بالانفراج، و كلّ صعوبه باليسر، و الاقتران قائم بين الإثنين أبدا.

و هذا الوعد الإلهي يغمر القلب نورا و صفاء. و يبعث فيه الأمل بالنصر، و يزيل غبار اليأس عن روح الإنسان (١).

و

عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «و اعلم أنّ مع العسر يسرا، و أنّ مع الصبر النصر، و أنّ الفرج مع الكرب...». (٢)

و

روى أنّ امرأه شكت زوجها لأمير المؤمنين على عليه السلام، لعدم إنفاقه عليها، و كان الزوج معسرا فأبى على أن يسجن الزوج و قال للمرأة: إنّ مع العسر يسرا (و دعاها إلى الصبر) (٣).

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ

أى إذا انتهيت من أداء أمر مهم فابدأ بمهمه اخرى، فلا

ص: ٢٩٨

١-١) -ممّا ذكرنا يتّضح أنّ الألف و اللام في (العسر) للجنس لا للعهد، و (يسرا) ووردت نكرة، لكنّها تعنى الجنس أيضا، و تنكيرها في مثل هذه المواضع للتعظيم.

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٠٤، حديث ١١، ١٣.

٣-٣) -المصدر السابق.

مجال للبطالة و العطل. كن دائما في سعي مستمر و مجاهده دائمه، و اجعل نهايه آيه مهمه بدايه لمهمه اخرى.

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ

،أى فاعتمد على الله في كل الأحوال.

اطلب رضاه،واسع لقربه.

الآيتان-حسب ما ذكرناه-لهما مفهوم واسع عام يقضى بالبدء بمهمه جديده بعد الفراغ من كل مهمه. و بالتوجه نحو الله في كل المساعي و الجهود،لكن أغلب المفسرين ذكروا معانى محدده لهما يمكن أن يكون كل واحد منها مصداقا للآيتين.

قال جمع منهم:المقصود،إنك إذا فرغت من فريضه الصلاه فادع الله و اطلب منه ما تريد.

أو:عند فراغك من الفرائض انهض لناقله الليل.

أو:عند فراغك من امور الدنيا ابدأ بأمر الآخره و الصلاه و عباده الرب.

أو:عند فراغك من الواجبات توجه إلى المستحبات التي حثّ عليها الله.

أو:عند فراغك من جهاد الأعداء انهض إلى العباده.

أو:عند فراغك من جهاد الأعداء ابدأ بجهاد النفس.

أو:عند انتهائك من أداء رساله انهض لطلب الشفاعة.

الحاكم الحسكاني-عالم أهل السنه المعروف-روى عن الإمام الصادق عليه السلام في «شواهد التنزيل» في تفسير الآيه إنها تعنى: «إذا فرغت فانصب علينا بالولاية» (١).

القرطبي في تفسيره روى عن بعضهم أنّ معنى الآيه: «إذا فرغت فانصب إماما يخلفك». (لكنه ردّ هذا المعنى) (٢).

ص: ٢٩٩

١- (١) -شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٣٤٩، الأحاديث ١١١٦ إلى ١١١٩.

٢- (٢) -القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٩٩.

موضوع «الفراغ» في الآيه لم يذكر، وكلمه «فانصب» من النصب أى التعب و المشقّه، و لذلك فالآيه تبين أصلا عاما شاملا. و هدفها أن تحت النبي باعتباره القدوه-على عدم الخلود إلى الراحة بعد انتهائه من أمر هام. و تدعوه إلى السعى المستمر.

انطلاقا من هذا المعنى يتضح أنّ التفاسير المذكوره للآيه كلّها صحيحه، و لكن كل واحد منها يقتصر على مصداق معين من هذا المعنى العام.

و ما أعظم العطاء التربوي لهذا الحثّ، و كم فيه من معاني التكامل و الإنتصار!! البطاله و الفراغ من عوامل الملل و الخمول و التقاعس و الاضمحلال. بل من عوامل الفساد و السقوط في أنواع الذنوب غالبا.

و حسب الإحصائيات، مستوى الفساد عند عطلة المؤسسات التعليميه يرتفع إلى سبعة أضعاف أحيانا.

و بإيجاز، هذه السوره تبين بمجموعها عنايه ربّ العالمين الخاصه للنبي الأعظم صلى الله عليه و آله و سلّم، و تسليه قلبه أمام المشاكل، و وعده بالنصر أمام عقبات الدعوه، و هى فى الوقت ذاته تحيى الأمل و الحركه و الحياه فى جميع البشريه المهتديه بهدى القرآن.

ملاحظتان

١- الآيه الكريمه فَإِذَا فَرَعْتَ فَأَنْصِبْ تعنى- كما جاء فى روايات عديده- نصب أمير المؤمنين على بالخلافه بعد الانتهاء من أمر الرساله (كمصداق من المفهوم العام للآيه).

«الآلوسى» فى «روح المعانى» بعد أن ينقل عن بعض «الإماميه» هذا التفسير يقول: هؤلاء قرءوا «فانصب» بكسر الصاد. و هب أن قراءتها كذلك فلا تنهض أنّ

تكون دليلاً- على نصب علي بن أبي طالب. ثم ينقل عن الزمخشري في الكشاف قوله: لو أمكن للشيعة مثل هذا التفسير، فالنواصب (أعداء علي) يمكنهم أن يفسروا الآية على أنها أمر بالنصب (ببغض علي) (١).

ترى هل أن الشيعة بحاجة إلى تغيير قراءه الآية كي يستدلوا بها على ولايه علي؟! لا طبعاً، بل هذه القراءه المعروفه تكفى للتفسير المذكور. لأنها تقول: إذا فرغت من مهته مثل مهته الرساله فابدأ بمهته أخرى كمهته الولايه، وهذا مقبول باعتباره أحد مصاديق. و نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - حسب حديث الغدير المعروف و أحاديث أخرى منتشره فى الصحاح و المسانيد- كان فى سعى مستمر هى هذا المجال.

و لكن المؤسف جداً أن يدفع التعصب برجل عالم مثل «الزمخشري» لأنّ يجيز لنفسه القول أن النواصب يمكنهم أن يفسروا الآية أيضاً على أنها أمر ببغض علي!! أى تعبير ركيك هذا فى حق شخص يؤمن به الزمخشري على أنه الخليفه الرابع للمسلمين! حقاً إنّ مزالق التعصب سيئه! ٢- العالم المعتزلى المعروف «ابن أبى الحديد» يروى فى «شرح نهج البلاغه» عن «الزبير بن بكار» و هو رجل- كما يقول ابن أبى الحديد- غير شيعى و غير خصم لمعاويه، بل فارق علينا و التحق بمعارضيه- و الزبير هنا يروى عن ابن «المغيره بن شعبه» يقول: دخلت مع أبى علي معاويه، فكان أبى يأتيه، فيتحدث معه، ثم ينصرف إلى فيذكر معاويه و عقله، و يعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليله، فأمسك عن العشاء، و رأيتة مغتمياً فانتظر ساعه، و ظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لى أراك مغتماً منذ الليله؟ فقال: يا بنى، جئت من عند أكفر الناس

ص: ٣٠١

و أخبثهم، قلت: و ما ذاك؟ قال: قلت له (لمعاويه) و قد خلوت به: إنك قد بلغت سنايا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلا، و بسطت خيرا فإنك قد كبرت، و لو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، و إن ذلك مما يبقى لك ذكره و ثوابه، فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم (أبو بكر) فعدل و فعل ما فعل، فما عدا أنهلك حتى هلك ذكره؛ إلا أن يقول قائل: أبو بكر؛ ثم ملك أخو عدى، فاجتهد و شمر عشر سنين، فما عدا أنهلك حتى هلك ذكره؛ إلا أن يقول قائل: عمر؛ و إن ابن أبي كبشه (رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم) ليصاح به كل يوم خمس مرات: «أشهد أن محمدا رسول الله»، فأى عمل يبقى؛ و أى ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك إلا و الله دفنا» (1).

لو أمعنا النظر في هذه الرواية لعلمنا مدى المأساه التي حلت بالمسلمين حتى تولى أمرهم البيت الأموي... و إننا لله و أننا إليه راجعون.

إلهي! اخلصنا من حب الذات، و اغمر قلوبنا بحبك.

يا رب! لقد وعدت باليسر حين يشتد العسر... فيسير على المسلمين و هم يعانون مؤامرات الأعداء و دسائس الطامعين يا الله! زد نعمك علينا و وفقنا لأن نكون من الشاكرين.

أمين يا رب العالمين نهاية سورة ألم نشرح

ص: ٣٠٢

(١-١) - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغه، ج ٥، ص ١٢٩.

سوره التّين

اشاره

مكيه و عدد آياتها ثمانى آيات

ص: ۳۰۳

محتوى السوره و فضيلتها:

هذه السوره تدور آياتها حول حسن خلقه الإنسان و مراحل تكامله و نموّه و انحطاطه. و تبدأ بقسم عميق المعنى، تذكر عوامل انتصار الإنسان و نجاته و تنتهى بالتأكيد على مسأله المعاد و حاكميه الله المطلقه.

و

عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها أعطاه الله خصلتين: العافيه و اليقين ما دام فى دار الدنيا، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السوره صيام يوم» (١).

هذه السوره نزلت مكّه، و الآيه: (و هذا البلد الأمين) قسم بمكّه و دليل على مكّيه السوره لاستعمال اسم الإشاره للقريب.

ص: ٣٠٥

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (١) وَ طُورِ سِينِينَ (٢) وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)
ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ
بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨)

التفسير

تبدأ السوره بالقسم أربع مرّات لبيان أمر مهم:

وَ التِّينِ، وَ الزَّيْتُونِ

وَ طُورِ سِينِينَ

(١)

وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ

ص: ٣٠٦

١-١) قيل إنّ «سينين» جمع «سينه» و هي شجره: و لما كان «طور» اسم جبل، فيكون القسم بالجبل المغطى بالأشجار، و قيل إنّ سينين اسم الأرض التي يرسو عليها ذلك الجبل. و قيل إنّه يعني كثير الخير و البركه، و جميل، بلسان أهل الحيشه (روح المعاني، ج ٣٠، ص ١٧٣).

و الزيتون ثمرتان معروفتان، و اختلف المفسرون فى المقصود بالتين و بالزيتون، هل هما الفاكهتان المعروفتان أم شىء آخر.

بعضهم ذهب إلى أنّهما الفاكهتان بما لهما من خواص غذائية و علاجيه كبيره.

و بعض آخر قال: المقصود منهما جبلان واقعان فى مدينتى «دمشق» و «بيت المقدس» لأنّ المكانين منبثق كثير من الرسل و الأنبياء... و بذلك ينسجم هذان القسمان مع ما يليهما من قسمين بأراض مقدّسه.

و قال آخرون: إنّ تسميه الجبلين بالتين و الزيتون يعود إلى وجود أشجار التين على أحدهما و الزيتون على الآخر.

و قال بعضهم: إنّ التين إشاره إلى عهد آدم، إذ أنّ آدم و حواء طفقا يضعان على عوراتهما من ورق التين فى الجنّه، و الزيتون إشاره إلى عهد نوح لأنّه اطلق فى آخر مراحل الطوفان حمامه فعادت و هى تحمل غصن الزيتون، ففهم نوح عليه السّلام أنّ الأرض بدأت تبتلع ماءها و ظهرت اليابسه. (لذلك اتخذ غصن الزيتون رمزا للسلام).

و قيل: إنّ التين إشاره إلى مسجد نوح الذى بنى فوق جبل الجودى. و الزيتون إشاره إلى بيت المقدس.

ظاهر الآيه يدلّ على أنّ المقصود هو الفاكهتان المعروفتان، و لكن القسمين التالين يجعلان تفسير التين و الزيتون بالجبلين أو المركزين المقدسين أنسب.

طُورِ سَيْنِينَ

قيل هو: طور سيناء، و هو الجبل المعروف فى صحراء سيناء حيث أشجار الزيتون المثمره، و حيث ذهب موسى لمناجاة ربّه، و «سيناء» تعنى المبارك، أو كثير الأشجار، أو الجميل.

و قيل: إنّ جبل قرب الكوفه فى أرض النجف.

و قيل: إنّ سينين و سيناء بمعنى واحد و هو كثير البركه.

(١)

والبلد الأمين مكه، الأرض التي كانت في عصر الجاهليه أيضا بلدا آمنا و حرما إليها، ولا يحق لأحد فيها أن يتعرض لأحد، المجرمون و القتله كانوا في أمان إن وصلوا إليها أيضا.

هذه الأرض لها في الإسلام أهميه عظمى، الحيوانات و النباتات و الطيور فيها آمنه فما بالك بالإنسان.

و يذكر أنّ كلمه «التين» وردت في هذا الموضوع من القرآن فقط، بينما كلمه الزيتون تكررت في سته مواضع باللفظ و في موضع بالإشاره حيث يقول سبحانه:

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَ صِيغٍ لِلْكَالِينِ

(٢)

و هي شجره الزيتون.

إذا حملنا كلمتي «التين» و «الزيتون» على معناهما الظاهر الابتدائي، فالقسم بها ذو دلالة عميقه أيضا.

«التين» فاكهه ذات مواد غذائيه ثره، و لقمه مغذيه و مقويه لمختلف الأعمار، و خاليه من القشر و النواه و الزوائد.

علماء الأغذيه يقولون:

يمكن الاستفاده من التين كسكّر طبيعي للأطفال و يمكن للرياضيين و لمن يعانون ضعف الشيخوخه أن يستفيدوا من التين للتغذيه.

يقال إنّ أفلاطون كان يحبّ التين إلى درجه اطلق بعضهم على هذه الفاكهه اسم محبوب الفلاسفه، و سقراط كان يرى في التين عاملا على جذب المواد النافعه و رفع المواد الضاره.

جالينوس كان قد وضع نظام تعذيه خاص للأبطال من التين، و كان الرومان و اليونان القدماء يغذون أبطالهم بالتين.

ص: ٣٠٨

١-١) - «الأمين» على وزن فاعل أي «ذو الأمانة» أو بمعنى مفعول أي الأرض المأمونه لسكنتها.

٢-٢) - المؤمنون، الآية ٢٠.

علماء التغذية يقولون:التين مليء بالفيتامينات المختلفه و السكر،ويمكن الاستفاده منه لعلاج كثير من الأمراض،و حين تخلط نسب متساويه من التين و العسل يكون الخليط مفيدا لقرحه المعده،و تناول التين اليابس يقوى الفكر، و ييجاز التين،لما فيه من عناصر معدنيه تؤدي إلى تعادل قوى البدن و الدم،يعتبر غذاء لمختلف الأعمار و الظروف.

و

روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «التين يذهب بالبخر و يشدّ الفم و العظم،و ينبت الشعر،و يذهب بالداء،و لا يحتاج معه إلى دواء».

و

قال عليه السلام: «التين أشبه شيء بنبات الجنّة» (١).

و حول الزيتون،فإنّ العلماء الذين قضوا عمرهم فى دراسه خواص النباتات يعيرون أهميه بالغه للزيتون و زيتته.و يعتقدون أنّ الفرد إن أراد أن يعيش فى سلامه دائمه فلا بدّ له أن يستفيد من هذا الأكسير الحياتى.

زيت الزيتون صديق حميم لكبد الإنسان،و له تأثير فعّال فى معالجه عوارض الكلى، و حصى الصفراء،و التشنجات الكلويه و الكبدية،و إزاله الإمساك.

و لذلك ورد ذكر شجره الزيتون فى القرآن الكريم بعباره: شَجَرَهُ مُبَارَكَةٍ .

و زيت الزيتون مفعم أيضا بأنواع الفيتامينات و فيه الفوسفور و الكبريت و الكلسيوم و الحديد و البوتاسيوم و المنغنيز.

الضمادات التى تحضّر من زيت الزيتون و الثوم مفيده لأنواع الآلام الروماتيسميه،و حصى كيس الصفراء تزول بتناول زيت الزيتون (٢).

و

روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «ما أفقر بيت يأتدمون بالخل و الزيت

ص: ٣٠٩

١- ١) -الكافى، ج ٦، ص ٣٥٨. و أورده العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ١٨٤ روايات متعدده فى حقل خواص التين، و المعلومات العلميه عن هذه الفاكهه منقوله عن كتاب «أول جامعته و آخر رسول» (فارسى)، ج ٩، ص ٩٠ و ما بعدها.

٢- ٢) -أول جامعته و آخر رسول، ج ٩، ص ١٣٠ و ما بعدها.

و ذلك أدام الأنبياء» (١)، و الزيت هو زيت الزيتون.

و

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام قال: «نعم الطعام الزيت، يطيب النكهه، و يذهب بالبلغم، و يصفى اللون، و يشدّ العصب، و يذهب بالوصب (المرض و الألم و الضعف) و يطفئ الغضب». (٢)

و مسك الختام

حديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في هذا المجال قال: «كلوا الزيت و ادهنوا به فإنه من شجره مباركه» (٣).

ثمّ يأتي جواب القسم.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

«تقويم» يعنى تسويه الشىء بصوره مناسبه، و نظام معتدل و كيفيه لائقه، و سعه مفهوم الآيه يشير إلى أنّ الله سبحانه خلق الإنسان بشكل متوازن لائق من كلّ الجهات، الجسميه و الروحيه و العقليه، إذ جعل فيه ألوان الكفاءات، و أعدّه لتسلق سلم السموّ، و هو -و إن كان جرماً صغيراً- وضع فيه العالم الأكبر، و منحه من الكفاءات و الطاقات ما جعله لائقاً لوسام: «لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» (٤)، و هذا الإنسان هو الذى يقول فيه الله سبحانه بعد ذكر انتهاء خلقته: «فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ و هذا الإنسان بكل ما فيه من امتيازات، يهبط حين ينحرف عن مسيره الله إلى «أسفل سافلين».

لذلك تقول الآيه التاليه:

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ

يقال إن قمم الجبال الشماء إلى جانبها دائماً و ديان عميقه. و إزاء منحنيات

ص: ٣١٠

١-١) -بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ١٨٠، حديث ٦.

٢-٢) -المصدر السابق، ص ١٨٣، حديث ٢٢.

٣-٣) -المصدر السابق، ج ١٨٢، حديث ١٦.

٤-٤) -الإسراء، الآيه ٧٠.

الصعود فى التكامل الإنسانى توجد منحنيات نزول فظيعة، و لم لا يكون كذلك و هو الموجود الملىء بالكفاءات الثرة التى إن سخرها على طريق الصلاح يبلغ أسمى قمم الفخر و إن استعملها على طريق الفساد يخلق أكبر مفسده، و ينزلق طبعاً إلى «أسفل سافلين».

و لكن الآيه التالىة تقول:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

«ممنون»: من «المن» و تعنى هنا القطع أو النقص، من هنا فالأجر غير مقطوع و لا منقوص، و قيل: إنه خال من المنه، لكن المعنى الأول أنسب.

قيل: إن قوله: ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ تعنى ضعف الجسم و الذاكره فى شيخوخه الإنسان، و لكن هذا التفسير لا ينسجم مع الاستثناء المذكور فى الآيه التالىة، و لذلك نختار التفسير الأول.

الآيه التالىة تخاطب هذا الإنسان الكافر بأنعم ربّه و المعرض عن دلائل المعاد و تقول له: فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ .

تركيب وجودك من جهه، و بنیان هذا العالم الواسع من جهه اخرى يؤكّدان أن هذه الحياه الخاطفه لا يمكن أن تكون الهدف النهائى من خلقتك و خلقه هذا العالم الكبير.

هذه كلّها مقدمات لعالم أوسع و أكمل، و بالتعبير القرآنى، هذه «النشأه» الاولى «تنبى عن «النشأه الاخرى»، فلم لا يتذكر الإنسان؟! وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْ لَا تَذَكَّرُونَ . (١)

عالم النبات كلّ عام يجسّد مشهد الموت و البعث أمام عين الإنسان، و تطور الجنين خلقاً بعد خلق، إنّما هو فى كلّ خلق معاد و حياه جديده، فكيف -مع كلّ

ص: ٣١١

هذا-ينكر يوم الجزاء؟! ممّا تقدم يتّضح أنّ المخاطب في الآية هذا النوع من الأفراد.

وقيل: إنّ المخاطب شخص النبي، والمقصود من الآية هو: مع وجود أدله المعاد، أى شخص أو أى شىء يستطيع تكذيبك، وهذا التفسير يبدو بعيدا.

و اتضح أيضا أنّ المقصود من «الدين» ليس هو الشريعة بل هو يوم الجزاء، الآية التالية تؤيد ذلك.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ

هذا سؤال يستهدف حثّ الإنسان على الاعتراف بأنّه سبحانه أحكم الحاكمين فى صنائعه و أفعاله، فكيف يترك هذه الخلائق فلا يجازيهم.

و

روى عن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه حين كان يقرأ سورة التين، و يتلو قوله سبحانه:

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ

يقول: «بلى و أنا على ذلك من الشاهدين» (١).

يا ربّ! نشهد نحن أيضا أنّك أحكم الحاكمين.

ربّنا! لقد خلقتنا فى أحسن تقويم، فوفقنا لأن تكون أعمالنا و أخلاقنا فى أحسن وجه.

إلهنا! يسّر لنا طريق الإيمان و الصالح بلطفك و رحمتك.

أمين يا ربّ العالمين نهاية سورة التين

ص: ٣١٢

سوره العلق

اشاره

مکيه و عدد آياتها تسع عشره آيه

ص: ۳۱۳

محتوى السوره:

المشهور بين المفسرين أنها أول ما نزل من القرآن، و محتواها يؤيد ذلك أيضا، و قال آخرون إنَّ أول ما نزل سوره «الحمد» و قيل سوره «المدثر» و هو خلاف المشهور.

هذه السوره تبدأ بأن تأمر النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم بالقراءة. ثم تتحدث عن خلقه الإنسان بكل عظمته من قطعه دم تافهه.

و فى المرحلة التاليه تتحدث السوره عن تكامل الإنسان فى ظل لطف الله و كرمه، و عن تعليمه و تمكينه من القلم.

ثم تتطرق إلى طغيان الإنسان رغم كل ما توفرت له من هبات إلهيه و إكرام ربانى.

و تشير بعد ذلك إلى ما ينتظر أولئك الصادين عن طريق الهدايه و المانعين لأعمال الخير من عقاب.

و فى ختام السوره أمر بالسجود و الاقتراب من رب العالمين.

فضيله السوره:

روى فى فضيله هذه السوره عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «من

قرأ في يومه أو ليلته اقرأ باسم ربك ثم مات في يومه أو ليلته مات شهيدا و بعثه الله شهيدا، و أحياه كمن ضرب بسيفه في سبيل الله مع رسول الله.

هذه السورة المباركة سميت سورة «العلق» و «اقرأ» و «القلم» لمناسبه هذه الكلمات فيها (١).

ص: ٣١٦

١ - ١) - تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٧٨.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) إِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)
عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)

سبب النزول

ذكرنا أن أكثر المفسرين يذهبون إلى أن هذه السوره أول ما نزل من القرآن، وقيل إن المفسرين يجمعون على نزول الآيات الخمس الأوائل في بدايه نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومضمون الآيات يؤيد ذلك.

و جاء في الروايات أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كان في غار حراء حين نزل عليه جبرائيل وقال له: اقرأ يا محمّد. قال: ما أنا بقارئ، فاحتضنه جبرائيل وضغطه وقال له: اقرأ يا محمّد و تكرر الجواب. ثم أعاد جبرائيل عمله ثانيه و سماع نفس الجواب. و في المره الثالثه قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق... إلى آخر الآيات الخمس الأول من السوره.

قال ذلك و اختفى عن أنظار النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

رسول الله أحس بتعب شديد بعد هبوط أولى أشعه الوحي عليه فذهب إلى

قال: «زملوني و دثروني» (١).

«الطبرسي» في مجمع البيان يروي عن الحاكم النيسابوري قصه أول نزول الوحي ما ينبئ أن سورة الحمد كانت أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن رسول الله قال لخديجه إنني إذا خلوت وحدي سمعت نداء. فقالت: ما يفعل الله بك إلا خيرا، فوالله إنك لتؤدى الأمانة و تصل الرحم و تصدق الحديث، قالت خديجه:

فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل و هو ابن عم خديجه فأخبره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما رأى، فقال له ورقة: إذا أتاك فاثبت له حتى تسمع ما يقول ثم ايتني فأخبرني، فلما خلا ناداه يا محمد: قل بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين... حتى بلغ و لا الضالين، قل لا إله إلا الله، فأتى ورقة فذكر له ذلك، فقال له: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، و إنك على مثل ناموس موسى، و إنك نبي مرسل، و إنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، و لئن أدركني ذلك لأجاهدن معك، فلمّا توفي ورقة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي و صدقني» (٢).

جدير بالذكر أن في بعض كتب التفسير و التاريخ كلاما حول حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، في هذه البرهه الزميه لا- تتناسب أبدا مع شخصيه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، و تستند حتما إلى أحاديث مختلفه أو إلى إسرئيليات، من ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اغتم كثيرا لدى نزول الوحي عليه أول مره، و خشى أن يكون إلقاءات شيطانيه! و من ذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم همّ مرّات أن يلقي بنفسه من أعلى الجبل! و أمثال هذه الخزعبلات التي لا تنسجم إطلاقا مع ما ذكرته كتب السيره حول ما يتمتع به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من رجاحه في العقل، و ضبط كبير في النفس، و صبر وسعه صدره، و ثقته بالدور الكبير

ص: ٣١٨

(١ - ١) - التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٩٦ (بتلخيص قليل)، و هذا المعنى أورده كثير من المفسرين بإضافات و زوائد لا يمكن قبول بعضها.

(٢ - ٢) - تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥١٤.

الذى ينتظره.

و يبدو أنّ أعداء الإسلام دسّوا هذه الروايات للطعن فى الإسلام و للخط من شخصيه النبىّ صلى الله عليه و آله و سلّم.

التفسير

إشارة

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

الآيه الاولى فيها خطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم تقول له:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

(١)

، قيل إنّ مفعول اقرأ محذوف و تقديره: اقرأ القرآن باسم ربك، و استدلل بعضهم بهذه الآيه على أنّ البسملة جزء من سور القرآن

(٢).

و قيل: إنّ الباء هنا زائده، أى اقرأ اسم ربك، و هذا بعيد لأنّ المناسب و هذه الحالة أن يقال اذكر اسم ربك لا اقرأ...

و يلاحظ هنا قبل كلّ شىء التركيز على مسأله الربوبيه، و نعلم أنّ «الرب» يعنى «المالك المصلح»، أى الشخص الذى يملك شىئا، و يتعهد إصلاحه و تربيته أيضا.

و لإثبات ربوبيه الله جاء ذكر الخلقه... خلقه الكون، إذ إن أفضل دليل على ربوبيته خالقيته، فالذى يدبّر العالم هو خالقه.

و هذا فى الحقيقه ردّ على مشركى العرب الذين قبلوا خالقيه الله، و أو كلوا الربوبيه و التدبير إلى الأوثان، ثمّ إنّ ربوبيه الله و تدبيره لنظام الكون أفضل دليل على إثبات ذاته المقدسه.

ص: ٣١٩

١-١) -الراغب فى المفردات يقول: إنّ القراءة تعنى ضم الحروف و الكلمات إلى بعضها. و لذلك لا يقال لنطق الحرف قراءه.

٢-٢) -الباء فى هذه الحالة للملابسه.

ثم اختارت الآية التاليه «الإنسان» باعتباره أهم مظاهر الخليقه و قالت:

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

«العلق» فى الأصل الالتصاق بشىء، و لذلك سمى الدم المنعقد المتلاصق، و هكذا الحيوان الذى يلتصق بالجسم لمصّ الدم، بـ «العلق» و النطفه بعد أن تطوى المراحل الجنينيه الاولى تتحول إلى قطعه دم متلاصقه هى العلق، و هى مع تفاهتها الظاهريه تعتبر مبدأ خلقه الإنسان، و الآية تركز على هذه الظاهره لتبين قدره الربّ العظيمه على خلق هذا الإنسان العجيب من هذه العلقه التافهه.

و قيل: إنّ العلق فى الآية يعنى الطين الذى خلق منه آدم، و هو أيضا ماده متلاصقه، و بديهى أنّ الربّ الذى خلق آدم من طين لازب يستحق كلّ تمجيد و ثناء.

و قيل أيضا: أنّ العلق يعنى «صاحب العلاقه»، و فيه إشاره إلى الروح الاجتماعيه للإنسان، و العلاقه الموجوده بين أفراد البشر هى فى الواقع أساس تكامل البشر و تطور الحضارات.

و قال آخرون: إنّ العلق إشاره إلى نطفه الرجل (الحيمن)، و هى تشبه دوده العلق إلى حدّ كبير، و هذا الموجود المجهرى يسبح فى ماء النطفه، و يتجه إلى بويضه المرأه فى الرحم، و يلقحها و يكون منها النطفه الكامله للإنسان.

و القرآن الكريم بطرحه هذه المسأله يسجل معجزه علميه اخرى من معجزه، إذ لم تكن هذه الأمور معروفه أبدا فى عصر نزوله.

و من بين التفاسير الأربعة، يبدو أنّ التفسير الأوّل أوضح، و إن كان الجمع بين التفسير الأربعة ممكن أيضا.

مما تقدم نفهم أنّ «الإنسان» فى الآية هو آدم حسب أحد التفسير و هو مطلق الإنسان حسب التفسير الثلاثه الاخرى.

و للتأكيد، نقول الآية مرّه اخرى:

قيل: إن «اقرأ» فى هذه الآيه تأكيد لإقرأ فى الآيه السابقه، وقيل: إنها تختلف عن الآيه الاولى، فالاولى قراءه النبى لنفسه، و فى الثانيه القراءه للناس غير أن الرأى الأول أنسب، إذ لا يوجد دليل على اختلاف الإثنين.

و هذه الآيه فى الواقع جواب على

قول الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم لجبرائيل: ما أنا بقارئ، و هذه الآيه تقول: إنك قادر على القراءه بكرم الرب و فضله و منه.

ثم تصف الآيتان التاليتان الرب الأكرم:

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

و هاتان الآيتان أيضا تتجهان إلى الجواب على

قول رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم: ما أنا بقارئ، أى إن الله الذى علم البشر بالقلم و كشف لهم المجاهيل، قادر على أن يعلم عبده الأمين القراءه و التلاوه.

جملة الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ تحتل معنيين.

الأول: أن الله علم الإنسان الكتابه، و أعطاه هذه القدره العظيمه التى هى منبثق تاريخ البشر، و منطلق جميع العلوم و الفنون و الحضارات.

و الثانى: المقصود أن الله علم الإنسان جميع العلوم عن طريق القلم و بوسيله الكتابه.

و بإيجاز إما أن يكون التعليم، تعليم الكتابه، أو تعليم العلوم عن طريق الكتابه.

و هو على أى حال-تعبير عميق المعنى فى تلك اللحظات الحساسه من

ص: ٣٢١

١-١) -جمله «و ربك الأكرم» جمله استئنافيه مكونه من مبتدأ و خبر.

١-بدايه نزول الوحي مقرون ببدايه حركه علميه

هذه الآيات كما ذكرنا هي أول ما نزل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على ما ذهب إليه أغلب المفسرين أو جميعهم، وبذلك بدأ فصل جديد في تاريخ البشريه، وأضحت الإنسانيه مشموله بأعظم الألفاف الإلهيه و بأكمل الأديان و خاتمها. واستمر نزول الوحي حتى اكتمل التشريع الإلهي بمصداق قوله سبحانه:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا

(١)

، و بذلك أتم الله نعمته على الأجيال البشريه المتعاقبه حتى يرث الله الأرض و من عليها.

و المهم في الأمر أنّ هذه الآيات نزلت على نبيّ امي لم يتعلم القراءه و الكتابه و في بيئه اجتماعيه تسودها الاميه و الجهل لتحدث أول ما تحدث عن العلم و عن القلم مباشره بعد ذكر نعمه الخلق! هذه الآيات تحدث في الواقع أولا- عن تكامل «جسم» الإنسان من موجود تافه هو «العلقه»، ثم عن تكامل «روحه» بواسطه التعليم و التعلّم خاصه عن طريق القلم.

حين نزلت هذه الآيات لم تكن بيئه الحجاز وحدها بل كان العالم المتحضر في ذلك العصر أيضا لا يعير أهميه تذكر للقلم.

ص: ٣٢٢

أمّا اليوم فإننا نعلم أنّ القلم محور كل الحضارات و العلوم، و كلّ تقدم في أى مجال من المجالات، و نعلم تفوق أهميه «مداد العلماء» على «دماء الشهداء»، لأنّ هذا المداد هو الذى يكون الأساس القويم لدماء الشهداء و السند المتين له.

و لا نكون مغالين إذا قلنا أنّ مصير المجتمعات البشريه مرتبط بما تفرزه الأقلام.

إصلاح المجتمعات البشريه يبدأ من الأقلام الملتزمه المؤمنه، و فساد المجتمعات أيضا ينطلق من الأقلام المسمومه.

و لأهميه القلم يقسم القرآن به و بما يفرزه، أى بآله الكتابه و بمحصولها: ن وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ (١).

نعلم أنّ حياه البشريه تقسم على مرحلتين:

عصر التاريخ.

و عصر ما قبل التاريخ.

و عصر التاريخ يبدأ من استعمال القلم و الكتابه و القراءه... من زمن اقتدار الإنسان على أن يكتب بالقلم، و أن يخلف تراثا للأجيال، من هنا فتاريخ البشريه مقرون بتاريخ ظهور القلم و الخط.

و حول دور القلم فى حياه البشريه كان لنا وقفه طويله فى بدايه تفسير سوره القلم.

من هنا فإنّ أساس الإسلام أقيم منذ البدايه على أساس العلم و القلم... و لذلك استطاع قوم متخلفون أن يتقدموا فى العلم و المعرفه حتى تأهلوا-باعتراف الأعداء و الأصدقاء- لتصدير علومهم إلى العالم! إن علم المسلمين و معارفهم هو الذى مزق ظلام القرون الوسطى فى أوروبا و أدخلها عصر الحضاره. و هذا ما

ص: ٣٢٣

١-١) -القلم، الآية ١.

يعترف به علماء أوروبا أنفسهم فيما كتبوه في حقل تاريخ الحضاره الإسلاميه و فى تراث الإسلام.

و ما أبشع و أفضح أن تكون أخلاق أمه كتلك تمتلك بين ظهرانيها دينا كهذا متخلفه فى ميادين العلم و المعرفه و محتاجه إلى الآخرين بل و تابعه لهم!!

٢- باسم الله فى كل حال

بدأت دعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم باسم الله و ذكره: **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ .**

و استمرت حياه الرسول مقرونه فى كل حال بذكر الله... اقترن الـذكر بأنفاسه... بقيامه... بجلوسه... بنومه... بمشيئه... بركوبه... بترجله... بتوقفه... كان كله باسم الله.

عند ما كان يستيقظ يقول: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا و إليه النشور».

يقول ابن عباس: **بَتَّ لَيْلَهُ مَعَ النَّبِيِّ، وَ عِنْدَ مَا اسْتَيْقَظَ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَ تَلَا آيَاتِ الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ... ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مِنْ فِيهِنَّ... اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَ بِكَ آمَنْتُ وَ عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْكَ أُنَبِّتُ...».**

حين كان يخرج من البيت يقول: **«بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ، أَوْ أَضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ، أَوْ أَظْلَمَ، أَوْ أَظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ، أَوْ يَجْهَلَ عَلَيَّ».**

و حين يرد المسجد يقول: **«أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَ بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَ سُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».**

و حين يرتدى لباسا جديدا يقول: **«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَ خَيْرَ مَا صَنَعَ لَهُ وَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَ شَرِّ مَا صَنَعَ لَهُ».**

و حين يعود إلى المنزل يقول: «الحمد لله الذي كفاني و أواني، و الحمد لله الذي أطعمني و سقاني».

و بذلك فإنَّ حياة الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بكل مرافقها كانت مقرونة بذكر الله و اسمه الكريم. (١)

ص: ٣٢٥

١-١) - في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٦١٩ و ما يليها بتلخيص.

اشاره

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤)

التفسير

اشاره

سبب الطغيان:

استتباعا للآيات السابقة التي تحدثت عن النعم الماديه و المعنويه الإلهيه على الإنسان...و النعم التي تستلزم شكر الإنسان و تسليمه أمام الله، هذه الآيات تبدأ بالقول: ليست نعم الله تحيي روح الشكر في الإنسان دائما، بل إنه يطغى:

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ

(١)

و متى يكون ذلك؟ فيما لو رأى نفسه مستغنيا و غير محتاج.

ص: ٣٢٦

١-١) -حسب المعنى الذى ذكرناه للآيه (كلا) هنا للردع بالنسبه لما يستلزمه مضمون الآيات السابقه و قيل أيضا أنها بمعنى «حقاً» للتأكيد.

هذه طبيعته أغلب أفراد البشر...الأفراد الذين لم يتربوا في مدرسه العقل و الوحي،حين يرون أنفسهم مستغنين غير محتاجين يعمدون إلى الطغيان، و ينسلخون من عبوديه الله،و يرفضون الاعتراف بأحكامه،و يصمّون أذانهم عن نداءه،و لا يراعون حقًا و لا عدلا.

لا الإنسان و لا أى مخلوق آخر قادر على أن يستغنى،بل كلّ الموجودات الممكنه بحاجه إلى لطف الله و نعمه،و إذا انقطع فيضه سبحانه عنها لحظه واحده، ففي هذه اللحظه بالذات تفنى بأجمعها،غير أنّ الإنسان يحسّ خطأ أحيانا أنّه مستغن غير محتاج.و القرآن يشير إلى هذا الإحساس بعباره دقيقه يقول: أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى لم يقل أن استغنى.

قيل: إنّ المقصود بالإنسان فى الآيه أبو جهل الذى كان يطغى أمام الدعوه لكن مفهوم الإنسان هنا عام،و أمثال أبى جهل مصاديق له.

يبدو أنّ الهدف من الآيه الفات نظر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بمنعطفات طبيعته البشريه كى لا يتوقع قولاً سريعاً من الناس لدعوته،و ليعدّ نفسه لإنكار المنكرين و معارضه الطغاه المستكبرين،و ليعلم أنّ الطريق أمامه وعر ملىء بالمصاعب.

ثمّ يأتى التهديد لهؤلاء الطغاه المستكبرين و تقول الآيه التاليه:

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ

و هو الذى يعاقب الطغاه على ما اقترفوه،و كما إنّ رجوع كلّ شىء إليه،و ميراث السماوات و الأرض له سبحانه: وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (٢) فكل شىء فى البدايه منه،و لا مبرر للإنسان أن يشعر بالاستغناء و يطغى.

ص: ٣٢٧

١ - ١) - جملة «أن رآه استغنى» مفعول لأجله،و التقدير: لأن...و الرؤيه هنا بمعنى العلم و لذا نصبت مفعولين،و يحتمل أيضاً أن تكون الرؤيه هنا حسيه.و «استغنى» تكون عندئذ بمثابة الحال.

٢ - ٢) - آل عمران،الآيه ١٨٠.

ثم تتحدث الآيات التالية عن بعض أعمال الطغاه المغرورين، مثل صدهم عباد الله عن السير في طريق الحق.

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى

عَبْدًا إِذَا صَلَّى

؟! ألا يستحق مثل هؤلاء عذابا سحيقا؟! و في الحديث أن أبا جهل قال: «هل يعفّر محمّد وجهه بين أظهركم (أى هل يسجد محمّد بينكم) قالوا: نعم، قال: فبالذى يحلف به لئن رأيتَه يفعل ذلك لأطأَنَّ على رقبته. فقيل له: ها هو ذاك يصلى، فانطلق ليطأ على رقبته، فما فاجأهم إلا و هو ينكص على عقبه، و يتقى بيديه. فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟! قال: إنَّ بينى و بينه خندقا من نار، و هؤلاء، و أجنحه. و

قال نبى الله: و الذى نفسى بيده لو دنا منى لا يختطفته الملائكة عضوا عضوا. فأنزل الله سبحانه: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى إِلَى آخِر السّوره» (١) حسب هذه الرواية: الآيات التى نحن بصددّها لم تنزل فى بدايه البعثه، بل نزلت حين أعلنت الدعوه، و لذلك قيل إنَّ الآيات الخمس الاولى هى التى كانت أوّل ما نزل من الوحي و الباقي بعد ذلك بمدّه.

على أى حال، سبب نزول الآيات لا يمنع من سعه مفهومها.

الآيات التالية تأكيد على نفس المفاهيم.

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى

أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى

أى أ رأيت إن كان هذا العبد المصلى على الهدى أو أمر بالتقوى فهل يصح نهيه؟ ألا يستحق من ينهاه النار؟

ص: ٣٢٨

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى

و لو كَذَّبَ هذا الطاغية بالحق و تولى و أعرض عنه فما ذا سيكون مصيره؟ أَلَمْ يَعْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى [□] و يثبت كلَّ شيء ليوم الجزاء و الحساب.

و التعبير بالقضيه الشرطيه فى الآيتين إشاره إلى أن هذا الطاغى المغرور ينبغى أن يحتمل-على الأقل-أنَّ النَّبى على طريق الهدايه و دعوته تتجه إلى التقوى...و هذا الاحتمال وحده كاف لصدّه عن الطغيان.

من هنا فمفهوم الآيات ليس فيه ترديد فى هدايه النَّبى و دعوته إلى التقوى، بل ينطوى على إشاره دقيقه إلى المعنى المذكور.

بعض المفسّرين أرجع الضمير فى «كان» و«أمر» إلى الشخص الطاغى الناهى، مثل أبى جهل، و يكون المعنى عندئذ: أ رأيت إن قبل هذا هدايه الإسلام، و أمر بالتقوى بدلا من نهيه عن الصلاه، فما أنفع ذلك له! لكن التفسير الأول أنسب!

ملاحظه

اشاره

عالم الوجود محضر الله:

حين يؤمن الإنسان بأنّه فى كلّ حر كاته و سكناته بين يدى الله، و أنّ عالم الوجود محضر الله سبحانه و تعالى، لا يخفى عليه شيء من عمل الفرد بل من نواياه، فإنّ ذلك سيؤثر على منهج هذا الإنسان فى الحياه تأثيرا بالغا، و يصدّه عن الانحراف، إذا كان إيمانه-طبعاً-متوغلا فى قلبه، و كان اعتقاده قطعى لا تردد فيه.

جاء فى الحديث: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ص: ٣٢٩

يقال أنّ عارفا تاب بعد ذنب، و كان بعد ذلك يبكي كثيرا قيل له: لم هذا البكاء؟ ألا تعلم أنّ الله تعالى غفور؟ قال: بلى، قد يعفو سبحانه. و لكن كيف أبعد عن نفسي الإحساس بالخجل، و قد رأني أذنب؟!!

ص : ٣٣٠

اشاره

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَنْسَفَعَا بِالنَّاصِيَةِ بِه (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَيْنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَ أَسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (١٩)

التفسير

اشاره

السجود والتقرب:

بعد الحديث فى الآيات السابقه عن الطغاه الكافرين الصادين عن سبيل الله، توجه هذه الآيات أشد التهديد لهم و تقول: كَلَّا لَا يكون ما يتصور (لأنه تصور أن يصد عن عباده الله بوضعه قدمه على رقبه النبى).

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَنْسَفَعَا بِالنَّاصِيَةِ

نعم، إذا لم ينته من إثمه و طغيانه سنجره بالقوه من شعر مقدمه رأسه (و هى الناصيه)، و ثم وصف الناصيه هذه بأنها كاذبه خاطئه و هو وصف لصاحبها نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ .

«لنسفا»: من السفع، و ذكر له المفسرون معانى متعدده: الجرّ بالشده، الصفع على الوجه، تسويد الوجه (الأثافى الثلاثه التى يوضع عليها القدر تسمى «سفع»

لأنها تسوّد بالدخان)، و وضع العلامه و الإذلال (١).

و الأنسب المعنى الأول، و إن كانت الآيه تحتل معانى اخرى أيضا.

و هل حدوث هذا السفع بالناصيه فى يوم القيامه، حيث يسحب أبو جهل و أمثاله من مقدمه شعر الرأس إلى جهنم، أم فى الدنيا، أم فى كليهما؟ لا يستبعد أن يكون فى كليهما، و الشاهد على ذلك الروايه التاليه:

«لَمَّا نزلت سورة الرحمن، علم القرآن... قال النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم لأصحابه: من يقرأها منكم على رؤوساء قريش؟ فتناقلوا مخافه أذيتهم، فقام ابن مسعود و قال:

أنا يا رسول الله، فأجلسه عليه السلام، ثم قال: من يقرأها عليهم؟ فلم يقم إلا ابن مسعود، ثم ثالثا كذلك إلى أن أذن له، و كان عليه السلام يبقى عليه لما كان يعلم من ضعفه و صغر جثته. ثم إنّه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبه، فافتتح قراءه السوره، فقام أبو جهل فلطمه فشقّ أذنه و أدماه، فانصرف و عيناه تدمع. فلما رآه النبى عليه السلام رق قلبه و أطرق رأسه مغموما، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكا مستبشرا، فقال: يا جبريل تضحك و ابن مسعود يبكى! فقال: ستعلم.

فلَمَّا ظهر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ فى المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى: فإذا أبو جهل مصروع يخور... فصعد على صدره، فلَمَّا رآه أبو جهل قال: يا روى الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعبا. فقال ابن مسعود:

الإسلام يعلو و لا يعلى عليه.

فقال أبو جهل: بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إليّ منه فى حياتي، و لا أحد أبغض إليّ منه فى حال مماتي.

روى أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال: «فرعونى أشدّ من فرعون موسى

ص: ٣٣٢

فإنه قال آمنت و هو قد زاد عتوا».

ثم قال أبو جهل لابن مسعود: أقطع رأسي بسيفى هذا، لأنه أحدّ و أقطع. فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله، فراح يجزه على ناصيته إلى رسول الله، (و بذلك تحقق قوله سبحانه: (لنسفن بالناصيه) في هذه الدنيا أيضا) (١).

«الناصيه»: شعر مقدم الرأس، و (السفع بالناصيه) يراد به الإذلال و الإرغام، لأن أخذ الشخص بناصره يفقده كل حركه و يجبره على الاستسلام.

«الناصيه» تستعمل لمقدمه رأس الأفراد، و للجزء النفيس من الشيء كأن نقول «ناصيه البيت».

و وصف الناصيه بأنها «كاذبه خاطئه» يعنى أن صاحبها كاذب فى أقواله و خاطئ فى أعماله، كما كان أبو جهل.

و لقد وردت بعض الروايات الصحيحه بأن السوره - عدا المقطع الأول منها - قد نزلت فى أبى جهل إذ مرّ برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هو يصلى عند المقام فقال (يا محمد ألم أنك عن هذا؟ و توعده فأغظ له رسول الله و انتهره...) و لعلها هى التى أخذ فيها رسول الله بخناقه و قال له: (أولى لك ثم أولى) فقال: يا محمد بأى شىء تهددنى؟ أما و الله و إننى لأكثر هذا الوادى ناديا (٢).

و هنا نزلت الآيه التالیه تقول لأبى جهل: فليدع هذا الجاهل المغرور كل قومه و عشيرته و ليستنجد بهم.

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ

و نحن سندع أيضا زبانيه جهنم:

سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ

ليعلم هذا الجاهل الغافل أنه عاجز عن فعل أى شىء و إنّه

ص: ٣٣٣

١-١) - الفخر الرازى، ج ٣٢، ص ٢٣.

٢-٢) - تفسير فى ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٤٢ ذيل الآيه.

فى قبضه خزنه جهنم كقشه فى مهب الريح.

«الناديه» من ماده (ندا) و هو المكان الذى يجتمع فيه القوم، و تاره يطلق على مركز التفريح، لأنّ القوم فيه ينادى بعضهم بعضا، أو من «النادا» بمعنى الكرم، لأنّ الأفراد يكرم فيه بعضهم بعضا. و منه أيضا «الندوه» و هى مكان يتشاور فيه الجماعه. و «دار الندوه» مقر معروف لتشاور قريش.

و«النادى» فى الآيه يقصد به القوم الذين يجتمعون فى النادى. و أرادت منه الآيه أولئك الذين يستند إليهم أمثال أبى جهل من أهل و عشير و أصحاب.

و«الزبانيه» جمع «زبنيه» و هو فى الأصل بمعنى الشرطه من ماده «زبن» -على زنه متن- و هو الدفع و الردع و الإبعاد. و هنا بمعنى ملائكه العذاب و خزنه جهنم.

و فى آخر آيه من السوره و هى آيه السجده يقول سبحانه: كَلَّا أَى لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يُتَوَصَّرُ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَمْنَعَ سَجُودَكَ: لَا تُطِغُهُ وَاسْتِجْدُ وَاقْتَرِبْ فَأَبُو جَهْلٍ أَقْلٌ مِنْ أَنْ يَسْتَطِيعَ مَنَعَ سَجُودَكَ أَوْ الْوُقُوفَ بِوَجْهِ دِينِكَ، فتوكل على الله و أعبده و اسجد له، و بذلك تقترب منه سبحانه على هذا المسير أكثر فأكثر.

و يستفاد ضمينا من هذه الآيه أن «السجود» عامل اقتراب من الله، و لذا

ورد فى الحديث: «أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجدا».

و فى روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ القرآن يتضمّن أربعة مواضع فيها سجود واجب و هى فى «الم السجده» و «فصلت» و «النجم» و فى هذه السوره «العلق» و بقيه المواضع السجده فيها مستحبه.

الطغيان و الإحساس بالاستغناء:

أغلب مفاسد العالم مصدرها الفئات المرفهه و المستكبره فى المجتمع. و هذه الفئات كانت دائما فى مقدمه أعداء دعوه الأنبياء. و هؤلاء يطلق عليهم القرآن أحيانا: **الْمَلَأُوا** (١) و أحيانا المترفين (٢) و أحيانا **الْمُسْتَكْبِرِينَ** (٣).

المجموعه الاولى: هم الأشراف المنتفشون فى الظاهر، الفارغون فى الداخل.

و الثانيه: هم الغارفون فى الرخاء و يعيشون فى سكره و غرور بمعزل عن الآم الآخرين.

و الثالثه: هم الراكبون رؤوسهم كبرا و غرورا و الغافلون عن الله و عن الخلق.

و دافع كل أولئك إحساسهم بالاستغناء، و هذه طبيعه أفراد أفق تفكيرهم ضيق، تسكرهم النعمه، و يزلزل توازنهم المال و المقام، فيغطون فى شعور بالاستغناء ينسيهم ذكر الله، بينما نعلم أن نسمه من الهواء قادره على أن تطوى سجل أيامهم، و أن حادثه كسيل أو زلزال أو صاعقه قادره على أن تبيد أموالهم...

و أن شرقة بالماء قادره على أن تخطف أرواحهم.

أيه غفله هذه تصيب جماعه تجعلهم يشعرون بالاستغناء، و تدفعهم إلى امتطاء مركب الغرور ليصلوا و يجولوا فى الساحه الاجتماعيه!! نستجير بالله من هذا الجهل و من هذه الغفله و الطغيان! و للتغلب على هذه الحاله يكفى أن يلتفت الإنسان قليلا إلى ضعفه الشديد و إلى قدره الله المطلقه، و أن يتصفح تاريخ السابقين ليرى مصير أقوام أكثر منه قوه و مكنه.

ص: ٣٣٥

١-١) - الأعراف، الآية ٦٠.

٢-٢) - سبأ، الآية ٣٤.

٣-٣) - المؤمنون، الآية ٦٧.

اللهم احفظنا من الكبر و الغرور فهما أساس الابتعاد عنك.

ربنا! لا- تكلنا إلى أنفسنا طرفه عين في الدنيا و الآخرة يا رب العالمين! وفقنا لأن نمرغ في التراب انوف هؤلاء المستكبرين
المغرورين الذين يصدون عن سبيلك، و أن نحبط مخططاتهم و مؤامراتهم.

آمين يا رب العالمين نهايه سوره العلق

ص: ٣٣٦

سوره القدر

اشاره

مكيه و عدد آياتها خمس آيات

ص: ۳۳۷

محتوى السّوره:

محتوى السّوره كما هو واضح من اسمها بيان نزول القرآن الكريم فى ليله القدر، و بيان أهميه هذه الليله و بركاتها.

و حول مكان نزولها فى مكّه أو المدينه، المشهور بين المفسّرين أنّها مكّيه، و احتمال بعضهم أنّها مدينه، لما روى أنّ النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم رأى فى منامه «بنى اميه» يتسلقون منبره، فصعب ذلك على النّبى و آله، فنزلت سوره القدر تسليّه (لذلك قيل إن ألف شهر فى السّوره هى مدّه حكم بنى اميه). و نعلم أنّ منبر النّبى أقيم فى مسجد المدينه لا فى مكّه (١).

لكن المشهور - كما قلنا - أنّها مكّيه، و قد تكون الروايه من قبيل التطبيق لا سببا للنزول.

فضيله السّوره:

و يكفى فى فضيله السّوره تلاوتها ما

روى عن النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها أعطى من الأجر كمن صام رمضان و أحيا ليله القدر» (٢).

و

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «من قرأ إنّنا أنزلناه بجهر كان كشاهر سيفه فى سبيل الله، و من قرأها سرّا كان كالمتشحط بدمه فى سبيل

ص: ٣٣٩

١-١) -روح المعانى: ج ٣٠، ص ١٨٨، و الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٧١.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥١٦.

اللّٰه» (١).

و واضح إنّ كل هذه الفضائل فى التلاوه لا تعود على من يقرأها دون أن يدرك حقيقتها، بل إنّها نصيب من يقرأها و يفهمها و يعمل بها... من يقدر القرآن حقّ قدره و يطبق آياته فى حياته.

ص : ٣٤٠

١ - ١) - المصدر السابق.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَأَنْزَلْنَاكَ مَلَكًا لَيْلَةَ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا يَأْذِنُ رَبُّهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ (٥)

التفسير

اشاره

ليلة القدر ليله نزول القرآن:

يستفاد من آيات الذكر الحكيم أنّ القرآن نزل في شهر رمضان: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ (١)، و ظاهر الآيه يدل على أن كل القرآن نزل في هذا الشهر.

و الآيه الاولى من سوره القدر تقول:

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

اسم القرآن لم يذكر صريحا في هذه الآيه، و لكن الضمير في «أنزلناه» يعود إلى القرآن قطعا. و الإبهام الظاهري في ذكر اسم القرآن إنما هو لبيان عظمته

ص: ٣٤١

و أهميته.

عبارة **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيهَا** إشارة أخرى إلى عظمه هذا الكتاب السماوى. فقد نسب الله نزوله إليه، و بصيغته المتكلم مع الغير أيضا، و هى صيغته لها مفهوم جمعى و تدل على العظمة.

نزول القرآن فى ليله «القدر» و هى الليله التى يقدر فيها مصير البشر و تعين بها مقدراتهم، دليل آخر على الأهمية المصيريه لهذا الكتاب السماوى.

لو جمعنا بين هذه الآيه و آيه سورة البقره لاستنتجنا أن «ليله القدر» هى إحدى ليالى شهر رمضان، و لكنها آيه ليله؟ القرآن لا يبين لنا ذلك، و لكن الروايات تتناول هذا الموضوع بإسهاب. و سنتناولها فى نهايه تفسير هذه السوره إن شاء الله.

و هنا يطرح سؤال له طابع تاريخى و له ارتباط بما رافق أحداث حياه النبى صلى الله عليه و آله و سلم من نزول القرآن. من المؤكد أن القرآن الكريم نزل تدريجيا خلال (٢٣) عاما. فكيف نوفق بين هذا النزول التدريجى و ما جاء فى الآيات السابقه بشأن نزول القرآن فى شهر رمضان و فى ليله القدر؟ الجواب على هذا السؤال كما ذكره المحققون يتلخص فى أن للقرآن نزولين:

النزول الدفعى، و هو نزول القرآن بأجمعه على قلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو على البيت المعمور، أو من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

و النزول التدريجى، و هو ما تمّ خلال (٢٣) سنه من عصر النبوه (ذكرنا شرح ذلك فى تفسير الآيه ٣ من سورة الدخان).

و قال بعضهم إن ابتداء نزول القرآن كان فى ليله القدر لا كله، و لكن هذا خلاف ظاهر الآيه التى تقول: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**.

و يذكر أنّ تعبير الآيات عن نزول القرآن يكون مرّه بكلمه «إنزال» و مرّه أخرى بكلمه «تنزيل». و يستفاد من كتب اللغه أن التنزيل للنزول التدريجى،

ص: ٣٤٢

و الإنزال له مفهوم واسع يشمل النزول الدفعي أيضا (١). و هذا التفاوت في التعبير القرآني قد يكون إشاره إلى النزولين المذكورين.

في الآيتين التاليتين يبين الله تعالى عظمه ليله القدر و يقول سبحانه:

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ

و التعبير هذا يوضح أنّ عظمه ليله القدر كبيره إلى درجه خفيت على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أيضا قبل نزول هذه الآيات، مع ما له من علم واسع.

و«ألف شهر» تعنى أكثر من ثمانين عاما، حقًا ما أعظم هذه الليله التي تساوى قيمتها عمرا طويلا مباركا.

و جاء في بعض التفاسير أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله إنا أنزلناه في ليله القدر و ما أذراك ما ليله القدر ليله القدر خير من ألف شهر، التي لبس فيها ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر (٢).

و روى أنّ أربعة أشخاص من بنى إسرائيل عبدوا الله تعالى ثمانين سنه من دون ذنب، فتمنى الصحابه ذلك التوفيق لهم، فنزلت الآيه المذكوره.

و هل العدد (ألف) في الآيه للعدّ أو التكثير؟، قيل إنه للتكثير، و قيمه ليله القدر خير من آلاف الأشهر أيضا، و لكن الروايات أعلاه تبيّن أنّ العدد المذكور للعدّ، و العدد عاده للعدّ إلا إذا توفرت قرينه واضحه تصرفه إلى التكثير.

و لمزيد من وصف هذه الليله تقول الآيه التاليه:

تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَ الرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ

و«تنزل» فعل مضارع يدل على الاستمرار (و الأصل تنزل) ممّا يدل على أنّ

١-١) - مفردات الراغب، ماده نزل.

٢-٢) - الدر المنثور، ج ٨ ص ٥٦٨.

ليه القدر لم تكن خاصه بزمن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، و بنزول القرآن، بل هي ليه تتكرر في كل عام باستمرار.

و ما المقصود ب«الروح»؟ قيل: إنه جبرائيل الأمين، و يسمي أيضا الروح الأمين. و قيل: إن الروح بمعنى الوحي بقريته قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (١).

و للروح تفسير آخر يبدو أنه أقرب، هو أن الروح مخلوق عظيم يفوق الملائكة.

و

روى أن الإمام الصادق عليه السلام سئل عن الروح و هل هو جبرائيل، قال:

«جبرائيل من الملائكة، و الروح أعظم من الملائكة، أليس أن الله عز و جل يقول:

تنزل الملائكة و الروح»؟ (٢) فالإثنان متفاوتان بقريته المقابله. و ذكرت تفاسير اخرى للروح هنا نعرض عنها لافتقادها الدليل.

مِنْ كُلِّ أَمْرٍ

أى لكل تقدير و تعيين للمصائر، و لكل خير و بركه. فالهدف من نزول الملائكة في هذه الليله إذن هو لهذه الأمور.

أو بمعنى بكل خير و تقدير، فالملائكة تنزل في ليله القدر و معها كل هذه الأمور (٣).

و قيل: المقصود أن الملائكة تنزل بأمر الله، لكن المعنى الأول أنسب.

عبارة «ربهم» تركز على معنى الربوبية و تدبير العالم، و تتناسب مع عمل الملائكة في تلك الليله حيث تنزل لتدبير الأمور و تقديرها، و بذلك يكون عملها جزء من ربوبية الخالق.

ص: ٣٤٤

١-١) - الشورى، الآية ٥٢.

٢-٢) - تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٨١.

٣-٣) - حسب التفسير الأول (من) هنا بمعنى لام التعليل أى لأجل كل أمر. و بناء على التفسير الثاني (من) تعنى باء المصاحبه.

بإيجاز الآيه الكريمه تقول:الملائكه و الروح تنزل فى هذه الليله بأمر ربهم لتقدير كل أمر من الأمور.

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ

و الآيه الأخيره هذه تصف الليله بأنها مفعمه بالخير و السلامه و الرحمه حتى الصباح.

القرآن نزل فيها،و عبادتها تعادل عباده ألف شهر،و فيها تنزل الخيرات و البركات،و بها يحظى العباد برحمه خاصه، كما إن الملائكه و الروح تنزل فيها...

فهى إذن ليله مفعمه بالسلامه من بدايتها حتى مطلع فجرها. و الروايات تذكر أن الشيطان يكبل بالسلاسل هذه الليله فهى ليله سالمه مقرونه بالسلامه.

و إطلاق كلمه «سلام» على هذه الليله بمعنى «سلامه»(بدلا من سالمه) هو نوع من التأكيد كأن نقول فلان عدل،للتأكيد على أنه عادل.

و قيل: إن إطلاق كلمه (سلام) على تلك الليله يعنى أن الملائكه تسلم باستمرار على بعضها أو على المؤمنين،أو أنها تأتي إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و خليفته المعصوم،تسلم عليه.

و من الممكن أيضا الجمع بين هذه التفاسير.

إنها على أى حال ليله ملؤها النور و الرحمه و الخير و البركه و السلامه و السعاده من كل الجهات.

و

سئل الإمام محمد بن على الباقر عليه السلام عما إذا كان يعرف ليله القدر،قال:

«كيف لا نعرف و الملائكه تطوف بنا فيها».

و جاء فى قصه إبراهيم عليه السلام أن عددا من الملائكه جاءت إليه و بشرته بالولد و سلمت عليه(هود-٦٩)و فى الروايه أن إبراهيم أحس بلذته من سلام الملائكه لا تعدلها لذته،إذن،فأيه لذته و بركه و لطف فى سلام الملائكه على المؤمنين و هى تنزل فى ليله القدر!! و حين القى إبراهيم عليه السلام فى نار نمرود،جاءت إليه الملائكه و سلمت عليه

فتحولت النار إلى جنينه.ألا تتحول نار جهنم ببركة سلام الملائكة على المؤمنين في ليله القدر إلى برد و سلام.

نعم هذه كرامه لامه محمّد و تعظيم لها حيث تنزل الملائكة هناك على الخليل عليه السلام و تنزل هنا على امه الإسلام (1)

بحوث

اشاره

١- ما هي الأمور التي تقدّر في ليله القدر؟

في سبب تسميه هذه الليله بليله القدر قيل الكثير من ذلك:

١- لأنها الليله التي تعين فيها مقدرات العباد لسنه كامله، يشهد على ذلك قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**، فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٢) هذه الآيه الكريمه تنسجم مع ما جاء من الروايات تقول: في هذه الليله تعين مقدرات الناس لسنه كامله، وهكذا أرزاقهم، ونهايه أعمارهم، وأمر أخرى تفرق و تبين في تلك الليله المباركه.

هذه المسأله طبعاً لا تتنافى مع حريه إرادته الإنسان و مسأله الإختيار، لأنّ التقدير الإلهي عن طريق الملائكه إنّما يتم حسب لياقه الأفراد و ميزان إيمانهم و تقواهم و طهر نيتهم و أعمالهم.

أى يقدر كلّ فرد ما يليق له؛ و بعبارة اخرى، أرضيه التقدير يوفرها الإنسان نفسه، و هذا لا يتنافى مع الإختيار بل يؤكده.

٢- و قال بعض إنّها سميت بالقدر لما لها من قدر عظيم و شرف كبير (في

ص: ٣٤٦

١- (١) - تفسير الفخر الرازي، ج ٣٢، ص ٣٦.

٢- (٢) - الدخان، الآيه ٣-٤.

القرآن جاء قوله سبحانه: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (١).

٣- وقيل لأن القرآن بكل قدره و منزلته نزل على رسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم بواسطة الملك العظيم فى هذه الليلة.

٤- إنها الليلة التى قدر فيها نزول القرآن.

٥- إنها الليلة التى من أحيائها نال قدرا و منزله.

٦- وقيل أيضا لأنها الليلة التى تنزل فيها الملائكة حتى تضيق بهم الأرض لكثرتهم. لأن القدر جاء بمعنى الضيق أيضا كقوله تعالى: وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ (٢).

كل هذه التفاسير يستوعبها المفهوم الواسع لليله القدر مع أن التفسير الأول أنسب و أشهر.

٢- أية ليله هى ليله القدر؟

لا- شك أن ليله القدر من ليالى شهر رمضان، لأنّ الجمع بين آيات القرآن يقتضى ذلك. فالقرآن نزل فى شهر رمضان من جهه (البقره-١٨٥)، و من جهه اخرى تقول آيات السوره التى نحن بصددھا أنه نزل فى ليله القدر.

و لكن، آيه ليله من شهر رمضان؟ قيل فى ذلك كثير، و ذكرت تفاسير عديده من ذلك: أنها أول ليله من شهر رمضان المبارك، الليله السابعه عشره، الليله التاسعه عشره، الليله الحاديه و العشرون، الليله الثالثه و العشرون، الليله السابعه و العشرون، و الليله التاسعه و العشرون.

و المشهور فى الروايات أنها فى العشر الأخيره من شهر رمضان، و فى الليلتين الحاديه و العشرين أو الثالثه و العشرين. لذلك ورد فى الروايات أنّ

ص: ٣٤٧

١- ١) -الحج، الآيه ٧٤.

٢- ٢) -الطلاق، الآيه ٧.

النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم كان يحيى كل الليالى العشر الأخيره من الشهر المبارك بالعباده.

و روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنها الليله الحاديه و العشرون أو الثالثه و العشرون. و عند ما أصر عليه أحدهم فى تعيين واحده بين الليلتين لم يزد الإمام على أن

يقول: «ما أيسر ليلتين فيما تطلب!!» (١).

ثمّه روايات متعدده عن أهل البيت عليهم السلام تركز على الليله الثالثه و العشرين.

بينما روايات أهل السنه تركز على الليله السابعه و العشرين.

و

روى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «التقدير فى ليله القدر تسعه عشر، و الإبرام فى ليله إحدى و عشرين، و الإمضاء فى ليله ثلاث و عشرين» (٢).

ليه القدر إذن محاطه بهاله من الإبهام سنذكر سببه فيما يلى.

٣- لماذا خفيت ليله القدر؟

الإعتقاد السائد أنّ اختفاء ليله القدر بين ليالى السنه، أو بين ليالى شهر رمضان المبارك يعود إلى توجيه الناس إلى الاهتمام بجميع هذه الليالى؛ مثلما أخفى رضاه بين أنواع الطاعات كى يتجه الناس إلى جميع الطاعات، و أخفى غضبه بين المعاصى، كى يتجنب العباد جميعها، و أخفى أحباءه بين الناس كى يحترم كلّ الناس، و أخفى الإجاباه بين الأدعيه لتقرأ كل الأدعيه، و أخفى الاسم الأعظم بين أسمائه كى تعظم كل أسمائه، و أخفى وقت الموت كى يكون الناس دائماً على استعداد.

و يبدو أن هذا دليل مقبول:

ص: ٣٤٨

١- (١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٢٥، الحديث ٥٨.

٢- (٢) -المصدر السابق، الحديث ٦٢٦.

٤- هل كانت ليله القدر معروفه بين الأمم السابقيه؟

من ظاهر آيات هذه السوره نفهم أنّ ليله القدر ليست خاصّه بزمان نزول القرآن و عصر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، بل تتكرر كلّ سنه حين يرث الله الأرض و من عليها.

التعبير بالفعل المضارع «تنزل» الدال على الاستمرار، و هكذا التعبير بالجمله الاسميه سَيَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ الداله أيضا على الدوام يؤيد ذلك.

مضافا إلى ذلك الروايات التي ربّما بلغت حدّ التواتر في تأييد هذه المسأله.

و لكن هل كانت هذه الليله في الأمم السابقيه؟ روايات متعدده تصرّح أنّ هذه الليله من المواهب الإلهيه على هذه الامّه، و

عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَهَبَ لَإِمَّتِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَمْ يَعْطِهَا مِنْ كَانَ قَبْلَهُمْ».

و في تفسير الآيات التي نحن بصددھا روايات تؤيد ذلك أيضا.

٥- ليله القدر خير من ألف شهر

لماذا كانت خيرا من ألف شهر...الظاهر لأهميه العباده و الإحياء فيها. و ما جاء من روايات بشأن فضيله ليله القدر و فضيله العباده فيها في كتب الشيعه و أهل السنه كثير، و يؤيد هذا المعنى.

أضف إلى ذلك، فإنّ نزول القرآن في هذه الليله، و نزول البركات و الرحمه الإلهيه فيها يجعلها خيرا من ألف شهر.

و

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: لعلى بن أبي حمزه الثمالي:

«فاطلبها (أى ليله القدر) في ليله إحدى و عشرين و ثلاث و عشرين و صل في كل واحد منهما مائه ركعه و أحيهما إن استطعت إلى النور، و اغتسل فيهما» قال: قلت: فإن لم أقدر على ذلك و أنا قائم؟ قال: فصلّ و أنت جالس.

قال: قلت: فإن لم أستطع؟

قال:فعلى فراشك،لا عليك أن تكتحل أول الليل بشيء من النوم إن أبواب السماء تفتح في رمضان و تصفد(تقيّد)الشياطين،و تقبل أعمال المؤمنين..نعم الشهر رمضان!» (١).

٦-لما ذا انزل القرآن في ليله القدر؟

ليه القدر-كما علمنا-ليه تقدير مصائر البشر لسنه كامله حسب ما يليق بكل فرد.فينبغي أن يكون الإنسان فيها مستيقظا و في حاله تقرب إلى الله و تكامل على طريق بناء الشخصيه الإسلاميه ليرفع من مستوى لياقته لمزيد من رحمه الله.

نعم،في اللحظات التي يتقرر فيها مصيرنا ينبغي أن لا نكون غافلين،و إلا فسيواجهنا المصير المؤلم.

و القرآن...باعتباره الكتاب القادر على أن يرسم للبشرية مستقبلها و مصيرها و يهديها إلى طريق سعادتها و هدايتها،يجب أن ينزل في ليله القدر...ليه تعيين المصير...و ما أجمل هذه العلاقه بين «القرآن»و«ليه القدر»،و ما أعمق معنى الارتباط بين الإثنين!!

٧-هل ليله القدر واحده في المعموره؟

نعم أن بدء الشهر القمري ليس واحدا في جميع البلدان.و قد يكون يومنا هذا أول الشهر في بلد و يكون الثاني في بلد آخر.من هنا لا يمكن أن تكون ليله القدر ليله معينه في السنه.على سبيل المثال قد تكون ليله الثالث و العشرين في الحجاز هي ليله الثاني و العشرين في ايران و العراق.و بهذا يكون لكل بلد ليله قدر!و هل هذا ينسجم مع ما جاء في الروايات المؤكده على أن ليله القدر ليله

ص :٣٥٠

معينه؟ الجواب يتضح بالالتفات إلى ما يلي:

الليل هو ظل نصف الكرة الأرضية على النصف الآخر من هذه الكرة، و نعلم أن هذا الظل يتحرك بتحريك الكرة الأرضية، و يدور دوره كامله فى أربع و عشرين ساعه من هنا يمكن أن تكون ليله القدر دوره كامله لليل حول الأرض، أى تكون هذه الليله مدّه أربع و عشرين ساعه من دوران الظلام حول الكرة الأرضيه بأجمعها، تبدأ من نقطه و تنتهى عند نقطه اخرى. (تأمل بدقه).

اللهم! منّ علينا بيقظه و وعى كى نتزوّد من فضيله ليله القدر.

ربّنا! آمالنا منشده إلى لطفك و كرمك، فقدّر لنا وفق ما نأمله فيك.

يا ربّ العالمين! لا تجعلنا من محرومى هذا الشهر فما بعد هذا الحرمان حرمان.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره القدر

ص: ٣٥١

سوره البینه

اشاره

مدتیہ و عدد آیاتہا ثمانی آیات

ص: ۳۵۳

محتوى السّوره:

المشهور أنّ هذه السّوره نزلت فى المدينه، و محتواها يؤيد ذلك، إذ تحدثت فى مواضع متعدده عن أهل الكتاب، و المسلمون واجهوا أهل الكتاب فى المدينه غالباً.

أضف إلى ذلك أنّ السّوره تحدثت عن الصلاه و الزكاه، و الزكاه-و إن شرعت فى مكّه- اتخذت طابعها الرسمى الواسع فى المدينه.

هذه السّوره تناولت رساله رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و ما فيها من دلائل بيّنه، هذه الرساله التى كان أهل الكتاب ينتظرونها، حين ظهرت أعرض عنها فريق منهم لما وجدوا فيها من خطر على مصالحهم الشخصيه.

و السّوره تقرر حقيقه وجود الإيمان و التوحيد و الصلاه و الصيام فى كل الأديان و دعوات الأنبياء باعتبارها أصولاً ثابتة خالده.

و فى مقطع آخر من السّوره بيان عن مواقف أهل الكتاب و المشركين تجاه الإسلام... بعضهم آمن و عمل صالحاً فهو خير المخلوقات، و بعضهم كفر و أشرك فهو شرّ البريه.

هذه السّوره أطلق عليها لمناسبه ألفاظها اسماء متعدده أشهرها: «البينه» و «لم يكن» و «القيمه».

روى فى فضيله تلاوه هذه السوره عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لو يعلم الناس ما فى (لم يكن) لعطلوا الأهل و المال و تعلموها».

فقال رجل من خزاعه: ما فيها من الأجر يا رسول الله؟ فقال: «لا يقرأها منافق أبدا و لا عبد فى قلبه شك فى الله عزّ و جلّ، و الله إنّ الملائكه المقربين ليقرونها منذ خلق الله السماوات و الأرض لا يفترون عن قراءتها، و ما من عبد يقرأها بليل إلا بعث الله ملائكه يحفظونه فى دينه و دنياه و يدعون له بالمغفره و الرحمه، فإن قرأها نهارا اعطى عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار و أظلم عليه الليل» (١).

ص: ٣٥٦

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمِمَّا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥)

التفسير

اشاره

ذلك دين القيمة:

في بدايه السوره ذكر لأهل الكتاب (اليهود و النصارى) و مشركى العرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدعون أنهم غير منفيين عن دينهم إلا بدليل واضح قاطع.

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ

و«البينه» التي أرادوها: رسول من الله يتلو عليهم كتابا مطهرا من رب

العالمين:

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً

و هذه الصحف فيها من الكتابه ما هو صحيح و ثابت و ذو قيمه.

فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ

كان هذا ادعائهم قبل ظهور الإسلام، و حينما ظهر و نزلت آياته تغيّر هؤلاء، و اختلفوا و تفرقوا. و ما تفرقوا إلا بعد أن جاءهم الدليل الواضح و النبي الصادح بالحق.

وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ

مما تقدم، الآيات الاولى لهذه السوره المباركه تتحدث عن أهل الكتاب و المشركين الذين كانوا يدعون أنهم سوف يقبلون الدعوه إن جاءهم نبي بالدلائل الساطعه.

لكنهم أعرضوا حين ظهر، و جابهوه، إلا فريق منهم آمن و اهتدى.

و هذا المعنى يشبه ما جاء فى قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (١).

نعلم أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون مثل هذا الظهور، و لا بد أن يكون مشركو العرب مشاركين لأهل الكتاب فى هذا الانتظار لما كانوا يرون فيهم من علم و معرفه، و لكن حين تحققت آمالهم غيروا مسيرهم و التحقوا بأعداء الدعوه.

جمع من المفسرين لهم رأى آخر فى تفسير الآيه، يقولون: مقصود الآيه هو أن أهل الكتاب و المشركين لم يكونوا منفكين عن دينهم حقيقه-لا ادعاء-حتى تأتيهم البيئه.

ص: ٣٥٨

و هذا يعنى أنّ هؤلاء آمنوا بعد ما جاءتهم البينه، لكن الآيات التاليه تدل على غير ذلك، اللهم إلا إذا قيل أنّ المقصود إيمان مجموعه منهم و إن كانت قليله و تكون المسأله من قبيل ما يسمى فى المنطق «موجبه جزئيه».

و لكن على أى حال نستبعد هذا التفسير، و يبدو أنّ الفخر الرازى لهذا السبب وصف الآيه الاولى من هذه السوره بأنها أعقد آيه فى القرآن لتعارضها مع الآيات التاليه، و لحل هذا التعارض ذكر طرقا متعدده أفضلها هو الذى ذكرناه أعلاه.

ثمّه تفسير ثالث للآيه هو أنّ الله لا يترك أهل الكتاب و المشركين لحالهم حتى يتمّ الحجّه عليهم و يرسل إليهم البينه و يبين لهم الطريق. و لذلك أرسل إليهم نبيّ الإسلام لهدايتهم.

بناء على هذا التفسير، هذه الآيه تشير إلى قاعده اللطف التى يتناولها علم الكلام و تقرر أنّ الله يبعث إلى كلّ قوم دلائل واضحه ليتمّ الحجّه عليهم (١).

على أى حال، «البيهة» فى الآيه هى الدليل الواضح، و مصداقها حسب الآيه الثانيه شخص «رسول الله» و هو يتلو عليهم القرآن.

«صحف» جمع «صحيفه»، و تعنى ما يكتب عليه من الورق، و المقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن يتلو شيئا عليهم من الأوراق.

و «مطهره» أى طاهره من كلّ ألوان الشرك و الكذب و الباطل. و من تلاعب شياطين الجن و الإنس. كما جاء أيضا فى قوله تعالى: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ (٢) جملة فيها كُتِبَ قِيَمَةٌ إشاره إلى أنّ ما فى هذه الصحف السماويه خال من

ص: ٣٥٩

١- ١) - يجب ملاحظه أنّ «منفكين» جمع (منفك) يمكن أن تكون اسم فاعل أو اسم مفعول، فعلى التفسيرين الأوّل و الثانى تعطى معنى اسم الفاعل، و على التفسير الثالث معنى اسم المفعول، فلاحظ.

٢- ٢) - فصلت، الآيه ٤٢.

الانحراف و الاعوجاج. من هنا فإن هذه «الكتب» تعنى المكتوبات، أو تعنى الأحكام و التشريعات المنصوصه من الله، لأن الكتابه جاءت بمعنى تعيين الحكم أيضا، كقوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (١).

و بهذا يكون معنى «قيمه» السويّه و المستقيمه، أو الثابته و المستحكمه، أو ذات قيمه، أو كل هذه المعانى مجتمعه.

و يحتمل أيضا أن يكون المعنى هو أن القرآن فيه الكتب السماويه القيمه السابقه لأنه يضم جميع محتوياتها و زياده.

و يلفت النظر تقدم ذكر أهل الكتاب على المشركين فى الآيه الاولى، و الاقتصار على ذكر أهل الكتاب فى الآيه الرابعه دون ذكر المشركين، بينما الآيه تريد الإثنين.

و هذا يعود ظاهرا إلى أن أهل الكتاب كانوا هم الرّواد فى هذه المواقف، و كان المشركون تابعين لهم. أو لأنّ أهل الكتاب كانوا أهلا- لذم أكثر لما عندهم من علماء كثيرين، و بذلك كانوا ذا مستوى أرفع من المشركين. معارضتهم-إذن- أفضح و أبشع و تستحق مزيدا من التقريع.

ثم يتوالى التقريع لأهل الكتاب، و من بعدهم للمشركين، لأنهم اختلفوا فى الدين الجديد، منهم مؤمن و منهم كافر، بينما: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ (٢).

ثم تضيف الآيه القول:

وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ

ص: ٣٦٠

١- ١) -البقره، الآيه ١٨٣.

٢- ٢) -جملة «و ما أمروا» قد تكون حاله أو استئنافيه. و اللام فى «ليعبدوا» لام الغرض، و المقصود هنا الغرض الذى يعود على العباد، لا- الغرض الذى يعود على الله كما تصور بعض المفسرين و أدى بهم هذا التصور إلى إنكار «لام الغرض» فى مثل هذه المواضع. كل أفعال الله معلله بالأغراض، لكنّها أغراض تعود على العباد. بعضهم اعتبر اللام هنا بمعنى «أن» كما فى قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ النِّسَاءَ، الآيه ٢٦.

قيل فى معنى «و ما أمروا...» أن المقصود هو: إن التوحيد و الصلاة و الزكاه من المسائل الثابته فى دين أهل الكتاب، لكنهم لم يبقوا أو فياء لهذه التعاليم.

وقيل: المقصود هو إن دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص و الصلاة و الزكاه و أمثالها من التعاليم. و هذه امور معروفه فلما ذا يعرضون عنها؟.

يبدو أن المعنى الثانى أقرب. لأن الآيه السابقه تتحدث عن الاختلاف فى قبول الدين الجديد، و المناسب هنا أن يكون المراد فى «أمروا...» هو الدين الجديد أيضا.

أضف إلى ذلك أن المعنى الأول يصدق على أهل الكتاب و حدهم، بينما المعنى الثانى يشمل المشركين أيضا.

المقصود ب«الدين» فى عبارته مخلصين له الدين حنفاء قد يكون «العباده».

و عبارته «إلا ليعبدوا الله» فى الآيه تؤكد هذا المعنى.

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود مجموع الدين و الشريعة، أى أنهم أمروا أن يعبدوا الله و أن يخلصوا له الدين و التشريع فى جميع المجالات. و هذا المعنى يتناسب أكثر مع المفهوم الواسع للدين. و جمله و ذلك دين القيمة تؤيد هذا المعنى لأنها طرحت الدين بمفهومه الواسع.

«حنفاء» جمع «حنيف»، من الفعل الثلاثى حنفا، أى عدل عن الضلال إلى الطريق المستقيم، كما يقول الراغب فى المفردات. و العرب تسمى كل من حج أو حتن «حنيفا» إشاره إلى أنه على دين إبراهيم.

و«الأحنف» من كانت رجله عوجاء. و يبدو أن الكلمه كانت فى الأصل تستعمل للانحراف و الاعوجاج، و النصوص الإسلاميه استعملتها بمعنى الانحراف عن الشرك إلى التوحيد و الهدايه.

و من الممكن أن تكون المجتمعات الوثنيه قد أطلقت على من يترك الأوثان و يتجه إلى التوحيد اسم «حنيف»، أى منحرف. ثم أصبحت الكلمه بالتدريج اسما

لسالكي طريق التوحيد و من مستلزمات الكلمه الإخلاص فى التوحيد و الاعتدال التام و اجتناب أى إفراط أو تفريط؛ غير أنّ هذه معان ثانويه للكلمه.

جمله وَ ذَلِكْ دِينُ الْقَيِّمِ (1) إشاره إلى أنّ الأصول المذكوره فى الآيه و هى: التوحيد الخالص، و الصلاه (الارتباط بالله) و الزكاه (الارتباط بالناس) من الأصول الثابته الخالده فى جميع الأديان، بل إنّها قائمه فى أعماق فطره الإنسان.

ذلك لأنّ مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، و فطرته تدعوه إلى معرفه المنعم و شكره، ثمّ إنّ الروح الاجتماعيه المدنيه للإنسان تدعوه إلى مساعده المحرومين.

من هنا، هذه التعاليم لها جذور فى أعماق الفطره، و هى لذلك كانت فى تعاليم كلّ الأنبياء السابقين و تعاليم خاتم النبيين صلّى الله عليه و آله و سلّم.

ص: ٣٦٢

١- ١) -دين القيمه، مضاف مضاف إليه، و ليس صفه و موصوف و مفهومها أنّه دين ورد فى الكتب السابقه مستقيم و ذو قيمه أو أنّه دين فيه احكام و تعليمات ذات قيمه، فعلى هذا جاءت الكلمه بصيغه المؤنث لأنّها صفه للكتب أو المله و الشريعه.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

التفسير

اشاره

خير البريه و شرها:

الآيات السابقه تحدثت عن انتظار أهل الكتاب و المشركين لبينه تأتيهم من الله، لكنهم تفرقوا من بعد ما جاءتهم البينه.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من الناس مختلفتين في موقفهما من الدعوه «كافره» و«مؤمنه» تذكر الكافرين أولاً بالقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ .

و إنما قال «كفروا» لكفرهم بالدين المبين، و إلا فإن كفرهم ليس بجديد.

و عباره أُولَئِكَ هُم شَرُّ الْبَرِيَّةِ عباره قارعه مثيره، تعنى أنه لا يوجد بين الأحياء و غير الأحياء موجود أضل و اسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحق و إتمام الحجّه، و ساروا فى طريق الضلال، مثل هذا المعنى ورد أيضا فى قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١).

و فى قوله سبحانه يصف أهل النار: أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (٢).

و هذه الآيه التى نحن بصددھا تذهب فى وصف هؤلاء المعاندين إلى أبعد ممّا تذهب إليه غيرها، لأنها تصفهم بأنهم شرّ المخلوقات، و هذا بمثابة بيان الدليل على خلودهم فى نار جهنم.

و لم لا يكونون شرّ المخلوقات و قد فتحت أمامهم جميع أبواب السعادة فاعرضوا عنها كبرا و غرورا و عنادا.

تقديم ذكر «أهل الكتاب» على «المشركين» فى هذه الآيه أيضا، قد يعود إلى ما عندهم من كتاب سماوى و علماء و من صفات صريحه لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم فى كتبهم، لذلك كانت معارضتهم أفضع و أسوأ.

الآيه التالیه تذكر المجموعه الثانيه، و هم المؤمنون و تقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ .

و الآيه التالیه تذكر جزاء هؤلاء المؤمنين، و ما لهم عند الله من مثوبه:

جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ

يلاحظ أنّ الحديث عن المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحه، باعتبارها ثمره دوحه الإيمان. و فى ذلك إشارة إلى أن ادعاء الإيمان وحده لا يكفى، بل

ص: ٣٦٤

١-١) - الأنفال، الآيه ٢٢.

٢-٢) - الأعراف، الآيه ١٧٩.

لا بد أن تشهد عليه الأعمال الصالحة. لكن الكفر وحده-و إن لم يقترن بالأعمال السيئه-مبعث السقوط و الشقاء. أضف إلى أن الكفر عادة منطلق لانواع الذنوب و الجرائم و الانحرافات.

عبارة أولئك هم خير البرية تبين بجلاء أن الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقه و ليس فيها استثناء و الآيات الاخرى تشهد على ذلك أيضا، مثل آية سجود الملائكة لآدم، و مثل قوله سبحانه:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

(١)

هذه الآية تحدثت عن الجزاء المادى الذى ينتظر المؤمنين، و عن الجزاء المعنوى الروحى لهم، و هو رضا الله عنهم و رضاهم عنه. إنهم راضون عن الله لأن الله أعطاهم ما أرادوه، و الله راض عنهم لأنهم أدوا ما أرادهم منهم، و إن كانت هناك زلة فقد غفرها بلطفه و كرمه. و أية لهذه أعظم من أن يشعر الإنسان أنه نال رضا المحبوب و وصاله و لقاءه.

نعم، نعيم جسد الإنسان جنات الخلد، و نعيم روحه رضا الله و لقاءه.

جملة ذلك لمن خشي ربه تدل على أن كل هذه البركات تنطلق من «خشية الله». لأن هذه الخشية دافع للحركة صوب كل طاعه و تقوى و عمل صالح.

بعض المفسرين قرن هذه الآية، بالآية (٢٨) من سورة فاطر حيث يقول سبحانه: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** و خرج بنتيجة هي أن الجنة للعلماء طبعاً لا بد أن نأخذ بنظر الاعتبار وجود مراتب و مراحل للخشية و هكذا مراتب للعلم.

قيل أيضا أن «الخشية» أسمى من «الخوف»، لأنها خوف مقرون بالتعظيم و الاحترام.

ص: ٣٦٥

١- على عليه السلام و شيعته خير البرية

ثم روايات كثيرة بطرق أهل السنة في مصادرهم الحديثية المعروفة، وهكذا في المصادر الشيعية، فسّرت الآية: **أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** بأنهم على و شيعته.

«الحاكم الحسكاني النيسابوري» عالم أهل السنة المعروف في القرن الخامس الهجري نقل هذه الروايات في كتابه المشهور «شواهد التنزيل» بطرق مختلفة، و يزيد عدد هذه الروايات على العشرين نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

-١

عن ابن عباس قال: عند ما نزلت آية: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** قال رسول الله لعلي: «هو أنت و شيعتك تأتي أنت و شيعتك يوم القيامة راضين مرضيين و يأتي عدوك غضابنا مقحمين» (١).

٢-و

عن أبي برزة قال: حينما تلا رسول الله هذه الآية قال: «هم أنت و شيعتك يا علي، و ميعاد ما بيني و بينك الحوض» (٢).

٣-و

عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنا جالسين عند النبي جوار الكعبة، فاقدم علينا علي، و حين رآه النبي قال: «قد أتاكم أخي»، ثم التفت إلى الكعبة، و قال: «و ربّ هذه البيّنة! إنّ هذا و شيعته هم الفائزون يوم القيامة».

ثم التفت إلينا و قال: «أما و الله إنّهُ أولكم إيماناً بالله، و أقومكم بأمر الله، و أوفاكم بعهد الله، و أقضاكم بحكم الله، و أقسمكم بالسوية، و أعدلكم في الرعيه و أعظمكم عند الله مزيه» قال جابر: فأنزل الله: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** فكان على إذا أقبل قال أصحاب محمد قد أتاكم خير البرية بعد رسول

ص: ٣٦٦

١- (١) - شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣٥٧، الحديث ١١٢٦.

٢- (٢) - المصدر السابق، ص ٣٥٩، الحديث ١١٣٠.

نزول هذه الآيه جوار الكعبه لا يتنافى مع مدنيه السوره. إذ من الممكن أن تكون من قبيل النزول المجدد، أو التطبيق، أضف إلى ذلك أنّ نزول هذه الآيات لا يستبعد أن يكون خلال أسفار النبي إلى مكّه من المدينه، خاصّه أنّ الراوى (جابر بن عبد الله الأنصارى) قد التحق بالنبي في المدينه.

بعض هذه الأحاديث رواها ابن حجر في الصواعق، و محمد الشبلنجي في نور الأبصار (٢).

و جلال الدين السيوطي نقل القسم الأعظم من الروايه الأخيره عن ابن عساكر عن جابر بن عبد الله الأنصارى (٣).

٤-

في «الدر المنثور» عن ابن عباس قال: «حين نزلت آيه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ. قال رسول الله لعلي: «هو أنت و شيعتك يوم القيامه راضين مرضيين».

٥-

في الدر المنثور أيضا عن ابن مردويه عن علي عليه السلام قال: «قال لي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ألم تسمع قول الله إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ؟ أنت و شيعتك و موعدي و موعدكم الحوض، إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غزًا محجلين» (٤).

كثير من علماء السنه، سوى من ذكرنا، نقلوا مثل هذه الروايات في كتبهم منهم: الخطيب الخوارزمي في المناقب، و أبو نعيم الأصفهاني في كفايه الخصام، و العلامة الطبري في تفسيره، و ابن صباغ المالكي في الفصول المهمه، و العلامة

ص: ٣٦٧

١-١ - المصدر السابق، ص ٣٦٢، الحديث ١١٣٩.

٢-٢ - الصواعق المحرقة، ص ٩٦؛ و نور الأبصار، ص ٧٠ و ١٠١.

٣-٣ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩.

٤-٤ - المصدر السابق.

الشوكاني في فتح الغدير، و الشيخ سليمان القندوزي في ينابيع الموده، و الألوسى في روح المعاني.

باختصار هذا الحديث من الأحاديث المعروفه المشهوره المقبوله لدى أكثر علماء الإسلام، و فيه بيان لفضيله كبرى من فضائل على و أتباعه.

و هذه الروايات تدل ضمناً أنّ كلمه «الشيعة» باعتبارها اسماً لأتباع على عليه السلام كانت قد شاعت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بين المسلمين على لسان الرسول نفسه.

و أولئك الذين يخالون أنّ الكلمه هذه ظهرت في عصور متأخره في خطأ كبير.

٢- ضرورة إخلاص النيه في العباده

بعض علماء اصول الفقه استدلوا بالآيه: **وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** على لزوم «قصد القربه» في العبادات، و أن الأصل في الأوامر أنّها تعبدية لا توصليه. و هذا يتوقف على كون «الدين» في الآيه بمعنى العباده كى يصح الاستدلال بها على لزوم الإخلاص في العبادات... و يتوقف على أن يكون (الأمر) في الآيه بشكل مطلق كى يكون مفهومها لزوم قصد القربه في كل الأوامر (عدا ما خرج منها بدليل). غير أنّ مفهوم الآيه ليس كذلك على الظاهر. فالمقصود إثبات التوحيد مقابل الشرك، أى إنّ هؤلاء لم يؤمروا إلا بالتوحيد، و بهذا لا ترتبط المسأله بالأحكام الفرعيه.

٣- منحنى الصعود و السقوط

من آيات هذه السوره المباركه يستفاد أنّ الإنسان فريد بين مخلوقات الكون في البون الشاسع الذى يفصل بين منحنى ارتفاعه و سّمّوه و بين منحنى سقوطه و هبوطه. لو كان من الذين آمنوا و عملوا الصالحات (عباره «عملوا الصالحات» تشمل كلّ الأعمال الصالحه لا بعضها) فهو أفضل خلق الله؛ و إنّ سلك

طريق الكفر و الضلاله و العناد هبط إلى هوه سحيقه و كان شرّ خلق الله.

هذا البون الشاسع بين الاتجاهين - رغم خطورته و حساسيته- له دلالة كبيره على مكانه النوع البشرى و قابليته للتكامل. و طبيعى أن يكون إلى جانب هذه القابليه العظيمه إمكان عظيم للهبوط و السقوط.

ربّنا! نستمد العون من فضلك و إحسانك لبلوغ درجه «خير البريه» ربّنا! اجعلنا من شيعة ذلك الرجل الصالح الذى كان أجدر من نال هذه الدرجه.

ربّنا! منّ علينا يا خلاص يجعلنا متفانين فى حبّك و عبادتك.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره البينه

ص: ٣٦٩

سوره الزلزله

اشاره

مدتيه و عدد آياتها ثمانى آيات

ص: ٣٧١

محتوى السّوره:

اختلف المفسّرون فى مكّيه هذه السّوره أو مدنيّتها. كثيرون ذهبوا إلى أنّها مدنيه. بينما ذهب بعض إلى أنّها مكّيه لما تناوله آياتها من حديث حول «المعاد» و«أشراط الساعه» (علامات يوم القيامه)... وهى موضوعات الآيات المكّيه عاده. و لكنّ ثمه روايه عن «أبى سعيد الخدرى» أنّه سأل النّبى صلّى الله عليه وآله و سلم حين نزول هذه السّوره عن آيه: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ... و أبو سعيد انضم إلى المسلمين فى المدينه (١).**

ولا- تأثير لمكيّتها أو مدنيّتها على مفاهيمها التى تدور حول ثلاثه محاور رئيسيه: تتحدث أولاً- عن علامات البعث و يوم القيامه... ثمّ عن شهاده الأرض على جميع أعمال العباد... و بعد ذلك تقسم الناس إلى مجموعتين صالحه و طالحه و تبين أنّ كلّ مجموعته ترى ثمار عملها.

فضيله السّوره:

وردت فى فضيله هذه السّوره نصوص تحمل إشارات هامّه من ذلك ما

روى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلم قال: «من قرأها فكأنّما قرأ البقره و أعطى من الأجر كمن قرأ ربع القرآن» (٢).

ص: ٣٧٣

١- (١) -روح المعانى، ج ٣٠، ص ٣٠٨.

٢- (٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٤.

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال:

«لا تملوا من قراءه» إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا فَإِنَّهُ مِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُ بِهَا فِي نَوَافِلِهِ لَمْ يَصِبْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِزَلْزَلِهِ أَبَدًا، وَ لَمْ يَمُتْ بِهَا
وَ لَا بِصَاعِقِهِ وَ لَا بِآفَةٍ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُوتَ» (١).

ص: ٣٧٤

١-١) - اصول الكافي على ما في نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٤٧، ح ٤.

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

التفسير

إشارة

يوم يرى الناس أعمالهم:

هذه السورة تبدأ-كما ذكرنا في محتواها-ببيان صور من الأحداث الهائلة المفزعة التي ترافق نهاية هذا العالم و بدء البعث و النشور. تقول:

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

(١)

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا

ص: ٣٧٥

١-١) -إذا شرطيه، يحتمل أن يكون جزاء شرطها «يومئذ تحدث أخبارها» أو «يومئذ يصدُر الناس أشتاتاً»، أو أنّ الجزاء محذوف و الجملة جاءت جواباً لسؤال: متى الساعة؟ و التقدير: إذا زلزلت الأرض زلزالها تقوم الساعة.

عبارة «زلزلها» تعني أنّ الأرض بأجمعها تهتز في ذلك اليوم (خلافًا للزلازل العادية الموضوعية عادة) أو أنّها إشارة إلى الزلزال المعهودة، أي زلزاله يوم القيامة (١).

و«الأثقال» ذكر لها المفسرون معاني متعددة. قيل إنّها البشر الذين يخرجون من أجدانهم على أثر الزلزال. كما جاء في قوله سبحانه: وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (٢).

وقيل إنّها الكنوز المخبوءة التي ترمى إلى الخارج، و تبعث الحسرة في قلوب عبّاد الدنيا (٣).

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود إخراج المواد الثقيلة الذائبة في باطن الأرض، و هو ما يحدث أثناء البراكين و الزلازل، فإنّ الأرض في نهايه عمرها تدفع ما في أعماقها إلى الخارج على أثر ذلك الزلزال العظيم. يمكن الجمع بين هذه التفاسير.

في ذلك الجو المليء بالرهبة و الفزع، تصيب الإنسان دهشه ما بعدها دهشه فيقول في ذعر: ما لهذه الأرض تتزلزل و تلقي ما في باطنها؟ وَ قَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا .

و ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الإنسان في الآيه هو الكافر الذي كان شاكا في المعاد و البعث، و لكن الظاهر أنّ الإنسان هنا له معنى عام يشمل كل أفراد البشر. فالدهشه من وضع الأرض في ذلك اليوم لا يختص بالكافرين. و هل هذا السؤال التعجبي يرتبط بالنفخه الاولى أو الثانيه؟ أي هل يرتبط

ص: ٣٧٦

١-١) - بالمعنى الأول الإضافة لها معنى العموم، و في حاله الثانيه معنى العهد. ثم إنّ الزلزال بكسر الزاى مصدر، و الزلزال بفتح الزاى اسم مصدر، و هذه القاعده جاريه في الفعل الرباعي المضاعف مثل (صلصال) و (وسواس).

٢-٢) - الإنشاق، الآيه ٤.

٣-٣) - «أثقال» جمع ثقل - على وزن فكر - بمعنى الحمل، و قيل إنّ جمع ثقل، على وزن عمل، و هو متاع البيت أو المسافر. و المعنى الأول أنسب.

بنهايه الأرض أم بالبعث؟ الظاهر أنّها النفخه الاولى حيث تحدث الزلزله الكبرى و ينتهى فيها هذا العالم.

و يحتمل أيضا أن تكون نفخه البعث و النشور، و إخراج الناس من الأجداث و الآيات التاليه ترتبط بالنفخه الثانيه.

و لما كان القرآن يتحدث فى مواضع مختلفه عن أحداث النفختين معا، فالتفسير الأول أنسب لما ورد من ذكر الزلزال المرعب فى نهايه العالم. و فى هذه الحاله يكون المقصود من أثقال الأرض معادنها و كنوزها و المواد المذابه فيها.

و أهم من ذلك أنّ الأرض:

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا

تحدّث بالصالح و الطالح، و بأعمال الخير و الشر، ممّا وقع على ظهرها. و هذه الأرض واحد من أهم الشهود على أعمال الإنسان فى ذلك اليوم. و هى إذن رقيه على ما نفعله عليها.

و

فى حديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «أ تدرّون ما أخبارها؟» قالوا: الله و رسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد و أمه بما عملوا على ظهرها.

تقول عمل كذا و كذا، يوم كذا، فهذا أخبارها» (١).

و

فى حديث آخر عن النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «حافظوا على الوضوء و خير أعمالكم الصلاه، فتحفظوا من الأرض فإنّها أمّكم، و ليس فيها أحد يعمل خيرا أو شرا إلّا و هى مخبره به» (٢).

و

عن أبى سعيد الخدرى قال: متى كنت فى بيداء فارفع صوتك بالأذان لأنى

ص: ٣٧٧

١-١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٤٩.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٦.

سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَسْمَعُهُ جَنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا يَشْهَدُ لَهُ» (١).

و هل إن تحديث الأرض يعنى أنها تتكلم فى ذلك اليوم بأمر الله، أم إن المقصود ظهور آثار أعمال الإنسان على ظهر الأرض؟ واضح أنّ كل عمل يقوم به الإنسان يترك آثاره حتما على ما حوله، و إن خفيت علينا هذه الآثار اليوم، تماما مثل آثار أصابع اليد التى تبقى على مقبض الباب، و فى ذلك اليوم تظهر كل هذه الآثار، و حديث الأرض ليس سوى هذا الظهور الكبير؛ تماما كما نقول لشخص نعسان: عينك تقول إنك كنت سهرانا أمس.

أى إن آثار السهر عليها واضحة.

و ليس هذا الموضوع بغريب اليوم بعد الاكتشافات العلميه و الاختراعات القادره فى كلّ مكان و فى لحظه أن تسجل صوت الإنسان و تصور أعماله و حركاته فى أشرطه يمكن طرحها فى المحكمه كوثائق إدانه لا تقبل الإنكار.

لو كانت شهاده الأرض فيما مضى عجيبه، فليست اليوم بعجيبه و نحن نرى شريطا رقيقا يمكن أن يكون بحجم أزرار اللباس قادرا على أن يحتفظ بكثير من الأعمال و الأقوال.

و

فى حديث عن على عليه السلام قال: «صلوا المساجد فى بقاع مختلفه، فإنّ كلّ بقعه تشهد للمصلّى عليها يوم القيامة» (٢).

و

عنه عليه السلام أيضا حينما كان يفرغ من تقسيم بيت المال يصلّى ركعتين و يقول:

«اشهدى أنّى ملأتك بحق و فرغتك بحق» (٣).

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا

(٤)

ص: ٣٧٨

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -لثالث الأخبار، ج ٥، ص ٧٩ (الطبعة الجديده).

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -الباء فى (بأنّ) للسببيه و اللام فى (لها) بمعنى إلى كما ورد فى قوله تعالى: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ (النحل، الآية ٦٨).

فما فعلته الأرض إنّما كان بوحى ربّها، وهى لا تتوانى فى تنفيذ أمر الرّب.

و عبارة «اوحى» إنّما هى لبيان أنّ حديث الأرض خلاف طبيعتها، ولا يتيسر ذلك سوى عن طريق الوحى الإلهى.

قيل: إنّ المقصود هو أنّ الله يوحى للأرض أن تخرج أنقالها.

و التفسير الأوّل أصح و أنسب، يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ.

«أشتات» جمع «شتّ» -على وزن شط- وهو المتفرق و المبعثر. أى إنّ الناس يردون ساحه المحشر متفرقين مبعثرين. و قد يكون التفرق و التبعض لورود أهل كلّ دين منفصلين عن الآخرين.

أو قد يكون لورود أهل كلّ نقطه من نقاط الأرض بشكل منفصل.

أو قد يكون لورود جماعه بأشكال جميله مستبشره، و جماعه بوجه عبوسه مكفهرة إلى المحشر.

أو إن كلّ أمه ترد مع إمامها و قائدها كما فى قوله تعالى: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ (١).

أو أنّ يحشر المؤمنون مع المؤمنين و الكافرون مع الكافرين.

الجمع بين هذه التفاسير ممكن تماما لأنّ مفهوم الآيه واسع.

«يصدر» من الصدور، و هو خروج الإبل من بركه الماء مجتمعه هائجه و عكسه الورود. و هى هنا كناية عن خروج الأقسام من القبور و ورودهم على المحشر للحساب.

و يحتمل أيضا أن يكون صدور الناس فى الآيه من المحشر و التوجه نحو مستقرهم فى الجنّه أو النار.

المعنى الأوّل أكثر تناسبا مع الآيات السابقه.

ص: ٣٧٩

المقصود من عبارته لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ هل هو: ليروا جزاء أعمالهم.

أو ليروا صحيفه أعمالهم و ما سجل فيها من حسنات و سيئات أو المشاهده الباطنيه،بمعنى المعرفه بكيفيه الأعمال.

أو أنها تعنى «تجسم الأعمال» و رؤيه الأعمال نفسها؟! التفسير الأخير أنسب مع ظاهر الآيه. و هذه الآيه أوضح الآيات الداله على تجسم الأعمال. حيث تتخذ الأعمال فى ذلك اليوم أشكالا تتناسب مع طبيعتها و تنتصب أمام صاحبها. و تكون رفقتها سرورا و انشراحا أو عذابا و بلاء.

ثم ينتقل الحديث إلى جزاء أعمال المجموعتين المؤمنه و الكافره، الصالحه و الطالحه.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

و هنا أيضا تفسيرات مختلفه لرؤيه الأعمال هل هى رؤيه جزاء الأعمال، أم صحيفه الأعمال، أو العمل نفسه.

ظاهر الآيه يدل أيضا على مسأله «تجسم الأعمال» و مشاهده العمل نفسه، صالحا أم سيئا، يوم القيامة. حتى إذا عمل ما وزنه ذره من الذرات يره مجسما يوم القيامة.

«مِثْقَال» فى اللغة بمعنى الثقل، و بمعنى الميزان الذى يقاس به الثقل و المعنى الأول هو المقصود فى الآيه.

و«الذره» ذكروا لها معانى متعدده من ذلك، النمله الصغيره، و الغبار الذى يلصق باليد عند وضعها على الأرض، و ذرات الغبار العالقه فى الجو التى تتضح عند ما تدخل حزمه ضوء من ثقب داخل غرفه مظلمه.

و الذره تطلق اليوم على أصغر جزء من أجزاء الماده و التى منها تصنع «القنبله الذريه»، مع احتفاظه بخواص الماده الأصلية. و لا ترى بأقوى المجاهر، و تشاهد

آثارها فقط، و تعرف خواصها بالمحاسبات العلميه..

مهما كان مفهوم الذره فهو هنا أصغر وزن.

هذه الآيه على أى حال تهزّ كيان الإنسان الواعى من الأعماق، و تشير إلى أنّ حساب الله فى ذلك اليوم دقيق و حساس للغاية. و ميزان أعمال الناس دقيق إلى درجه يحصى أقلّ أعمال الإنسان.

بحوث

اشاره

١- الدقه فى تحرى الأعمال

الآيتان المذكورتان و آيات اخرى مشابهه تدلّ دلالة واضحه على الدقه المتناهيه فى تحرى الأعمال و فى المحاسبه يوم القيامه، كقوله سبحانه: يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِعْرِهِ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١).

و«الخردل» بذر صغير جدًا لنبات معروف يضرب به المثل لصغره.

هذه التعابير القرآنيه تدلّ على أنّ أصغر الأعمال يحاسب عليها فى تلك المحاسبه الكبرى، و هذه الآيات تحذر أيضا من استصغار الذنوب الصغيره، أو التهاون فى أعمال الخير و الصغيره. فما يحاسب عليه الله سبحانه- مهما كان- ليس بقليل الأهميه.

لذلك قال بعض المفسرين إنّ هذه الآيات نزلت حين كان بعض الصحابه يتهاون فى إنفاق الأموال القليله، و كانوا يقولون: إنّ الأجر يتوقف على إنفاق ما نحبّ، و الأشياء الصغيره لا نجها. و هكذا كانوا يستهينون بالذنوب الصغيره.

ص: ٣٨١

فنزلت الآيات وحثتهم على فعل الخيرات مهما قلت و نهتهم عن الذنوب مهما صغرت.

٢- جواب على سؤال

يطرح هنا سؤال بشأن ما تحدثت عنه الآيات و هو أن الإنسان يرى كل أعماله صالحه أم طالحه، صغيره أم كبيره. فكيف ينسجم ذلك مع الآيات التي تطرح مفاهيم «الإحباط» و «التكفير» و «العفو» و «التوبه»؟ فأيات «الإحباط» تقرر أن بعض السيئات مثل الكفر يذهبن الحسنات: لئن أشركت ليحبطن عملك (١).

و آيات «التكفير» تقول: إن الحسنات يذهبن السيئات (٢) و آيات «العفو و التوبه» توضح محو الذنوب بتوبه العبد و عفو الرب.

فكيف تنسجم هذه المفاهيم مع رؤيه كل أعمال الخير و السوء؟ و الجواب: أن الآيات المذكوره أعلاه و التي تنص على رؤيه أعمال الخير و أعمال السوء يوم القيامه هو أصل كلى و قانون عام. و كل قانون قد يكون له استثناءات. و آيات العفو و التوبه و الإحباط و التكفير هي من هذه الاستثناءات.

و ثمّ به جواب آخر هو إنه في حاله الإحباط و التكفير تحدث في الواقع موازنه و كسر و انكسار تماما مثل «المطالبات» و «القروض» التي يقل بعضها على حساب بعض، و حينما يرى الإنسان نتيجة هذه الموازنه فإثما رأى في الواقع كل أعماله الصالحه و الطالحه. و مثل هذا يصدق أيضا على «العفو» و «التوبه» لأنّ العفو لا يتم دون لياقه، و التوبه هي بنفسها من الأعمال الصالحه.

بعضهم ذكر هنا جوابا لا يبدو صحيحا، و هو أن الكفار يرون نتيجة أعمالهم

ص: ٣٨٢

١-١ - الزمر، الآية ٦٥.

٢-٢ - هود، الآية ١١٤.

الصالحه فى هذه الدنيا، وهكذا المؤمنون ينالون جزاء أعمالهم السيئه فى هذا العالم.

و الظاهر أنّ الآيات التى نحن بصددّها ترتبط بالقيامه لا بالدنيا، أضف إلى ذلك ليست هناك قاعده كليه تقضى أن يرى كل مؤمن و كافر نتيجته أعماله فى هذه الدنيا.

٣- الآيه الجامعه

روى عن عبد الله بن مسعود قال: إنّ أحكم آيه فى القرآن: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**. و

كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يسميها «الجامعه» (١). و حقاً، لو تدبر الإنسان فى محتوى هذه الآيه تكفيه دافعا إلى طريق الخير و ناهيا عن طريق الفساد و الانحراف.

لذا ورد أنّ رجلا جاء النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قال له: علمنى ممّا علمك الله.

فأوكله النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلى أحد أصحابه ليعلمه القرآن، فعلمه: **إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ**. فنهض الرجل و قال: هذه تكفينى... و فى روايه قال:

تكفينى هذه الآيه.

عن زيد بن أسلم (رض) أنّ رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقال: علمنى ما علمك الله، فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن فعلمه إذا زلزلت الأرض حتى بلغ فمن يعمل إلخ... قال الرجل: حسبى. فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقال: «دعه فقد فقه الرجل» (٢) و

عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أنزلت هذه الآيه **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** قلت: يا رسول الله إئتى لراء عملى؟ قال: نعم.

قلت: الكبار الكبار. قال: نعم. قلت: الصغار الصغار. قال: نعم. قلت: وا ثكلى امى،

ص: ٣٨٣

١- (١) - نور الثقلين، ج ٥، ص ١٦٤.

٢- (٢) - تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٩٥.

قال: ابشر يا أبا سعيد فإنَّ الحسنه بعشر أمثالها يعنى إلى سبعمائه ضعف، و الله يضاعف لمن يشاء و السيئه بمثلها أو يعفو الله، و لن ينجو أحد بعمله. قلت: و لا أنت يا نبى الله؟ قال: و لا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بالرحمه (١).

ربنا! عند ما لا يكون فى ذلك اليوم لرسولك العظيم ملاذ سوى عفو ك و رحمتك، فكيف بنا و كيف حالنا...

إلهنا! إذا كانت أعمالنا هى الأصل فى نجاتنا فالويل لنا، و إن اسعفنا كرمك فهنيئا لنا..

اللهم! ليس لنا فى ذلك اليوم الذى تتجسد فيه الأعمال صغيرها و كبيرها إلا لطفك العيم و رحمتك الواسعه.

آمين يا رب العالمين نهايه سوره الزلزله

ص: ٣٨٤

١- (١) - الدر المنثور، ج ٨، ص ٥٩٤

سوره العاديات

اشاره

مدتيه و عدد آياتها إحدى عشره آيه

ص: ٣٨٥

محتوى السوره:

اختلف المفسرون كثيرا فى مكان نزول هذه السوره، كثير منهم اعتبرها مكّيه، و جمع منهم قال إنّها مدنيه.

قصر مقاطع الآيات، و استنادها إلى القسم، و تناولها موضوع المعاد قرائن تدل على مكيتها.

لكن مضمون القسم فى السوره و ارتباطه بمسائل الجهاد- كما سيتضح - و هكذا الزوايه القائله بنزول هذه السوره بعد غزوه (ذات السلاسل) (1) دلائل على مدنيه السوره. حتى لو فسرنا مضمون القسم فى السوره بحركه الحجاج نحو منى و المشعر فهو دليل على أنّها مدنيه أيضا.

صحيح أن مراسم الحج بأكثر مناسكه كانت شائعه بين عرب الجاهليه بتأثير من سنه إبراهيم. لكنّها كانت ممزوجه بالخرافات ممّا يجعل قسم القرآن بها مستبعدا.

من مجموع كل ذلك نرجح أن تكون السوره مدنيه.

ممّا تقدم يتّضح أيضا محتوى السوره، فهى تبدأ بالقسم بأمر محفّزه محرّكه.

ثمّ تتناول بعض مظاهر الضعف البشرى كالكفر و البخل و حب الدّنيا. ثمّ تشير السوره إشاره قصيره معبّره إلى مسأله المعاد و إحاطه الله بعباده.

ص: ٣٨٧

١- ١) -واقعه حدثت فى السنه الثامنه للهجره، و فيها أسر عدد كبير من الكفار، فشدوا بالحبال مكبلين و لذا سميت الواقعه بذات السلاسل، و سيأتى شرحها فى الآيات.

فضيله السوره:

ورد في فضيله هذه السوره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد من بات بالمزدلفه، وشهد جمعا» (١).

و

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «من قرأ والعاديات و آدم من قراءتها بعثه الله مع أمير المؤمنين يوم القيامة خاصه، وكان في حجره ورفقائه» (٢).

و في بعض الروايات أن سوره «والعاديات» تعادل نصف القرآن (٣).

و من الواضح أن كل هذه الفضيله إنما هي نصيب من جعل السوره منهاجا لحياته و آمن بكل محتواها و عمل بها.

ص: ٣٨٨

١-١) - «جمع» من اسماء المشعر الحرام، لاجتماع الناس فيه، أو لجمع صلاه المغرب و العشاء فيه.

٢-٢) - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٧.

٣-٣) - الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٨٣.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥)
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَلًا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ
مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

سبب النزول

روى أن هذه السورة نزلت بعد واقعه ذات السلاسل و كانت الحادثة على النحو التالي:

في السنة الثامنة للهجرة بلغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نبأ تجمّع اثني عشر ألف راكب في أرض «يابس» تعاهدوا على أن لا يقرّ لهم قرار حتى يقتلوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و عليًا عليه السلام و يببداوا الجماعة المسلمة.

و بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم جمعا من أصحابه إليهم فكلّموهم، و لكن دون جدوى.

فأرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليًا عليه السلام مع جمع غفير من المهاجرين و الأنصار

لمحاربتهم. فحثوا الخطى إلى منطق العدو و طووا الطريق في الليل، فحاصروا العدو، و عرضوا عليهم الإسلام أولاً، و حين أبوا شنوا هجومهم و الجوّ لَمَّا يزل في ظلام، و دحروهم، فقتلوا جماعه و أسروا النساء و الأطفال و غنموا أموالاً كثيره.

و نزلت سوره «و العاديات»، و جيوش الإسلام لم تصل إلى المدينه بعد، و في ذات اليوم صلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالناس الغداه و قرأ «و العاديات»، فلما فرغ من صلاته قال أصحابه هذه سوره لم نعرفها،

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: «نعم إن علياً ظفر بأعداء الله و بشرنى بذلك جبرائيل عليه السلام في هذه الليله. فقدم على بعد أيام بالغنائم و الأسارى (١) .

و قيل: إن هذه الواقعة من المصاديق البارزه للآيه و ليست سبباً لتزولها.

التفسير

إشاره

قسماً بالمجاهدين الواعين:

قلنا إن هذه السوره تبدأ بالقسم بأمر محفزه متبته. تقسم أولاً بالخيل الجاربه المندفعه (إلى ميدان الجهاد) و هى تحمحم و تتنفس بشده:

وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا

(٢) .

و يمكن أن يكون القسم هذا بإبل الحجاج المتجهه من عرفات إلى المشعر الحرام، و من المشعر الحرام إلى منى و هى تتنفس بشده.

«العاديات» جمع عاديه، من «العدو»، و هو المغادره و الابتعاد بالقلب.

فتكون «العداوه» أو بالحركه الخارجيه فيكون (العدو) و هو الركض، أو بالمعاملات فيسمى (العدوان). و «العاديات» فى الآيه هى الجاريات بسرعه،

ص: ٣٩٠

١- ١) -بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٦٦ و ما بعدها. و «مجمع البيان» ج ١٠، ص ٥٢٨. و بعض كتب التاريخ الأخرى.

٢- ٢) -القاعده أن تكون: و العاديات عدوا، و لكن «الضبح» لملازمته العدو ناب عنه، فكانت و العاديات ضبحاً. و قيل إن ضبحاً مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: و العاديات يضحن ضبحاً.

«الضبيح» صوت الخيل و هي تتنفس بشده عند الجرى.

كما ذكرنا من قبل لهذه الآيه تفسيران:

الأول: أنّ المقسوم به فى الآيه الخيل السريعه الجرى نحو ميدان الجهاد.

و لما كان الجهاد أمرا مقدسا، فهذه الحيوانات فى جريها فى هذا المسير المقدس تنال من المكانه و اللياقه ما تستحق أن يقسم بها.

الثانى: أنّ المقسوم به الإبل الجاربه فى موسم الحج بين المواقف المشرفه و هي تنقل الحجاج. لذلك كانت ذا قداسه تستحق القسم بها.

روى عن ابن عباس قال: بينما أنا جالس فى حجر إسماعيل إذ أتانى رجل فسأل عن «العاديات ضبيحا» فقلت له: الخيل حين تغير فى سبيل الله ثم تأوى إلى الليل فيصنعون طعامهم و يورون نارهم. فانفتل عنى و ذهب إلى على بن أبى طالب عليه السلام و هو تحت سقايه زمزم. فسأله عن العاديات ضبيحا، فقال: سألت عنها أحدا قبلى؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس فقال: الخيل حين تغير فى سبيل الله.

قال: فاذهب فادعه لى فلما وقف على رأسه قال: تفتى الناس بما لا علم لك به؟! و الله إن كانت لأول غزوه فى الإسلام بدر، و ما كانت معنا إلا فرسان. فرس للزبير و فرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات الخيل، بل العاديات ضبيحا الإبل من عرفه إلى مزدلفه و من مزدلفه إلى منى. قال ابن عباس فرغت عن قولى و رجعت إلى الذى قاله على عليه السلام. (1)

و يحتمل أيضا أن يكون «العاديات» هنا معنى واسع يشمل خيول المجاهدين و إبل الحجاج. و يكون معنى روايه ابن عباس أنه لا ينحصر المعنى بالخيول إذ لا يصدق هذا المعنى فى كل مكان. و من مصاديقه هو إبل الحجاج.

هذا التفسير أنسب من عدّه جهات.

ص: ٣٩١

ثم يأتي القسم التالي بهذه العاديات التي توري النيران بحوافرها:

فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا

و هي خيل المجاهدين التي تجرى بسرعه فائقه في ميدان القتال، بحيث تنقذ النار من تحت أرجلها جزاء احتكاك حوافرها بصخور الأرض.

أو هي الإبل التي تجرى بين مواقف الحج، فتطير الحصى و الحجاره من تحت أرجلها و ترتطم بحصى و حجاره أخرى فتقذح النيران.

أو مجاميع الحجيج التي توري النار في المواقف للطعام.

أو كناية عن الذين يضرمون نيران الحرب و الجهاد.

أو الألسن التي تشعل النار في قلب الأعداء ببيانها القامع.

أو إنها- كما يقول بعض المفسرين- المجموعه الساعيه في رفع حاجات الناس، مؤديه أهدافها. و يقال للمنجح في حاجته: وري زنده.

ظاهر الآيه يؤيد التفسيرين الأولين، و بقيه التفاسير يبدو أنها بعيدة.

«الموريات» جمع «موريه»، و الإبراء يعنى إضرار النار، و «القذح» ضرب الحجاره أو الخشب أو الحديد بما يشبهه لتوليد النار.

و القسم الثالث بالتي تغير صباحا على الأعداء:

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا

و كانت العرب- كما يقول الطبرسى في مجمع البيان- تقترب ليلا من منطقه العدو و تكمن له، و تشن غارتها في الصباح.

و في سبب نزول الآيه (أو أحد مصاديقها الواضحه) رأينا أن جيوش المسلمين بقياده على عليه السلام استفادت من ظلام الليل، و اتجهت نحو معسكر الأعداء، و كمنت له، ثم شنت غارتها في الصباح كالصاعقه. و دحرت العدو قبل أن يبدى مقاومه.

و لو اعتبرنا القسم بإبل الحجاج، فالمغيرات في الآيه هي قوافل الإبل في

صباح العيد من المشعر إلى منى.

«المغيرات» جمع «مغيره». والإغاره: الهجوم على العدو، وقيل إن الكلمة تتضمن معنى الهجوم بالخييل، ولكن موارد استعمالها يبين أن هذا القيد - إن كان موجوداً في الأصل - فقد حذف بالتدريج.

وما أورده بعضهم من احتمال أن تكون «المغيرات» هي القبائل المهاجمة المتجهه إلى ميدان القتال، أو المسرعه إلى منى، فبعيد، لأن الآيه: وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا هي بالتأكيد وصف للخييل أو الإبل، لا أصحابها. وهذه الآيه استمرار لتلك.

ثم تشير الآيه التاليه إلى سرعه هذه العاديات في هجومها، وذلك بإثارها الغبار في كل جانب:

فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا

(١)

أو أن الغبار يثور من كل صوب نتيجة هجوم إبل الحجاج من المشعر الحرام على منى.

«أثرن» من الإثارة، وهي نشر الغبار و الدخان في الجو. وقد تأتي بمعنى الهياج، أو انتشار أمواج الصوت في الفضاء.

«النقع» هو الغبار، وأصل الكلمة انغماس الماء أو الانغماس في الماء و الانغماس في التراب يشبهه، ولذلك اتخذ نفس الاسم. و«النقع» الماء الراكد.

و في آخر خصائص هذه «المغيرات» تذكر الآيه أنها ظهرت بين الإعداء في الفجر:

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا

(٢)

هجومها كان مباغتاً خاطفا بحيث استطاعت خلال لحظات أن تشق صفوف

ص: ٣٩٣

١ - ١) - الضمير في (به) يعود إلى العدو المذكور في (و العاديات ضبحا) فهي باء السببيه، أى بسبب هذا العدو يثور الغبار و يملأ الجو، و احتمال بعضهم أن يكون مرجع الضمير زمان أو مكان ذلك الهجوم. و تكون الباء عندئذ ظرفيه. و الصحيح المعنى الأول.

٢ - ٢) - مرجع الضمير في (به) و معنى الباء هو نفسه الذى ذكرناه في الآيه السابقه.

العدوّ و تشن حملتها فى قلبه، و تشتت جمعه. و هذا نتيجة ما تتحلّى به من سرعه و يقظه و استعداد و شهامه و شجاعه.

أو إنّها إشاره إلى ورود الحجاج من المشعر إلى قلب منى.

و قيل إنّ المقصود محاصره الأعداء. و هذا يصحّ لو كان الفعل «فوسّطن» بتشديد السين، و القراءه المشهوره ليست كذلك. فالصحيح هو المعنى الأوّل.

نستخلص ممّا سبق أن القسم فى الآيات بهذه الخيول التى هى أوّلا تسرع إلى ميدان الجهاد بنفس شديد، ثمّ تزيد سرعتها حتى يتطير الشرر من تحت حوافرها فيشقّ عتمه الليل... و بعدها تقترب من منطقه العدو، فتباغته، و عند انبلاج عتمه الليل تشنّ هجوما شديدا يثير الغبار فى كل جانب، ثمّ تتوغل إلى قلب العدو و تشتت صفوفه.

القسم إذن- بهذه الخيول المقتدره!... بفرسانها الشجعان!... بأنفاس مركب المجاهدين!... بشرارات النيران المتطايره من تحت حوافرها!... بذلك الهجوم المباغت!... بذرات الغبار المنتشره فى الفضاء!... بدخولها قلب صفوف الأعداء و تحقيق النصر الحاسم عليهم! هذه التعابير- وإن لم ترد كلها صراحه فى الآيات- فهى مجموعه كلها فى الدلالات الضمنيه للكلام.

من هنا يتّضح أن الجهاد له منزله عظيمه حتى أن أنفاس خيل المجاهدين استحققت أن يقسم بها... و هكذا الشرر المتطاير من حوافر هذه الخيول... و الغبار الذى تثيره فى الجو... نعم حتى غبار ساحه الجهاد له قيمه و عظمه.

و قيل: أنّ المقصود بهذه الأقسام قد يكون النفوس التى تستطيع أن تنقل كمالها إلى الآخرين، و تقدح شراره العلم بأفكارها، و تهجم على أهوائها النفسيه، و تثير الشوق الإلهى فى نفسها و نفوس الآخرين، و تستقر أخيرا فى قلب سكنه

واضح أن هذا لا يمكن أن يعتبر تفسيراً للآيات، بل هو تشبيهات تخطر في ذهن لمناسبه تفسير الآية.

ثم يأتي جواب القسم، ويقول سبحانه:

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ

نعم، الإنسان البعيد عن التريه الصحيحه...و الذى لم تشرق فى قلبه أنوار المعارف الإلهيه و تعاليم الأنبياء...الإنسان الخاضع لأهوائه و شهواته الجامحه هو حتما كفور بالنعمة و بخيل...إنه لكنود.

و«كنود» اسم للأرض التى لا تنبت، و تطلق على الإنسان الكفور و البخيل أيضا.

المفسّرون ذكر و الكلمه «كنود» معانى كثيره، منهم «أبو الفتوح الرازى» نقل ما يقارب من خمس عشر معنى، و لكنّها غالبا فروع للمعنى الأصلي الذى ذكرناه، من ذلك:

١-الكنود، الذى يهوّل من مصائبه و ينسى النعم.

٢-هو الذى يأكل نعم الله وحده، و يمنعها عن الآخرين.

ورد عن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: أ تدرّون من الكنود؟ قيل: الله و رسوله أعلم. قال: الكنود الذى يأكل وحده و يمنع رفته، و يضرب عبده (٢).

٣-الكنود، الذى لا يواسى اخوته فى مشاكلهم و مصائبهم.

٤-من كان خيره شحيح.

٥-من يمنع نعمته عن الآخرين و يجزع فى المشاكل و المصائب.

٦-من ينفق النعم الإلهيه فى المعاصى.

ص: ٣٩٥

١-١) -تفسير البيضاوى، ص ٤٦٥.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٣٠.

٧- من ينكر نعمه الله.

و هذه المعانى - كما ذكرنا - مصاديق و تفريعات لمعنى الكفران و البخل.

كلمه (الإنسان) فى مثل هذه الاستعمالات القرآنيه تعنى الأفراد المتطبعين على الشر و الشهوات الجامحه و الطغيان، و قيل: إنه الإنسان الكافر.

فهذه الصفه لا- يمكن إطلاقها على مطلق الإنسان. فتمه أفراد ليسوا بقليلين من امتزج الشكر و العطاء بدمائهم، و رفضوا البخل و الكفران، و استطاعوا بفضل الإيمان بالله أن يتحرروا من الذاتيه و الأهواء الدينئه و يحلقوا فى أجواء معرفه اسماء الله و صفاته و التخلق بالأخلاق الإلهيه.

وَ إِنَّهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ لَشَهِيدٌ

فهو بصير بنفسه، و أن استطاع أن يخفى سريره فلا يستطيع أن يخفيها عن الله و عن ضميره، اعتراف بهذه الحقيقه أم لم يعترف.

قيل: إن الضمير فى (إنه) يعود إلى الله، أى إن الله شهيد على وجود صفه الكنود فى الإنسان.

و لكن الآيات السابقه و اللاحقه تحمل ضمائر تعود على الإنسان. و بدأ نستبعد هذا الاحتمال، و إن رجحه كثير من المفسرين.

و احتمال بعضهم أن يكون المعنى شهاده الإنسان على عيوبه و ذنوبه يوم القيامه كما ورد فى مواضع متعدده من القرآن.

و هذا التفسير لا يقوم على دليل، لأن مفهوم الآيه واسع يشغل شهاده الإنسان على كنوده فى هذه الدنيا أيضا.

صحيح أن الإنسان يعجز أحيانا عن معرفه نفسه، و بذلك يخدع ضميره، و تصبح الصفات الذميه - بتسويل الشيطان و تزيينه - حسنه ممدوحه لديه. و لكن صفه الكنود و هى الكفران و البخل واضحه إلى درجه لا يستطيع أن يخدع ضميره و أن يغطى عليها.

ص: ٣٩٦

أى إنه شديد الحب للمال و المتاع. (١)

و هذا الانشداد المفرط بالمال و الثروه هو سبب هذا البخل و الكفران.

كلمه (الخير) لها معنى واسع يشمل كل نعمه. كثير من النعم مثل العلم و المعرفه و التقوى و الجنه و السعاده ليست مذمومه، و لا ينكر عليها القرآن. لذلك فسر الخير فى الآيه بأنه (المال). يدل على ذلك قرينه المقام و الآيه السابقه، و آيات أخرى كقوله سبحانه: كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ (٢).

إطلاق «الخير» على المال فى الآيه يعود إلى أن المال فى حد ذاته شىء حسن، و يستطيع أن يكون وسيله لأنواع الخيرات. لكن الإنسان الكنود يصرفه عن هدفه الأصلى، و ينفقه فى طريق ذاتياته و أهوائه.

و فى استفهام استنكارى يقول سبحانه:

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ

وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ

و انكشف ما فى نفسه من كفر و ايمان، و رياء و إخلاص و غرور و تواضع و سائر نيات الخير و الشر.

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ

نعم، فهو عليهم أعمالهم و نياتهم و سيجازيهم وفقها.

«بعثر» من «البعثره» و هى البعث و الإثارة و الإخراج و بعثره ما فى القبور:

بعث الموتى و إخراجهم من القبور.

«ما» اسم موصول لغير العاقل عاده، و إنما قال سبحانه:

للتعليل يكون المعنى: إنَّ الإنسان بسبب حُبِّه للمال بخيل. و الأول أنسب.

٢-٢) - البقره، الآيه ١٨٠.

إِذَا لَكُنَّ الْأَفْرَادَ أَمْوَاتًا، أَوْ لِأَتَمِّهِمْ لَا يَزَالُونَ فِي حَالِهِمْ بِالنِّسْبَةِ لِهَوِيَّتِهِمْ.

والتعبير بالقبور لا- يتنافى مع عدم وجود قبر لبعض الأفراد، كالذين يغرقون في البحر، أو المندرسه قبورهم، و المتفرق تراب رفاتهم. لأن أغلب الناس لهم قبور، أضف إلى ذلك أن القبر يمكن أن يكون له معنى واسع يشمل كل محل فيه تراب جسد الإنسان، وإن لم يكن بشكل قبر اعتيادي.

«حَصِيل» من التحصيل، وهو في الأصل يعنى إخراج اللب من القشر، وكذلك تصفيه المعادن، واستخراج الذهب و أمثاله من الخامات. ثم استعملت لمطلق الاستخراج و الفصل. و الكلمه فى الآيه تعنى فصل الخير عن الشر فى القلوب...

الإيمان عن الكفر، أو الصفات الحسنه عن الصفات السيئه... أو النوايا الحسنه عن الخبيثه... تفصل فى ذلك اليوم و تظهر، و ينال كل فرد حسب ذلك جزاؤه. كما قال سبحانه فى موضع آخر: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (١).

و التعبير بكلمه «يومئذ» يعنى أن الله (فى ذلك اليوم) خير بأعمال العباد و سرائرهم.

و نعلم أن الله سبحانه عليم دائما بذات الصدور. فالتعبير «يومئذ» هو لأن ذلك اليوم يوم الجزاء، و الله يجازيهم على أعمالهم و عقائدهم.

هذا التعبير - كما قال بعض المفسرين - يشبه قول الذى يهدد شخصا فيقول:

سأعرف ماذا دهاك، فهو يعرف أمره الآن أيضا، و القصد أنه سيريه نتيجة ذلك.

نعم، الله سبحانه عليم و خير بأسرارنا و ما تنطوى عليه نفوسنا كاملا. لكن أثر هذا العلم سيكون أظهر و أوضح عند الجزاء. و هذا التحذير لو دخل دائره إيمان البشر لكان سدا منيعا بينهم و بين الذنوب العلنيه و الخفيه، و الخارجيه و الباطنيه،

ص: ٣٩٨

و لا يخفى على أحد ما لهذا الإعتقاد من آثار تربويه.

مسائل:

اشاره

١-ارتباط قسم هذه السوره بأهدافها

من الأسئلة التي تطرح حول هذه السوره سؤال حول الارتباط بين ما في هذه السوره من قسم بخيول المجاهدين، وقوله سبحانه: «إن الإنسان لربه لكنود».

فمواضع القسم في القرآن يشاهد فيها ارتباط بين القسم و المقسم به.

و فصاحه القرآن و بلاغته تقتضى ذلك.

قد يكون الارتباط في هذه السوره أن القرآن يقول: ثمه أفراد من بنى الإنسان يضخون على طريق الجهاد و يبذلون النفس و النفيس في سبيل الله، فكيف و الحال هذه يستولى على بعض الناس البخل و الكفران، فلا يؤدّون فريضه شكر النعم و لا يبذلون في سبيل الله؟! صحيح أن القسم فى الآيات بالخيل، لكن الخيل إنّما اكتسبت أهميتها لأنها مركب المجاهدين. فالقسم إذن بجهاد المجاهدين. (و هكذا الأمر إذا كان القسم بإبل الحجاج).

و قيل أيضا أن الارتباط المذكور يحصل بأن هذه الحيوانات تجرى على طريق رضا الله، فلما ذا لا تخضع أنت أيها الإنسان له، و أنت أشرف المخلوقات و أحق من غيرك؟! و المناسبه الأولى أوضح.

٢-هل الإنسان كنود بطبيعته؟

قد يستفاد من قوله سبحانه: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ أن البخل و الكفران

صفه لازمه لطبيعته الإنسان، فكيف يتناسب هذا مع ما يمتلكه الإنسان من ضمير يقظ و شعور فطري يدعو إلى شكر المنعم و إلى التضحيه؟ مثل هذا السؤال يطرح فى المواضع التى تتحدث عن صفه بارزه من صفات الضعف الإنسانى كقوله سبحانه عن الإنسان بأنه ظلوم و جهول (١) و إنه هلوع (٢) و إنه يؤوس و كفور (٣) و إنه ليطنى (٤).

فهل نقاط الضعف هذه قائمه فى طبيعته الكائن البشرى؟ كيف يمكن أن يكون هذا و القرآن يقول: **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْنَا هُمْ فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٥)** جواب هذا السؤال يتضح لو عرفنا أن الإنسان له بعدان وجوديان. و لذلك يستطيع فى منحناه الصعودى أن يرتقى إلى أعلى عليين، و فى منحناه النزولى إلى أسفل سافلين.

إذا خضع للتربيه الإلهيه و استلهم نداء العقل، و بنى نفسه كان مصداقاً لقوله سبحانه: **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً .**

و إذا أعرض عن الإيمان و التقوى، و خرج عن خط أولياء الله كان موجوداً ظلوماً كفاراً و يؤوساً و كفوراً و هلوعاً و كنوداً.

من هنا فلا تناقض بين هذه الآيات، و كل منها يشير إلى واحد من بعدى وجود الإنسان.

نعم، فى داخل فطره الإنسان تمتد جذور كل الحسنات و المفاهيم و الفضائل، كما إن فيه استعداداً لما يقابل هذه الفضائل.

ص: ٤٠٠

- ١-١) - الأحزاب، الآية ٧٢.
- ٢-٢) - المعارج، الآية ١٩.
- ٣-٣) - هود، الآية ٩.
- ٤-٤) - العلق، الآية ٦.
- ٥-٥) - الإسراء، الآية ٧٠.

و لذلك لا يوجد فى عالم الخلقه موجود يفصل بين قوسه الصعودى و قوسه النزولى هذا القدر من البون الشاسع.(تأمل بدقه).

٣-عظمه الجهاد

القرآن تعرض للحديث عن مسأله الجهاد و عظمه المجاهدين فى سبيل الله فى مواضع عديده.و لكن الحديث فى هذه السوره فريد فى تعظيمه للجهاد إذ عدّ حتى أنفاس خيل المجاهدين و شرر حوافرها و الغبار الذى تثيره عظيمه استحققت أن يقسم بها. و ركزت الآيات بشكل خاص على السرعة و العمل الخاطف للمجاهدين باعتباره أحد عوامل النصر فى الحروب،و على المباغته باعتبارها عاملا آخر من عوامل الإنتصار فى الحرب.

و كلّ هذه تعاليم فى منهج الجهاد.

و يلفت النظر فى سبب نزول الآيه أنّ عليّا عليه السّلام أمر أن تسرج الخيل فى ظلام الليل و أن تعدّ إعدادا كاملا،و حينما انفلق الفجر و زالت العتمه صلى بالنّاس الصبح،و شنّ هجومه مباشره،و ما أن انتبه العدوّ حتى وجد نفسه تحت وطأه خيل جيش الإسلام.

هذه الحمله السريعه المباغته جعلت إصابات المسلمين أقلّ ما يمكن، و حسمت الحرب خلال ساعات،و هذه المسائل انعكست جميعا فى آيات هذه السوره بشكل دقيق رائع.

واضح أنّ محور التكريم فى هذه السّوره ليس الخيل أو شراره حوافرها أو الغبار المتصاعد من تحت أرجلها بل هو «الجهاد»،ثمّ «عدّته»التي تشمل كلّ أنواع أجهزه الحرب فى أى زمان...تشمل كلّ أنواع «القوّه»المذكوره بشكل عام مطلق إلى جانب ذكر «رباط الخيل»فى الآيه (٦٠)من سوره الأنفال.

رَبَّنَا! وَفَقْنَا لِلجِهَادِ وَ التَّضَحِيهِ فِي سَبِيلِ رِضَاكَ.

إِهْنَا! النَّفْسَ الْجَامِحَةَ تَجْنَحُ إِلَى الْكُفْرَانِ... فَاحْفَظْنَا مِنْ أخطَارِهَا.

اللَّهُمَّ! أَنْتَ عَلِيمٌ بِسِرَاتِنَا وَ خَيْرٌ بِأَعْمَالِنَا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ فَارْفُقْ بِنَا بِلَطْفِكَ وَ فَضْلِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ نَهَايَهُ سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

ص: ٤٠٢

سوره القارعه

اشاره

مكيه و عدد آياتها إحدى عشره آيه

ص: ۴۰۳

محتوى السّوره:

تتناول هذه السّوره بشكل عام المعاد، و مقدماته، بتعابير حادّه، و بيان مؤثر، و إنذار صريح و واضح، حيث تصنّف النّاس يوم القيامة، إلى صنفين أو جماعتين:

الجماعه التي تكون أعمالها ثقيله في ميزان العدل الإلهي، فتحظى جزاء بذلك، حياها راضيه سعيده في جوار الرحمه الإلهيه، و جماعه أعمالها خفيفه الوزن، فتعيش في نار جهنم الحارّه المحرقه.

و قد اشتقّ اسم هذه السّوره، أي (القارعه) من الآيه الاولى فيها.

فضيله السّوره:

يكفى في فضيله هذه السّوره أن نقرأ الحديث الشريف

المروى عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من قرأ القارعه آمنه الله من فتنه الدّجال أن يؤمن به، و من قيح جهنم يوم القيامة إن شاء الله» (١).

ص: ٤٠٥

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاغِبٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَةٌ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

التفسير

اشاره

الحادثه القارعه:

هذه الآيات تصف القيامة و تقول:

الْقَارِعَةُ... مَا الْقَارِعَةُ

!؟ «القارعه» من القرع، و هو طرق الشيء بالشيء مع إحداث صوت شديد.

و سميت العصا و المطرقة بالمقرعه لهذه المناسبه. بل سميت كل حادثه هامه صعبه بالقارعه. (تاء التانيث قد تكون إشاره للتأكيد).

الآيه الثالثه تخاطب حتى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تقول له: وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ

و هذا يدل على أنّ عظمه هذه الحادته القارعه إلى درجه لا تخطر على فكر أحد.

على أى حال، أكثر المفسرين ذكروا أنّ «القارعه» أحد أسماء القيامة، و لكن لم يوضحوا هل أنه اسم لمقدمات القيامة إذ تفرع هذه الدنيا، و ينطفئ نور الشمس و القمر، و تغور البحار، إذا كانت القارعه هذه فوجه تسميتها واضح.

أو إنّ اسم للمرحله التاليه.. أى مرحله احياء الموتى، و ظهور عالم جديد، و تسميتها «القارعه»- فى هذه الحاله- لما تبعته من خوف و ذعر فى القلوب..

الآيات التاليه بعضها يتناسب مع حادته انهدام العالم، و بعضها مع إحياء الموتى، و لكن الاحتمال الأول أنسب، و إن ذكرت الحادثتان كلاهما فى هذه الآيات متتابعين. (مثل كثير من المواضع القرآنيه الاخرى التى تخبر عن يوم القيامة) و فى وصف ذلك اليوم العجيب يقول سبحانه:

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ

«الفراش» جمع فراشه، و هى الحشره المعروفه ذات الألوان الزاهيه، و قيل إنّها الجراد. و يبدو أنّ هذا المعنى مستلهم من قوله تعالى حيث يصف الناس يوم القيامة كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (١)، لكن المعنى اللغوى للكلمه هو الحشره المعروفه.

و التشبيه بالفراش قد يكون لأن هذه الحشرات تلقى بنفسها بشكل جنونى فى النار، و هذا ما يفعله أهل السيئات إذ يلقون بأنفسهم فى جهنم.

و يحتمل أن يكون التشبيه لما يصيب جميع الناس فى ذلك اليوم من حيره.

و إن كان الفراش بمعنى الجراد فوجه التشبيه هو إنّ الجراد-خلافًا لكل الحيوانات التى تطير بشكل جماعى- ليس لها مسير مشخص فى حركتها، و كل

ص: ٤٠٧

منها يطير في اتجاه.

و يطرح هنا السؤال أيضا بشأن مشاهد الحيره و التشتت و الفزع و الاضطراب، هل هي من أثر الحوادث المرعبه المرافقه لنهايه العالم، أم حوادث بدء القيامة و الحشر و النشر؟ جواب السؤال يتضح ممّا ذكرناه أعلاه.

ثمّ تذكر الآيه التاليه وصفا آخر لذلك اليوم و تقول:

وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

و«العهن» هو الصوف المصبوغ.

و«المنفوش» هو المنشور و يتم ذلك عادة بآله الحلج الخاصه.

سبق أن ذكرنا أنّ القرآن الكريم في مواضع متعدده يتحدث عن الجبال عند قيام القيامة بأنّها تتحرك أولاً، ثمّ تدكّ و تتلاشى و أخيراً تصبح بشكل غبار متطاير في السماء. و هذه الحاله الأخيره تشبهها الآيه بالصوف الملون المحلوج...

الصوف المتطاير في مهبّ الريح، لم يبق منه إلا ألوان... و هذه آخر مراحل انهدام الجبال.

هذا التعبير (العهن المنفوش) قد يكون إشاره إلى الألوان المختلفه للجبال، فإنّ لها ألوان شتى.

هذه العبارة تدل على أنّ الآيات أعلاه، تتحدث عن المرحله الاولى للقيامة و هي مرحله العالم و نهايته. ثمّ تتطرق الآيات التاليه إلى الحشر و النشر و إحياء الموتى و تقسيمهم إلى مجموعتين:

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

أى إن ميزان عمله ثقيل.

فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاغِبٌ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١) نَارٌ حَامِيَةٌ

ص: ٤٠٨

«موازين» جمع ميزان، وهو وسيله للوزن، تستعمل فى وزن الأجسام، ثم استعملت فى المعايير المعنويه.

و ذهب بعضهم إلى أنّ أعمال الإنسان تتجسم فى ذلك اليوم، و تصبح قابله للوزن، و توزن حقيقه بميزان الأعمال.

و قيل أيضا أنّ صحيفه أعمال الفرد هى التى توزن، فإن كانت تحمل صالحا ثقلت، و إلاّ خفت أو انعدم وزنها.

و فى الواقع، ليس من الضرورى أن يكون الميزان هو الآله المعروفه ذات الكفتين، بل هو كلّ وسيله لتقويم الوزن، كما

ورد فى الحديث: «إنّ أمير المؤمنين و الأئمّه من ذريّته عليهم السّلام هم الموازين» (١).

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام حين سئل عن معنى الميزان قال: «الميزان العدل» (٢).

و بهذا نفهم أنّ أولياء الله و قوانين العدل الإلهى هى موازين يعرض عليها الناس و أعمالهم و يتمّ قياس الوزن على مقدار الشبهه و المطابقه.

واضح أنّ المقصود بثقل الموازين و خفتها هو ثقل الأشياء التى توزن بها و خفه تلك الأشياء.

و التعبير بكلمه (موازين) بصيغه الجمع يعود إلى أن كل واحد من أولياء الله و كل قانون من القوانين الإلهيه إنّما هو ميزان. أضف إلى ذلك أن تنوع مواصفات الكائن البشرى و أعماله يحتاج إلى تنوع فى الموازين.

الراغب فى المفردات يقول:

و ذكر فى مواضع الميزان بلفظ الواحد اعتبارا بالمحاسب (بكسر السين) و فى

ص: ٤٠٩

١-١) -بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥١.

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥.

مواضع الجمع اعتبارا بالمحاسين (١) (بفتح السين).

بعض المفسرين قال: إنّ الموازين جمع الموزون، أى العمل الذى يوزن فتقل الموازين و خفتها إذن هو ثقل نفس الأعمال و خفتها. لا ثقل الميزان و خفته (٢).

نتيجة الإثنيين طبعاً واحده، و لكن من طريقتين مختلفين.

فى هذا الموضوع شرح أكثر فصلناه فى تفسير الآيتين ٨ و ٩ من سورة الأعراف، و الآيه (١٠٥) من سورة الكهف، و الآيه (١٠٢) من سورة المؤمنون.

وصف العيشه بأنها «راضيه» وصف رائع عن حياه ملؤها النعمه و رغد العيش لأهل الجنّه فى القيامه. الرضا فى تلك الحياه عميق إلى درجه قال إنّها «عيشه راضيه»، و لم يقل «مرضيه». أى استعمل بدل اسم المفعول اسم الفاعل لمزيد من التأكيد (٣).

هذه ميزه الحياه الآخره بشكل خاص. لأنّ الحياه الدنيا- مهمما كان فيها من رفاه و نعمه و رغد عيش و رضا- لا تخلو من المكدرات. الحياه الأخرى هى وحدها المليئه بالرضا و الأمن و السلام و هدوء البال.

كلمه «أم» فى قوله: فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ تعنى المأوى و الملجأ، لأنّ «أم» هى مأوى ابنائها و ملاذهم، و يكون معنى الآيه: إنّ هؤلاء المذنبين الذين خفت موازينهم لا ملاذ لهم سوى جهنم، و ويل لمن كان ملجؤه جهنم.

و قيل: «أم» تعنى «الدماغ»، لأنّ العرب تطلق على الدماغ اسم «أم الرأس» و يكون معنى الآيه أنّ رؤوس هؤلاء هاويه فى جهنم، بعبارة اخرى إنّ هؤلاء يلقون على رؤوسهم فى نار جهنم. و نستبعد هذا الاحتمال، لعدم انسجامه مع الآيه

ص: ٤١٠

١-١) -المفردات، ص ٥٢٢.

٢-٢) - هذا الاحتمال ذكره الزمخشري فى الكشاف، و الفخر الرازى فى التفسير الكبير، و أبو الفتوح الرازى فى تفسيره.

٣-٣) - قيل أيضا أنّ «راضيه» بمعنى (ذات رضا). أو قدروا محذوفاً كأن تكون عيشه مرضيه لأصحابها. و التفسير المذكور أعلاه أنسب من غيره.

التاليه: وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَ؟.

«هاويه» من (هوى)، أى سقط، و الهاويه اسم لجهنم لأنها محل سقوط المذنبين. و هى إشارة أيضا إلى عمق نار جهنم.

و إذا اعتبرنا (أم) بمعنى دماغ فتكون هاويه بمعنى ساقطه. و التفسير الأول أصح و أنسب.

«حاميه» من (حمى) -على وزن نفى- و هو شدّه الحراره. و «حاميه» هنا إشارة إلى قدره نار جهنم على الإحراق.

و قوله سبحانه: وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَ، نَارٌ حَامِيَةٌ تأكيد على شدّه عذاب نار جهنم و على أنها فوق تصور كلّ البشر.

بحث

إشارة

سبب ثقل ميزان الأعمال:

الأعمال الصالحات هى دون شك متفاوتة فى قيمتها و وزنها. من هنا فالنصوص الإسلاميه ركزت على بعض الأعمال أكثر من غيرها و اعتبرتها سببا لثقل ميزان الأعمال يوم القيامة.

من ذلك

حديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال فى تفسير لا إله إلا الله: «يعنى بوحدانيتها، لا يقبل الله الأعمال إلا بها، و هى كلمه التقوى، يثقل الله بها الموازين يوم القيامة» (١).

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام قال حول الشهادتين: «خف ميزان ترفعان منه، و ثقل ميزان توضعان فيه» (٢).

ص: ٤١١

١- (١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٥٩ الحديث ٨ و ١٢.

٢- (٢) -المصدر السابق، الحديث ٧، ج ٥، ص ٦٥٩، ح ٧.

عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السّلام: «ما فى الميزان شىء أثقل من الصلاه على محمّد و آل محمّد»... ثم يقول فى ذيل الزّوايه: و إن الرجل لتوضع أعماله فى الميزان فيميل به فيخرج الصلاه فيضعها فى ميزانه فيرجح. (١)

عن الامام الباقر عليه السّلام قال: «من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه» (٢).

و نختتم هذه الزّوايات بقول لسلمان الفارسى تلميذ مدرسه الوحى جوابا لرجل استهدف اهانتة و قال له: من أنت، و ما قيمتك! فقال: «أمّيا أولى و أولك فنطفه قذره، و أمّيا أخرى و أخرک فجيفه منتنه، فإذا كان يوم القيامة، و نصبت الموازين، فمن ثقلت موازينه فهو الكريم، و من خفت موازينه فهو اللّثيم» (٣).

اللّهم! اجعل ميزان عملنا ثقيلًا بحبّ محمّد و آل محمّد.

ربّنا! ما بوسعنا أن نصل إلى «عيشه راضيه» إلا بلطفك و كرمك... فأعنا بفضلك على هذا الطريق.

إلها! نار جهنّم حاميّه... و لا طاقة لنا بها فأطفئ لظاها لنا بماء رحمتك و كرمك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة القارعه

ص: ٤١٢

١-١ - المصدر السابق.

٢-٢ - نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٠، الحديث ١٣.

٣-٣ - المصدر السابق، الحديث ١٤.

سوره التّكّٰثر

اشاره

مكّيه و عدد آياتها ثمانى آيات

ص: ۴۱۳

محتوى السوره:

يعتقد كثير من المفسرين أنّ هذه السوره نزلت في مكّه، و ما فيها من ذكر للتفاخر و التكاثر إنّما يرتبط بقبائل قريش التي كانت تتباهى على بعضها بأمور وهميه.

و بعضهم -كالمرحوم الطبرسي في مجمع البيان- يرى أنّها مدنيه، و ما فيها من ذكر للتفاخر قد ورد بشأن اليهود أو طائفتين من الأنصار، لكن مكيتها أصح لشبهها الكبير بالسور المكيه.

هذه السوره تناول في مجموعها تفاخر الأفراد على بعضهم استنادا إلى مسائل موهومه، و تدم ذلك و تلوم عليه، ثم تحذرهم من حساب المعاد و عذاب جهنم و مما سيسألون يوم ذاك عن النعم التي من الله بها عليهم.

اسم السوره مستل من الآيه الأولى فيها.

فضيله السوره:

ورد في فضيله هذه السوره

عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم قال: «من قرأها لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم عليه في دار الدنيا، و أعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آيه» (1).

ص: ٤١٥

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «قراءة هذه السورة في الفريضة و النافلة يعادل ثواب شهادة شهيد» (١).

واضح أنّ كلّ هذا الثواب إنّما هو لمن يقرأها و لمن يطبقها في برنامج حياته و يتفاعل معها روحيا و نفسيا.

ص: ٤١٦

(١ - ١) - المصدر السابق، بتلخيص.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا- سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا- سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

سبب النزول

المفسرون- كما أشرنا- يعتقدون أنّ السوره نزلت في قبائل كانت تتفاخر على بعضها بكثره الأموال و الأنفس حتى أنّها كانت تذهب إلى المقابر و تعدّ موتاها لترفع احصائه أفراد القبيله.

بعضهم قال: إنّ المقصود قبيلتان من قريش في مكّه، و بعضهم قال إنّهما قبيلتان من قبائل الأنصار في المدينه، و قيل: إنّهُ إشاره إلى تفاخر اليهود على غيرهم، و يبدو أن الأول أصح لمكان مكّيه هذه السوره.

سبب النزول- مهما كان- فهو لا يحد قطعا معنى الآيه.

بلاء التكاثر و التفاخر:

الآيات الأولى توجه اللوم إلى المتكاثرين المتفاخرين و تقول:

أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ

فى الأنفس و الأموال.

حتى إنكم ذهبتُم إلى المقابر لتستكثروا أفراد قبيلتكم: حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ .

و احتمال بعض المفسرين فى تفسير الآيه أن المعنى هو: إنكم انشغلتم بالتكاثر و التفاخر حتى لحظه موتكم و ورودكم إلى المقابر.

لكن المعنى الأول أكثر انسجاما مع عبارته حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ و مع سبب النزول، و خطبه نهج البلاغه كما سنشير إلى ذلك.

«ألهاكم» من «اللهو» و هو الانشغال بالأعمال الصغيرة و الانصراف عن المهام الكبيرة. و الراغب يفسر اللهو بالعمل الذى يشغل الإنسان و يصرفه عن مقاصده و أهدافه.

«التكاثر» يعنى التفاخر و المباهاة «زرتهم» من الزيارة و «زور» (على وزن قول) فى الأصل بمعنى أعلى الصدر، ثم استعمل للقاء و المواجهه. و «زور» (على وزن قمر) بمعنى انحراف أعلى الصدر، و الكذب لانحرافه عن الحق سُمى (زورا) -على وزن نور-.

«المقابر» جمع مقبره، و هى مكان دفن الميت. و زيارة المقابر إمّا أن تكون كناية عن الموت. أو بمعنى الذهاب إلى المقابر و إحصاء الموتى بهدف التكاثر فى الأنفس و التفاخر بالعدد (حسب التفسير المشهور).

و ذكرنا أن المعنى الثانى أصح. و أحد شواهد

كلام لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، بعد أن تلا: أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ قال:

«يا له أمر ما أبعد! و زورا ما أغفله! و خطرا ما أفضعه! لقد استخلوا منهم أى مدّكر و تناوشوهم من مكان بعيد. أ فبمصارع آبائهم يفخرون؟! أو بعيد الهلكى

يتكاثرون؟! يرتجعون منهم أجسادا خوت، و حركات سكنت، ولأن يكونوا عبرا أحق من أن يكونوا مفتخرا!!!» (١).

هذه الخطبه قسم من خطبه عظيمه يقول عنها ابن أبي الحديد المعتزلى:

«و أقسم بمن تقسم الأمم كلها به؛ لقد قرأت هذه الخطبه منذ خمسين سنه و إلى الآن أكثر من ألف مره، ما قرأتها قط إلا و أحدثت عندى روعه و خوفا و عظه، و أثرت فى قلبى و جيبيا، و فى أعضائى رعدته، و لا تأملتها إلا و ذكرت الموتى من أهلى و أقاربى، و أرباب ودى، و خيلت فى نفسى أنى أنا ذلك الشخص الذى وصف عليه السلام حاله.

و كم قد قال الواعظون و الخطباء و الفصحاء فى هذا المعنى! و كم وقفت على ما قالوه و تكرر وقوفى عليه! فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام فى نفسى؛ فإما أن يكون ذلك لعقيدتى فى قائله، أو كانت نيه القائل صالحه، و يقينه كان ثابتا، و إخلاصه كان محضا خالصا، فكان تأثير قوله فى النفوس أعظم و سريان موعظته فى القلوب أبلغ» (٢).

و يقول فى مكان آخر: «ينبغى لو اجتمع فصحاء العرب قاطبه فى مجلس و تلى عليهم أن يسجدوا» ثم يشير إلى قول معاويه حول فصاحه الإمام على عليه السلام:

«و الله ما سنّ الفصاحه لقريش غيره».

□
الآيات التاليه فيها تهديد شديد لهؤلاء المتكاثرين، تقول: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ فليس الأمر كما ترون، و به تتفاخرون. بل سوف تعلمون عاجلا نتيجة هذا التكاثر الموهوم.

□
لمزيد من التأكيد يقول سبحانه: ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ .

جمع من المفسرين ذهبوا إلى أن الآيتين تكرر لموضوع واحد و تأكيد عليه.

ص: ٤١٩

١- ١) - نهج البلاغه، الخطبه ٢٢١.

٢- ٢) - شرح نهج البلاغه، ج ١١، ص ١٥٣.

و كلتاها تشيران إلى العذاب الذى ينتظر هؤلاء المتكاثرين المتفاخرين.

و بعضهم قال: إنَّ الأولى إشاره إلى عذاب القبر و البرزخ و الثانيه إلى عذاب القيامة.

و

روى عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التكاثر، إلى قوله: كلا سوف تعلمون، يريد في القبر، ثمّ كلا سوف تعلمون، بعد البعث» (١).

فى التفسير الكبير للفخر الرازى عن زر بن حبيش أحد أصحاب الإمام على عليه السّلام قال: كنّا فى شك فى عذاب القبر حتى سألنا علياً فأخبرنا أن هذه الآية دليل على عذاب القبر.

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ

كلا- ليس الأمر كما تظنون أيها المتفاخرون المتكاثرون. فلو إنكم تعلمون الآخرة علم اليقين، لما اتجهتم إلى التفاخر و المباهاة بهذه المسائل الباطلة.

و لمزيد من التأكيد و الإنذار تقول لهم الآيات التاليه:

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ، ثُمَّ لَتَرَوْهَا بِعَيْنِ الْيَقِينِ، ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ

فى ذلك اليوم عليكم أن توضحوا كيف أنفقتم تلك النعم الإلهيه. و هل استخدمتموها فى طاعة الله أم فى معصيته، أم أنكم ضيعتم النعمه و لم تؤدوا حقّها؟

بحوث

إشاره

١- منبع التفاخر و التكاثر

من آيات السوره يتبين أنّ أحد العوامل الأساسيه للتفاخر و التكاثر و المباهاة هو الجهل بجزاء الآخرة و عدم الإيمان بالمعاد.

ص: ٤٢٠

كما إنّ جهل الإنسان بضعفه و مسكنته...ببدايته و نهايته...من العوامل الاخرى الباعثه على الكبر و الغرور و التفاخر.و لهذا فإنّ القرآن الكريم بهدف كسر روح التفاخر و التكاثر فى الأفراد،يقصّ علينا فى مواضع كثيره مصير الأقسام السالفه،و كيف إنّها كانت تمتلك كلّ وسائل القوّه و المنعه،لكنّها أبيدت بوسائل بسيطه...بالريح...بالصاعقه...بالزلازل...بالسيل...بعباره اخرى بالماء و الهواء و التراب..و أحيانا بالسّجّيل و بطير أبايل!! فلم-و الحال هذه-كلّ هذا التفاخر و الغرور؟! ثمّ عامل آخر لهذه الظاهره هو الإحساس بالضعف و عقده الحقاره الناتجه عن الفشل.و الأفراد الفاشلون من أجل أن يغطوا على فشلهم يلجأون إلى الفخر و المباهاة و لذلك

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «ما من رجل تكبر أو تجبر إلاّ لذه و جدها فى نفسه» (١).

و

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال:

«ثلاثه من عمل الجاهليه:الفخر بالأنساب،و الطعن بالأحساب و الاستسقاء بالأنواء(طلب الماء بواسطه النجوم)» (٢).

و

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «أهلك الناس اثنان:خوف الفقر،و طلب الفخر» (٣).

و الحق أنّ أهم عوامل الحرص و البخل و الخلود إلى الدنيا و المنافسات المخربه،و كثير من المفسدات الاجتماعيه هو هذا الخوف الوهمى من الفقر و التفاخر و التعالى بين الأفراد و الأمم و القبائل.

ولذا

ورد عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «ما أخشى عليكم الفقر و لكن أخشى

ص: ٤٢١

١-١) -اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٣٦:باب الكبر،الحديث ١٧.

٢-٢) -بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٩١.

٣-٣) -بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٩٠،الحديث ١٢.

عليكم التكاثر» (١).

«التكاثر» كما أشرنا يعنى فى الأصل التفاخر، و لكنّه يعنى أحياناً حبّ الاستزاده من المال و جمعه، كما

ورد فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال:

«التكاثر فى الأموال: جمعها من غير حقّها، و منعها من حقّها، و شدّها فى الأوعيه» (٢).

هذا البحث الموسّع نختمه

بحديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى تفسير ألهاكُم التَّكَاثُرُ قال:

«يقول ابن آدم: مالى مالى؛ و ما لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» (٣).

نعم، حقّاً لا يعود على الإنسان شىء من ماله الذى جمعه و عدده، و تساهل - أحياناً - فى حلاله و حرامه، إلا ما يأكل و يشرب و يلبس، أو ما ينفقه فى سبيل الله و ما ينفقه على الاحتياجات الشخصيه قليل، فما أفضل أن يزيد حظه من ماله بالإنفاق!

٢- اليقين و مراحل

«اليقين» يقابل «الشك»، كما إن «العلم» يقابل «الجهل»، و اليقين يعنى وضوح الشىء و ثبوته. و يستفاد من الروايات أن اليقين هو أعلى مراحل الإيمان.

الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام يجعل الإيمان أعلى من الإسلام درجه، و التقوى أعلى من الإيمان درجه، و اليقين أعلى من التقوى درجه ثم

يقول: «و لم يقسم بين الناس شىء أقل من اليقين».

ص: ٤٢٢

١-١) - الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٨٧.

٢-٢) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٢، الحديث ٨.

٣-٣) - صحيح مسلم، نقلاً عن مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٣٤.

يسأل الراوى: ما هو اليقين؟ يقول: «التوكل على الله، والتسليم لله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله!» (١).

علو مقام اليقين على مقام التقوى و الإيمان و الإسلام أكدت عليه روايات أخرى (٢).

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «من صحه يقين المرء المسلم أن لا يرضى الناس بسخط الله، و لا يلومهم على ما لم يؤته الله... إن الله بعدله و قسطه جعل الروح و الراحة فى اليقين و الرضا، و جعل الهم و الحزن فى الشك و السخط».

و من هذه النصوص و أمثالها نفهم جيدا أن الإنسان-حين يصل إلى مقام اليقين-تغمر قلبه و روحه طمأنينه خاصه.

و مع هذا، فلليقين مراتب، أشارت إليها الآيه أعلاه و الآيه (٩٥) من سوره الواقعه: **إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**، و هى ثلاثه:

١- علم اليقين: و هو الذى يحصل للإنسان عند مشاهدته الدلائل المختلفه، كأن يشاهد دخانا فيعلم علم اليقين أن هناك نارا.

٢- عين اليقين: و هو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجه المشاهده كأن يرى بعينه مثلا النار.

٣- حق اليقين: و هو كأن يدخل الإنسان النار بنفسه و يحس بحرقتها، و يتصف بصفاتهما. و هذه أعلى مراحل اليقين.

يقول المحقق الطوسى: اليقين اعتقاد جازم مطابق ثابت، لا يمكن زواله، و هو فى الحقيقه مؤلف من علمين، العلم بالمعلوم و العلم بأن خلاف ذلك العلم محال،

ص: ٤٢٣

١-١) -بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٤٣.

٢-٢) -الميزان، ج ٦، ص ١٨٧.

و له مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين (١).

إنّه ذكر عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ

فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَ يَقِينَهُ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ لَمْشَى عَلَى الْهَوَاءِ» فَالْحَدِيثُ -كَمَا تَرَى- يَوْمِي إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ يَدُورُ مَدَارَ الْيَقِينِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَحْوِ الْأَسْبَابِ الْكُونِيَّةِ عَنِ الْاِسْتِقْلَالِ فِي التَّأْثِيرِ، فإِلَى أَيِّ مَبْلَغٍ بَلَغَ رُكُونُ الْإِنْسَانِ إِلَى الْقُدْرَةِ الْمَطْلُوقَةِ الْإِلَهِيَّةِ انْقَادَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ عَلَى قُدْرِهِ (٢).

٣-الجميع يرى جهنم

الآية الكريمة: لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ لَهَا تفسيران:

الأول: إنها تتحدث عن مشاهدته الجحيم في الآخرة، وهو خاص بالكفار، أو لعامة الجن والإنس، إذ تنص بعض الآيات على أنه ما من أحد إلا وارد جهنم.

الثاني: إنها تتحدث عن الشهود القلبي في عالم الدنيا. وفي هذه الحالة تكون الآية جواباً لقضيه شرطيه هي: لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم (في هذه الدنيا بعين بصيرتكم). لأنّ الجنّه و جهنم مخلوقان، و لهما الآن وجود خارجي.

و لكن -كما ذكرنا- التفسير الأول أنسب مع الآيات التالية التي تتحدث عن يوم القيامة. من هنا، فالقضية قطعية و ليست شرطيه.

٤-أي نعيم يسأل عنه يوم القيامة؟

الآية الأخيرة من السورة تقول: ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ. قيل إنّ النعيم المسؤول عنه هو نعمه السلامه، و فراغ البال، و قيل: إنه الصحه و السلامه و الأمن،

ص: ٤٢٤

١-١) -على ما في بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٤٣.

٢-٢) -الميزان، ج ٦، ص ٢٠٠ «ذيل الآية ١٠٥ من سورة المائدة».

وقيل: الآيه تشمل كل هذه النعم.

و

عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «النعيم: الرطب، والماء البارد».

وروى أن أبا حنيفة سأل الإمام جعفر بن محمد الصادق عن تفسير هذه الآيه قال الإمام: «ما النعيم عندك يا نعمان» قال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال عليه السلام «لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كل أكله أكلتها وشربه شربتها ليطولن وقوفك بين يديه». قال: فما النعيم جعلت فداك؟ قال الامام: «نحن أهل البيت النعيم الذى أنعم الله بنا على العباد و بنا اثتلفوا بعد أن كانوا مختلفين و بنا أَلَّفَ الله بين قلوبهم و جعلهم إخوانا بعد أن كانوا أعداء و بنا هداهم الله للإسلام و هى النعمه التى لا تنقطع و الله سائلهم عن حقّ النعيم الذى أنعم الله به عليهم و هو النبى و عترته» (١).

من كل هذه الروايات-التي يبدو أنّها مختلفه فى ظاهرها-نفهم أنّ النعيم له معنى واسع جدًا يشمل كلّ المواهب الإلهيه المعنويه منها مثل: الدين و الإيمان و الإسلام و القرآن و الولايه، و أنواع النعم الماديه الفرديه منها و الاجتماعيه. بيد أن النعم التى لها أهميته أكبر مثل: نعمه «الإيمان و الولايه» يسأل عنها أكثر. هل أدّى الإنسان حقّها أم لا؟ و الروايات التى تنفى شمول الآيه للنعم الماديه يظهر أنّها تريد أن تقول: لا ينبغى أن تترك المصايق الأهم للآيه و تترك المصايق الأصغر. إنّها تحذير-فى الواقع-إلى الناس بشأن سلسله مراتب المواهب و النعم الإلهيه، و بأنهم يتحملون إزاءها مسئوليه ثقيله.

و كيف يمكن أن لا يسأل عن هذه النعم؟ و هى ثروه كبيره و هبت للبشريه يجب أن تقدر كل واحده منها حقّ قدرها و أن يؤدّى شكرها، و أن يستثمر كل منها

ص: ٤٢٥

(١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٣٥.

فِي مَوْضِعِهَا.

اللَّهُمَّ! أَدِّمْ عَلَيْنَا نِعْمَكَ الَّتِي لَا تَحْصَى، خَاصَّةً نِعْمَةَ الْإِيمَانِ وَالْوَلَايَةِ.

رَبَّنَا! وَفَّقْنَا لِأَدَاءِ حَقِّ هَذِهِ النِّعَمِ.

إِلَهِنَا! زِدْ عَلَيْنَا مِنْ نِعْمِكَ الْكُبْرَى، وَلَا تَسْلِبْهَا مِنَّا أَبَدًا.

آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ نَهَايَةَ سُورَةِ التَّكْوِينِ

ص: ٤٢٦

سوره العصر

اشاره

مكيه و عدد آياتها ثلاث آيات

ص: ٤٢٧

محتوى السّوره:

المعروف أنّ هذه السّوره مكّيه، و احتمال بعضهم أنّها مدنيه. و يشهد على مكّيتها لحنها و مقاطعها القصيره.

شموليه هذه السّوره تبلغ درجه حدت ببعض المفسّرين إلى أن يرى فيها خلاصه كل مفاهيم القرآن و أهدافه. بعبارة اخرى: هذه السّوره-رغم قصرها- تقدم المنهج الجامع و الكامل لسعاده الإنسان.

تبدأ السّوره من قسم عميق المحتوى بالعصر. و سيأتى تفسيره. ثمّ تتحدث عن خسران كلّ أبناء البشر خسرانا قائما فى طبيعه حياتهم التدريجيّه. ثمّ تستثنى مجموعه واحده من هذا الأصل العام، و هى التى لها منهج ذو أربع مواد:

الإيمان، و العمل الصالح، و التواصى بالحق، و التواصى بالصبر، و هذه الأصول الأربعه هى فى الواقع المنهج العقائدى و العملى الفردى و الاجتماعى للإسلام.

فضيله السّوره:

ورد فى فضيله هذه السّوره عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «من قرأ «و العصر» فى نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقا وجهه، ضاحكا سنّه، قريره عينه، حتى

يدخل الجنّة» (١).

و واضح أنّ كل هذه الفضيله و هذه البشرى نصيب من طبق الأصول الأربعة المذكوره فى حياته، لا أن يقنع فقط بقراءتها.

ص: ٤٣٠

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٥.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)

التفسير

اشاره

طريق النجاه الوحيد:

فى بدايه هذه السوره نواجه قسما قرآنيا جديدا، يقول سبحانه:

وَالْعَصْرِ

كلمه (العصر) فى الأصل الضغط، و إنما اطلق على وقت معين من النهار لأن الأعمال فيه مضغوطة. ثم أطلقت الكلمه على مطلق الزمان و مراحل تاريخ البشريه، أو مقطع زمانى معين، كأن نقول عصر صدر الإسلام. و لذلك ذكر المفسرون فى معنى العصر احتمالات كثيره:

١- قيل: إنه وقت العصر من النهار، بقريته وجود مواضع اخرى أقسم الله فيها بأول النهار كقوله تعالى: وَالصُّحْحِ (١) أو وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٢).

ص: ٤٣١

١- ١) - و الضحى، الآية ١.

٢- ٢) - المدثر، الآية ٣٤.

و إنما أقسم بالعصر لأهميته، إذ هو في وقت من النهار يحدث فيه تغيير في نظام المعيشه و حياه البشر، الأعمال اليوميه تنتهى، و الطيور تعود إلى أوكارها، و قرص الشمس يميل إلى الغروب، و يتجه الجو إلى أن يكون مظلما بالتدريج.

هذا التغيير يلفت نظر الإنسان إلى قدره الله المطلقة في نظام الكون، و هو في الواقع أحد علامات التوحيد، و أيه من آيات الله تستحق أن يقسم بها.

٢- قيل: إنه كلّ الزمان و تاريخ البشريه المملوء بدروس العبره، و الأحداث الجسيمه. و هو لذلك عظيم يستحق القسم الإلهي.

٣- بعضهم قال: إنه مقطع خاص من الزمان مثل عصر البعثه النبويه المباركه، أو عصر قيام المهدي المنتظر عليه السلام، و هي مقاطع زمنيه ذات خصائص متميزه و عظمه فائقه في تاريخ البشر. و القسم في الآيه إنما هو بتلك الأزمنه الخاصه (١).

٤- بعضهم عاد إلى الأصل اللغوي للكلمه، و قال إنّ القسم في الآيه بأنواع الضغوط و المشاكل التي تواجه الإنسان في حياته، و تبعث فيه الصحوه و توقظه من رقاده، و تذكره بالله سبحانه، و تربّي فيه روح الاستقامه.

٥- قيل: إنها إشاره إلى «الإنسان الكامل» الذي هو في الواقع عصاره عالم الوجود و الخلقه.

٦- و أخيرا قيل إنّ الكلمه يراد بها صلاه العصر، لأهميتها الخاصه بين بقية الصلوات، لأنها (الصلاه الوسطى) التي أمر الله أن يحافظ عليها خاصه.

مع أنّ التفاسير أعلاه غير متضاده، و يمكن أن تجتمع كلّها في معنى الآيه، و يكون القسم بكل هذه الأمور الهامه، و لكن الأنسب فيها هو القسم بالزمان و تاريخ البشريه. لأنّ القسم القرآني - كما ذكرنا مرارا - يتناسب مع الموضوع الذي أقسم الله من أجله و من المؤكّد أن خسران الإنسان في الحياه ناتج عن

ص: ٤٣٢

١- ١) - عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال في تفسير آيه: وَ الْعَصِيرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ: العصر عصر خروج القائم (أى خروج الإمام المهدي المنتظر سلام الله عليه). نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٦، الحديث ٥.

تصرّم عمرهم، أو أنه عصر بعثه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لأنّ المنهج ذا المواد الأربع في ذيل هذه السّوره نزل في هذا العصر.

تُضَحِّح مِمَّا سَبَقَ عَظَمَهُ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَ سَعَهُ مَفَاهِيمُهَا. فَكَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَحْمِلُ مِنَ الْمَعَانِي الْعَمِيقَةِ مَا يَجْعَلُهَا صَالِحَةً لِكُلِّ هَذِهِ التَّفْسِيرِ الْمَتَنُوعَةِ.

الآية التالية تحمل الموضوع الذي جاء القسم من أجله، يقول سبحانه:

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ

الإنسان يخسر ثروته الوجودية شاء أم أبى،.تمّ الساعات و الأيام و الأشهر و الأعوام من عمر الإنسان بسرعه، تضعف قواه المادية و المعنوية، تتناقص قدرته باستمرار.

نعم، إنّه كشخص عنده ثروه عظيمه، و هذه الثروه يؤخذ منها كلّ يوم شىء باستمرار رغم إرادته، هذه طبيعه الحياه الدنيويه...طبيعه الخسران المستمر! القلب له قدره معينه على الضربان، و حين تنفذ هذه القدره يتوقف القلب تلقائيا دون علّه من عيب أو مرض. هذا إذا لم يكن توقف الضربان نتيجة مرض.

و هكذا سائر الأجهزة الوجودية للإنسان، و ثروات قدراته المختلفه.

«خسر» و خسران، كما يقول الراغب، انتقاص رأس المال، و ينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال خسر فلان، و إلى الفعل فيقال: خسرت تجارتك. قال تعالى: تِلْمَكْ إِذَا كَرَّهَ حَاسِرَةً. و يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجيه كالمال و الجاه في الدنيا و هو الأكثر، و في المقتنيات النفسيه كالصحه و السلامه و العقل و الإيمان و الثواب، و هو الذى جعله الله تعالى الخسران المبين، و قال: «الذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين» (١).

الفخر الرازى فى تفسير هذه الآيه ينقل عن أحد الصالحين ما ملخصه أنّه

ص: ٤٣٣

تعلم معنى هذه الآيه الكريمه من بائع ثلج كان يصيح و يقول: ارحموا من يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله (1) على أى حال، الدنيا فى المنظور الإسلامى سوق تجاره. كما

يقول الإمام على بن محمّد الهادى عليه السّلام: «الدنيا سوق ربح فيها قوم و خسر آخرون» (2) الآيه الكريمه التى نحن بصددّها تقول: كلّ النَّاسِ فى هذه السوق الكبرى خاسرون إلاّ مجموعته تسير على المنهج الذى تبينه الآيه التاليه.

نعم، هناك طريق واحد لا غير لتفادى هذا الخسران العظيم القهرى الإجبارى، و هو الذى تبينه آخر آيات هذه السّوره.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

بعباره اخرى: ما يستطيع أن يحول دون هذا الخسران الكبير، و أن يبدله إلى منفعه كبيره و ربح عظيم هو أنّه مقابل فقدان رأس المال، يحصل على رأس مال أعلى و أئمن، يستطيع أن يسدّ مسدّ رأس المال المفقود، بل أن يكون أفضل و أكثر منه عشرات، بل مئات، بل آلاف المرات.

كلّ نفس من أنفاس الإنسان يقربه خطوه نحو الموت،

أمير المؤمنين على عليه السّلام يقول: «نفس المرء خطاء إلى أجله» (3).

و هكذا كلّ ضربه من ضربات القلب تقرب الإنسان من الموت من هنا لا بدّ من المبادرة إلى ملء الفراغ الذى يولده هذا الخسران الحتمى.

هناك من ينفق رأس مال عمره و حياته مقابل الحصول على مال قليل أو كثير، على بيت صغير أو فخم.

هناك من ينفق كل رأس المال هذا من أجل الوصول إلى منصب أو مقام.

ص: ٤٣٤

١-١) - تفسير الفخر الرازى، ج ٣٢، ص ٨٥.

٢-٢) - تحف العقول، ص ٣٦١، كلمات الإمام الهادى عليه السّلام.

٣-٣) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٧٤.

و هناك من ينفقه فى سبيل أهوائه و ملذاته.

ليس أى واحد من هذه الأمور-دون شك-يمكن أن يكون ثمنًا لتلك الثروه العظيمه...ثروه العمر...ثمنها الوحيد رضا الله سبحانه و مقام قربه لا غير.

قال أمير المؤمنين على عليه السلام: «إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها» (١).

و

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فى دعاء شهر رجب: «خاب الوافدون على غيرك و خسر المتعرضون إلا لك».

و من هنا كان أحد أسماء يوم القيامة «يوم التغابن» كما جاء فى قوله سبحانه:

ذَلِكَ يَوْمَ التَّغَابُنِ

(٢)

أى ذلك اليوم الذى يظهر من هو المغبون و الخاسر.

إنه لتنظيم رائع فى علاقه العبد بربه.فهو سبحانه من جهه يشتري رأس مال وجود الإنسان: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ... (٣).

و من جهه أخرى يشتري سبحانه رأس المال القليل: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٤).

و من جانب آخر يدفع مقابل ذلك ثمنًا عظيمًا يبلغ أحيانًا عشره أضعاف و أحيانًا سبعمائه ضعف، و أحيانًا أكثر: فى كُلِّ سُبُّلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ، وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ (٥).

و كما

ورد فى الدعاء: «يا من يقبل اليسير و يعفو عن الكثير».

و من جهه رابعه، فإنَّ كلَّ رؤوس أموال الإنسان و ثرواته قد وهبها الله إياه...

و الله بفضلہ و منہ و لطفہ يعود ليشترى هذه الثروات نفسها بأعلى الأثمان!

ص: ٤٣٥

(١-١) -المصدر السابق، الكلمه ٤٥٦.

(٢-٢) -التغابن، الآيه ٩.

٣-٣) - التوبه، الآيه ١١١.

٤-٤) - الزلزال، الآيه ٧.

٥-٥) - البقره الآيه ٢٦١.

منهج السعادة ذو المواد الأربع:

من المهم أن نقف و لو قليلا- عند المنهج الذى وضعه القرآن الكريم للنجاه من ذلك الخسران...إنه منهج يتكون من أربعة أصول هى:

الأصل الأول:«الإيمان»و هو البناء التحتى لكلّ نشاطات الإنسان،لأنّ فعاليات الإنسان العمليه تنطلق من أسس فكره و اعتقاده،لا كالحيوانات المدفوعه فى حركاتها بدافع غريزى.

بعبارة اخرى،أعمال الإنسان بلوره لعقائده و أفكاره،و من هنا فإن جميع الأنبياء بدأوا قبل كلّ شىء بإصلاح الاسس الاعتقاديه للأمم و الشعوب.و حاربوا الشرك بشكل خاص باعتباره أساس أنواع الرذائل و الشقاوه و التمزق الاجتماعى.

و الآيه الكريمه قالت: **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا** فذكرت الإيمان بمعناه المطلق ليشمل الإيمان بكلّ المقدسات،ابتداء من الإيمان بالله و صفاته،حتى الإيمان بالقيامه و الحساب و الجزاء و الكتب السماويه و أنبياء الله و أوصيائهم.

الأصل الثانى:«العمل الصالح»،و هو ثمره دوحه الإيمان.تقول الآيه:

...وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لا العبادات فحسب،و لا الإنفاق فى سبيل الله وحده،و لا الجهاد فى سبيل الله فقط،و لا الاكتفاء بطلب العلم...بل كلّ الصالحات التى من شأنها أن تدفع إلى تكامل النفوس و تربيته الأخلاق و القرب من الله، و تقدم المجتمع الإنسانى.

هذا التعبير يشمل الأعمال الصغيره،كرفع الحجر من طريق الناس و الأعمال الجسام مثل إنقاذ ملايين الناس من الضلاله و الانحراف و نشر رساله الحقه و العداله فى أرجاء العالم.

و ما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فى تفسير و عمّلوا

بأنه المواساة و المساواه للأخوه فى الله، إنما هو من قبيل بيان المصداق الواضح للآية.

قد تصدر الأعمال الصالحة من أفراد غير مؤمنين، لكنّها غير متجذره و غير ثابتة و غير واسعه. لأنها لا تنطلق من دافع إلهى عميق، و لا تحمل صفه الشموليه.

القرآن ذكر «الصالحات» هنا بصيغه الجمع مقرونه بالألف و اللام لتدل على معنى العموم و الشمول. و لتبيّن أن طريق تفادى الخسران الطبيعى الحتمى بعد الإيمان، هو أداء الأعمال الصالحة جميعا، و عدم الاكتفاء بعمل واحد أو بضع أعمال صالحات حقًا، لو رسخ الإيمان فى النفس، لظهرت على الفرد مثل هذه الآثار.

الإيمان ليس فكره جامده قابعه فى زوايا الذهن، و ليس اعتقادا خاليا من التأثير. الإيمان يصوغ كلّ وجود الإنسان وفق منهج معين. الإيمان مثل مصباح منير مضىء فى غرفه. فهو لا يضىء الغرفه فحسب، بل إن أشعته تسطع من كلّ نوافذ الغرفه إلى الخارج بحيث يرى كل مار نوره بوضوح.

و هكذا، حين يسطع مصباح الإيمان فى قلب إنسان، فإنّ نوره ينعكس من لسان الإنسان و عينه و أذنه و يديه و رجله. حركات كلّ واحده من هذه الجوارح تشهد على وجود نور فى القلب تسطع أشعته إلى الخارج.

و من هنا اقترن ذكر الصالح فى أغلب مواضع القرآن بذكر الإيمان باعتبارها لازما و ملزوما. فقال سبحانه: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (١). و يقول تعالى عن أولئك الذين تركوا الدنيا دون عمل صالح، إنهم يصرون على العوده إلى الدنيا و يقولون: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ (٢).

ص: ٤٣٧

١-١ (١) - النحل، الآية ٩٧.

٢-٢ (٢) - المؤمنون، الآية ١٠٠.

و يقول سبحانه لرسله: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ (١).

و لما كان الإيمان و العمل الصالح لا يكتب لهما البقاء إلا فى ظل حركة اجتماعيه تستهدف الدعوه إلى الحق و معرفته من جهه، و الدعوه إلى الصبر و الاستقامه على طريق النهوض بأعباء الرساله، فإن هذين الأصلين تبعهما أصلان آخران هما فى الحقيقه ضمان لتنفيذ أصلى «الإيمان» و «العمل الصالح».

الأصل الثالث: «التواصى بالحق»، أى الدعوه العامه إلى الحق، ليميز كل أفراد المجتمع الحق من الباطل، و يضعوه نصب أعينهم، و لا ينحرفون عنه فى مسيرتهم الحياتيه.

«تواصوا» كما يقول الراغب تعنى أن يوصى بعضهم إلى بعض.

و «الحق» فى الأصل الموافقه و المطابقه للواقع. و ذكر للكلمه معانى قرآنيه متعدده من ذلك، و القرآن، و الإسلام، و التوحيد، و العدل، و الصدق، و الوضوح، و الوجوب و أمثالها من المعانى التى ترجع إلى نفس المعنى الأصلى الذى ذكرناه.

عبارة **تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ** تحمل على أى حال معنى واسعاً يشمل الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و يشمل أيضاً تعليم الجاهل و إرشاده، و تنبيه الغافل، و الدعوه إلى الإيمان و العمل الصالح.

واضح أن المتواصين بالحق يجب أن يكونوا بدورهم من العاملين به، و المدافعين عنه.

الأصل الرابع: «التواصى بالصبر»، و الاستقامه، إذ بعد الإيمان و الحركة فى المسيره الإيمانيه تبرز فى الطريق العوائق و الموانع و السرور. و بدون الاستقامه و الصبر لا يمكن المواصله فى إحقاق الحقّ و العمل الصالح و الثبات على الإيمان.

ص: ٤٣٨

نعم، إحقاق الحق في المجتمع لا- يمكن من دون حركه عامه و عزم اجتماعي، و من دون الاستقامه و الوقوف بوجه ألوان التحديات.

«الصبر» هنا يحمل مفهوما واسعا يشمل الصبر على الطاعه، و الصبر على دوافع المعصيه، و الصبر إزاء المصائب و الحوادث المرّه، و فقدان الإمكانيات و الثروه و الثمرات (١).

مما تقدم نفهم أنّ الأصول الأربعة التي ذكرتها هذه السوره المباركه تشكل المنهج الجامع لحياه الإنسان و سعادته. و لذلك ورد في الروايات أنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم كانوا إذا اجتمعوا لا يفترون إلاّ بعد تلاوه سوره «و العصر» و يتذاكروا في مضامينها (٢).

و المسلمون اليوم إذا طبقوا هذه الأصول الأربعة في حياتهم الفرديه و الاجتماعيه لتغلبوا على كل ما يعانون منه من مشاكل و تدهور و تخلف، و لبدلوا ضعفهم و هزيمتهم انتصارا، و لاقتلعوا شرّ الأشرار من على ظهر الأرض.

ربّنا! تفضّل علينا بالصبر و الاستقامه و التواصي بالحق و التواصي بالصبر.

إلهنا! كلّنا في خسران، و لا يمكن أن نجبر هذا الخسر إلاّ بلطفك.

اللهمّ! إنا نسألك توفيق العمل بالمواد الأربع التي ذكرتها في هذه السوره من كتابك.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره العصر

ص: ٤٣٩

١-١) -حول حقيقه الصبر و مراحل و شعبه، فصلنا الحديث في تفسير الآيه (١٥٣) من سوره البقره.

٢-٢) -الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٩٢.

سوره الهمزه

اشاره

مكيه و عدد آياتها تسع آيات

ص: ٤٤١

محتوى السّوره:

هذه السّوره و هي من السور المكيه، تتحدث عن أناس كرسوا كلّ همهم لجمع المال، و حصرّوا كلّ قيم الإنسان الوجوديه فى هذا الجمع. ثمّ هم يسخرون من الذين لا يملكون المال و بهم يستهزئون.

هؤلاء الأثرياء المستكبرون و المغرورون المحتالون أسكرهم الطغيان فراحوا يستهينون بالآخرين و يعيونهم، و يتلذذون بما يفعلون من غيبه و استهزاء.

السّوره تتحدث فى النهايه عن المصير المؤلم الذى ينتظر هؤلاء، و كيف أنّهم يلقون فى جهنّم صاغرين، و أنّ نار جهنّم تتجه بظاها أولاً إلى قلوبهم المليئه بالكبر و الغرور، و تحرقها بالنار، بنار مستمره.

فضيله السّوره:

ورد فى فضيله هذه السّوره

عن النّبىّ صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ سوره الهمزه اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمّد و أصحابه» (١).

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «من قرأ ويل لكلّ همزه فى فريضه من فرائضه، نفت عنه الفقر و جلبت عليه الرزق و تدفع عنه ميته السوء» (٢).

ص: ٤٤٣

١-١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٣٦.

٢-٢ - المصدر السابق.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيُلِّ لِكُلِّ هَمْزِهِ لَمْزِهِ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَ عَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩)

سبب النزول

قال جمع من المفسرين إن آيات هذه السوره نزلت في (الوليد بن المغيره) الذي كان يغتاب النبي و يطعن فيه و يستهزئ به. و قيل إنها نزلت في أفراد آخرين من رؤوس المشركين و أعداء الإسلام مثل (الأحنس بن شريق) و(اميه بن خلف) و(العاص بن وائل).

و لكن، إن قبلنا أسباب النزول هذه فلا ينفى ذلك شموليه مفاهيم الآيات، بل إنها تستوعب كل الذين يحملون هذه الصفات.

الويل للهمازين و اللمازين:

تبدأ هذه السورة بتهديد قارع و تقول:

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ

...لكل من يستهزئ بالآخرين، و يعييبهم، و يغتابهم، و يطعن بهم، بلسانه و حركاته و بيده، و عينه و حاجبه.

«الهمزة» و «اللمزة» صيغتا مبالغه، الاولى من الهمز، و هى فى الأصل الكسر.

العائبون المغتابون يكسرون شخصيه الآخرين، و لذلك اطلق عليهم اسم (الهمزة).

و «اللمزة» من اللمز، و هو اغتياب الآخرين، و الصاق العيوب بهم.

للمفسرين آراء متعدده فى معانى هاتين الكلمتين، هل معناهما واحد، و هو المغتابون الناس العائبون عليهم، أو إن معناهما مختلف. قال بعضهم إن معناهما واحد، و ذكرهما معا للتأكيد.

و قيل: الهمزة هو المغتاب، و اللمزة: العائب.

و قيل: الهمزة هم العائبون بإشاره اليد و الرأس. و اللمزة من يعيب بلسانه.

و قيل: الاولى إشاره إلى العائب فى حضور الشخص، و الثانيه للعائب فى الغيبه.

و قيل: الاولى تعنى العائب فى العلن، و الثانيه للعائب فى الخفاء، و بإشاره العين و الحاجب.

و قيل: إن الاثنتين بمعنى الذى ينبز الناس بألقاب قيحه مستهجنه.

و عن ابن عباس فى تفسير الكلمتين قال: «هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبه، الناعتون للناس بالعيب» (1).

يبدو أن ابن عباس استلهم هذا التفسير من

كلام لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حيث يقول:

«ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء المعائب» (١).

من مجموع آراء اللغويين في الكلمتين يستفاد أنهما بمعنى واحد. ولهما مفهوم واسع يشمل كل ألوان إصااق العيوب بالناس و غيبتهم و الطعن و الاستهزاء بهم، باللسان و الإشاره و النميمة و الذم.

التعبير بكلمه (ويل) يحمل تهديدا شديدا لهذه الفئه. و القرآن يتشدد تجاه هؤلاء الأفراد و يذكرهم بعبارات لا نظير لها في ذكر سائر المذنبين. فحين يذكر المنافقين الذين يسخرون من المؤمنين يتهددهم بعذاب أليم و يقول: **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** (٢).

مثل ذلك ذكره القرآن بشأن المنافقين المستهزئين بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم في الآية (٥) من سورة (المنافقون).

الإسلام، أساسا، ينظر إلى شخصيه الإنسان و كرامته باحترام بالغ، و يعد أي عمل يؤدي إلى إهانته الآخرين ذنبا كبيرا، و

ورد عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال: «أذل الناس من أهان الناس» (٣).

في هذا المجال ذكرنا شرحا أوفى في تفسير الآيتين (١١ و ١٢ من سورة الحجرات).

ثم تذكر الآية التاليه منبع ظاهره اللمز و الهمز في الأفراد، و ترى أنها تنشأ غالبا من كبر و غرور ناشئين بدورهما من تراكم الثروه لدى هؤلاء الأفراد، و تقول: **الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَ عَدَّدَهُ بِطَرِيقٍ مَشْرُوعٍ أَوْ غَيْرِ مَشْرُوعٍ.**

فهو انشد بالمال انشادا جعله منشغلا دائما بعد المال و الالتذاذ ببريق

ص: ٤٤٤

١-١) - اصول الكافي، ج ٢، باب النميمة، الحديث ١.

٢-٢) - التوبه، الآية ٨٠.

٣-٣) - بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٤٢.

تحول الدرهم و الدينار عنده إلى وثن و يرى فيه شخصيته و ينظر من خلاله أيضا إلى شخصيه الآخرين. و من الطبيعي أن يكون تعامل مثل هذا الإنسان الضال الأبله بالسخرية و الاستهزاء مع المؤمنين الفقراء.

«عدده» من (عدّ) بمعنى حسب. و قيل من (العدّه) بمعنى تجهيز الأموال ليوم الشدّه.

و قيل: أنها تعنى أمسكه و حفظه.

و المعنى الأوّل أظهر.

على أى حال، هذه الآيه تقصد الذين يدخرون الأموال و لا ينظرون إليها باعتبارها وسيله بل هدفا، و لا يحدّم قيد أو شرط فى جمعها، حتى و لو كان من طريق الحرام و الاعتداء على حقوق الآخرين و ارتكاب كلّ دنيئه و رذيله، و يعتبرون ذلك دليلا على عظمتهم و شخصيتهم.

هؤلاء لا يريدون المال لسد حاجاتهم الحياتيه، و لذلك يزداد حرصهم على جمع المال كلّما كثرت أموالهم. و إلا فإن المال فى الحدود المعقوله و من الطرق المشروعه ليس بمذموم، بل إنّ القرآن الكريم عبّر عنه فى موضع بأنّه «فضل الله» حيث يقول تعالى: وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .

و فى موضع آخر يسميه خيرا، كقوله سبحانه: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ .

مثل هذا المال ليس بالتأكيد مبعث طغيان، و لا وسيله تفاخر، و لا دافع سخرية بالآخرين. لكن المال الذى يصبح معبودا و هدفا نهائيا، و يدعو أصحابه من أمثال «قارون» إلى الطغيان، هو العار و الذله و المأساه و مبعث البعد عن الله و الخلود فى

و مثل هذا المال لا يمكن جمعه و عدّه إلا بالسقوط في أو حال الحرام. لذلك

ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «لا يجتمع المال إلا بخمس خصال:

بخل شديد، و أمل طويل، و حرص غالب، و قطيعه رحم، و إثارة الدنيا على الآخرة» (١).

لأنّ الأفراد الأسخياء البعيدين عن الآمال الوهميه الطويله يهتمون بحلال أموالهم و حرامها، و يساعدون الأقربين، و لا تتراكم الثروه عندهم غالباً، و إن زادت عائداتهم.

في الآيه التاليه يقول سبحانه:

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ

(٢)

«أخلده» جاء في الآيه بصيغه الماضى، و يعنى أن هذا الهمزه اللزمه يحسب أنّ ماله قد صير منه موجوداً خالداً، لا يستطيع الموت أن يصل إليه، و لا- عوامل المرض و الحوادث قادره أن تنال منه، فالمال في نظره هو المفتاح الوحيد لحل كل مشكله، و هو يملك هذا المفتاح.

ما أتفه هذا التفكير!! قارون بكل ما كان يملكه من كنوز لا تستطيع العصبه أولو القوه أن تحمل مفاتها، لم يستطيع أن يستخدم أمواله لتأخير مصيره الأسود ساعه واحده: فَخَسَفْنَا بِهِ وَ بِدَارِهِ الْأَرْضَ (٣).

الأموال التي كان يمتلكها الفراعنه: ... مِنْ جَدَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ وَ نَعَمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٤)، تحولت في ساعه إلى غيرهم:

ص: ٤٤٨

١- (١) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٤٨، الحديث ٧.

٢- (٢) - «ماله» يمكن أن تكون مكونه من (مال) مضاف إلى ضمير الغائب. و يمكن أن تكون (ما) موصوله، و بعدها صلتها. جملة (أخلده) فعل ماض يتحمل معنى المضارع، أو بمعنى موجبات الخلود.

٣- (٣) - القصص، الآيه ٨١.

٤- (٤) - الدخان، الآيه ٢٥-٢٧.

لذلك فإن هؤلاء اللاهين بأموالهم، حين تزول من أمام أعينهم الحجب و الأستار يوم القيامة يرفعون عقيرتهم بالقول: مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢).

الإنسان-أساسا- يهرب من الفناء و العدم و يميل إلى الخلود، و هذه الرغبة الداخليه هي من أدله المعاد و أنّ الإنسان مخلوق للخلود، و إلا ما كانت فيه غريزه حبّ الخلود.

لكنّ الإنسان المغرور الأناني الدنيوي يخال خلوده كما في أشياء هي ذاتها عامل فناءه و انعدامه. على سبيل المثال: المال و المقام اللذان هما غالبا من أعداء بقائه يحسبهما وسيله لخلوده.

من هنا يتبين أنّ الظنّ بقدره المال على الإخلاء، هو الذي يدفع إلى جمع المال، و جمع المال أيضا عامل على الاستهزاء و السخريه بالآخرين عند هؤلاء الغافلين.

القرآن الكريم يردّ على هؤلاء و يقول:

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ

كَلَّا، ليس الأمر كما يتصور، فسرعان ما يقذف باحتقار و ذلّه في نار محطّمه و مَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ، نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلَعُ عَلَى الْأُفُقِ .

«لينبذن» من نبذ، أي- كما يقول الراغب في مفرداته-رمى الشيء لتفاهه قيمته.

أي إنّ الله سبحانه يرمى هؤلاء المغرورين المتعاليين يوم القيامة في نار جهنّم كموجودات تافهه لا قيمه لها ليروا نتيجة كبرهم و غرورهم.

ص: ٤٤٩

«الحطمة» صيغه مبالغه من «حطم» أى هشم. وهذا يعنى أن نار جهنم تهشم أعضاء هؤلاء. ويستفاد من بعض الروايات أن «الحطمة» ليست كل نار جهنم، بل هى طبقه رهيبه فى حرارتها. (١)

مفهوم تهشم الأعضاء بدل احتراقها فى نار جهنم، ربّما صعب فهمه فى الماضى. و لكن المسأله اليوم ليست بعجيبه بعد أن اتضح شدّه تأثير أمواج الانفجار، وتبين أن الأمواج الناتجه عن انفجار كبير قادره على تهشيم الإنسان، بل تهشيم العمارات الضخمه بأعمدتها الحديديه المستحكمه.

عباره «نار الله» دليل على عظمه هذه النار، و«الموقده» تعنى استعارها المستمر.

و العجيب أن هذه النار ليست مثل نار الدنيا التى تحرق الجلد أولاً ثم تنفذ إلى الداخل، بل هى تبعث بلهبها أولاً إلى القلب، و تحرق الداخل و تبدأ أولاً بالقلب ثم بما يحيطه، ثم تنفذ إلى الخارج.

ما هذه النار التى تبعث بشررها إلى قلب الإنسان أولاً؟! ما هذه النار التى تحرق الداخل قبل الخارج؟! كل شىء فى القيامة عجيب، و مختلف كثيرا عن هذا العالم، حتى إحراق نارها.

لما ذالا- تكون كذلك، و قلوب هؤلاء الطاغين مركز للكفر و الكبر و الغرور، و بؤره حبّ الدنيا و الثروه و المال؟! لما ذالا تسيطر نار الغضب الإلهى على قلوب هؤلاء قبل أى شىء آخروهم فى هذه الدنيا احرقوا قلوب المؤمنين بسخريتهم و همزهم و لمزهم؟! العداله الإلهيه تقتضى أن يرى هؤلاء جزاء يشبه أعمالهم.

ص: ٤٥٠

الآيات الأخيره من السوره تقول:

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ

و«مُوصَّده» من الإيصاد، بمعنى الأحكام فى غلق الباب. و لذلك تسمى الغرف الكائنه فى داخل الجبال المخصصه لجمع الأموال «الوصيد».

هؤلاء فى الحقيقه يقبعون فى غرف تعذيب مغلقه الأبواب لـ طريق للخلاص منها، كما كانوا يجمعون أموالهم فى الخزانات المغلقه الموصده.

و«العمد» جمع عمود و«ممدده» تعنى طويله.

جمع من المفسرين قال إنها الأوتاد الحديدية العظيمة التى تغلق بها أبواب جهنم حتى لم يعد هناك طريق للخروج منها أبداً، و هى بذلك تأكيد على الآية السابقه التى تقول: إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ .

و قيل إنها إشاره إلى نوع من وسائل التعذيب و الجزء تشبه تلك التى يغلّ بها الشخص فى رجله فيفقد قدره الحركه و هذا جزء ما كانوا يمارسونه من تعذيب للناس الأبرياء فى هذه الدنيا.

و بعضهم أضاف تفسيراً ثالثاً استمدته من الاكتشافات العلميه، و هو أن شعله من نيران جهنم تسلط على هؤلاء مثل أعمده طويله. يقولون: إن الاكتشافات الأخيره أثبتت أن أشعه اكس الخاصه (اشعه رونتجن) تختلف عن سائر الأشعه الاخرى التى تنتشر بشكل مخروطى، و ذلك أنها تنتشر بشكل عمودى، و قادره على النفوذ فى جميع الأجزاء الداخليه للإنسان بما فى ذلك القلب. و لذلك يستفاد منها فى تصوير الأعضاء الداخليه. و الأشعه التى تخرج من نار جهنم شبيهه بالأشعه المذكوره (1).

ص: ٤٥١

و من بين هذه التفاسير، التفسير الأول أنسب. (و استنادا إلى بعض التفاسير عبارته في عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ تَبَيَّنَ حاله جهنم، و بعضها الآخر يرى أنها بيان لحاله أهل جهنم).

بحثان

إشارة

١- الكبر و الغرور أساس الذنوب الكبيرة

الاستعلاء و التكبر على الآخرين بلاء عظيم يصيب الإنسان فيدفعه إلى ارتكاب أنواع المعاصي، الغفلة عن الله، و الكفران بالنعمة، و الانغماس في الأهواء و الشهوات، و الاستهانة بالآخرين، و الاستهزاء بالمؤمنين... كلها من الآثار المشؤومة لهذه الصفة الدنيئة، الأفراد الذين يعانون من عقد النقص ما أن تتوفر لهم مكنه حتى يستفحل فيهم الكبر و الغرور بحيث لا يقيمون للآخرين وزنا، و يودى ذلك إلى انفصالهم عن المجتمع و انفصال المجتمع عنهم.

يغرقون في عالم و همى، و يرون أنفسهم موجودا متميزا، حتى يبلغ الأمر بهم أن يروا أنفسهم من المقربين إلى الله. و هذا يدفعهم إلى الاستهانة بأرواح الآخرين و أعراضهم و أموالهم، و ينشغلون بالهمز و اللمز، و يخالون أنهم يالصاق العيب بالآخرين و ذمهم يزيدون من عظمتهم و شخصيتهم.

و في بعض الروايات شبه هؤلاء الأفراد بالعقرب اللاسعة. (و إذا كان لسع العقرب عن طبيعه فيها، فلسع هؤلاء عن حقد و ضغينه).

و

جاء في حديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قال: «رأيت ليله الإسراء قوما يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه، و يقال: كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم، فقلت: يا

جبرائيل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون» (١).

كما أشرنا من قبل، كان لنا وقفه أطول في هذا المجال عند تفسير سورة الحجرات.

٢- الحرص على جمع المال

بشأن المال و الثروة، اختلفت و جهات نظر الناس بين أفراط و تفريط، بعضهم أسبغ على المال أهميه فائقه فجعله مفتاح حلّ كلّ المشاكل. و إلى ذلك ذهب الشاعر في قوله:

فصاحه سبحان و خط ابن مقله

و حكمه لقمان و زهد ابن أدهم

إذا اجتمعت في المرء و المرء مفلس

فليس له قدر بمقدار درهم

و لذلك فإنّ دأب هؤلاء الأفراد جمع المال، و لا يدخرون وسعا على هذا الطريق و لا يتقيدون بقيد، و لا يهتمون بحلال أو حرام و مقابل هذه المجموعه هناك من لا يعير أيه أهميه للمال و الثروه، يمتدحون الفقر و يشيدون به، و يرون في المال عائقا للتقوى و للقرب الإلهي.

و إزاء ذاك الإفراط و هذا التفريط، تقف النصوص الإسلاميه لتبيّن أنّ المال مطلوب، و لكن بشروط، أوّلها أن يكون وسيله لا غايه.

و الآخر، أن لا يكون الإنسان له أسيرا، بل أن يكون عليه أميرا.

و الثالث: أن يأتي بالطرق المشروعه و أن ينفق في سبيل رضا الله.

الرغبه في مثل هذا المال ليس دليلا على حبّ الدنيا، بل هو دليل على الانشداد بالآخره. و لذلك

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه لعن الذهب و الفضة، فتعجب أحد أصحابه و سأل الإمام فأجابه: «ليس حيث تذهب إليه إنّما الذهب

ص: ٤٥٣

الذى ذهب بالدين، و الفضة التى أفاضت الكفر» (١).

و

عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «السكر أربع سكرات: سكر الشراب، و سكر المال، و سكر النوم، و سكر الملك» (٢).

و

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن كان الحساب حقًا فالجمع لماذا؟ و إن كان الخلف من الله عزّ و جلّ حقًا فالبخل لماذا؟» (٣).

كثيرون هم الذين يشغلون حتى آخر حياتهم بجمع المال، ثم يتركونه للآخرين. هم مسئولون عن حسابهم، و الآخرون ينالون ثماره، سئل أمير المؤمنين على عليه السلام: من أعظم الناس حسره؟ قال: «من رأى ماله فى ميزان غيره، و أدخله به النار، و أدخل وارثه به الجنة» (٤).

و

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فى تفسير قوله تعالى: كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ قَالَ: «هو الرجل يدع المال لا ينفقه فى طاعة الله بخلا ثم يموت فيدعه لمن يعمل به فى طاعة الله أو فى معصيته».

ثم قال الإمام: «فإن عمل به فى طاعة الله رآه فى ميزان فزاده حسره، و قد كان المال له أو عمل به فى معصية الله فهو قواه بذلك المال حتى عمل به فى معاصي الله» (٥).

نعم، رؤيه الإنسان للمال قد تصير من المال و ثنا خطرًا، و قد تجعل منه وسيلة لسعاده كبرى.

نختتم هذه الوقفه بما ورد عن ابن عباس عن كلام عميق الدلاله قال: «إنّ أوّل

ص: ٤٥٤

١-١) -بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٤١، الحديث ١٧.

٢-٢) -المصدر السابق، ص ١٤٢.

٣-٣) -التوحيد للصدوق، نقلًا عن نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٨، الحديث ٨.

٤-٤) -بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٤٢.

٥-٥) -المصدر السابق، الحديث ٢٠.

درهم و دينار ضربا فى الأرض نظر إليهما إبليس فلما عاينهما أخذهما فوضعهما على عينيه، ثم ضمهما إلى صدره، ثم صرخ صرخه، ثم ضمهما إلى صدره، ثم قال:

أنتما قرّه عيني! و ثمره فؤادى، ما ابالى من بنى آدم إذا أحبوكما أن لا يعبدوا! وثننا! حسبى من بنى آدم أن يحبوكما» (١).

اللّهم! احفظنا من سكره المال و المقام و الدنيا و الشهوات.

ربّنا! نجنا من سيطره الشيطان و عبوديه الدرهم و الدينار.

إلهنا! لا نجاه لنا من «الحطمه» المهشمه إلاّ بفضلك فار أف بنا يا كريم.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره الهمزه

ص: ٤٥٥

١-١) -المصدر السابق، ص ١٣٧، الحديث ٣.

سوره الفيل

اشاره

مكيه و عدد آياتها خمس آيات

ص: ٤٥٧

محتوى السّوره:

هذه السّوره- كما يظهر من اسمها- تشير إلى الحادّته التاريخيه التي اقترنت بولاده رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، وفيها نَجّى الله سبحانه الكعبه من شرّ جيش كافر كبير تجهّز من اليمن ممتطيا الفيل.

هذه السّوره تذكّر النَّاس بتلك القصّه العجيبه التي كان كثير من أهل مكّه يحفظون أحداثها في ذاكرتهم لأنّها وقعت في الماضي القريب.

التذكير بهذه القصّه فيه تحذير للكفّار المغرورين المعاندين، كي يفهموا ضعفهم تجاه قدره الله تعالى الذي أباد جيشا عظيما بطير أباييل تحمل حجاره من سجّيل، وهو سبحانه إذن قادر على أن يعاقب هؤلاء المستكبرين المعاندين.

فلا قدرتهم أعظم من قدره أبرهه، ولا عدد أفرادهم يبلغ عدد ذلك الجيش السّوره المباركه تقول لكفّار قريش:

إنكم رأيتم الواقعة بأعينكم فلما ذا لا تترجلون من مطيه غروركم.

فضيله السّوره:

ورد في فضيله هذه السّوره عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال:

«من قرأ في الفريضة أ لم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل شهد له يوم القيامة كلّ سهل و جبل و مدر بأنّه كان من المصلين و ينادى يوم القيامة مناد:

صدقتم على عبدى، قبلت شهادتكم له أو عليه، ادخلوا عبدى الجنّه و لا تحاسبوه

فإنه ممن أحبه و أحبّ عمله» (١).

واضح أنّ كلّ هذه الفضيله و هذا الثواب لمن كانت قراءته باعثا على انكسار روح الغرور فى نفسه، و على السير فى طريق رضا الله سبحانه.

ص : ٤٦٠

١ - ١) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٦٨، الحديث ١.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ (٢) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَزِمِيهِمْ بِحِجَارِهِ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

سبب النزول

اشاره

ورد عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنه قال: كان أبو طالب يضرب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسيفه إلى أن قال: فقال أبو طالب: يا بن أخ إلى الناس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصه؟ قال: لا بل إلى الناس أرسلت كافة الأبيض والأسود والعجمي والعربي والذى نفسى بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود ومن على رؤوس الجبال ومن فى لجج البحار، ولأدعون السنه فارس والروم فحيرت قريش واستكبرت وقالت: أما تسمع إلى ابن أخيك وما يقول والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاختطفتنا من أرضنا ولقلعت الكعبه حجرا حجرا، فأنزل الله تبارك وتعالى: وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِظُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ وَأَنْزَلَ فِي قَوْلِهِمْ لَقَلَعْتَ الْكَعْبَةَ حَجْرًا

حجراً أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ إِلَى آخِرِ آيَةِ (١).

قصة أصحاب الفيل:

ذكر المفسِّرون و المؤرخون هذه القصة بأساليب مختلفه و اختلفوا فى سنه وقوعها. لكن أصل القصة متوافره، و نحن نذكرها استناداً إلى الروايات المعروفه فى «سيره ابن هشام» و «بلوغ الأرب» و «بحار الأنوار» و «مجمع البيان» بتلخيص:

«ذو نواس» ملك اليمن اضطهد نصارى نجران قرب اليمن كى يتخلوا عن دينهم (ذكر القرآن قصه هذا الاضطهاد فى موضوع أصحاب الأخدود فى سوره البروج، و بينها بالتفصيل هناك).

بعد هذه الجريمه نجا من بين النصارى رجل اسمه (دوس) و توجه إلى قيصر الروم الذى كان على دين المسيح، و شرح له ما جرى.

و لما كانت المسافه بين الروم و اليمن بعيده، كتب القيصر إلى النجاشى (حاكم الحبشه) لىنتقم من (ذو نواس) لنصارى نجران، و أرسل الكتاب بيد القاصد نفسه.

جهّز النجاشى جيشاً عظيماً يبلغ سبعين ألف محارب بقيادة (أرياط) و وجهه إلى اليمن. و كان (أبرهه) أيضاً من قواد ذلك الجيش.

اندحر (ذو نواس) و أصبح (أرياط) حاكماً على اليمن، و بعد مدّه ثار عليه أبرهه و أزاله من الحكم و جلس فى مكانه.

بلغ ذلك النجاشى، فقرر أن يقيم (أبرهه). لكن أبرهه أعلن استسلامه الكامل للنجاشى و وفاءه له. حين رأى النجاشى منه ذلك عفا عنه و أبقاه فى مكانه.

(أبرهه) من أجل أن يثبت ولاءه، بنى كنيسه ضخمة جميله غايه الجمال، لا يوجد على ظهر الأرض مثلها آنذاك، و قرر أن يدعو أهل الجزيره العربيه لأن

ص: ٤٦٢

يَحْتَجُّوا إِلَيْهَا بَدَلَ (الْكَعْبَةِ)، وَ يَنْقُلُ مَكَانَهُ الْكَعْبَةَ إِلَى أَرْضِ الْيَمَنِ.

أَرْسَلَ أَبْرَهَةَ الْوَفُودَ وَ الدِّعَاءَ إِلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ، يَدْعُونَهُمْ إِلَى حَجِّ كَنِيسِهِ الْيَمَنِ، فَأَحْسَسَ الْعَرَبُ بِالْخَطَرِ لِارْتِبَاطِهِمُ الْوَثِيقَ بِمَكَّةَ وَ الْكَعْبَةَ وَ نَظَرْتَهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ عَلَى أَنَّهَا مِنْ آثَارِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

تَذَكَّرَ بَعْضُ الزَّوَايَا أَنَّ مَجْمُوعَهُ مِنَ الْعَرَبِ جَاؤُوا خَفِيَةً وَ أَضْرَمُوا النَّارَ فِي الْكَنِيسَةِ. وَ قِيلَ إِنَّهُمْ لَوَثَوْهَا بِالْقَاذُورَاتِ، لِيَعْبُرُوا عَنْ اعْتِرَاضِهِمْ عَلَى فِعْلِ أَبْرَهَةَ وَ يَهِينُوا مَعْبَدَهُ.

غَضِبَ أَبْرَهَةُ وَ قَرَّرَ أَنْ يَهْدِمَ الْكَعْبَةَ هَدْمًا كَامِلًا، لِالْتِمَاقِ وَ لِتَوْجِيهِ أَنْظَارِ الْعَرَبِ إِلَى الْمَعْبَدِ الْجَدِيدِ، فَجَهَّزَ جَيْشًا عَظِيمًا كَانَ بَعْضُ أَفْرَادِهِ يَمْتَطِي الْفِيلَ، وَ اتَّجَهَ نَحْوَ مَكَّةَ.

عِنْدَ اقْتِرَابِهِ مِنْ مَكَّةَ بَعَثَ مِنْ يَنْهَبُ أَمْوَالَ أَهْلِ مَكَّةَ، وَ كَانَ بَيْنَ النَّهْبِ مَائَتًا بَعِيرَ لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ.

بَعَثَ (أَبْرَهَةَ) قَاصِدًا إِلَى مَكَّةَ وَ قَالَ لَهُ: ابْحَثْ عَنْ كَبِيرِ الْقَوْمِ وَ قُلْ لَهُ إِنَّ أَبْرَهَةَ مَلِكُ الْيَمَنِ يَدْعُوكَ. أَنَا لَمْ آتِ لِحَرْبٍ، بَلْ جِئْتُ لِأَهْدِمَ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَوْ اسْتَسَلَّمْتُمْ، حَقَّقْتُ دِمَاؤَكُمْ.

جَاءَ رَسُولُ أَبْرَهَةَ إِلَى مَكَّةَ وَ بَحَثَ عَنْ شَرِيفِهَا فَدَلَّوهُ عَلَى عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَحَدَّثَهُ بِحَدِيثِ أَبْرَهَةَ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ، نَحْنُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِحَرْبِكُمْ، وَ لِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ.

ذَهَبَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ مَعَ الْقَاصِدِ إِلَى النِّجَاشِيِّ، فَلَمَّا قَدَّمَ عَلَيْهِ جَعَلَ النِّجَاشِيُّ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَ رَاقَهُ حَسَنَةً وَ جَمَالَهَ وَ هَيْبَتَهُ، حَتَّى قَامَ مِنْ مَكَانِهِ احْتِرَامًا وَ جَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ وَ اجْلَسَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ إِلَى جِوَارِهِ لِأَنَّهُ مَا أَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ عَلَى سُرِيرِ مَلِكِهِ ثُمَّ قَالَ لِمُتَرَجِّمِهِ اسْأَلْهُ مَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ: نَهَبْتَ إِبْلِي فَمُرْهُمْ بِرَدِّهَا عَلَيَّ.

فاندهش أبرهه و قال لمترجمه: قل له إنه احتل مكانا فى قلبى حين رأيتة، و الآن قد سقط من عينى. أنت تتحدث عن إبلك و لا تذكر الكعبه و هى شرفك و شرف أجدادك، و أنا قدمت لهدمها؟! قال عبد المطلب: أنا ربّ الإبل، و للبيت ربّ يحميه؟! عاد عبد المطلب إلى مكّه، و أخبر أهلها أن يلجأوا إلى الجبال المحيطة بها، و ذهب هو و جمع معه إلى جوار البيت ليدعو فأخذ حلقه باب الكعبه و انشد أبياته المعروفه:

لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك لا يغلبن صليهم و محالهم أبدا محالك جروا جميع بلادهم و الفيل كى يسبوا عيالك
و لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع عيالك و انصر على آل الصليب و عابديه اليوم آلك ثم لاذ عبد المطلب و جمع من قريش
ياحدى شعاب مكّه و أمر أحد ولده أن يصعد على جبل (أبو قبيس) ليرى ما يجرى.

عاد الابن مسرعا إلى أبيه و أخبره أن سحابه سوداء تتجه من البحر (البحر الأحمر) إلى أرض مكّه. استبشر عبد المطلب و صاح: «يا معشر قريش ادخلوا منازلكم فقد أتاكم الله بالنصر من عنده».

من جانب آخر، توجه أبرهه راكبا فيله المسمى «محمودا» مع جيشه الجرار مخترقا الجبال و منحدرًا إلى مكّه، لكن الفيل أبى أن يتقدم، أمّا حينما يوجهه نحو اليمن يهرول، تعجب أبرهه من هذا و تحير.

و فى هذه الأثناء وصلت طيور قادمة من جانب البحر كأنها الخطاطيف و هى تحمل حجرا فى منقارها و حجرين فى رجلها، بحجم الحمصه، و ألقوها على جيش أبرهه، فأهلكتهم. و قيل: إنّ الحجر كان يسقط على الرجل منهم فيخترقه

و يخرج من الجانب الآخر.

ساد الجيش ذعر عجيب، فهلك منه من هلك، و فز من استطاع الفرار، صوب اليمن، و كانوا يتساقطون فى الطريق.

(أبرهه) أصيب بحجر، و جرح، فأعيد إلى صنعاء عاصمه ملكه، و هناك فارق الحياه.

و قيل: إن مرض الحصبه و الجدري شوهد لأول مره فى أرض العرب فى تلك السنه.

و قيل: إن أبرهه جاء بفيل واحد كان يركبه و اسمه محمود. و قيل: بل ثمانيه أفيال، و قيل: عشره، و قيل: اثنى عشر.

و فى هذا العام ولد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حسب الروايه المشهوره، و قيل إن بين الحادثتين ارتباطا.

على أى حال، فإن أهميه هذه الحادثه الكبرى بلغت درجه تسميه ذلك العام بعام الفيل، و أصبح مبدأ تاريخ العرب (١).

التفسير

اشاره

كيد ابرهه:

يخاطب الله رسوله صلى الله عليه و آله و سلم فى الآيه الاولى من السوره و يقول له: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ؟ لقد جاؤوا بجيش جرار مجهز بالعدّه و العدد ليهدموا الكعبه. و الله سبحانه دحرمهم بجيش فى ظاهره صغير بسيط. و أباد الفيله بطير صغير، و هدم الآله

ص: ٤٦٥

١- ١) - سيره ابن هشام، ج ١، ص ٣٨-٦٢؛ و بلوغ الإرب، ج ١، ص ٢٥٠-٢٦٣؛ و بحار الأنوار، ج ١٥، ص ١٣٠ و ما بعدها؛ و مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٢.

الحرية المتطورة في ذلك الزمان بحجاره من سجل. ليتضح ضعف هذا الإنسان المغرور المتكبر أمام قدره الله.

التعبير بجمله أَلَمْ تَرَ فِي الْآيَةِ، مع أَنَّ الحادثه وقعت قبل ولاده النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو مقترنه بولادته، يعود إلى أَنَّ الحادثه المذكوره قريه العهد من عصر النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، كما إِنَّهَا بلغت من الشهره والتواتر و كأن النَّبِيَّ رآها بعينه المباركه. هذا إلى أن جمعا من معاصري الرسول كانوا قد رأوها بأعينهم.

عبارة بِأَصْحَابِ الْفِيلِ إشاره إلى ما كان مع الجيش المهاجم من فيله جاؤوا بها من اليمن ليرعبوا العرب و خيولهم (1).

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ

!؟ لقد استهدفوا الكعبه ليهدموها و ليقيموا بدلها كعبه اليمن، و ليدعوا قبائل العرب إلى حج هذا المعبد الجديد. لكنَّه سبحانه حال دون تحقق هدفهم، بل زاد الكعبه شهره و عظمه بعد أن ذاع نبأ أصحاب الفيل في جزيره العرب، و أصبحت قلوب المشتاقين تهوى إليها أكثر من ذى قبل، و أسبغ على هذه الديار مزيدا من الأمن.

كيدهم إذن صار في تضليل، أى فى ضلال حيث لم يصلوا إلى هدفهم.

ثم تشرح الآيات التاليه بعض جوانب الواقعه.

وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ

«أبابيل» لم تكن فى لهجات العرب المعروفه اسما لطائر، بل إِنَّهَا صفه، قيل إِنَّ معناها جماعات متفرقه. أى إِنَّ هذه الطير كانت تأتى على شكل مجموعات و الكلمه لها معنى الجمع. و قيل: إِنَّ مفرده (أبابله) و هى المجموعه من الطير أو الخيل أو الإبل، و قيل إِنَّ الكلمه جمع لا مفرد له من لفظه.

على أى حال عباره «طيرا أبابيل» تعنى طيرا على شكل مجموعات.

ص: ٤٦٦

(١-١) - الفيل، لفظه مفرد، و له هنا معنى الجنس و الجمع.

و المشهور أنّ هذه الطير كانت تشبه الخطاطيف قدمت من صوب البحر الأحمر في اتجاه أصحاب الفيل.

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارِهِ مِنْ سَجِيلٍ

(١)

و كما ذكرنا في قصّه أصحاب الفيل، فإنّ كلّ واحد من هذه الطير كانت تحمل ثلاث حجارات أصغر من الحمصه، واحده في منقارها و اثنين في ارجلها.

و ما أن تسقط هذه الحجاره على أحد حتى تهلكه.

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ

و«العصف» هو النبات الجاف المتهشم، أى هو (التبن) بعبارة اخرى. و قيل إنّه قشر القمح حين يكون في سنبله. و المناسب هنا هو المعنى الأوّل.

و قال «مأكول» إشاره إلى أنّ هذا التبن قد سحق مرّه أخرى بأسنان الحيوان، ثمّ هشّم ثلثه في معدته، و هذا يعنى أنّ أصحاب الفيل، قد تلاشوا بشكل كامل عند سقوط الحجاره عليهم.

و هذا التعبير إضافه إلى ما له من معنى الإباده التامه، يحمل معنى التفاهه و الضعف ممّا صار إليه هؤلاء المهاجمون الطغاه المستكبرون و المتظاهرون بالقوّه.

بحوث

اشاره

١- المعجزه (لبيت ربّ يحميه)

القرآن الكريم يذكر هذه القصّه الطويله في عبارات قليله قصيره قارعه، و في غايه الفصاحه و البلاغه، و يركز على نقاط تساعد على تحقيق الأهداف القرآنيه المتمثله في إيقاظ المتعنتين المغرورين و بيان ضعف الإنسان أمام قدره الجبار

ص: ٤٦٧

هذه الحادته تبين أنّ المعجزات و الخوارق لا تستلزم - كما ظنّ بعض - وجود النّبي و الإمام، بل تظهر في كلّ ظرف يشاء الله فيه أن تظهر. و الهدف منها إظهار عظمه الله سبحانه و حقانيه دينه.

هذا العقاب العجيب الأعجazy، يختلف عمّا نزل من عقاب على امم اخرى مثل طوفان قوم نوح، و زلزال قوم لوط و إمطارهم بالحجاره، و صاعقه قوم ثمود؛ فهذه سلسله حوادث طبيعيه يتمثل إعجازها في حدوثها في تلك الظروف الخاصّه.

أمّا قصّه إباده جيش أبرهه بحجاره من سجّيل، ترميها طير أبابيل، و ليست كالحوادث الطبيعيه.

تحليق هذه الطيور الصغيره، و اتجاهها نحو ذلك الجيش الخاص، و رميه بالحجاره التي تستطيع أن تهشم أجساد جيش ضخم... كلّ تلك امور خارقه للعاده. و لكنّها - كما نعلم - ضئيله جدّا أمام قدره الله تعالى.

الله الذي خلق داخل هذه الحجاره قدره ذريه لو تحررت لولدت انفجارا هائلا، لقادر على أن يجعل في هذه الحجاره خاصيه تستطيع أن تحوّل جيش أبرهه إلى (عصف مأكول).

لسنا في حاجه لأن نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المعاصرين في تفسير هلاك جيش أبرهه بمكروبات و باء الحصبه و الجدري (1) أو أن نقول إنّ هذه الحجاره كانت ذرات متكافئه أزيلت الفراغات بينها فأصبحت ثقيله للغاية، و قادره على أن تخترق الأجساد.

كلّ هذه تبريرات تستهدف إعطاء صفه طبيعيه لهذه الحادته. و لسنا بحاجه

١- ١) - تفسير جزء عم، محمّد عبده، ص ١٥٨. و ذكر المؤرخون طبعا انتشار و باء الحصبه و الجدري في بلاد العرب لأوّل مرّه في نفس ذلك العام، لكن هذا لا ينهض دليلا على أن هلاك جيش أبرهه بتلك الأوبئه.

إليها. كل ما نعلمه هو أنّ هذه الحجارة كانت لها خاصية غريبه فى تهشيم الأجسام. و لم يخبرنا القرآن بأكثر من ذلك، و ليس الأمر بمتعذر أمام قدره الله سبحانه.

٢- أشدّ الجزاء بأبسط وسيله

يلاحظ أنّ هذه القصّه تتضمّن بيان قدره الله أمام المستكبرين و الطغاه على أفضل وجه... و لعل العقاب الذى حلّ بأبرهه و جيشه لا يبلغه عقاب، إذ على أثره تهشّم جيش و تحول إلى (عصف مأكول).

ثمّ إنّ إباده هذا الجيش الجرار بكلّ ما كان يمتلكه من قدره و شوكة كانت بواسطه أحجار صغيره، و بواسطه طيور صغيره كالخطايف. و فى هذا تحذير و إنذار لكلّ الطغاه و المستكبرين فى العالم، ليعلموا مدى ضعفهم أمام قدره الله سبحانه.

و قد يوكل الله سبحانه أداء هذه المهام الكبرى لموجودات أصغر، مثل المكروبات التى لا ترى بالعين المجرده، لتتكاثر و تتناسل فى مدّه و جيزه و تصيب أمما قويه بالأوبئه المختلفه كالطاعون، و تبيدهم خلال مدّه قصيره.

«سد مأرب» العظيم فى اليمن - كما جاء ذكره فى تفسير سوره سبأ - كان وسيله لعمران كبير و مدنيه عظيمه و قويه لقوم سبأ، و حين طغى هؤلاء القوم، جاء أمر إبادههم عن طريق فأر صحراوى أو عدد من الفئران - كما تذكر بعض الروايات - فنقبت السد، و اتسع الثقب تدريجيا بالماء، و تحطم السد العظيم، و اكتسح الماء كلّ ما بناه القوم و أغرق الأفراد أو شردهم إلى كلّ حدب و صوب متفرقين حيارى، و هذه من مظاهر قدره الله سبحانه.

٣- أهداف قصّه الفيل

من السوره التالیه (سوره لإيلاف) نفهم أنّ أحد أهداف سوره الفيل التذكير

بنعمه إلهيه كبرى من الله سبحانه بها على قريش، و تفهيمهم أنه لو لا لطف الله سبحانه و فضله لما بقى أثر لمكّه و لا للكعبه و لا لقريش... لعل ذلك يكون عاملا على كبح جماح هؤلاء المغرورين، و على قبول دعوه الدين المبين.

من جهه اخرى هذه الحادته اقترنت بولاده رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و كانت ممهده للبعثه المباركه، و إرهابا (1) من إرهابات بزوغ فجر الإسلام.

و القصة من ناحيه ثالثه تهديد لكل طغاه العالم، من قريش و غير قريش؛ ليعلموا أنهم لا يستطيعون أبدا أن يقاوموا أمام قدره الله تعالى، فما أجدر بهم أن يعودوا إلى رشدهم، و يخضعوا لأمر الله، و يستسلموا للحق و العدل.

ثم هي من جانب رابع تبين أهميه هذا البيت الكبير. الأعداء الذين استهدفوا هدم الكعبه، و نقل مركزه هذا الحرم الإبراهيمي إلى مكان آخر، قد واجهوا من العذاب ما أصبح عبره للأجيال، و ما زاد من أهميه هذا المركز المقدس.

و من جهه خامسه، هذه الحادته تؤكد مشيئه الله سبحانه في جعل هذا الحرم آمنا استجابته لدعوه إبراهيم الخليل عليه السلام.

٤- حادته تاريخيه قطعيه

حادته «أصحاب الفيل» كانت من الأهميه و الشهره بين العرب بحيث جعلوها مبدءا للتاريخ. و القرآن الكريم بدأ الحديث عن القصة بعبارته أَلَمْ تَرَ مَخَاطِبَا نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الَّذِي لَمْ يَرِ هَذِهِ الْحَادِثَةَ. وَ هِيَ دَلَالَةٌ أُخْرَى عَلَى قَطْعِيَّةِ وَقُوعِ الْحَادِثَةِ. أضف إلى ذلك أنّ النبي -حين تلا- هذه الآيات على المشركين -لم ينكر عليه أحد، و لو كان أمرا مشكوكا لاعترضوا عليه، و لسجل المؤرخون هذا الاعتراض كما سجلوا سائر الاعتراضات؛ خاصه و أنّ القرآن بدأ الموضوع بجمله أَلَمْ تَرَ .

ص : ٤٧٠

١ - ١) - «الإرهاب» هو المعجزه التي، تسبق ظهور النبي، لتمهيد لدعوته. و الكلمه في الأصل تعنى الأساس و الحجر الأول الذي يقام عليه البناء، و كذلك بمعنى الاستعداد.

كما إنّ عظمه هذا البيت الكريم تتبين ضمناً بهذا الإعجاز التاريخي القطعي.

اللّهم! وفقنا لصيانته هذا المركز التوحيدي العظيم.

اللّهم! طهّر هذا البيت من أولئك الذين يكتفون بحفظ ظواهره و يصادرون رسالته التوحيدية الحقيقية.

ربّنا! ارزقنا زيارته البيت بوعى و عرفان.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الفيل

ص: ٤٧١

سوره قريش

اشاره

مكيه و عدد آياتها أربع آيات

ص: ٤٧٣

محتوى السّوره:

هذه السّوره فى الحقيقه مكمله لسوره الفيل، و آياتها تدل على ذلك.

تتضمّن هذه السّوره بيان نعمه الله على قريش و لطفه لهم و محبّته له، كى يحرك فيهم دافع الشكر و يحثهم على عباده ربّ هذا البيت العظيم الذى يستمدون منه كلّ مفاخرهم و شرفهم.

و كما إنّ سوره «و الضحى» و سوره «ألم نشرح» تعتبران سوره واحده - كما ذكرنا - كذلك سوره «الفيل» و سوره «قريش» هما سوره واحده، و ارتباط موضوعهما يدل على ذلك أيضا.

و لذلك وجب قراءتهما معا فى الصلاه لمن يرى وجوب قراءه سوره كامله بعد الحمد.

لمزيد من التوضيح تراجع كتب الفقه فى أبواب الصلاه. (١)

فضيله السّوره:

ورد فى فضيله هذه السّوره

عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأها اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبه و اعتكف بها» (٢).

ص: ٤٧٥

١-١) -أورد الحر العاملى، فى كتابه وسائل الشيعه، ج ٤، ص ٧٤٣، باب ١٠ من أبواب قراءه الصلاه، روايات عدّه فى هذا المضمّار.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٣.

هذه الفضيله دون شك لمن عبد ربّ البيت حقّ عبادته، و صان حرمه البيت كما يجب، و تشربت نفسه برسالة هذا المركز التوحيدى.

ص: ٤٧٤

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)

التفسير

اشاره

رب هذا البيت يجب أن يعبد:

في سوره «الفيل» جاء ذكر إباده أصحاب الفيل الذين جاؤوا لهدم الكعبه و هذه السوره التي تعتبر امتدادا للسوره السابقه تقول: نحن جعلنا أصحاب الفيل كعصف مأكول: لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١)، أى لكى تأتلف قريش فى هذه الأرض المقدسه و تتهياً بذلك مقدمات ظهور نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم.

«إيلاف» مصدر آلف، و«آلفه» أى جعله يألف، أى جعله يجتمع اجتماعا مقرونا بالانسجام و الأنس و الالتيام. و قال بعضهم: «الإيلاف» من المؤلفه، و هى

ص: ٤٧٧

١ - ١) - «اللام» فى «الإيلاف» بمعنى العله، و جار و مجرور متعلق ب«جعل» فى السوره السابقه فى آيه فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ أو أحد الأفعال التي كانت فى السوره، بينما يرى البعض أن الجار و المجرور يتعلقان بجمله «فليعبدوا» القادمه، لكن هذا الاحتمال لا يتفق مع مضمون الآيات، و المعنى الأول أحسن.

العهد و الميثاق، و لا تناسب بين هذا المعنى و بين الكلمه و هى مصدر باب الأفعال، و بين محتوى السوره.

على كل حال، المقصود إيجاد الألفه بين قريش و هذه الأرض المقدسه و هى مكّه و البيت العتيق، لأنهم و كل أهل مكّه اختاروا السكن فى هذه الأرض لمكانتها و أمنها. كثير من أهل الحجاز كانوا يحجون البيت كل سنه، و يقترن حجهم بنشاط أدبى و اقتصادى فى هذا البلد الأمين.

كل ذلك كان يحدث فى ظل الجو الآمن. و لو أنّ هذا الأمن قد انعدم أو أنّ الكعبه قد انهدمت بفعل هجوم أبرهه و أمثاله لما كان لأحد ألفه بهذه الأرض.

كلمه «قريش» فى الأصل نوع من الأحياء البحريه الضخمه التى تبتلع كل ما يصادفها، كما يقول المفسرون و اللغويون، و عن ابن عباس فى معنى قريش قال:

«لدابه تكون فى البحر من أعظم دوابه، يقال لها القريش، لا تمرّ بشيء من الغث و السمين إلاّ أكلته!» و استشهد لذلك بأبيات ممّا قالته العرب.

من هنا فإنّ انتخاب هذا الاسم لهذه القبيله يعود إلى اقتدار هذه القبيله و قوتها، و إلى استغلال هذه القوه فى الانقضاض على الآخرين.

و قيل إنّ قريش من القرش، و هو الاكتساب، لأنّ قريشا كانت مشغوله دوما بالتجاره و الكسب.

و قيل: إنّ معنى «القرش» التفتيش و المراجعة، و سميت قريش بذلك لتفقدتها أحوال الحجاج و المسارعه لمساعدتهم.

و «القرش» فى اللغه ورد بمعنى الاجتماع أيضا، و إذا كان هذا المعنى مقصودا فى التسميه فذلك يعود إلى ما كانت تتصف به هذه القبيله من اجتماع و انسجام.

على أى حال اسم قريش لم يقترن بسمعه طيبه. فهم و إن كانوا عشيره الرسول- إلاّ أنّهم ناصبوا الإسلام أشدّ العدا، و لم يألوا جهدا فى وضع العراقيل أمام الدعوه و الوقوف بوجهها و تعذيب الدعاه، و بعد انتصار الإسلام عليهم،

عمدوا إلى التآمر الخفى على المسلمين، ثم بعد وفاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلقوا أحداثا مؤلمة لا ينساها لهم تاريخ الإسلام أبدا. ونعلم أنّ بنى أمية و بنى العباس الذين أقاموا حكمه الجابره و الطواغيت كانوا من قريش.

القرائن التاريخيه تشير إلى أنّ هذه القبيله كانت فى الجاهليه أيضا تستثمر الناس و تستغلهم. و لذلك وجدت فى الإسلام خطرا على مصالحها لدعوته إلى تحرير الإنسان، و شنت عليه حربا لا هواده فيها، إلى أن اندحرت أمام قدره الإسلام.

إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ

(١)

مكة تقع فى واد غير ذى زرع، و الرعى فيها قليل، لذلك كانت عائدات أهل مكة غالبا من قوافل التجاره، فى فصل الشتاء يتجهون إلى أرض اليمن فى الجنوب حيث الهواء معتدل، و فى فصل الصيف إلى أرض الشام فى الشمال حيث الجو لطيف. و الشام و اليمن كانا من مراكز التجاره آنذ، و مكة و المدينه حلقتا اتصال بينهما.

هذه هى رحله الشتاء... و رحله الصيف.

و المقصود بـ «إيلافهم» فى الآيه أعلاه قد يكون جعلهم يألفون الأرض المقدسه خلال رحلاتهم و ينشدون إليها لما فيها من أمن، كى لا تغريهم أرض اليمن و الشام، فيسكنون فيها و يهجرون مكة.

و قد يكون المقصود إيجاد الألفه بينهم و بين سائر القبائل طوال مدّه الرحلتين، لأنّ الناس بدأوا ينظرون إلى قوافل قريش باحترام و يعيرونها أهميه

ص: ٤٧٩

١ - ١) - «إيلافهم» بدل من فى الآيه السابقه، و (هم) مفعول أول، و (رحله الشتاء) مفعول ثان، و قيل أنه ظرف، و قيل منصوب بنزع الخافض، أى إيلافهم من رحله الشتاء و الصيف (يبدو أن المعنى الثانى و الثالث أنسب). «رحله» فى الأصل من «رحل» - على زنه شهر - بمعنى الغطاء الذى يغطى به ظهر الدابه لركوبها، ثم أطلقت على الإبل أو السفر بواسطته أو بوسائط اخرى.

خاصه بعد قصه اندحار جيش أبرهه.

قريش لم تكن طبعاً مستحقه لكل هذا اللطف الإلهي لما كانت تقترفه من آثام، لكن الله لطف بهم لما كان مقدراً للإسلام و النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن يظهرها من هذه القبيله و تلك الأرض المقدسه.

الآيه الاخيره تقول: إِنَّ هَذِهِ النِّعْمَ الإِلهِيَةَ الَّتِي أَغْدَقْتَ عَلَى قُرَيْشٍ بِبِرْكَةِ الكَعْبَةِ يَجِبُ أَنْ تَدْفَعَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْبَيْتِ لَا الْاَوْثَانِ.

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ أَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ

...الذي جعل تجارتهم رائجه مريحه و مربحه، و دفع عنهم الخوف و الضرر، كل ذلك باندحار جيش أبرهه.

و بفضل دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام مؤسس الكعبه. لكنهم لم يقدروا هذه النعمه، فبدلوا البيت المقدس ببيت للأوثان، و ذاقوا في النهايه و بال أمرهم.

اللهم! هب لنا توفيق العباده و الطاعه و شكر النعم و حراسه هذا البيت العظيم.

ربنا! زد في عظمه هذا المركز الإسلامى الكبير و اجعله حلقة اتصال بين المسلمين.

إلھنا! قطع دابر الأعداء الظالمين القتلہ المتلاعبين بمقدرات هذا المركز الإسلامى الكبير.

آمين يا رب العالمين نهايه سوره قريش

سوره الماعون

اشاره

مكيه و عدد آياتها سبع آيات

ص: ٤٨١

محتوى السّوره:

هذه السّوره-على رأى أكثر المفسّرين-مكّيه، و لحنها الذى يتحدث عن القيامه و أعمال منكرى القيامه بمقاطع قصيره و قارعه يؤيد ذلك.

السّوره بشكل عام تذكر صفات و أعمال منكرى القيامه فى خمس مراحل.

فهؤلاء نتيجة لتكذيبهم بذلك اليوم، لا- ينفقون فى سبيل الله و على طريق مساعدته اليتامى و المساكين. ثم هم يتساهلون فى الصلاه، و يعرضون عن مساعدته المحتاجين.

و فى سبب نزول السّوره قيل إنّها نزلت فى «أبى سفيان» الذى كان ينحر فى اليوم اثنين من الإبل و يطعم أصحابه، و لكن يتيما جاءه يوما يطلب منه شيئاً فضربه بعصاه و طرده.

و قيل: إنّها نزلت فى «الوليد بن المغيرة»، و قيل: فى «العاص بن وائل».

فضيله السّوره:

ورد فى فضيله هذه السّوره

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال:

«من قرأ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ فِي فَرَائِضِهِ وَ نَوَافِلِهِ قَبْلَ اللَّهِ صَلَاتِهِ وَ صِيَامِهِ، وَ لَمْ يَحَاسِبْهُ بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (١).

ص: ٤٨٣

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ
لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

التفسير

اشاره

إنكار المعاد و آثاره المشؤومه:

هذه السوره المباركه تبدأ بسؤال موجه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الآثار المشؤومه لإنكار المعاد و تقول:

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ

و تجيب عن السؤال:

فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ، وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ

«الدين» هنا «الجزاء» أو يوم الجزاء، و إنكار يوم الجزاء له عواقبه الوخيمه و انعكاسات على أعمال الإنسان. و فى هذه السوره ذكرت
خمسه آثار لهذا

الإنكار منها: «طرد اليتيم، و عدم الحثّ على إطعام المسكين». أى إنّ الشخص المنكر للمعاد لا يطعم المساكين، و لا يدعو الآخرين إلى إطعامهم.

و احتمال بعض أن يكون المقصود من الدين هنا القرآن أو الإسلام.

و المعنى الأوّل أنسب. و نظيره ورد فى قوله تعالى: [□] كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ (١) و قوله سبحانه: [□] فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٢) . و فى هذه الآيات ورد «الدين» بمعنى يوم الجزاء أيضا بقرينه الآيات الأخرى.

«يدع» أى يدفع دفعا شديدا، و يطرد بخشونه.

و «يحضّ» أى يحرضّ و يرغب الآخرين على شىء، و الحضّ مثل الحثّ، إلاّ- أن الحثّ- كما يقول الراغب- يكون بسوق و سير، و الحضّ لا يكون بذلك.

و صيغه المضارع فى الفعلين (يدع) و (يحضّ) تدل على استمرارهم على مثل هذا العمل فى حق الأيتام و المساكين.

و يلاحظ هنا بشأن الأيتام، أنّ العواطف الإنسانية تجاه هؤلاء أكثر أهميه من إطعامهم و إشباعهم. لأنّ آلام اليتيم تأتى من فقدانه مصدر العاطفه و الغذاء الروحى و التغذية الجسميه تأتى فى المرحله التاليه.

و مژه اخرى نرى القرآن يتحدث عن إطعام المساكين، و هو من أهم أعمال البرّ، و فى الآيه إشاره إلى أنّك إذا لم تستطع إطعام المساكين، فشجّع الآخرين على ذلك.

الفاء فى «فذلك» لها معنى السببيه، و تعنى أنّ التكذيب بالمعاد هو الذى يسبب هذه الانحرافات. و الحقّ أنّ المؤمن بالمعاد و بتلك المحكمه الإلهيه الكبرى و بالحساب و الجزاء يوم القيامه، إيمانا راسخا تظهر عليه الآثار الإيجابيه لهذا الإيمان فى كلّ أعماله. و لكن فاقد الإيمان و المكذب بيوم الدين تظهر آثار

ص: ٤٨٥

١-١) - الإنفطار، الآيه ٩.

٢-٢) - التين، الآيه ٧.

التكذيب عليه متمثله فى الجراه على ارتكاب الذنوب و الجرائم بشكل محسوس.

و يتواصل وصف هؤلاء المكذبين بالدين فتقول الآيات التاليه: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

لا يقيمون للصلاه وزنا،و لا يهتمون بأوقاتها،و لا يراعون أركانها و شروطها و آدابها.

«ساهون»من السهو،و هو فى الأصل الخطأ الذى يصدر من الإنسان عن غفله،سواء كان مقصرا فى المقدمات أم لم يكن.فى الحاله الاولى لا يكون الساهى معذورا،و فى الحاله الثانيه معذور.و المقصود فى الآيه السهو المقرون بالتقصير.

و يلاحظ أنّ الآيه لم تقل «فى صلاتهم ساهون»،لأنّ السهو فى الصلاه يعرض لكل فرد،و لكنّها قالت:«عن صلاتهم ساهون».فهم يسهون عن الصلاه بأجمعها.

واضح أنّ هذه الحاله لو اتفق وقوعها مرّه أو مرات لأمكن أن يكون ذلك عن قصور.لكن الذى يسهو عن صلاته دائما فهو المهمل لصلاته،لعدم إيمانه بها و إذا صلى أحيانا فلخوف من ألسن الناس و أمثال ذلك.

إضافه لما ذكرناه من معانى لكلمه «ساهون»ذكر المفسّرون معانى اخرى من ذلك تأخير الصلاه عن وقت فضيلتها.أو إشاره إلى المنافقين الذين ما كانوا يؤمنون بثواب الصلاه و لا بعقاب تركها.أو المقصود الذين يراؤون فى صلاتهم (بينما جاء ذكر هذا المعنى فى الآيه التاليه).

الجمع بين هذه التفاسير ممكن طبعا،و إنّ كان التفسير الأوّل أنسب.

على أى حال،حين يكون الساهون عن الصلاه مستحقين للويل،فما بالك بتاركى الصلاه؟! الصفه الرابعه و الخامسه للمكذبين بالدين تذكرها الآيتان الأخيرتان.

من المؤكّد أنّ أحد عوامل التظاهر و الرياء عدم الإيمان بيوم القيامة، و عدم الانشداد بطلب الثواب الإلهي. و إلا كيف يمكن للإنسان أن يترك مثوبه الله و يتجه إلى الناس ليتزلف إليهم؟! «الماعون» من «المعن» و هو الشيء القليل. و كثير من المفسرين قالوا إنّ المقصود من «الماعون» الأشياء البسيطة التي يستعيرها أو يقتنيها الناس و خاصّه الجيران من بعضهم، مثل حفنه الملح، و الماء، و النار (الثقاب)، و الأواني و أمثالها.

واضح أنّ الذي يبخل في إعطاء مثل هذه الأشياء إلى غيره إنسان دنيء عديم الإيمان. أي إنّه بخيل إلى درجة الإباء عن إعطاء مثل هذه الأشياء. بينما يمكن لهذه الأشياء البسيطة أن تسدّ الاحتياجات الكبيره. و منعها يؤدي إلى بروز مشاكل كثيره في حياة الأفراد.

و قيل: إنّ الماعون يعني الزكاه. لأنّ الزكاه تشكل نسبه قليله من أصل المال قد تبلغ عشره بالمائه و أحيانا خمسه بالمائه و أحيانا اثنين و نصف بالمائه.

منع الزكاه طبعاً من أفضع السيئات، لأنّ الزكاه تحل كثيرا من مشاكل المجتمع الاقتصادي.

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام في تفسير الماعون قال: «هو القرض يقرضه، و المتاع يعيره، و المعروف يصنعه» (١).

و

في روايه اخرى عن الصادق عليه السّلام فسّر الماعون بنفس المعنى السابق. فسأله سائل قال: لنا جيرانا إذا أعرناهم متاعا كسروه و أفسدوه فعلينا جناح أن نمنعهم؟ فقال: «لا ليس عليكم جناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك» (٢).

ص: ٤٨٧

١-١) -الكافي، نقلا عن نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٧٩، الحديث ١٨.

٢-٢) -المصدر السابق، الحديث ١٩.

و فى معنى الماعون ذكرت احتمالات اخرى ذكر القرطبي منها اثني عشر رأيا يرجع كثير منها إلى معنى مشترك و المهم ما ذكرناه أعلاه.

ذكر هاتين الصفتين بشكل متوال(الرياء و منع الماعون) كأنه إشارة إلى أن هؤلاء المكذبين بالدين يؤدون ما لله بنيه الناس، و ما للناس يمنعونهم، و من هنا لا يصيب أى ذى حقّ حقّه.

مسك الختام

حديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من منع الماعون جاره منعه الله خيره يوم القيامة، و وكله إلى نفسه، و من وكله إلى نفسه فما أسوأ حاله»؟! (١)

تعقيب

إشارة

١- تلخيص موضوعات سورة الماعون

فى هذه السورة القصيره، ذكر الله سبحانه مجموعه من الصفات الرذيله التى إن اتصف بها شخص فهى دليل عدم إيمانه و دنائته و حقارته. و يلاحظ أنّها جميعا فروع لظاهرة التكذيب بيوم الدين أى بيوم الجزاء.

إهانته اليتامى، و ترك إطعام المساكين، و التهاون فى الصلاة، و الرياء، و عدم التعاون مع الناس حتى فى إعاره الأشياء الصغيره... تشكل بمجموعها طبيعه حياه هؤلاء المكذبين.

من هنا فهؤلاء أناس بخلاء ذاتيون أنانيون متظاهرون لا ارتباط لهم بالخالق و لا بخلقه... أناس خلت نفوسهم من نور الإيمان و الشعور بالمسؤوليه، لا بثواب الله يفكرون، و لا من عذابه يخشون.

ص: ٤٨٨

٢- التظاهر والرياء بلاء اجتماعي كبير

قيمه كل عمل تتوقف على دافعه، وبالتعبير الإسلامي، أساس كل عمل نيه عامله.

الإسلام يركز على النيه في تقويم الأعمال. لذلك

ورد عن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات، وكل امرئ ما نوى».

و

جاء في ذيل هذا الحديث: «فمن غزى ابتغاء ما عند الله فقد وقع أجره على الله عز وجل و من غزى يريد عرض الدنيا أو نوى عقالا لم يكن له إلا ما نوى» (١).

و هذا يعود إلى أنّ النيه هي التي تصوغ شكل العمل دائما. من كان يعمل لله جعل أساس عمله مستحكما، وسعى بكل جهده إلى أن يستفيد منه الناس أكثر الاستفادة. لكن المتظاهر المرئى يكتفى بزخرفه الظاهر و تنميته من دون أن يهتم بعمق العمل و باطنه و بحاجة المحتاجين إليه.

المجتمع الذي يتعود على الرياء لا- يتعد عن الله و عن الأخلاق الحسنه و الملكات الفاضله فحسب، بل تصبح كل برامج الاجتماعيه فارغه خاليه المحتوى، لا- تتعدى مجموعته من المظاهر، و إنّها لمأساه أن يكون مصير الفرد و مصير المجتمع بهذا الشكل.

الزوايات في ذم الرياء كثيره، بعضها و صفته بأنه نوع من الشرك. و هنا نذكر ثلاثا منها:

-١

عن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم قال: «سيأتى على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، و تحسن فيه علانيتهم، طمعا في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياء، لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب، فيدعونه دعاء الغريق، فلا يستجيب لهم!»

(٢)

ص: ٤٨٩

١-١) -وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٥، ح ١٠.

٢-٢) -اصول الكافي، ج ٢، باب الرياء، الحديث ١٤.

عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا قَالَ: «إِنَّ الْمِرَائِيَّ يَدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ: يَا كَافِرًا! يَا فَاجِرًا! يَا غَادِرًا! يَا خَاسِرًا! حَبِطْ عَمَلُكَ، وَبَطُلْ أَجْرُكَ، فَلَا خَلَاصَ لَكَ فَالْتَمَسْ أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ» (١).

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال مخاطبًا زواره (أحد أصحابه): «من عمل للناس كان ثوابه على الناس يا زواره! كلّ رياء شرك» (٢).

اللَّهُمَّ! إِخْلَصِ التِّيَّهُ أَمْرَ عَسِيرٍ فَأَعْنَا عَلَيْهِ بِفَضْلِكَ.

رَبَّنَا! هَبْ لَنَا إِيمَانًا يَجْعَلُ مَعْيَارَ تَفْكِيرِنَا ثَوَابَكَ وَعِقَابَكَ، وَيسَاوِي فِي أَنْظَارِنَا بَيْنَ سَخَطِ الْمَخْلُوقِينَ وَرِضَاهُمْ فِي السَّلُوكِ إِلَيْكَ.

إِلَهِنَا! اغْفِرْ بِرَحْمَتِكَ زَلَاتِنَا.

آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ نَهَايَهُ سُورَةُ الْمَاعُونِ

١-١) -وسائل الشيعة، ج ١، ص ٥١ (ذيل الحديث ١٦).

٢-٢) -وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٩ (ذيل الحديث ١١).

سوره الكوثر

اشاره

مكيه و عدد آياتها ثلاث آيات

ص: ٤٩١

محتوى السوره:

المشهور أنّ هذه السوره نزلت في مكّه، وقيل: في المدينة، وقيل: من المحتمل أنّها نزلت مرّتين في مكّه و المدينة، لكن الروايات في سبب نزول السوره تؤيد أنّها مكّيه.

ذكر في سبب نزول السوره: أنّ «العاص بن وائل» رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم يخرج من المسجد، فالتقيا عند باب بنى سهم، وتحدثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد. فلما دخل «العاص» قيل له من الذى كنت تتحدث معه؟ قال:

ذلك الأبت. وكان قد توفى عبد الله بن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم وهو من خديجه، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبت. قسمته قريش عند موت ابنه أبت. (فنزلت السوره تبشر النّبي بالنعم الوافره و الكوثر و تصف عدوّه بالأبت) (١).

و لمزيد من التوضيح نذكر أنّ النّبي كان له ولدان من ام المؤمنين خديجه عليها السّلام أحدهما «القاسم» و الآخر «الطاهر» و يسمى أيضا عبد الله. و توفى كلاهما في مكّه. و أصبح النّبي من دون ولد. هذه المسأله و فرت للأعداء فرصه الطعن بالنّبي فسّموه الأبت (٢).

ص: ٤٩٣

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٩.

٢-٢) - كان للرسول ابن آخر من «ماريه القبطيه» اسمه إبراهيم. ولد في الثامن للهجره بالمدينه، و لكنّه توفى أيضا قبل بلوغ الثّانيه من عمره، و حزن عليه الرسول كثيرا.

و العرب حسب تقاليدھا كانت تعير أھمّيه بالغه للولد، و تعتبره امتدادا لمھام الأب. بعد وفاه عبد اللہ خال الأعداء أنّ الرسالہ سوف تنتھي بوفاه الرّسول صلّی اللہ علیہ و آلہ و سلّم.

السّورہ نزلت لتردّ علی هؤلاء الأعداء بشكل إعجازی و لتقول لهم: إنّ عدوّ الرسول هو الأبر، و أنّ الرسالہ سوف تستمر و تتواصل و هذه البشري بددت من جهة آمال الأعداء و طيبت خاطر النّبي صلّی اللہ علیہ و آلہ و سلّم بعد أن اغتم من لمز الأعداء و تأمرهم.

فضيلہ السّورہ:

ورد في فضيلہ هذه السّورہ عن رسول اللہ صلّی اللہ علیہ و آلہ و سلّم قال: «من قرأھا سقاہ اللہ من أنھار الجنّ، و اعطى من الأجر بعدد كلّ قربان قربہ العباد في يوم عيد، و يقربون من أهل الكتاب و المشركين» (١) اسم هذه السّورہ (الكوثر) مأخوذه من أول آية فيها.

ص: ٤٩٤

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

التفسير

اشاره

أعطيناك الخير العميم،

الحديث في كل هذه السوره موجه إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم (مثل سوره و الضحى، و سوره ألم نشرح)، و أحد أهداف هذه السور تسليه قلب النبي إزاء ركام الأحداث المؤلمه و طعون الأعداء.

تقول له أولاً:

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ

و«الكوثر»: من الكثره، و بمعنى الخير الكثير، و يسمى الفرد السخى كوثرًا.

و فى معنى «الكوثر»

ورد أنه لما نزلت سوره الكوثر صعد رسول لله صلى الله عليه وآله وسلم المنبر فقرأها على الناس. فلما نزل قالوا: يا رسول الله ما هذا الذى أعطاك الله؟ قال: «نهر فى الجنه أشدّ بياضا من اللبن، و أشدّ استقامه من القدح، حافتاه قباب

عن الإمام الصادق عليه السلام فى معنى الكوثر قال: «نهى فى الجنة أعطاه الله نبيّه عوضا من ابنه» (٢).

وقيل: هو حوض النبى الذى يكتر الناس عليه يوم القيامة.

وقيل: هو النبوه و الكتاب، وقيل: هو القرآن. وقيل: كثره الأصحاب و الأشياع. وقيل: هو كثره النسل و الذريه و قد ظهرت الكثره فى نسله من ولد فاطمه عليها السلام حتى لا يحصى عددهم، و اتصل إلى يوم القيامة مددهم، و

روى عن الصادق عليه السلام أنه الشفاعة (٣) الفخر الرازى نقل خمسة عشر رأيا فى تفسير الكوثر، و لكن هذه التفاسير تبين غالبا المصاديق البارزه لمعناها الواسع و هو «الخير الكثير».

نعلم أنّ الله سبحانه أعطى رسوله الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم نعمًا كثيره، منها ما ذكره المفسرون فى معنى الكوثر و غيرها كثير، و كلّها يمكن أن تكون تفسيرًا مصداقيا للآيه.

على أى حال، كلّ الهبات الإلهيه لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى كل المجالات تدخل فى إطار هذا الخير الكثير، و من ذلك انتصاراته على الأعداء فى الغزوات، بل حتى علماء أمته الذين يحملون مشعل الإسلام و القرآن فى كلّ زمان و مكان.

و لا ننسى أنّ كلام الله سبحانه تعالى لنبيّه فى هذه السوره كان قبل ظهور الخير الكثير. فهو إخبار بالمستقبل القريب و البعيد، إخبار إعجازى يشكل دليلا آخر على صدق دعوه الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم.

هذا الخير الكثير يستوجب شكرا عظيما، و إنّ كان المخلوق لا يستطيع أداء

ص: ٤٩٦

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٩.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -المصدر السابق.

حقّ نعمه الخالق أبداً. إذ أنّ توفيق الشكر نعمه اخرى منه سبحانه. و لذا يقول سبحانه لنبيه:

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ

نعم، واهب النعم هو سبحانه. لذلك ليس ثمّة معنى للعبادات إن كانت لغيره.

خاصّه و إن كلمه (ربّ) تعنى استمرار النعمه و التدبير و الربوبيه.

بعباره اخرى، العبادات، سواء كانت صلاه أم نحرا، تختص بالربّ و ولي النعمه، و هو الله سبحانه و تعالى.

و الأمر بالصلاه و النحر للربّ مقابل ما كان يفعله المشركون من سجودهم للأصنام و نحرهم لها، بينما كانوا يرون نعمهم من الله. و تعبير (لربّك) دليل واضح على وجوب قصد القربه فى العبادات.

كثير من المفسرين يعتقدون أنّ الآيه تقصد صلاه عيد الأضحى و النحر فيه.

لكن مفهوم الآيه عام و واسع. و صلاه عيد الأضحى و النحر فيه من مصاديق الآيه البارزه.

عباره «و انحر» من النحر، و هو ذبح الناقه. و قد يكون ذلك لأهميه الناقه بين أنواع الأضاحى. و المسلمون الأوائل كانوا يعتزون بالإبل. و نحرها يحتاج إلى إثارة كثير.

و ذكر للآيه المباركه تفسيران آخران.

١- المقصود من كلمه (و انحر) أن استقبال القبلة فى الصلاه. لأنّ النحر أعلى الصدر، و العرب تستعمل الكلمه لاستقبال الشىء فيقولون: منازلنا تتناحر، أى تتقابل.

٢- المقصود رفع اليد عند النحر لدى التكبير و لذا

ورد فى الرّوايه أنّه لما

نزلت هذه السوره قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لجبريل: «ما هذه النحيه (١) التي أمرني بها ربِّي؟» قال: «ليست بنحيه، ولكنّه يأمرك إذا تحرّمت للصلاه أن ترفع يديك إذا كبرت و إذا ركعت، و إذا رفعت رأسك من الركوع و إذا سجدت، فإنّه صلاتنا و صلاه الملائكه في السماوات السبع. فإن لكل شيء زينه، و إنّ زينه الصلاه رفع الأيدي عند كل تكبيره» (٢).

و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآيه أنّه أشار بيده و قال: «هكذا».

أى استقبال يديه القبلة في افتتاح الصلاه (رفع يديه جاعلا كفه مقابل القبلة) (٣).

و التفسير الأوّل أنسب، لأنّ المقصود هو الردّ على أعمال المشركين الذين كانوا يعبدون و ينحرون لغير الله، و لكن لا مانع من الجمع بين هذه المعاني، خاصّه و قد وردت بشأن رفع اليد عند التكبير روايات كثيره في كتب الشيعة و السنه.

و بذلك يكون للآيه مفهوم جامع يشمل هذه المعاني أيضا.

و في آخر آيه يقول الله سبحانه لنبيّه ردّا على ما وصمه به المشركون: **إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**.

«الشاني» هو المعادى من «الشان» -على وزن ضربان- و هو العدا و الحقد.

و «أبتر» في الأصل هو الحيوان المقطوع الذنب (٤). و صدر هذا التعبير من أعداء الإسلام لانتهاك الحرمه و الإهانه. و كلمه (شاني) فيها ايحاء بأنّ عدوك لا يراعى أيه حرمه و لا يلتزم بأى أدب، أى أنّ عداوته مقرونه بالفظاظه و الدناءه.

و القرآن يقول لهؤلاء الأعداء في الواقع: **إِنَّكُمْ أَنْتُمْ تَحْمِلُونَ صِفَةَ الْأَبْتَرِ لَا رَسُول**

ص: ٤٩٨

١-١) -«النحيه» آخر الشهر، لأنّ الإنسان يستقبل فيه الشهر الجديد. و سؤال النبي لجبريل عن هذا الاستقبال للشهر الجديد، لذلك قال له جبريل: ليست بنحيه.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٠.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -مجمع البيان، ج ١، ص ٥٤٨.

من جهه اخرى، كما ذكرنا فى سبب نزول السّوره، قريش كانت تتربح انتهاء الرساله بوفاه النّبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم لأنّهم كانوا يقولون: إنّ النّبى بلا عقب. و القرآن يقول للنّبى: «لست بلا عقب، بل شأنك بلا عقب».

بحوث

اشاره

١- فاطمه عليها السلام و الكوثر

قلنا إنّ «الكوثر» له معنى واسع يشمل كل خير وهبه اللّٰه لنبيّه صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم، و مصاديقه كثيره، لكن كثيرا من علماء الشيعة ذهبوا إلى أنّ «فاطمه الزهراء عليها السّلام» من أوضح مصاديق الكوثر، لأنّ روايه سبب النزول تقول: إنّ المشركين و صموا النّبى بالأبتر، أى بالشخص المعدوم العقب، و جاءت الآيه لتقول: **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**.

و من هنا نستنتج أنّ الخير الكثير أو الكوثر هو فاطمه الزهراء عليها السّلام، لأنّ نسل الرسول صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم انتشر فى العالم بواسطه هذه البنت الكريمه... و ذريه الرسول من فاطمه لم يكونوا امتدادا جسما للرسول صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم فحسب، بل كانوا امتدادا رساليا صانوا الإسلام وضحوا من أجل المحافظه عليه و كان منهم أئمه الدين الإثنى عشر، أو الخلفاء الإثنى عشر بعد النّبى كما أخبر عنهم رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم فى الأحاديث المتواتره بين السنه و الشيعة، و كان منهم أيضا الآلاف المؤلفه من كبار العلماء و الفقهاء و المحدثين و المفسرين وقاده الامّه.

و الفخر الرازى فى استعراضه لتفاسير معنى الكوثر يقول: القول الثّالث «الكوثر» أولاده. قالوا لأنّ هذه السّوره إنّما نزلت ردّا على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد فالمعنى أنّه يعطيه نسلا يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت

ثمّ العالم ممتلئ منهم و لم يبق من بنى اميه فى الدنيا أحد يعبأ به، ثمّ أنظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر و الصادق و الكاظم و الرضا عليهم السّلام و النفس الزكيه و أمثالهم (١).

٢- إعجاز السّوره

هذه السّوره تتضمّن فى الواقع ثلاثه من أنباء الغيب و الحديث عن المستقبل.

فهى أوّلا- تتحدث عن إعطاء الخير الكثير للنّبى (أعطيناك الكوثر) و هذا الفعل و إن جاء بصيغه الماضى، قد يعنى المستقبل الحتمى الوقوع. و هذا الخير الكثير يشمل كلّ الانتصارات و النجاحات التى أحرزتها الدعوه الإسلاميه فيما بعد. و هى ما كانت متوقعه عند نزول السّوره فى مكّه.

من جهه اخرى، السّوره تخبر النّبى بأنّه سوف لا يبقى بدون عقب، بل إنّ ذريته ستنتشر فى الآفاق.

و من جهه ثالثه، تخبر السّوره بأنّ عدوّه هو الأبتى، و هذه النبوءه تحققت أيضا، فلا أثر لعدوه اليوم، بنو اميه و بنو العباس الذين عادوا النّبى و أبناءه كانوا ذا نسل لا يحصى عدده، و لم يبق اليوم منهم شىء يذكر.

٣- «أنا» بصيغه الجمع، لما ذا؟

يلاحظ فى السّوره و فى مواضع اخرى من القرآن أن الله سبحانه ذكر نفسه بصيغه الجمع (ضمير المتكلم مع الغير): **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**.

هذا التعبير لبيان عظمته جلّت قدرته. فالعظماء حين يتحدثون عن أنفسهم، فلا يعنون بشخصهم فقط بل يخبرون عن تحت إمرتهم. و هى كنايه عن قدره

ص: ٥٠٠

و العظمه و عن وجود من يآتمر بأمرهم.

الآيه الكريمه مؤكده بحرف (إن) تأكيدا آخر، و عباره «أعطيناك» تعنى هبه الله سبحانه لنبيه هذا الكوثر، و لم يقل آتيناك. و هذه بشاره كبيره للنبي تسلى قلبه أمام تخرصات الأعداء، و تثبت قدمه و تبعد الوهن عن عزمته؛ و ليعلم أن سنده هو الله مصدر كل خير و واهب ما عنده من خير كثير.

ربنا! تحرنا مما أنعمت به على نبيك من خير كثير.

ربنا! إنك تعلم مدى حبا لرسولك و لذريته الطاهره، فاحشنا في زمريهم.

ربنا! عظمه رسولك و عظمه رسالته لا تبلغها عظمه، اللهم فزدها عزه و منعه و شوكه.

آمين يا رب العالمين نهايه سوره الكوثر

ص: ٥٠١

سوره الكافرون

اشاره

مكيه و عدد آياتها ستّ آيات

ص: ٥٠٣

محتوى السّوره:

هذه السّوره نزلت فى مكّه لحنها و محتواها يؤيدان ذلك. و سبب نزولها الذى سنبيّنه بإذن الله دليل آخر على مكّيتها، و نستبعد ما ذهب إليه بعضهم من أنّها مدنيه.

من لحن السّوره نفهم أنّها نزلت فى زمان كان المسلمون فى أقلية و الكفار فى أكثرية، و النّبي يعانى من الضغوط التى تطلب منه أن يهادن المشركين. و أمام هذه الضغوط كان النّبي يعلن صموده و إصراره على المبدأ، دون أن يصطدم بهم.

و فى هذا درس عبره لكل المسلمين أن لا يساوموا أعداء الإسلام فى مبادئ الدين مهما كانت الظروف. و أن يبعثوا اليأس فى قلوبهم متى ما بادروا الى هذه المساومه. و فى هذه السّوره تكرر مرّتين نفي عباده الإنسان المسلم لما يعبد الكافرون، و هو تأكيد يستهدف بث اليأس فى قلوب الكافرين. كما تكرر مرّتين نفي عباده الكافر لما يعبد المسلمون من إله واحد أحد. و هذا دليل على تعنتهم و لجاجهم. و نتيجة ذلك هو الفصل العقائدى الحاسم بين منهج التوحيد و متاهات الشرك: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ .

فضيله السّوره:

ورد فى فضيله هذه السّوره عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ قل يا أيها الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن و تباعدت عنه مردة الشياطين، و برأ من الشرك،

و يعافى من الفرع الأكبر» (١).

و عباره (ربع القرآن) قد تعنى أن مسأله مواجهه الشرك و الكفر تحتل ربع القرآن و جاءت عصارتهأ فى هذه السوره المباركه. و إنما كانت هذه السوره عاملا على تباعد مرده الشياطين عن قارئها، لأنها رفض حاسم للشرك و المشركين، و الشرك أهم حائل الشيطان.

و النجاه فى يوم القيامه (أو المعافاه من الفرع الأكبر على حدّ تعبير الروايه) تتوقف بالدرجه الأولى على التوحيد و رفض الشرك. و هو ما دارت حوله مضامين هذه السوره.

و

فى روايه أخرى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقال: جئت يا رسول الله لتعلمنى شيئا أقوله عند منامى قال: «إذا أخذت مضجعك فاقرأ قل يا أيها الكافرون، ثم نم على خاتمها فإنها براءه من الشرك» (٢).

و

عن جبير بن مطعم قال: قال لى رسول الله: «أ تحب يا جبير أن تكون إذا خرجت سفرا من أمثل أصحابك هيئه و أكثرهم زادا؟ قلت: نعم بأبى أنت و أمى يا رسول الله.

قال: «فاقرأ هذه السور الخمس: قل يا أيها الكافرون، و إذا جاء نصر الله و الفتح، و قل هو الله أحد، و قل أعوذ برب الفلق، و قل أعوذ برب الناس. و افتتح قراءة تك بيسم الله الرحمن الرحيم».

و

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان أبى يقول: قل يا أيها الكافرون ربع القرآن. و كان إذا فرغ منها قال: أعبد الله وحده، أعبد الله وحده» (٣).

ص: ٥٠٦

١-١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥١.

٢-٢ - المصدر السابق.

٣-٣ - المصدر السابق.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ (٤)
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ (٦)

سبب النزول

جاء في الروايه أن السوره نزلت في نفر من قريش منهم «الحارث بن قيس السهمي» و«العاص بن أبي وائل» و«الوليد بن المغيرة» و«أميه بن خلف» وغيرهم من القرشيين قالوا: هلم يا محمد فاتبع ديننا نتبع دينك، و نشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنه و نعبد آلهتك سنه. فإن كان الذي جئت به خيرا ممّا بأيدينا كُنّا قد شركناك فيه و أخذنا بحظنا منه. و إن كان الذي بأيدينا خيرا ممّا في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا و أخذت بحظك منه.

فقال صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلّم: «معاذ الله أن أشرك به غيره».

قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك و نعبد آلهتك.

فقال: «حتى انظر ما يأتي من عند ربّي».

فنزل قل يا أيها الكافرون- السوره. فعدل رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلّم إلى المسجد

الحرام وفيه الملامن قريش، فقام على رؤوسهم، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السوره فأيسوا عند ذلك، فأذوه و آذوا أصحابه» (١).

التفسير

إشارة

لا أهدان الكافرين:

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ

و الخطاب إلى قوم مخصوصين من الكافرين كما ذكر كثير من المفسرين، والألف واللام للعهد. وإنما ذهب المفسرون إلى ذلك لأن الآيات التالية تنفي أن يعبد الكافرون ما يعبده المسلمون وهو الله سبحانه في الماضي والحال والمستقبل. والمجموعه المخاطبه بهذه الآيات بقيت بالفعل على كفرها و شركها حتى آخر عمرها. بينما دخل كثير من المشركين بعد فتح مكه في دين الله أفواجا.

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ

فهذه مسأله مبدئيه لا تقبل المساومه و المهادنه و المداهنه.

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ

لما تأصيل فيكم من لجاج و عناد و تقليد أعمى لأبائكم، و لما تجدونه في الدعوه من تهديد لمصالحكم و للأموال التي تدر عليكم من عبده الأصنام.

و لمزيد من التأكيد و بث اليأس في قلوب الكافرين، و لبيان حقيقه الفصل الحاسم بين منهج الإسلام و منهج الشرك قال سبحانه:

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ

فعلى هذا لا معنى

ص: ٥٠٨

(١ - ١) - ذكر سبب النزول هذا كثير من المفسرين على اختلاف يسير بينهم في العبارات منهم الطبرسى في مجمع البيان، و القرطبي في تفسيره، و أبو الفتوح الرازي في تفسيره، و السيوطي في الدر المنثور.

لإصراركم على المصالحة و المهادنه معى حول مسأله عباده الأوثان فإنه أمر محال لكم دينكم و لى دين .

أسئله:

اشاره

١- لما ذا بدأت السوره بفعل الأمر «قل»

«قل» فعل أمر موجه من الله سبحانه لنبيه كى يبلغ الكافرين و يقول لهم:

... يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ...

إلى آخر السوره، فلما ذا بدأ النبى تلاوه السوره بكلمه «قل»، و هى موجهه إليه لا- إلى الكافرين؟ أما كان من الأفضل أن تبدأ السوره بيا أيها الكافرون...؟ الجواب يتضح لو التفتنا إلى محتوى السوره. مشركو العرب كانوا قد دعوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ليهادنهم بشأن الأوثان و عليه أن يرد عليهم و يرفض الاستسلام لهم. و إذا لم يبدأ الكلام ب«قل» يصبح الأسلوب أسلوب خطاب طاب الله لهم.

و هذا لا ينسجم مع قوله: لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ و ما شابهه.

أضف إلى ذلك أن كلمه «قل» كانت موجوده فى النص الذى جاء به جبرائيل من الله تعالى. و النبى صلى الله عليه و آله و سلم مكلف بالمحافظه على النص القرآنى بحذافيره. و هذا يدل على أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و جبرائيل عليه السلام ليس لهما أى دور فى صياغه النص القرآنى و ليس لهما حق أى تغيير فيه: بل يأتيران بما أمرهما الله. و هذا المعنى تؤكد الآيه الكريمة: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ (١).

ص: ٥٠٩

٢- أكان عبده الأصنام منكرين لله؟

نعلم أن عبده الأصنام لم يكونوا منكرين لله سبحانه، و القرآن يؤيد ذلك في قوله سبحانه: **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (١)**.

كيف إذن تقول الآية الكريمة: **لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**.

الجواب: أن الكلام في هذه السيرة يدور حول العبادة لا- الخلقه، و يتضح أن عبده الأصنام كانوا يعتقدون أن «الله» خالق الكون، لكنهم كانوا يرون ضروره «عباده» الأصنام كى تكون واسطه بينهم و بين الله، أو لاعتقادهم بأنهم ليسوا أهلا لعباده الله، بل لا بد من عباده أصنام جسميه، و القرآن الكريم يرد على هذه الأوهام و يقول: **إِنَّ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا لِلْأَصْنَامِ وَلَا لِكُلَيْهِمَا!**

٣- لم هذا التكرار؟

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ

الآيتان تكرران معنى واحدا، و هكذا **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ... وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** تكررت أيضا، لماذا؟ للمفسرين فى جواب هذا السؤال آراء مختلفه.

ذهب بعضهم إلى أن الهدف من التكرار التأكيد و بثّ اليأس فى قلوب المشركين، و فصل المسيره الإسلاميه بشكل كامل عن مسيرتهم، و تثبيت فكره عدم إمكان المهادنه بين التوحيد و الشرك. بعبارة أخرى القرآن الكريم قابل دعوه المشركين إلى المساومه و المهادنه و إصرارهم على ذلك و تكرارهم لدعوتهم، بتكرار فى الردّ عليهم.

ورد أن «أبا شاعر الديصاني» و هو من زنادق عصر الإمام الصادق عليه السلام سأل

ص: ٥١٠

أحد أصحاب الصادق عليه السّلام وهو «أبو جعفر الأحول» (محمّد بن علي النعماني المعروف بمؤمن الطاق) عن سبب هذا التكرار، و هل الشخص الحكيم يرد في كلامه مثل هذا التكرار؟ أبو جعفر الأحول أعياه الجواب، فتوجه إلى المدينة، ودخل على الإمام الصادق عليه السّلام وسأله عن ذلك، أجابه الإمام: كان سبب نزولها وتكرارها أن قريشا قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: تعبد آلهتنا سنه ونعبد إلهك سنه و تعبد آلهتنا سنه ونعبد إلهك سنه فأصابهم بمثل ما قالوا فقال فيما قالوا تعبد آلهتنا سنه قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون وفيما قالوا نعبد إلهك سنه ولا أنتم عابدون ما أعبد وفيما قالوا تعبد آلهتنا سنه ولا أنا عابد ما عبدتم وفيما قالوا نعبد إلهك سنه ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين .

ذهب أبو جعفر الأحول بالجواب إلى أبي شاعر، فلما سمعه قال: «هذا ما حمله الإبل من الحجاز» (1) ! (يشير بذلك إلى أن هذا ليس كلامك بل كلام الصادق).

وقيل إن هذا التكرار يعود إلى أن الجملة الأولى تركز على الحال، والجملة الثانية تركز على المستقبل، ويكون معنى الجملتين لا أعبد ما تعبدون في الحال والمستقبل. ولا يوجد شاهد في الآية على هذا التفسير.

ثم تفسير ثالث لهذا التكرار هو إن الأولى تشير إلى الاختلاف في المعبود والثانية إلى الاختلاف في العبادة. أي لا أعبد الذي تعبدون، ولا أعبد عبادتكم لأن عبادتي خالصة من الشرك ولأنها عبادة عن وعي وعن أداء للشكر لا عن تقليد أعمى (2).

و الظاهر أن هذا التكرار للتأكيد كما ذكرنا أعلاه، وجاءت الإشارة إليه أيضا

ص: ٥١١

١-١) - تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٤٤٥.

٢-٢) - بناء على هذا التفسير «ما» في الآيتين الثانية والثالثة موصوله، وفي الرابعة والخامسة مصدرية (ذكر هذا التفسير أبو الفتوح الرازي ضمن ذكره لاحتمالات تفسير الآية ج ١٢، ص ١٩٢، وأشار إليه الطبرسي أيضا).

فى حءىء الإمام الصاءق علىه السّلام.

و هناك ءفسىر رابع للءكرار هو إن الآىه الءانىه ءقول: لا أعبء ما ءعبءون الآن.

و الآىه الرابعه ءقول: ما أنا عابء (فى الماضى) معبوءكم، فما بالكم الءوم. هذا الءفسىر ىسءنء إلى الءفاوء بىن فعلى الآىءىن، فى الءانىه الفعل مضارع «ءعبءون»، و فى الآىه الرابعه «عبءءم» بصىغه الماضى و نحن لا نسءبعءه (١).

و إن كان هذا ىحل مسأله ءكرار الآىءىن الءانىه و الرابعه، و ءبقى مسأله ءكرار الآىءىن الءالءه و الخامسه على حالها. (٢)

٤- هل الآىه لكم ءىنكم و لى ءىن ءواز عباءه الأصنام!؟

قء ىءصور أنّ هذه الآىه لها مفهوم «السّلام العام» و ءءىز ءءى لعبءه الأصنام أن ىظلوا علىها عاكفىن، لأنّها لا ءصّر على قبول ءىن الإسلام.

لكن هذا الءصور فارغ لا ىقوم على أساس، لحن الآىاء ىوضء بءلاء أنّها نوع من الءءقىر و الءهءىء، أى ءعكم و ءىنكم فسءرون قرىبا و بال أمركم، ءماما مثل ما ورد فى قوله ءعالى: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا: لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ (٣).

و الشاهء الواضء على ءلك مءاء الآىاء الكرىمه الءى ءرفض الشرك بكل ألوانه، و ءعبءه عملا لا شىء أبغض منه، و ءنبا لا ىغفر.

و هناك إءاباء اءرى على هذا السؤل مثل ءقءىر محءوف و ءكون العبارة:

لكم ءزاء ءىنكم و لى ءزاء ءىنى.

ص: ٥١٢

١- ١) -بناء على هذا(عابء)و هو اسم فاعل ىكون فى الآىه بمعنى الماضى أيضا.

٢- ٢) -ىءب الاءءفاء إلى أن «ما الموصوله» و إن اسءعملء غالبا فى ءىر ءوى العقول، ءسءعمل أيضا فى العاقل. و فى القرآن شواءء.

٣- ٣) -سوره القصص، الآىه ٥٥.

وقيل أيضا: «الدين» هنا بمعنى الجزاء، ولا محذوف فيها و مفهومها لكم جزاؤكم و لى جزائى (١).

و التفسير الأول أنسب.

٥- هل هادن الشرك يوما؟

التشابه تطرح حقيقة التضاد و الانفصال التام بين منهج التوحيد، و منهج الشرك، و عدم وجود أى تشابه بينهما، التوحيد يشدّ الإنسان بالله بينما الشرك يجعل الإنسان غريبا عن الله.

التوحيد رمز الوحده و الانسجام فى جميع المجالات، و الشرك مبعث التفرقه و التمزق فى كلّ الشؤون.

التوحيد يسمو بالإنسان على عالم الماده و الطبيعه، و يربطه بما وراء الطبيعه بالوجود اللامتناهى لربّ العالمين، بينما الشرك يجعل الإنسان يرسف فى أغلال الطبيعه، و يربطه بموجودات ضعيفه فانيه.

من هنا فالنبي الأعظم صلى الله عليه و آله و سلمّ و سائر الأنبياء الكرام لم يهادنوا الشرك لحظه واحده، بل جعلوا مقارعتة فى رأس قائمه أعمالهم.

السائرون على طريق الله من الدعاه و العلماء الإسلاميين يتحملون مسئوليه مواصله هذه المسيره، و عليهم أن يعلنوا براءتهم من الشرك و المشركين فى كلّ مكان.

هذا هو طريق الإسلام الأصيل.

اللهم! جنبنا كلّ شرك فى أفكارنا و أعمالنا.

ربّنا! وساوس المشركين فى عصرنا خطرته أيضا، فاحفظنا من الوقوع فى

ص: ٥١٣

(١- ١) - و يلاحظ أن كلمه (دين) فى الآية وَ لى دِينَ مَكْسُورَه، و كسرتها تدل على ياء محذوفه أى: و لى دينى.

حبائلهم.

الهنا! من علينا بشجاعه و صراحه و حزم لنكون كما كان نبيك صلى الله عليه و آله و سلم رافضين لكل مساومه مع الكفر و الكافرين و الشرك و المشركين.

آمين يا رب العالمين نهايه سوره الكافرون

ص: ٥١٤

سوره النصر

اشاره

مدتيه و عدد آياتها ثلاث آيات

ص: ٥١٥

محتوى السّوره:

هذه السّوره نزلت فى المدينه بعد الهجره، و فيها بشرى النصر العظيم و دخول الناس فى دين الله أفواجا، و تدعو النبى أن يسبح الله و يحمده و يستغفره شكرا على هذه النعمه.

فى الإسلام فتوحات كثيره، و لكن فتحا بالمواصفات المذكوره فى السّوره ما كان سوى «فتح مكّه»، خاصّه و أن العرب- كما جاء فى الروايات- كانت تعتقد أن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم لا يستطيع أن يفتح مكّه إلّا إذا كان على حق... و لو لم يكن على حق فربّ البيت يمنعه كما منع جيش أبرهه، و لذلك دخل العرب فى دين الله بعد فتح مكّه أفواجا.

قيل: إنّ هذه السّوره نزلت بعد «صلح الحديبيه» فى السنه السادسه للهجره، و قبل عامين من فتح مكّه.

و ما احتمله بعضهم من نزول هذه السّوره بعد فتح مكّه فى السنه العاشره للهجره فى حجّه الوداع فبعيد جدّا، لأنّ عبارات السّوره لا تنسجم و هذا المعنى، فهى تخبر عن حادثه ترتبط بالمستقبل لا بالماضى.

و من أسماء هذه السّوره «التوديع» لأنّها تتضمّن خبر وفاه النبى صلى الله عليه و آله و سلّم.

و

فى الروايه أنّ هذه السّوره لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم على أصحابه ففرحوا و استبشروا، و سمعها العباس فبكى، فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلّم: «ما يبكيك يا عم؟»

فقال: أَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ نَعَيْتَ إِلَيْكَ نَفْسَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فقال: «إِنَّهُ لَكَمَا تَقُولُ» (١).

و ظاهر السوره ليس فيه إنباء عن قرب رحله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بل عن الفتح و النصر، فكيف فهم العباس أنها تنعى إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نفسه؟ يبدو أنّ دلاله السوره على اكتمال الرساله و تثبيت الدين هو الذى أوحى بقرب ارتحال الرسول إلى جوار ربّه.

فضيله السوره:

وردت فى فضيله السوره

عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «من قرأها فكأنما شهد مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فتح مكّه» (٢).

و

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فى نافله أو فريضه نصره الله على جميع أعدائه، و جاء يوم القيامة و معه كتاب ينطق، قد أخرجه الله من جوف قبره، فيه أمان من حرّ جهنّم» (٣).

واضح أنّ هذه الفضيله لمن قرأ هذه السوره فسلكت مسلك رسول الله و عمل بسيرته و سنته، لا أن يكتفى بقلقه اللسان.

ص: ٥١٨

١-١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٤، هذه الروايه وردت بألفاظ مختلفه (الميزان، ج ٢٠، ص ٥٣٢).

٢-٢ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٣.

٣-٣ - المصدر السابق.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

التفسير

اشاره

عند انبلاج فجر النصر:

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

هذه الآيات الثلاث القصار في ألفاظها العميقة في محتواها تتضمن مسائل دقيقة كثيرة نسلط عليها الضوء كي تساعدنا في فهم معنى السوره.

١- «النصر»: في الآية أضيف إلى الله «نصر الله» وفي كثير من المواضع القرآنيه نجد نسبة النصر إلى الله. يقول سبحانه أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (١)، و يقول: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (٢).

ص: ٥١٩

١-١ - البقره، الآية ٢١٤.

٢-٢ - آل عمران، الآية ١٢٦؛ الأنفال، الآية ١٠.

و هذا يعنى أن النصر فى أى حال لا يكون إلا بإرادة الله، نعم، لا بدّ من إعداد القوّه للغلبه على العدو، لكن الإنسان الموحد يؤمن أنّ النصر من عند الله وحده، و لذلك لا يغتّر بالنصر، بل يتجه إلى شكر الله و حمده.

٢- فى هذه السوره دار الحديث عن نصره الله، ثمّ عن «الفتح» و الانتصار، و بعدها عن اتساع رقعه الإسلام و دخول الناس فى دين الله زرافات و وحدانا.

و بين هذه الثلاثه ارتباط عله و معلول. فبصير الله زرافات يتحقق الفتح، و با الفتح تزال الموانع من الطريق و يدخل الناس فى دين الله أفواجا.

بعد هذه المراحل الثلاث- التى يشكل كل منها نعمه كبرى- تحلّ المرحله الرابعه و هى مرحله الشكر و الحمد.

من جهه أخرى نصر الله، و الفتح هدفهما النهائى دخول الناس فى دين الله و هدايه البشريه.

٣- «الفتح» هنا مذكور بشكل مطلق، و القرائن تشير- كما ذكرنا- أنه فتح مكّه الذى كان له ذلك الصدى الواسع المذكور فى الآيه.

«فتح مكّه» فتح فى الواقع صفحه جديده فى تاريخ الإسلام، لأن مركز الشرك قد تلاشى بهذا الفتح، انهدمت الأصنام، و تبددت آمال المشركين و أزيلت السدود و الموانع من طريق إيمان الناس بالإسلام.

من هنا، يجب أن نعتبر فتح مكّه بدايه مرحله تثبيت أسس الإسلام و استقراره فى الجزيره العربيه ثمّ فى العالم أجمع. لذلك لا نرى بعد فتح مكّه مقاومه من المشركين (سوى مژه واحده قمعت بسرعه) و كان الناس بعده يفتدون على النبى من كل أنحاء الجزيره ليعلنوا إسلامهم.

٤- فى نهايه السوره يأمر الله سبحانه نبيه (بل كل المؤمنين) بثلاثه أمور ليجسد آلاء الشكر و ليتخذ الموقف الإيمانى المناسب من النصر الإلهى و هى: «التسبيح» و «الحمد» و «الاستغفار».

«التسبيح» تنزيه الله من كل عيب و نقص.

و«الحمد» لوصف الله بالصفات الكماله.

و«الاستغفار» إزاء تقصير العبد.

هذا الإنتصار الكبير أدى إلى تطهير الساحة من أفكار الشرك، و إلى تجلى جمال الله و كماله أكثر من ذى قبل، و إلى اهتداء من ضلّ الطريق إلى الله.

هذا الفتح العظيم أدى إلى أن لا يظن فرد بأن الله يترك أنصاره وحدهم (و لذلك جاء أمر التسبيح لتزبيحه من هذا النقص) و إلى أن يعلم المؤمنون بأن وعده الحق (موصوف بهذا الكمال)، و إلى أن يعترف العباد بنقصهم أمام عظمة الله.

أضف إلى ما سبق، أن الإنسان -عند النصر- قد تظهر عليه ردود فعل سلبه فيقع في الغرور و التعالي، أو يتخذ موقف الانتقام و تصفيه الحسابات الشخصيه، و هذه الأوامر الثلاثه تعلمه أن يكون في لحظات النصر الحساسه ذا كرا لصفات جلال الله و جماله و أن يرى كل شيء منه سبحانه، و يتجه إلى الاستغفار كي يزول عنه غرور الغفله و يتعد عن الانتقام.

٥-رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مثل كل الأنبياء معصوم، فلما ذا الاستغفار؟ الجواب أن هذا تعليم لكل الأمه لأنه:

أولاً: خلال أيام المواجهه بين الإسلام و الشرك مرّت فترات عصييه على المسلمين، و تفاقمت في بعض المراحل مشاكل الدعوه، و ضاقت صدور بعضهم و ساور بعضهم الآخر شكوك في وعد الله. كما قال سبحانه فيهم عند غزوه «الأحزاب»: وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١).

و الآن إذ تحقق الإنتصار فقد اتضح خطل تلك الظنون، و لا بدّ من «الاستغفار» ثانياً: الإنسان لا يستطيع أن يؤدي حقّ الشكر، مهما حمد الله و أثنى عليه.

و لذلك لا بدّ له بعد الحمد و الثناء أن يتجه إلى استغفاره سبحانه.

ص: ٥٢١

١-١) -الأحزاب، الآية ١٠.

ثالثاً: بعد الإنتصار تبدأ عادة وساوس الشيطان، فتبرز ظاهره الغرور تاره و ظاهره الانتقام تاره أخرى. و لا بدّ إذن من ذكر الله و استغفاره باستمرار حتى لا تظهر هذه الحالات، و لتزول إن ظهرت.

رابعاً: إعلام هذا النصر يعنى انتهاء مهمّة النبي صلى الله عليه و آله و سلّم تقريبا كما ذكرنا فى بدايه السوره، و انتهاء عمره المبارك و التحاقه بالرفيق الأعلى. و لذا

جاء فى الروايات أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم بعد نزول هذه السوره كان يكثّر من قول: «سبحانك اللهم و بحمدك، اللهم اغفر لى إنّك أنت التواب الرحيم».

٦-عبارة إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا تَبَيَّنَ عَلَيْهِ الاستغفار. أى استغفره و تب إليه لأنه سبحانه تواب.

و قد تكون العبارة تستهدف تعليم المسلمين العفو، فكما إن الله تواب كذلك أنتم ينبغي أن تقبلوا توبه المذنبين بعد الإنتصار ما أمكنكم ذلك. و أن لا تطردوهم ما داموا منصرفين عن المخالفه و التآمر. و لذلك اتخذ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم فى فتح مكّه - كما سنرى - موقف الرحمة و الرأفه مقابل الأعداء الحقودين.

التسبيح و الحمد و الاستغفار دأب كل الأنبياء الكرام عند تحقق النصر. يوسف عليه السلام حين جلس على سرير الحكم فى مصر و عاد إليه و الداه و اخوته بعد فراق طويل قال: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِي فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَ الْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ . (١)

و عند ما حضر عرش ملكه سبأ أمام سليمان عليه السلام قال: هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (٢).

ص: ٥٢٢

١-١ - يوسف - الآية ١٠١.

٢-٢ - النمل، الآية ٤٠.

فتح مكّة - كما ذكرنا - فتح صفحته جديده في تاريخ الإسلام، و دحر الأعداء بعد عشرين عاما من المقاومة. و تطهرت أرض الجزيرة العربية من الشرك و الأوثان، و الإسلام تأهب لدعوته بقيه أصقاع العالم.

ملخص الواقعة على النحو التالي:

بعد صلح الحديبيه، عمد المشركون إلى نقض العهد، و إلى خرق بنود وثيقه الصلح، و اعتدوا على المتحالفين مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. فشكى المتحالفون ذلك إلى الرسول، فقرر النبي أن يهب لحمايتهم.

من جهه أخرى، الظروف في مكّة - حيث مركز الوثنيه و الأصنام و الشرك و النفاق - توفرت لتطهيرها. و هذه مهمته كان لا بد من أدائها في وقت من الأوقات.

لذلك استعد النبي للحركه بأمر الله سبحانه صوب مكّة.

فتح مكّة تمّ في ثلاث مراحل. المرحلة التمهيديه و فيها تمّ تعبئه القوى اللازمه و اختيار الظروف الزمانيه المساعده، و جمع المعلومات الكافيه عن العدو، و المرحلة الثانيه كانت فتح مكّة بأسلوب ماهر خال من التلفات. و المرحلة الأخيره هي مرحله عطاء الفتح و آثاره.

١- هذه المرحلة اتصف بالدقه المتناهيه. و رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سيطر على الطريق بين مكّة و المدينه سيطره تامه حتى لا يسرب خبر هذا الاستعداد الإسلامي إلى مكّة، و لكي يتمّ الفتح بشكل مباغت. و هذا أدى إلى فتح مكّة دون إراقه دماء تقريبا.

انقطاع اخبار المدينه عن مكّة كان متقنا، حتى أن نفرا من ضعاف الإيمان اسمه «حاطب بن أبى بلتعه» كتب رساله إلى قريش يخبرهم بأمر المسلمين في المدينه، و بعثها بيد امرأه من قبيله «مزينه» اسمها «كفود»، أو «ساره». فعلم بها

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِطَرِيقِ إِعْجَازِي، وَبَعَثَ عَلَيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْمَرْأَةِ، فَوَجَدَهَا فِي مَنْزِلٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ. أَخَذَ مِنْهَا الرِّسَالَةَ وَاعَادَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ أوردنا قَصَّتْهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ الْمَمْتَحَنَةِ.

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اسْتَخْلَفَ أَحَدَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَتَوَجَّهَ فِي الْعَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانَ لِلْهَجْرَةِ إِلَى مَكَّةَ، وَوَصَلَهَا بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ.

فِي الطَّرِيقِ التَّقَى الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِعَمَّةِ الْعَبَّاسِ وَهُوَ يَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

فَطَلَبَ مِنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرْسَلَ مَتَاعَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَيَلْتَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ آخِرُ مَهَاجِرٍ.

٢- وَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَشَارِفِ مَكَّةَ وَعَسَكُرُوا عِنْدَ «مَرِّ الظُّهْرَانِ» عَلَى بَعْدِ عَدَّةٍ كِيلُومِتْرَاتٍ مِنْ مَكَّةَ. وَفِي اللَّيْلِ أَشْعَلُوا نِيرَانَ كَثِيرَةً لِإِعْدَادِ الطَّعَامِ (وَلَعَلَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ لِإِثْبَاتِ تَوَاجُدِهِمْ الْوَاسِعِ). رَأَى جَمْعٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَذَا الْمَنْظَرَ فَتَحِيرُوا.

أَخْبَارُ الزَّحْفِ الْإِسْلَامِيِّ كَانَتْ لَا تَزَالُ خَافِيَةً عَلَى قَرِيشٍ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ خَرَجَ «أَبُو سَفْيَانَ» وَمَعَهُ عِدَّةٌ مِنْ سِرَاهِ قَرِيشٍ لِلْإِسْتِطْلَاعِ خَارِجَ مَكَّةَ. وَفِي نَفْسِ اللَّيْلِ قَالَ الْعَبَّاسُ عَمَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يَا سُوءَ صَبَاحِ قَرِيشٍ. وَاللَّهُ لئنَ بَاغَتْهَا رَسُولَ اللَّهِ فِي دِيَارِهَا فَدَخَلَ مَكَّةَ عَنُوهُ إِنَّهُ لَهَلَاكُ قَرِيشٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ. فَاسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ وَخَرَجَ عَلَى بَغْلَتِهِ لَعَلَّهُ يَرَى أَحَدًا مَتَجِّهًا إِلَى مَكَّةَ فَيُخْبِرُهُمْ بِمَكَانِ رَسُولِ اللَّهِ فَيَأْتُونَهُ فَيَسْتَأْمِنُونَهُ.

وَبَيْنَمَا الْعَبَّاسُ يَطُوفُ بِأَطْرَافِ مَكَّةَ إِذْ سَمِعَ صَوْتَ أَبِي سَفْيَانَ وَمَعَهُ الْقَرَشِيُّونَ الَّذِينَ خَرَجُوا يَتَجَسَّسُونَ. فَقَالَ: أَبُو سَفْيَانَ: مَا رَأَيْتَ نِيرَانًا أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ! فَقَالَ لَهُ أَحَدُ مَرَاغِيهِ: هَذِهِ نِيرَانُ خِرَاعِهِ. فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: خِرَاعُهُ أَذَلُّ مِنْ ذَلِكَ. نَادَى الْعَبَّاسُ أَبَا سَفْيَانَ، فَسَأَلَهُ أَبُو سَفْيَانَ عَلَى الْفُورِ: مَا وَرَاءَ كَ؟ قَالَ الْعَبَّاسُ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُسْلِمِينَ أَتَاكُمْ فِي عَشْرِهِ آلَافٍ.

قال أبو سفيان: ما تأمرني؟

أجابه العباس: تركب معي فأستأمن لك رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك.

فخرجا يركضان نحو رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، فكلما مرّا بنار من نيران المسلمين يقولون: عم رسول الله على بغله رسول الله. (أى إن المارّ ليس بغريب). حتى مرّا بنار عمر بن الخطاب. فما أن أبصر به عمر حتى قال له: أبو سفيان! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد! دخل العباس وأبو سفيان على رسول الله وتبعهما عمر فدخل أيضا وقال للرسول: يا رسول الله هذا أبو سفيان عدوّ الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعنى اضرب عنقه.

فقال العباس: يا رسول الله إنى قد أجرته.

و كثر الكلام بين العباس و عمر

فقال رسول الله للعباس:

اذهب فقد أمناه حتى تغدو علىّ به بالغداة.

فلما كان من الغد جاء العباس بأبى سفيان إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فلما رآه قال:

ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟».

قال: بلى، بأبى أنت و أمى لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا.

فقال النبي: «ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنّى رسول الله؟» فقال: بأبى أنت و أمى، أما هذه ففي النفس منها شيء. فقال له العباس: ويحك تشهد شهادته الحق قبل أن تضرب عنقك! فتشهد.

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم للعباس: «اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادى حتى تمرّ عليه جنود الله».

قال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا يكون فى قومه.

فقال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن... و من دخل المسجد فهو

آمن، و من أغلق بابه فهو آمن».

خرج العباس و أجلس أبا سفيان عند خطم الجبل فمّرت عليه القبائل، فيقول له العباس: هذه أسلم... هذه جهينه... حتى مرّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم في كتيبته الخضراء مع المهاجرين و الأنصار متسرّبين بالحديد لا يرى منهم إلا - حذق عيونهم. فقال:

و من هؤلاء؟ قال العباس: هذا رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم في المهاجرين و الأنصار.

فقال أبو سفيان: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما.

قال العباس: ويحك إنّها النبوه.

فقال: نعم إذن.

ثمّ قال له العباس: الحق بقومك سريعا فحدّثهم.

فخرج حتى أتى مكّه فصرخ في المسجد:

يا معشر قريش هذا محمّد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. ثمّ قال: من دخل دارى فهو آمن. و من دخل المسجد فهو آمن، و من أغلق بابه فهو آمن... و قال: يا معشر قريش اسلموا تسلموا.

فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته و قالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق. فقال: أرسلى لحيتى و اقسم لئن أنت لم تسلمى لتضربن عنقك، ادخلى بيتك! فتركته.

ثمّ بلغ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم مع جيش المسلمين منطقه «ذى طوى» و هى مرتفع يشرف على بيوت مكّه. فتذكّر الرسول ذلك اليوم الذى خرج فيه مضطرا متخفيا من مكّه. و ها هو يعود إليها منتصرا، فوضع رأسه تواضعا لله و سجد على رحل ناقته شكرا له سبحانه.

ثمّ ترجل النّبى الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم فى «الحجون» إحدى محلات مكّه، و فيها قبر خديجه عليها السّلام، و اغتسل، ثمّ ركب ثانيه بجهاز الحرب و دخل المسجد الحرام و هو يتلو سورة الفتح. ثمّ كبر و كبر جند الإسلام معه، فدوى صوت التكبير فى أرجاء

ثم نزل من ناقته، واقترب من الكعبه، وجعل يسقط الأصنام واحدا بعد الآخر وهو يقول: **جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا.**

و كان عدد من الأصنام قد نصب فوق الكعبه، ولم تصل إليها يد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأمر عليًا أن يصعد على كتفه المباركه و يرمى بالأصنام فامتثل على أمر الرسول.

ثم أخذ مفاتيح الكعبه، وفتحها و محا ما كان على جدرانها من صور الأنبياء.

-٣-

بعد الانتصار الرائع السريع أخذ رسول الله حلقه باب الكعبه، و توجه إلى أهل مكّه و قال لهم: يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، و ابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

و أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جيشه أن لا يتعرضوا لأحد، و أن لا يريقوا دم أحد.

و أمر فقط بقتل ستة أفراد -حسب الروايات- ممن كانوا خطرين و متوغلين في عدائهم للإسلام. و حين بلغه أن سعد بن عباده -هو أحد حملة الويه الجيش الإسلامى- يصيح: اليوم يوم الملحمه، اليوم تسبى الحرمه.

أمر عليًا عليه السلام أن يأخذ منه الزايه و يدخل بها مكّه دخولا رقيقا و يقول: اليوم يوم المرحمه!! و بهذا الشكل فتحت مكّه دون إراقه دماء و كان لعفو الرسول و رحمته الأثر الكبير فى القلوب، فدخل الناس فى دين الله أفواجا. و دوى خبر الفتح فى أرجاء الجزيرة العربيه و ذاع صيت الإسلام، و تعززت مكانه المسلمين (١).

و

جاء فى كتب التاريخ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عند ما وصل الكعبه قال: لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مال أو مأثره أو دم تدعى فهو تحت قدمي هاتين!... (و بذلك الغى كل مخلفات الجاهليه و طوى جميع ملفاتها).

ص: ٥٢٧

هذا المشروع الإسلامى الجبار اقترن بالعفو العام، لينقل قبائل الجزيره العربيه من ماضيهم المظلم إلى نور الإسلام بعيدا عن كل ألوان الصراع و التخط الجاهلى.

و هذا ساعد كثيرا على انتشار الإسلام و أصبح قدوه لحاضرنا و مستقبلنا.

اللَّهُمَّ! إِنَّكَ قَادِرٌ أَنْ تَعِيدَ لِلْمُسْلِمِينَ عِزَّتَهُمْ وَ عِظَمَتَهُمْ فِي ظِلِّ الْاِقْتِدَاءِ بِسَنَةِ رَسُولِكَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

رَبَّنَا! اجْعَلْنَا فِي زَمَرَةِ السَّائِرِينَ الْحَقِيقِيِّينَ عَلَى طَرِيقِ نَبِيِّ الْاِسْلَامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

إِلَهِنَا! وَفَقْنَا لِإِقَامِهِ حُكُومَةَ الْعَدْلِ الْاِسْلَامِيَّةِ وَ نَشْرَ رَايَتِهَا فِي الْعَالَمِ لِيَدْخُلَ النَّاسُ طَوَاعِيَهُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا.

آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ نَهَايَهُ سُورَةُ النَّصْرِ

سوره تبت

اشاره

مكّيه و عدد آياتها خمس آيات

ص: ۵۲۹

محتوى السوره:

هذه السوره مكّيه و نزلت فى أوائل الدعوه العلنيه. و هى السوره الوحيده التى تحمل هجوما شديدا بالاسم على أحد أعداء الإسلام و النبى صلى الله عليه و آله و سلم آنذاك و هو أبو لهب. و من السوره يتضح أنه كان يحمل عداا خاصا للنبى صلى الله عليه و آله و سلم و يمارس هو و زوجه كل أنواع الأذى بحقه.

القرآن يصرح بأنهما أهل جهنم، و ليس لهما طريق للنجاه، و تحققت هذه النبوءه القرآنيه، و كلاهما مات على الكفر.

فضيله السوره:

ورد فى فضيله هذه السوره عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «من قرأها رجوت أن لا يجمع الله بينه و بين أبى لهب فى دار واحده» (١).

بديهى أن هذه الفضيله نصيب من بقراءتها يفصل مسيرته عن مسيره أبى لهب، لا من يقرأها بلسانه و يعمل عمل أبى لهب فى أفعاله.

ص: ٥٣١

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ
الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ (٥)

سبب النزول

عن ابن عباس قال: عند ما نزلت وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ أمر النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم أن ينذر عشيرته و يدعوهم إلى الإسلام (أى أن يعلن دعوته).

صعد النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم على جبل الصفا و نادى: «يا صباحاه!» (و هو نداء يطلقه العرب حين يهاجمون بغته كى يتأهبوا للمواجهه، و إنما اختاروا هذه الكلمه لأن الهجوم المباغت كان يحدث فى أول الصبح غالباً).

عند ما سمع أهل مكه هذا النداء قالوا: من المنادى؟ قيل: محمد. فاقبلوا نحوه، و بدأ ينادى قبائل العرب بأسمائها، ثم قال لهم: أ رأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدقونى.

قالوا: بلى. قال: فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تبا لك. لهذا دعوتنا جميعاً؟! فأنزل الله هذه السوره.

وقيل: إن امرأه أبا لهب (واسمها أم جميل) علمت أن هذه السورة نزلت فيها وفي زوجها. جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والنبي لا يراها، حملت حجرا وقالت: سمعت أن محمدا هجاني، قسما لو وجدته لألقمن فمه هذا الحجر. أنا شاعره أيضا. ثم أنشدت اشعارا في ذم النبي والإسلام (1).

خطر أبي لهب وامرأته على الإسلام لم يكن منحصرا فيما ذكرناه. و إذ نرى القرآن يحمل عليهما بشده و يذمهما بصراحه، فلأسباب أخرى، سنشير إليها فيما بعد.

التفسير

إشارة

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

هذه السورة - كما ذكرنا في سبب نزولها - ترد على بذات أبي لهب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابن عبد المطلب. و كان من ألد أعداء الإسلام، و حين صدح النبي بدعوته و أعلنها على قريش و أذرهم بالعذاب الإلهي قال: «تبا لك أ لهذا دعوتنا جميعا؟! و القرآن يرد على هذا الإنسان البذي و يقول له:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ

«التب» و «التاب» يعني الخسران المستمر كما يقول الراغب في مفرداته أو هو الخسران المنتهي بالهلاك كما يقول الطبرسي في مجمع البيان.

و بعض اللغويين قال إنه القطع و البتر. و هذا المعنى الأخير هو النتيجة الطبيعية للخسران المستمر المنتهي بالهلاك.

ص: ٥٣٣

١ - ١) - تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٣٢٤ (بتلخيص قليل) و الرواية بنفس المضمون ذكرها الطبرسي في مجمع البيان، و ابن الأثير في الكامل، ج ٢، ص ٦٠ و في الدر المنثور، و أبي الفتوح الرازي و الفخر الرازي، و في ظلال القرآن، في تفسير هذه السورة.

الهلاك و الخسران فى الآيه يمكن أن يكون دنيويا، و يمكن أن يكون معنويا أخرويا، أو كليهما.

و هنا يثار تساؤل بشأن سبب ذم هذا الشخص باسمه - و هو خلاف نهج القرآن - و بهذه الشده.

يتضح ذلك لو عرفنا مواقف أبى لهب من الدعوة.

اسمه «عبد العزى» و كنيته «أبو لهب» و قيل إنه كنى بذلك لحمرة كانت فى وجهه.

و امرأته «أم جميل» أخت أبى سفيان، و كانت من أشد الناس عداوه و أقذعهم لسانا تجاه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و دعوته.

و فى الروايه عن «طارق المحاربى» قال: بينا أنا بسوق ذى المجاز إذا أنا بشاب يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». و إذا برجل خلفه يرميه قد أرمى ساقيه و عرقوبيه و يقول: يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا هو محمد يزعم أنه نبى. و هذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب (١).

و

فى روايه عن «ربيعه بن عباد» قال: كنت مع أبى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يتبع القبائل، و وراءه رجل أحول و وضىء الوجه. يقف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على القبيله فيقول: «يا بنى فلان. إننى رسول الله إليكم. آمركم أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا، و أن تصدقونى و تمنعونى حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به». و إذا فرغ من مقالته قال: الآخر من خلفه: يا بنى فلان. هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات و العزى و حلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعه و الضلاله، فلا تسمعوا له، و لا تتبعوه.

فقلت لأبى: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب (٢).

و فى روايه أخرى: و كان من عظيم خطر أبى لهب ضد الدعوة الإسلاميه أنه

ص: ٥٣٤

١-١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٩.

٢-٢ - فى ظلال القرآن، ج ٨، ص ٦٩٧.

كلما جاء وفد إلى النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم يسألون عنه عمه أبا لهب - اعتباراً بكبره و قرابته و أهميته - كان يقول لهم: إنه ساحر، فيرجعون و لا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتبأ له و تعسا (١).

من هذه الروايات نفهم بوضوح أن أبا لهب كان يتبع النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم غالباً كالظلّ.

و ما كان يرى سبيلاً لإيذائه إلاّ سلكه. و كان يقذعه بأفظع الألفاظ. و من هنا كان أشدّ أعداء الرسول و الرساله. و لذلك جاءت هذه السوره لتردّ على أبي لهب و امرأته بصراحه و قوه (٢). إنه الوحيد الذي لم يوقع على ميثاق حمايه بنى هاشم للرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم، و وقف في صف الأعداء، و اشترك في عهدهم. من كلّ ما سبق نفهم الوضع الاستثنائي لهذه السوره.

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ

، فليس با مكان أمواله أن تدرأ عنه العذاب الالهي سَيَصْلِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ .

من الآيه الأولى نفهم أنه كان ثريا ينفق أمواله في محاربه النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم.

و أبو لهب ناره ذات لهب يصلها يوم القيامة. و قيل: يصلها في الدنيا قبل الآخرة. و «لهب» جاءت بصيغه النكره لتدل على عظمه لهب تلك النار.

لا - أبا لهب و لا - أي واحد من الكافرين و المنحرفين تغنيه أمواله و مكانته الاجتماعيه من عذاب الله، كما يقول سبحانه: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . (٣)

بل لم تغنه في الدنيا من سوء المصير. حيث جاء في الروايه، أنّ أبا لهب لم يشترك في بدر، بل أرسل من ينوب عنه. و بعد اندحار المشركين و عودتهم إلى مكّه، هرع أبو لهب ليسأل أبا سفيان عن الخبر. فأخبره أبو سفيان بالهزيمة و قال:

ص: ٥٣٥

١-١ - تفسير الفرقان، ج ٣٠، ص ٥٠٣.

٢-٢ - المصدر السابق.

٣-٣ - الشعراء، الآيتان ٨٨-٨٩.

«و ايم الله ما لمت الناس. لقينا رجالا- بيضا على خيل بلق بين السماء و الأرض...» قال أبو رافع (مولى العباس) وقد كان جالسا: تلك الملائكة. فرفع أبو لهب يده فضرب وجهه ضربه شديده، ثم حمله و ضرب به الأرض، ثم برك عليه يضربه و كان رجلا ضعيفا.

و ما أن شهدت أم الفضل (زوجه العباس)، و كانت جالسه أيضا، ذلك حتى أخذت عمودا و ضربت أبا لهب على رأسه و قالت: تستضعفه إن غاب عنه سيده؟! فقام موليا ذليلا.

قال أبو رافع: فو الله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسه (مرض يشبه الطاعون) فمات. و قد تركه أبناه ليلتين أو ثلاثه ما يدفنانه حتى أنتن في بيته.

فلما عيرهما الناس بذلك أخذ و غسل بالماء قذفا عليه من بعيد، ثم أخذوه فدفنوه بأعلى مكة و قذفوا عليه الحجاره حتى واروه . (١)

وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٢) ، فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ

الآيتان تتحدثان عن «أم جميل» امراه أبي لهب، و أخت أبي سفيان، و عمه معاويه. و تصفانها بأنها تحمل الحطب كثيرا، و في رقبتهها جبل من ليف النخيل.

و لماذا وصفها القرآن بأنها حماله الحطب؟ قيل: لأنها كانت تأخذ الحطب المملوء بالشوك و تضعه على طريق رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لتدمي قدماه.

و قيل: إنه كناية عن النيمه.

و قيل: إنه كناية عن شدّه البخل، فهى مع كثره ثروتها أبت أن تساعد الفقراء و كانت شبيهه بحمال الحطب الفقير.

ص: ٥٣٦

١-١) -بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٢٧.

٢-٢) -«امراته» معطوف على ضمير مستتر فى «سيصلى» و«حماله» حال منصوب. و قيل إنها منصوبه بالشتم، كما ذهب إلى ذلك الزمخشري فى الكشف، و التقدير: أذم حماله الحطب. و المعنى الأول أفضل.

وقيل: إنها في الآخرة تحمل أوزارا ثقيه على ظهرها.

و بين هذه المعانى، المعنى الأول أنسب، وإن كان الجمع بينها غير مستبعد أيضا.

«الجيد» هو الرقبه، و جمعه أجياد. و قال بعض اللغويين: الجيد و العنق و الرقبه لها معنى واحد، مع تفاوت هو إن الجيد أعلى الصدر، و العنق القسم الخلفى من الرقبه، و الرقبه لجمعها، و قد يسمّى الإنسان بها كقوله سبحانه: فَكُ رَقَبِهِ أَى فَكُ الْإِنْسَانِ و إطلاق سراحه (١).

«مسد» هو الجبل المفتول من الألياف. و قيل: جبل يوضع على رقبتها فى جهنم، له خشونه الألياف و حراره النار و ثقل الحديد.

و قيل: إن نساء الأشراف كن يرين شخصيتهن فى وسائل الزينه و خاصه القلاده الثمينه. و الله سبحانه يلقى فى عنقها يوم القيامة جبل من ليف للإهانه. أو إن التعبير أساسا للتحقير و الإهانه.

و قيل: إن هذه العبارة تشير إلى أن أم جميل أقسمت أن تنفق ثمن قلادتها الثمينه على طريق معاداه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم. و لذلك تقرر لها هذا العذاب.

ملاحظات

إشاره

١- إعجاز آخر

علمنا أن هذه الآيات نزلت فى مكه و القرآن أخبر بتأكيد كامل أن أبا لهب و امرأته من أهل النار، أى سوف لا يؤمنان أبدا. و هكذا كان كثير من مشركى مكه آمنوا عن إيمان أو عن استسلام. لكن هذين الزوجين لم يؤمنا لا حقيقه

ص: ٥٣٧

و لا ظاهرا. و هذا من أنباء الغيب فى القرآن. و فى القرآن الكرىم مثل هذه الأخبار فى آيات أخرى.
و تشكل بمجموعها فصلا من فصول إعجاز القرآن تحت عنوان «الأخبار الغيبية». و كان لنا بحوث عندها.

٢- جواب عن سؤال

القرآن أخبر عن أبى لهب بأنه سىصلى النار، أى أنه سىموت كافرا و لن يؤمن أبدا. و بهذا لا يمكن لأبى لهب أن يؤمن لأن نبوءه القرآن ستكون عندئذ كاذبه.

و إلا- سىكون أبو لهب مجبرا على الكفر. و ليس له اختيار؟! مثل هذا السؤال يطرح عن علم الله سبحانه فى مبحث الجبر و التفويض. و هو إن الله سبحانه يعلم من الأزل بكل شىء. بطاعه المطيعين و معصيه المذنبين أيضا.

ألا يكون العصاه بذلك مجبرين على الذنب؟ و إن لم يكونوا كذلك ألا يتبدل علم الله إلى جهل؟! الفلاسفه الإسلاميون أجابوا عن هذا السؤال منذ القديم و قالوا إن الله سبحانه يعلم ما يفعله كل شخص بالاستفاده من حرته و اختياره. ففى هذه الآيات مثلا يعلم الله منذ البدايه أن أبى لهب و زوجته سىختاران بإرادتهما و عن رغبتهما طريق الكفر، لا بالإجبار.

بعباره أخرى، عنصر الحرية و الإختيار أيضا جزء مّيا هو معلوم عند الله تعالى. إنه على علم بما يعمله العباد و هم مختارون متمتعون بالإرادة و الحرية.

و من المؤكّد أنّ مثل هذا العلم و الإخبار عن المستقبل، تأكيد على الإختيار، لا على الإجبار. (تأمل بدقه).

٣- ليس من أهلك هذه السوره المباركه تؤكّد مرّه أخرى أنّ القرابه لا قيمه لها إن لم تكن مقرونه برباط رسالى. و حمله الرساله الإلهيه كانوا لا يلينون أمام المنحرفين و الجبابره و الطغاه مهما كانت درجه قربهم منهم.

مع أنّ أبا لهب كان من أقرب أقرباء الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم، فقد عامله الإسلام مثل سائر المنحرفين و الضالين حين فصل مسيره العقائدى و العملى عن خط التوحيد، و وجّه إليه أشدّ الرّدّ و أحدّ التوبيخ. و على العكس ثمّه أفراد بعيدون عن الرسول نسبا و قوميه و لغه، كانوا بسبب ارتباطهم الرسالى من القرب من الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم حتى قال فى أحدهم: «سلمان منّا أهل البيت» (١).

صحيح أن آيات هذه السوره توجّه التفرّيع لأبى لهب و زوجته، و لكن كان ذلك لما اتصفا به من صفات. من هنا فإن كل فرد أو جماعه على هذه الصفات سيواجهون مصيرا مشابها أيضا.

اللهم! طهر قلوبنا من كل لجاج و عناد! ربّنا! كلنا من مصيرنا و جلون، فبفضلك و منك اجعل عواقب أمورنا خيرا.

إلهنا! نحن نعلم أنّ الأموال و القرابه لا تغنى عنّا شيئا يوم الفزع الأكبر.

فاشملنا برحمتك و لطفك.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره تبت

ص: ٥٣٩

١-١) -أوضحنا هذه المسأله أكثر فى تفسير الآيه (٤٦) من سوره هود بمناسبة الحديث عن ابن نوح عليه السلام.

سوره الإِخْلَاصِ

اِشَارَه

مَكِّيَه وَ عِدَد آيَاتِهَا أَرْبَع آيَات

ص: ٥٤١

محتوى السّوره:

هذه السّوره، كما هو واضح من اسمها، (سوره الإخلاص، أو سوره التوحيد) تركز على توحيد الله، و في أربع آيات قصار تصف التوحيد بشكل جامع لا يحتاج إلى أيه إضافه و في نزول السّوره

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «إنّ اليهود سألوا رسول الله فقالوا: أنسب لنا ربك فلبث ثلاثا لا يجيبهم. ثمّ نزلت قل هو الله أحد إلى آخرها».

قيل إنّ السائل عبد الله بن سوريا اليهودى، وقيل: إنّ عبد الله بن سلام سأل رسول الله ذلك بمكّه ثمّ آمن و كتم إيمانه. و قيل: إنّ مشركى مكّه سألوه ذلك (1).

و قيل إنّ نصارى نجران هم الذين سألوا النّبى ذلك.

و لا تضاد بين هذه الروايات، إذ قد يكون هؤلاء جميعا سألوا الرسول نفس هذا السؤال، فكان الجواب لهم جميعا، و هو دليل آخر على عظمه هذه السّوره.

فضيله السّوره:

وردت في فضيله هذه السّوره نصوص كثيره تدل على مكانه هذه السّوره بين سور القرآن من ذلك.

ص: ٥٤٣

ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَعْجَزُ أَحَدِكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلِهِ؟» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «اقْرَأُوا قَلَّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (١).

و

عن الإمام الصادق عليه السَّلام قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى عَلَى سَعْدِ بْنِ سَعْدٍ فَلَمَّا صَلَّى عَلَيْهِ قَالَ: لَقَدْ وَافَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، وَ فِيهِمْ جِبْرَائِيلُ يَصَلُّونَ عَلَيْهِ. فَقُلْتُ: يَا جِبْرَائِيلُ بِمِ اسْتَحَقَّ صَلَاتِهِمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: بِقِرَاءَةِ قَلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ قَاعِدًا وَ قَائِمًا وَ رَاكِبًا وَ مَاشِيًا وَ ذَاهِبًا وَ جَائِيًا» (٢).

و

عن الإمام الصادق عليه السَّلام أيضًا قال: «مَنْ مَضَى بِهِ يَوْمٌ وَاحِدٌ فَصَلَّى فِيهِ الْخَمْسَ صَلَوَاتٍ وَ لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِقَلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، قِيلَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَسْتَ مِنَ الْمُصَلِّينَ» (٣).

و

عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَدْعُ أَنْ يَقْرَأَ فِي دُبْرِ الْفَرِيضَةِ بِقَلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَإِنَّهُ مِنْ قَرَأَهَا جَمَعَ لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ غُفِرَ اللَّهُ لَهُ وَ لَوَالِدِيهِ وَ مَا وَلَدُوا».

و يستفاد من روايات اخرى أنّ قراءه هذه السوره عند دخول البيت تزيد الرزق و تدفع الفقر (٤).

و الروايات في فضيله هذه السوره أكثر من أن تستوعبها هذه السطور، و ما نقلناه جزء يسير منها.

□
و لكن كيف تعادل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثلث القرآن؟ قيل: لأنّ القرآن يشمل «الأحكام» و «العقائد» و «التاريخ». و هذه السوره

ص: ٥٤٤

١-١) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٥، الحديث ٤٢، نقلًا عن مجمع البيان.

٢-٢) -المصدر السابق، ص ٧٠٠، الحديث ١٢؛ نقلًا عن كتاب ثواب الأعمال.

٣-٣) -المصدر السابق، ص ٦٩٩، الحديث ١.

٤-٤) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٦١، و كتب الحديث و التفسير الاخرى.

تبيّن قسم العقائد بشكل مقتضب.

وقيل: إنّ القرآن على ثلاثة أقسام: المبدأ، والمعاد، وما بينهما. وهذه السورة تشرح القسم الأول.

و واضح أنّ ثلث موضوعات القرآن تقريبا تدور حول التوحيد. وجاءت عصارتها في هذه السورة.

و نختتم حديثنا

بروايه اخرى عن الإمام على بن الحسين عليه السلام حول عظمه هذه السورة قال: «إنّ الله عزّ و جلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون، فأنزل الله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. والآيات من سورة الحديد إلى قوله تعالى: وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فمن رام وراء ذلك فقد هلك» (١).

ص: ٥٤٥

١-١) -اصول الكافي، ج ١، باب النسبه، الحديث ٣.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

التفسير

إشاره

أحد-صمد:

جوابا عن الأسئلة المكرره التي طرحت من قبل الأفراد و الجماعات بشأن أوصاف الله سبحانه تقول الآيه:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

(١)

الضمير (هو) في الآيه للمفرد الغائب و يحكى عن مفهوم مبهم، و هو في الواقع يرمز إلى أن ذاته المقدسه في نهايه الخفاء، و لا تنالها أفكار الإنسان المحدوده و إن كانت آثاره أظهر من أى شىء آخر، كما ورد في قوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . (٢)

ص: ٥٤٦

- ١ - ١) قيل «هو» في الآيه ضمير الشأن، و الله مبتدأ. و الأفضل أن نعتبر «هو» إشارة إلى ذاته المقدسه، و قد كانت مجهوله لدى السائل، و تكون بذلك «هو» مبتدأ و «الله» خبرا و «أحد» خبر بعد الخبر.
- ٢ - ٢) فصلت، الآيه ٥٣.

ثم بعد الضمير تكشف الآية عن هذه الحقيقة الغامضة و تقول: اللَّهُ أَحَدٌ .

و قُلْ فِي آيَةِ تَعْنَى أَنْ أَظْهَرَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَ بَيَّنَّهَا.

عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال بعد بيان معنى «قل» في الآية (و هو الذى ذكرناه): «إن الكفار نبهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك. فقالوا:

هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار. فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذى تدعو إليه حتى نراه و ندركه و لا نأله فيه. فانزل الله تبارك و تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فالهاء تثبيت للثابت، و الواو إشارة إلى الغائب عن درك الأبصار و لمس الحواس». (١)

و

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «رأيت الخضر عليه السلام فى المنام قبل بدر بليلى، فقلت له: علمنى شيئاً أنصر به على الأعداء. فقال: قل: يا هو، يا من لا هو إلا هو.

فلما أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال لى: يا على علمت الاسم الأعظم» (٢).

و

كان علي عليه السلام يذكر الله تعالى بهذا الذكر يوم صفين. فقال له عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: «اسم الله الأعظم و عماد التوحيد...». (٣)

«الله» اسم علم للبارى سبحانه و تعالى. و مفهوم كلام الإمام علي عليه السلام أن جميع صفات الجلال و الجمال الإلهية أشير إليها بهذه الكلمة. و من هنا سميت باسم الله الأعظم.

هذا الاسم لا يطلق على غير الله، بينما أسماء الله الأخرى تشير عادة إلى واحد من صفات جماله و جلاله مثل: العالم و الخالق و الرازق، و تطلق غالباً على غيره أيضاً مثل: (رحيم، و كريم، و عالم، و قادر...).

ص: ٥٤٧

١- ١) - بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢١، الحديث ١٢، بتلخيص.

٢- ٢) - المصدر السابق.

٣- ٣) - المصدر السابق.

و لفظ الجلاله مشتق من معنى وصفى. قيل من «وله» أى تحيّر، لأنّ العقول تحير فى ذاته المقدّسه. و فى ذلك

ورد عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «اللّه معناه المعبود الذى يأله فيه الخلق، و يؤله إليه، و اللّه هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام و الخطرات». (١)

و قيل: إن لفظ الجلاله مشتق من «آله» بمعنى عبد، و الإله: هو المعبود. حذفته همزته و ادخل عليه الألف و اللام فخص بالبارى تعالى.

و مهما يكن الأصل المشتق منه لفظ الجلاله، فهو اسم يختص به سبحانه و يعنى الذات الجامعه لكل الأوصاف الكماليه، و الخاليه من كل عيب و نقص.

هذا الاسم المقدّس تكرر ما يقارب من «ألف مرّه» فى القرآن الكريم، و لم يبلغه أى اسم من الأسماء المقدّسه فى مقدار تكراره. و هو اسم ينير القلب، و يبعث فى الإنسان الطاقه و الطمأنينه، و يغمر وجوده صفاء و نور.

«أحد»: من الواحده، و لذلك قال بعضهم: أحد و واحد بمعنى واحد، و هو المتفرد الذى لا نظير له فى العلم و القدره و الرحمانيه و الرحيميه، و فى كل الجهات.

و قيل: إنّ بين «أحد» و «واحد» فرق هو إن «أحد» تطلق على الذات التى لا تقبل الكثره لا فى الخارج و لا فى الذهن. و لذلك لا تقبل العدوّ لا تدخل فى زمره الأعداد، خلافا للواحد الذى له ثان و ثالث، فى الخارج أو فى الذهن. و لذلك نقول: لم يأت أحد. للدلاله على عدم مجيء أى إنسان. و إذا قلنا: لم يأت واحد فمن الممكن أن يكون قد جاء اثنان أو أكثر. (٢)

و لكن هذا الاختلاف لا ينسجم كثيرا مع ما جاء فى القرآن الكريم و الزوايات.

و قيل: فى «أحد» إشاره إلى بساطه ذات اللّه مقابل الأجزاء التركيبيه

ص: ٥٤٨

١-١ - المصدر السابق.

٢-٢ - الميزان، ج ٢٠، ص ٥٤٣.

الخارجيه أو العقلية (الجنس، الفصل، و الماهيه، و الوجود). بينما الواحد إشارة إلى وحده ذاته مقابل أنواع الكثره الخارجيه.

و

فى روايه عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «الأحد المتفرد، و الأحد و الواحد بمعنى واحد، و هو المتفرد الذى لا نظير له، و التوحيد الإقرار بالوحده و هو الانفراد».

و

فى ذيل الروايه هذه جاء «إن بناء العدد من الواحد، و ليس الواحد من العدد. لأن العدد لا يقع على الواحد بل يقع على الاثنين. فمعنى قوله: الله أحد. أى المعبود الذى يأله الخلق عن إدراكه و الإحاطه بكيفيته، فرد بالهيته، متعال عن صفات خلقه» (١).

و فى القرآن الكريم «واحد» و «أحد» تطلقان معا على ذات الله سبحانه.

و من الرائع فى هذا المجال ما

جاء فى كتاب التوحيد للصدوق: أن أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول: إن الله واحد؟ فحمل الناس عليه و قالوا: يا أعرابى أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب (أى تشتت خاطر)؟ فقال: أمير المؤمنين عليه السلام: «دعوه فإن الذى يريد الأعرابى هو الذى نريده من القوم. ثم قال: يا أعرابى، إن القول فى أن الله واحد على أربعة أقسام. فوجهان منها لا يجوزان على الله عز و جل، و وجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثانى له لا يدخل فى باب الأعداد. أما ترى أنه كفر من قال إنه ثالث ثلاثه؟ و قول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز (قوله على الله) لأنه تشبيه، و جل ربنا و تعالى عن ذلك.

و أمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له فى الأشياء شبه، كذلك ربنا. و قول القائل: إنه عز و جل أحدى المعنى، يعنى به أنه لا ينقسم فى

ص: ٥٤٩

وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربنا عز وجل (١).

وباختصار: الله أحد و واحد لا بمعنى الواحد العددي أو النوعي أو الجنسي بل بمعنى الواحده الذاتيه. بعبارة أوضح: وحدانيته تعنى عدم وجود المثل و الشبيه و النظير.

الدليل على ذلك واضح: فهو ذات غير متناهيه من كل جهه، و من المسلم أنه لا يمكن تصور ذاتين غير متناهييتين من كل جهه. إذ لو كان ثمه ذاتان، لكانت كلتاهما محدودتين، و لما كان لكل واحد منهما كمالات الأخرى. (تأمل بدقه).

□
اللَّهُ الصَّمَدُ

و هو وصف آخر لذاته المقدسه. و ذكر المفسرون و اللغويون معاني كثيره لكلمه «صمد».

الراغب فى المفردات يقول: الصمد، هو السيد الذى يصمد إليه فى الأمر، أى يقصد إليه. و قيل: الصمد الذى ليس بأجوف.

و فى معجم مقاييس اللغة، الصمد له أصلان: أحدهما القصد، و الآخر: الصلابه فى الشىء... و الله جل ثناؤه الصمد؛ لأنه يصمد إليه عباده بالدعاء و الطلب (٢).

و قد يكون هذان الأصلان اللغويان هما أساس ما ذكر من معاني لصمد مثل:

الكبير الذى هو فى منتهى العظمه، و من يقصد إليه الناس بحوائجهم، و من لا يوجد أسمى منه، و من هو باق بعد فناء الخلق.

و

عن الإمام الحسين بن على عليه السلام أنه ذكر لكلمه «صمد» خمس معان هى:

الصمد: الذى لا جوف له.

الصمد: الذى قد انتهى سؤدده (أى فى غايه السؤدد) الصمد: الذى لا يأكل و لا يشرب.

ص: ٥٥٠

١- (١) -بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٠٦، الحديث ١.

٢- (٢) -معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ٣، ص ٣٩.

الصمد:الذى لا ينام.

الصمد:الذى لم يزل ولا يزال.

و

عن محمد بن الحنفية (رض) قال: الصمد القائم بنفسه الغنى عن غيره. وقال غيره: الصمد، المتعالى عن الكون و الفساد (١).

و

عن الإمام على بن الحسين عليه السلام قال: «الصمد الذى لا شريك له، ولا يؤوده حفظ شىء، ولا يعزب عنه شىء. (أى لا يثقل عليه حفظ شىء ولا يخفى عنه شىء)» (٢).

و ذهب بعضهم إلى أنّ «الصمد» هو الذى يقول للشىء كن فيكون.

و

فى الروايه أنّ أهل البصره كتبوا إلى الحسين بن على عليه السلام يسألونه عن الصمد. فكتب إليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد فلا تخوضوا فى القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلموا فيه بغير علم. فقد سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، وأنّه سبحانه قد فسّر الصمد فقال: الله أحد، الله الصمد، ثمّ فسّره فقال: لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد...» (٣).

و

عن ابن الحنفية قال: قال على عليه السلام تأويل الصمد: «لا اسم و لا جسم، و لا مثل و لا شبه، و لا صوره و لا تمثال، و لا حدّ و لا حدود، و لا موضع و لا مكان، و لا كيف و لا أين، و لا هنا و لا ثمّه، و لا ملأ و لا خلا، و لا قيام و لا قعود، و لا سكون و لا حركة، و لا -ظلمانى و لا- نورانى، و لا- روحانى و لا نفسانى، و لا يخلو منه موضع و لا يسعه موضع، و لا على لون، و لا على خطر قلب، و لا على شمّ رائحه، منفى عنه

ص: ٥٥١

١-١) -بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢٣.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٦٥.

هذه الأشياء» (١).

هذه الزوايه توضح أنّ «الصمد» له مفهوم واسع ينفى كلّ صفات المخلوقين عن ساحته المقدّسه، لأنّ الأسماء المشخصه و المحدوده و كذلك الجسميه و اللون و الرائحه و المكان و السكون و الحركه و الكيفيه و الحد و الحدود و أمثالها كلها من صفات الممكنات و المخلوقات، بل من أوصاف عالم ماده، و الله سبحانه منزّه منها جميعا.

في العلوم الحديثه اتضح أنّ كلّ ماده في العالم تتكون من ذرات. و كلّ ذره تتكون من نواه تدور حولها الإلكترونات. و بين النواه و الإلكترونات مسافه كبيره نسبيا. و لو أزيلت هذه الفواصل لصغر حجم الأجسام إلى حدّ كبير مدهش.

و لو أزيلت الفواصل الذريه في مواد جسم الإنسان مثلا، و كثفت هذه المواد، لصغر جسم الإنسان إلى درجه عدم إمكان رؤيته بالعين المجرّده، مع احتفاظه بالوزن الأصلي!!

و بعضهم استفاد من هذه الحقائق العلميه ليستنتج أنّ الآيه تنفى عن الله كلّ ألوان الجسمانيه، لأنّ واحدا من معاني «الصمد» هو الذي لا جوف له، و لما كانت كل الأجسام تتكون من ذرات، و الذرات جوفاء، فالصمد نفى الجسميه عن ربّ العالمين. و بذلك تكون الآيه من المعاجز العلميه في القرآن.

و لكن، يجب أن لا ننسى المعنى الأصلي لكلمه «صمد» و هو السيد الذي يقصده الناس بحوائجهم، و هو كامل و مملوء من كلّ الجهات، و بقيه المعاني و التفاسير الاخرى المذكوره للكلمه قد تعدو إلى نفس هذا المعنى.

الآيه التاليه تردّ على معتقدات اليهود و النصارى و مشركى العرب و تقول:

لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُؤَلَدْ

ص: ٥٥٢

إنها ترد على المؤمنين بالتثليث (الرب الأب، والرب الابن، وروح القدس).

النصارى تعتقد أنّ المسيح ابن الله، واليهود ذهبوا إلى أنّ العزيز ابن الله:

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ
أَنِّي يُؤْفَكُونَ

(١)

و مشركو العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات الله: وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ (٢).

و يستفاد من بعض الروايات أن الولادة في قوله: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُؤَلَمْدْ لها معنى واسع يشمل كل أنواع خروج الأشياء المادية و اللطيفة منه، أو خروج ذاته المقدسه من أشياء مادية أو لطيفة.

و

في نفس الرسالة التي كتبها الإمام الحسين بن علي عليه السلام إلى أهل البصرة يجيبهم عن تساؤلهم بشأن معنى الصمد قال في تفسير: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُؤَلَمْدْ: «لَمْ يَلِدْ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ شَيْءٍ كَثِيفٍ كَالْوَلَدِ وَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْكَثِيفَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَ لَا شَيْءٍ لَطِيفٍ كَالنَّفْسِ، وَ لَا- يَتَشَعَّبُ مِنْهُ الْبِدَاوَاتُ (الحالات المختلفة) كَالسِّنِّ وَ النَّوْمِ، وَ الْخَطَرِ وَ الْهَمِّ، وَ الْحُزْنِ وَ الْبَهْجَةِ، وَ الضَّحْكَ وَ الْبُكَاءِ، وَ الْخَوْفِ وَ الرَّجَاءِ، وَ الرَّغْبَةِ وَ السَّأْمَةِ، وَ الْجُوعِ وَ الشَّبَعِ، تَعَالَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ شَيْءٍ، وَ أَنْ يَتَوْلَدَ مِنْ شَيْءٍ كَثِيفٍ أَوْ لَطِيفٍ، وَ لَمْ يُؤَلَمْدْ لَمْ يَتَوْلَدَ مِنْ شَيْءٍ، وَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ شَيْءٍ كَمَا تَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ الْكَثِيفَةُ مِنْ عُنَاصِرِهَا كَالشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وَ الدَّابَّةِ مِنَ الدَّابَّةِ، وَ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، وَ الْمَاءِ مِنَ الْيُنَائِبِ، وَ الثَّمَارِ مِنَ الْأَشْجَارِ، وَ لَا كَمَا تَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ اللَّطِيفَةُ مِنْ مَرَاكِزِهَا، كَالْبَصْرِ مِنَ الْعَيْنِ، وَ السَّمْعُ مِنَ الْأُذُنِ، وَ الشَّمُّ مِنَ الْأَنْفِ، وَ الذَّوْقُ مِنَ الْفَمِّ، وَ الْكَلَامُ مِنَ اللِّسَانِ، وَ الْمَعْرِفَةُ وَ التَّمْيِيزُ مِنَ الْقَلْبِ،

ص: ٥٥٣

١-١) -التوبة، الآية ٣٠.

٢-٢) -الأنعام، الآية ١٠٠.

و كالتار من الحجر...» (١).

بناء على هذه الروايه، للتولد معنى واسع يشمل خروج و تفرع كل شىء من شىء، و هذا فى الحقيقه المعنى الثانى للآيه. و معناها الأول هو المعنى الظاهر الذى ينفى أن يكون البارى سبحانه من أب أو أن يكون له ابن أضف إلى ذلك، المعنى الثانى قابل للفهم عند تحليل المعنى الأول. لأن الله سبحانه إنما لم يكن له ولد لأنه منزّه عن عوارض الماده، و هذا المعنى يصدق بشأن سائر عوارض الماده الاخرى.

ثم تبلغ الآيه الأخيره غايه الكمال فى أوصاف الله تعالى.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

(٢)

أى ليس له شبيه و مثل إطلاقاً.

«الكفو»: هو الكفاء فى المقام و المنزله و القدر. ثم أطلقت الكلمه على كل شبيه و مثل.

استناداً إلى هذه الآيه، الله سبحانه منزّه عن عوارض المخلوقين و صفات الموجودات و كل نقص و محدوديه. و هذا هو التوحيد الذاتى و الصفاتى، مقابل التوحيد العدى و النوعى الذى جاء فى بدايه تفسير هذه السوره.

من هنا فهو تبارك و تعالى لا- شبيه له فى ذاته، و لا- نظير له فى صفاته، و لا- مثل له فى أفعاله، و هو متفرد لا- نظير له من كل الجهات.

أمير المؤمنين على عليه السلام يقول فى إحدى خطب نهج البلاغه: «لم يلد فىكون مولوداً، و لم يولد فىصير محدوداً... و لا كفاء له فىكافئه، و لا نظير له فىساويه» (٣).

هذا التفسير الرائع يكشف عن أسمى معانى التوحيد و أدقها.

ص: ٥٥٤

١-١) -بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢٤.

٢-٢) -«أحد» اسم كان و «كفوا» خبرها.

٣-٣) -نهج البلاغه، الخطبه ١٨٦.

الأول: التوحيد

التوحيد، يعنى وحدانيه ذات الله تعالى و نفى أى شبيهه و مثيل له. و إضافه إلى الدليل النقلى المتمثل فى النصوص الدينيه ثمه دلائل عقليه كثيره أيضا تثبت ذلك نذكر قسما منها باختصار:

١- برهان صرف الوجود: و ملخصه أن الله سبحانه وجود مطلق لا يحده قيد و لا شرط، و مثل هذا الوجود سيكون غير محدود دون شك، فلو كان محدودا لمنى بالعدم، و الذات المقدسه التى ينطلق منها الوجود لا يمكن أن يعترضها العدم و الفناء، و ليس فى الخارج شىء يفرض عليه العدم، و لذلك لا يحده حد.

من جهه اخرى لا- يمكن تصوّر وجودين غير محدودين فى العالم. إذ لو كان ثمه وجودان لكان كل واحد منهما فاقدا حتما لكمالات الآخر، أى لا يملك كمالاته و من هنا فكلاهما محدودان. و هذا دليل واضح على وحدانيه ذات واجب الوجود (تأمل بدقه) ٢- البرهان العلمى: عند ما ننظر إلى الكون الذى يحيط بنا، نلاحظ فى البدايه موجودات متفرقه... الأرض و السماء و الشمس و القمر و النجوم و أنواع النباتات و الحيوانات. و كلما ازددنا إمعانا فى النظر ألفينا مزيدا من الترابط و الانسجام بين أجزاء هذا العالم و ذراته، و ظهر لنا أنه مجموعه واحده تتحكم فيها جميعا قوانين واحده.

و مهما تقدم العلم البشرى اكتشف مزيدا من ظواهر وحده أجزاء هذا العالم

و انسجامها؛ حتى أنّ ظاهره بسيطه (مثل سقوط تفاحه من الشجره) يؤدى إلى اكتشاف قانون عام يحكم كلّ أجزاء الكون. (مثل قانون الجاذبيه الذى اكتشفه نيوتن).

هذه الوحده فى نظام الوجود، و القوانين الحاكمه عليه، و الانسجام التام بين أجزائه كلّها ظواهر تشهد على وحدانيه الخالق.

٣- برهان التمانع: (الدليل العلمى الفلسفى)، و هو دليل آخر على إثبات وحدانيه الله، مستلهم من قوله سبحانه: **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (١)**.

توضيح هذا الدليل جاء فى المجلد ١٠ الصفحه ١٤٥ من هذا التفسير تحت عنوان: برهان التمانع.

٤- دعوه الأنبياء إلى الله الواحد الأحد: و هو دليل آخر على وحدانيه الله، إذ لو كان هناك خالقان كلّ واحد منهما واجب الوجود فى العالم، لاستلزم أن يكون كلّ واحد منهما منبعاً للفيض. فلا يمكن لوجود ذى كمال مطلق أن يبخل فى الإفاضه لأنّ عدم الفيض نقص بالنسبه للوجود الكامل. و حكمته تستوجب أن يشمل الجميع بفيضه.

و هذا الفيض له نوعان: فيض تكوينى (فى عالم الخلقه)، و فيض تشريعى (فى عالم الهدايه). من هنا لو كان هناك آلهه متعدده لوجب أن يأتى مبعوثون منهم جميعاً، ليواصلوا فيضهم التشريعى إلى الناس.

أمير المؤمنين على عليه السّلام يقول لابنه الحسن عليه السّلام و هو يوصيه: «و اعلم يا بنى أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، و لرأيت آثار ملكه و سلطانه، و لعرفت أفعاله و صفاته، و لكنّه إله واحد كما وصف نفسه» (٢).

ص: ٥٥٦

١- ١) - الأنبياء، الآيه ٢٢.

٢- ٢) - نهج البلاغه، وصيته لابنه المجتبى (قسم الرسائل، الرساله ٣١).

هذه كلها دلائل وحدانيه ذاته. أمّا الدليل على عدم وجود أى تركيب و أجزاء فى ذاته المقدسه فواضح، إذ لو كان له أجزاء خارجيه لكان محتاجا إليها طبعاً.

و الاحتياج لا يعقل لواجب الوجود.

و إذا كان المقصود أجزاء عقليه (التركيب من الماهيه و الوجود، أو من الجنس و الفصل) فهو محال أيضاً. لأنّ التركيب من الماهيه و الوجود فرع لمحدوديه الموجود. بينما وجوده سبحانه غير محدود. و التركيب من الجنس و الفصل فرع من أن يكون للموجود ماهيه. و ما لا ماهيه له، ليس له جنس و لا فصل.

التّانى: فروع دوحه التوحيد

تذكر للتوحيد عادة أربعة فروع:

١- توحيد الذات: (و هو ما شرحناه أعلاه).

٢- توحيد الصفات: أى إنّ صفاته لا تنفصل عن ذاته، و لا تنفصل عن بعضها. على سبيل المثال العلم و القدره فى الإنسان عارضان على ذاته. ذاته شىء، و علمه و قدرته شىء آخر. كما إنّ علمه و قدرته منفصلان عن بعضهما.

مركز العلم روح الإنسان، و مركز قدرته الجسميه ذراعه و عضلاته. لكن صفات الله ليست زائده على ذاته، و ليست منفصله عن بعضها. بل هو وجود كلّ علم، و كلّ قدره، و كلّ أزليه و أبدية.

و لو لم يكن ذلك لاستلزم التركيب، و إن كان مركباً لاحتاج إلى الأجزاء و المحتاج لا يكون واجباً للوجود.

٣- التوحيد الأفعالى: و يعنى أنّ كلّ وجود و كلّ حركه و كلّ فعل فى العالم يعود إلى ذاته المقدّسه، فهو مسبب الأسباب و علّه العليل. حتى الأفعال التى تصدر منّا هى فى أحد المعانى صادرة عنه. فهو الذى منحنا القدره و الإختيار و حريه الإراده. و مع أنّنا نفعل الأفعال بأنفسنا، و أنّنا مسئولون تجاهها. فالفاعل

من جهه هو الله سبحانه لأنّ كلّ ما عندنا يعود إليه: (لا مؤثر في الوجود إلّا الله).

٤- التوحيد في العباده: أى تجب عبادته وحده دون سواه، و لا- يستحق العباده غيره. لأنّ العباده يجب أن تكون لمن هو كمال مطلق. و مطلق الكمال، لمن هو غنى عن الآخرين، و لمن هو واهب النعم و خالق كلّ الموجودات و هذه صفات لا تجتمع إلّا فى ذات الله سبحانه.

الهدف الأصلي للعباده هو الاقتراب من ذلك الكمال المطلق، و الوجود اللامتناهى، هو السعى لإناره النفس بقبس من صفات كماله و جماله... و ينتج عن ذلك الابتعاد عن الأهواء و الشهوات و الاتجاه نحو بناء النفس و تهذيبها.

هذا الهدف لا يتحقق إلّا بعباده الله، و هو الكمال المطلق.

الثالث: التوحيد الأفعالي

اشاره

توحيد الأفعال له بدوره فروع كثيره نشير إلى سته من أهمها:

١- توحيد الخالقيه

و القرآن الكريم يقول: قُلِ اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (١).

و دليله واضح، فحين ثبت بالأدله السابقه أنّ واجب الوجود واحد، و كلّ ما عداه ممكن الوجود، يترتب على ذلك أنّ خالق كلّ الموجودات واحد أيضا.

٢- توحيد الربوبيه

أى إنّ الله وحده هو مدبّر العالم و مربّيه و منظمه. كما جاء فى قوله تعالى:

قُلْ أَعْيَرَ اللّٰهِ أَبْغَى رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ

(٢)

دليل ذلك أيضا وحده واجب الوجود، و توحيد الخالق فى عالم الكون.

١-١ - الرعد، الآية ١٦٠.

٢-٢ - الأنعام، الآية ١٦٤.

٣- التوحيد فى التقنين و التشريع

يقول سبحانه: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١).

لما ثبت أنه سبحانه هو المدير و المدبر، فليس لأحد غيره حتما صلاحية التقنين. إذ لا سهم لغيره فى تدبير العالم كى يستطيع أن يضع قوانين منسجمه مع نظام التكوين.

٤- التوحيد فى المالكه

سواء «الملكيه الحقيقيه» أى السلطه التكوينيّه على الشىء، أم «الملكيه الحقيقه» وهى السلطه القانونيه على الشىء، فهى له سبحانه، كما يقول فى كتابه العزيز: وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (٢) و يقول سبحانه: وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلْنَاكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ (٣).

و الدليل على ذلك هو نفس الدليل على توحيد الخالقيه، و حين يكون هو سبحانه خالق كل شىء فهو مالك كل شىء أيضا. فكل ملكيه يجب أن تستمد وجودها من مالكيته.

٥- توحيد الحاكميه

لا- بدّ للمجتمع البشرى من حكومه، لأنّ الحياه الاجتماعيه تتطلب ذلك، فلا يمكن بدون حكومه أن تقسم المسؤوليات، و تنظم المشاريع، و يحال دون التعدى و التجاوز.

و من جهه أخرى، مبدأ الحريه يقرر أن لا أحد له حق الحكومه على أحد، إلاّ

ص: ٥٥٩

١-١ (١) - المائده، الآيه ٤٤.

٢-٢ (٢) - آل عمران، الآيه ١٨٩.

٣-٣ (٣) - الحديد، الآيه ٧.

إذا سمح بذلك المالك الأصلي و الصاحب الحقيقي. من هنا فالإسلام يرفض كلّ حكمه لا تنتهى إلى الحكومه الإلهيه و من هنا أيضا نرى شرعيه الحكم للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و للأئمه المعصومين عليه السلام ثم للفقيه الجامع للشرائط بعدهم. و من الممكن أن يجيز الناس أحدا ليحكمهم. و لكن اتفاق الناس بأجمعهم غير ممكن فى مجتمع عاده، و لذلك لا يمكن إقامه مثل هذه الحكومه عمليا (١).

جدير بالذكر أن توحيد الربوبيه يرتبط بعالم التكوين، و توحيد التقنين يرتبط بعالم التشريع.

يقول سبحانه: **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ (٢)**.

٦- توحيد الطاعه

الله سبحانه هو وحده «واجب الإطاعه» فى هذا الكون. و هو تعالى مصدر مشروعيه إطاعه غيره. أى إن إطاعه غيره يجب أن تعدّ إطاعه له.

دليل ذلك واضح أيضا، حين تكون الحاكميه له دون سواه فيجب أن يكون هو المطاع دون غيره، و لذلك نحن نعتبر إطاعتنا للأنبياء عليهم السلام و الأئمه المعصومين و من ينوب عنهم هى انعكاس عن طاعتنا لله. يقول تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ (٣)**.

و يقول سبحانه: **مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (٤)**.

كلّ واحد من المواضيع المذكوره أعلاه تحتاج إلى شرح و تفصيل، و نحن نكتفى بهذه الخلاصه كى لا نخرج عن إطار هذا التفسير.

ص: ٥٦٠

١- ١) - لذلك إذا تعينت حكومه عن طريق الانتخابات و بأكثرية الأصوات، فلا بدّ من تنفيذ الفقيه الجامع للشرائط كى تكون لها شرعيه إلهيه.

٢- ٢) - الأنعام، الآيه ٥٧.

٣- ٣) - النساء، الآيه ٥٩.

٤- ٤) - النساء، الآيه ٨٠.

إلهى! ثبت أقدامنا على خط التوحيد ما حيننا.

ربنا! فروع الشرك مثل فروع التوحيد كثيره و لا نجاه لنا من الشرك إلا بلطفك، فاشملنا بفضلك.

إلهنا! اجعل حياتنا مع التوحيد، و مماتنا مع التوحيد، و احشرنا مع حقيقه التوحيد.

آمين يا رب العالمين نهايه سوره الإخلاص

ص: ٥٦١

سوره الفلق

اشاره

مكّيه و عدد آياتها خمس آيات

ص: ۵۶۳

محتوى السّوره:

قيل: أنّها مكّيه، و بعض المفسّرين قال إنّها مدنيه.

تتضمّن السّوره تعاليم للنّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم خاصّه، و للناس عامّه تقضى أن يستعينوا بالله من شرّ كلّ الأشرار، و أن يوكّلوا أمرهم إليه، و يأمنوا من كلّ شرّ فى اللجوء إليه.

و بشأن نزول السّوره ذكرت الرّوايه المنقوله فى أغلب كتب التّفسير أنّ النّبي أصيب بسحر بعض اليهود، و مرض على أثر ذلك فنزل جبرائيل و أخبره أنّ آله السحر موجوده فى بئر. فأرسل من يخرجها، ثمّ تلا هذه السّوره، و تحسنت صحته.

المرحوم الطبرسى و محققون آخرون شككوا فى هذه الرّوايه التى ينتهى سندها إلى عائشه و ابن عباس لما يلى:

أولاً: السّوره كما هو مشهور مكّيه و لحنها مثل لحن السور المكّيه، و النّبي جابه اليهود فى المدينه و هذا يدل على عدم أصاله الرّوايه.

ثانياً: لو كان اليهود بمقدورهم أن يفصلوا بسحرهم ما فعلوه بالنّبي حسب الرّوايه لاستطاعوا أن يصدوه عن أهدافه بسهولة عن طريق السحر، و الله سبحانه قد حفظ نبيّه كى يؤدى مهام النبوه و الرساله.

ثالثاً: لو كان السحر يفعل بجسم النّبي ما فعله لأمكن أن يؤثر فى روحه أيضاً، و تكون أفكاره بذلك لعبه بيد السحره، و هذا يزلزل مبدأ الثقة بالنّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، و القرآن الكريم يردّ على أولئك الذين اتهموا النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بأنّه مسحور إذ قال: □ وَقَالَ

الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً

(١)

«مسحور» في الآيه تشمل من أصيب بسحر في عقله أو في جسمه، و هي دليل على ما نذهب إليه.

على أى حال لا يجوز أن نمس من قداسه مقام النبوه بهذه الروايات المشكوكه، أو أن نعتمد عليها في فهم الآيات.

فضيله السوره:

روى في فضيله هذه السوره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنزلت على آيات لم ينزل مثلهنّ: المعوذتان» (٢).

و

عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «من أوتر بالمعوذتين و قل هو الله أحد قيل له: يا عبد الله أبشر فقد قبل الله و ترك» (٣).

و

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأحد أصحابه: «ألا أعلمك سورتين هما أفضل سور القرآن، أو من أفضل القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله. فعلمني المعوذتين. ثم قرأ بهما في صلاه الغدا، و قال لى اقرأهما كلما قمت و نمت». (٤).

واضح أن هذه الفضيله نصيب من جعل روحه و عقيدته و عمله منسجما مع محتوى السوره.

ص: ٥٦٦

١-١) - الفرقان، الآيتان ٨ و ٩.

٢-٢) - نور الثقلين، ج ٥، ص ٧١٦، و مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٦٧.

٣-٣) - المصدر السابق.

٤-٤) - المصدر السابق.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

التفسير

اشاره

بربّ الفلق أعوذ:

يخاطب الله سبحانه نبيه باعتباره الاسوه و القدوه، و يقول له:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ

«الفلق»: من فلق أى شقّ و فصل؛ و سُمى طلوع الصبح بالفلق لأنّ ضوء الصبح يشقّ ظلمه الليل؛ و مثله الفجر، اطلق على طلوع الصبح لنفس المناسبه.

و قيل: إنّ الفلق يعنى ولاده كلّ الموجودات الحيه، بشريه كانت أم حيوانيه أم نباتيه. فولاده هذه الموجودات تقترب بخلقها أو بيضتها. و الولاده من أعجب مراحل وجود هذه الأحياء، لأنّها تشكل طرفه فى مراحل وجودها، و انتقالا- من عالم إلى عالم آخر. يقول سبحانه: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

وقيل: إنَّ الفلق له معنى واسع يشمل كلَّ خلق، لأنَّ الخلق، هو شقّ ستار العدم ليسطع نور الوجود.

و كلّ واحد من هذه المعانى الثلاثة (طلوع الصبح - و ولاده الموجودات الحيّه - و خلق كلّ موجود) ظاهره عجيبه تدل على عظمه البارى و الخالق و المدبّر، و وصف الله بذلك له مفهوم عميق.

فى بعض الرّوايات جاء أنّ الفلق بئر عظيم فى جهنّم تبدو و كأنّها شقّ فى داخلها. و قد تكون الرّوايه إشاره إلى أحد مصاديقها لا أن تحدّد المفهوم الواسع لكلمه «الفلق».

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ

...من كلّ موجود شرّير من الإنس و الجن و الحيوان و حوادث الشرّ و النفس الأماره بالسوء، و هذا لا يعنى أنّ الخلق الإلهى ينطوى فى ذاته على شرّ، لأنّ الخلق هو الإيجاد، و الإيجاد خير محض. يقول سبحانه: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (٢).

بل الشرّ يعرض المخلوقات حين تنحرف عن قوانين الخلقه، و تنسلخ عن المسير المعين لها. على سبيل المثال، أنياب الحيوانات و سيله دفاعيه تستخدمها أمام الأعداء، كما نستخدم نحن السلاح للدفاع مقابل العدو. لو أنّ هذا السلاح استخدم فى محله فهو خير، و إن لم يستعمل فى محله كأن صوب تجاه صديق فهو شرّ.

جدير بالذكر أنّ كثيرا من الأمور نحسبها شرّا و فى باطنها خير كثير، مثل الحوادث و البلايا التى تنفض عن الإنسان غبار الغفله و تدفعه إلى التوجه نحو الله هذه ليس من الشرّ حتما.

ص: ٥٦٨

١-١ - الأنعام، الآية ٩٥.

٢-٢ - ألم السجده، الآية ٧.

«غاسق»: من الغسق، وهو - كما يقول الراغب في المفردات - شدّه ظلمه الليل في منتصفه. و لذلك يقول القرآن الكريم في إشارته إلى نهايه وقت صلاه المغرب:

...إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ... و ما قاله بعضهم في الغسق أنه ظلمه أول الليل فبعيد خاصه و أن أصل الكلمه يعنى الامتلاء و السيلان. و ظلمه الليل تكون ممثله حين ينتصف الليل. و أحد المفاهيم الملازمه لهذا المعنى الهجوم، و لذلك استعملت الكلمه في هذا المعنى أيضا.

«غاسق»: تعنى إذن في الآيه: الفرد المهاجم، أو الموجود الشرير الذى يتستر بظلام الليل لشنّ هجومه. فليست الحيوانات الوحشيه و الزواحف اللاسعه وحدها تنشط في الليل و تؤذى الآخرين بل الأفراد الشريرين يتخذون من الليل أيضا ستارا لتنفيذ أهدافهم الخبيثه.

«وقب»: من الوقب، و هو الحفره، ثم استعمل الفعل «وقب» للدخول في الحفره؛ و كأن هذه الموجودات الشريره المضرة تستغل ظلام الليل، فتصنع الحفر الضاره لتحقيق مقاصدها الخبيثه. و قد يكون الفعل يعنى: نفذ و توغل.

مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ

«النفاثات»: من «النفث» و هو البصق القليل، و لما كان البصق مقرونا بالنفخ، فاستعملت نفث بمعنى نفخ أيضا.

كثير من المفسرين قالوا إنّ «النفاثات» هي النساء الساحرات. و هي صيغه جمع للمؤنث و مبالغه من نفث. و هذه النسوه كن يقرأن الأوراد و ينفخن في عقد، و بذلك يعملن السحر. و قيل: إنّها إشاره للنساء اللاتى كن يوسوسن في أذن الرجال و خاصه الأزواج ليثوهم عن عزمهم و ليوهنا إرادتهم في أداء المهام الكبرى. و ما أكثر الحوادث المؤلمه التى أدت إليها وساوس أمثال هذه النسوه

طوال التاريخ! وما أكثر نيران الفتنة التي أشعلتها، والعزائم التي أرختها و أوهنتها! الفخر الرازى يقول النساء يتصرفن فى قلوب الرجال لنفوذ محبتهم فى قلوبهم (١).

و هذا المعنى فى عصرنا أظهر من أى وقت آخر، إذ إنّ إحدى أهم وسائل نفوذ الجواسيس فى أجهزه السياسه العالميه استخدام النساء، اللاتى ينفثن فى العقد، فتفتح مغاليق الأسرار فى القلوب و يحصلن على أدق الأسرار.

و قيل: إنّ النفثات هى النفوس الشريره، أو الجماعات المشككه التى تبعث بوساوسها عن طريق وسائل إعلامها لتوهن عزيمه الجماعات و الشعوب.

و لا يستبعد أن تكون الآيه ذات مفهوم عام جامع يشمل كل أولئك و يشمل أيضا النمامين و الذين يهدمون بنیان المحبّه بين الأفراد.

و ينبغى التأكيد على أنّ السوره لا تتضمن أيه دلالة على أن المقصود بآياتها سحر الساحرين. و على فرض أنّها تشير إلى سحر الساحرين، فإنّها لا تشكل دليلا على صحه سبب النزول الذى ذكره المفسرون للسوره، بل تدل على أنّ النبى صلّى الله عليه و آله و سلم استعاذ بالله من شرّ الساحرين. تماما مثل الفرد السالم الذى يستعيز بالله من السرطان و هو لم يصب به أصلا.

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

هذه الآيه تبيّن أنّ الحسد أسوأ الصفات الرذيله و أحطها، لأنّ القرآن وضعه فى مستوى أعمال الحيوانات المتوحشه و الثعابين اللاسعه و الشياطين الماكره.

ص: ٥٧٠

١- أخطر مصادر الشرّ و الفساد

السّوره تبدأ بأمر النّبي صلّى الله عليه وآله وسلم أن يستعيد بالله من شرّ ما خلق. ثمّ تبين ثلاثه أنواع من الشرور كتوضيح للآيه:
 شرّ المهاجمين القساة الذين يتسترون بالليل لشن هجومهم.

و شرّ الموسوسين الذين يوهنون بأحاييلهم إراداه الأفراد و إيمانهم و عقيدتهم و أواصر الحبّ و الودّ بينهم.
 و شرّ الحاسدين.

من هذه العبارات المجمله نستطيع أن نستنتج أن أخطر مصادر الشرّ و الفساد هي هذه الثلاثه المذكوره في السّوره. و هذا يستدعى التأمل و التعمق.

٢- تناسب الآيات

يلاحظ أنّ أول آيه في السّوره تأمر النّبي صلّى الله عليه وآله وسلم أن يستعيد برّب الفلق، من شرّ ما خلق. و انتخاب «ربّ الفلق» قد يعود إلى أنّ الموجودات الشريره تطفئ نور السلامه و الهدايه. لكن الله سبحانه ربّ الفلق... ربّ فلق الظلمات.

٣- تأثير السحر

في تفسير الآيتين ١٠٢ و ١٠٣ من سوره البقره، في الجزء الأوّل من هذا التفسير تحدثنا بالتفصيل عن حقيقه السحر في الازمنه الغابره، و رأى الإسلام في السحر، و كيفيه تأثيره. و هناك ذكرنا قبولنا لتأثير السحر بشكل عام، و لكن لا بالصوره التي يتخيلها المتخيلون و الخرافيون. و من أراد مزيدا من التوضيح في هذا المجال فليراجع بحثنا المذكور.

و من اللازم أن نذكر هنا أنّ آيات هذه السّوره لو كانت تستهدف أمر النّبي

بالاستعاذه من سحر الساحرين، فهذا لا يعنى أن النبى تعرض لتأثير السحر. بل إنها تشبه استعاذه النبى بالله من كل خطأ و ذنب. أى إنه مصون من هذه العوارض بلطف الله و فضله، و لو لا فضله لما سلم من تأثير السحر هذا من جهه.
و من جهه اخرى، لا يوجد دليل كما قلنا على أن معنى، ^{□□}الْفَنَائَاتِ فِي الْعُقَدِ هو السحره أو الساحرات.

٤- شَرُّ الْحَاسِدِينَ

«الحسد» خصله سيئه شيطانيه تظهر فى الإنسان نتيجة عوامل مختلفه مثل:

ضعف الإيمان، و ضيق النظر، و البخل. و هو يعنى طلب و تمتى زوال النعمه من شخص آخر.

الحسد منبع كثير من الذنوب الكبيره.

عن الإمام محمد بن على الباقر عليه السلام قال: «إِنَّ الْحَسَدَ لِيَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» (١).

و

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «أَفْهَ الدِّينِ الْحَسَدُ وَالْعَجْبُ وَالْفَخْرُ» (٢).

ذلك لأن الحسود يعترض فى الواقع على حكمه الله و على ما آت الله من نعمه لهذا الفرد أو ذاك. كما يقول سبحانه: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ (٣).

و قد يبلغ الحسد بالحاسد إلى أن يوقع نفسه فى كل تهلكه من أجل زوال النعمه من الشخص المحسود، كما هو معروف فى حوادث التاريخ.

ص: ٥٧٢

١-١ - بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٣٧.

٢-٢ - المصدر السابق، ص ٢٤٨.

٣-٣ - النساء، الآية ٥٤.

و في ذم الحسد يكفى أن أول قتل حدث في العالم كان من قاييل على أثر حسده لأخيه هايبيل.

«الحساد» كانوا دوما عقبه على طريق الأنبياء و الأولياء. و لذلك يأمر الله نبيه أن يستعيد برّب الفلق من شرّ حاسد إذا حسد.

المخاطب في هذه السوره و السوره التاليه شخص رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، و لكنّه خوطب لأنّه القدوه و النموذج، و كلّ المسلمين يجب أن يستعيدوا بالله من شرّ الحاسدين.

اللهمّ! إنّنا نعوذ بك من شرّ الحاسدين إلهنا! احفظنا من شرّ الوقوع في حسد الآخرين.

ربّنا! استرنا بسترك من شرّ النفاثات في العقد، و من كلّ الموسوسين المشككين في مسيرتنا إليك.

آمين يا ربّ العالمين نهايه سوره الفلق

ص: ٥٧٣

سوره الناس

اشاره

مكّيه و عدد آياتها ستّ آيات

ص: ۵۷۵

محتوى السّوره:

الإنسان معرض دائما لوساوس الشيطان. و شياطين الجن و الإنس يسعون دائما للنفوذ فى قلبه و روحه. و مقام الإنسان فى العلم مهما ارتفع، و مكانته فى المجتمع مهما سمت يزداد تعرضه لوساوس الشياطين ليعدهوه عن جاده الحق. و ليبيدوا العالم بفساد العالم.

هذه السّوره تأمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم باعتباره القدوه و الأسوه أن يستعيد بالله من شرّ الموسوسين.

محتوى هذه السّوره شبيه بمحتوى سوره الفلق، فكلاهما يدوران حول الاستعاذه بالله من الشرور و الآفات، مع فارق أن سوره الفلق تتعرض لأنواع الشرور، و هذه السّوره تركز على شرّ (الوسواس الخناس).

و اختلف المفسّرون فى مكان نزول هذه الآيه. قيل إنّها مكّيه، و قيل إنّها مدنيه، و لحن الآيات يزيد احتمال مكّيتها.

هذه السّوره و سوره الفلق نزلتا معا حسب الزّوايات. و سوره الفلق على رأى الكثيرين مكّيه. و هذه السّوره يمكن أن تكون مكّيه أيضا.

و فضيله السّوره:

وردت فى فضيله هذه السّوره روايات متعدده منها ما روى أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم اشتكى شكوى شديده، و وجع وجعا شديدا. فأتاه جبرائيل

و ميكائيل عليه السّلام فقعد جبرائيل عند رأسه و ميكائيل عند رجليه، فعوّذه جبرائيل بقل أعوذ برّب الفلق و ميكائيل بقل أعوذ برّب النَّاس (١).

و ذكرنا ما

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: «من أوتر بالمعوذتين و قل هو الله أحد قيل له: يا عبد الله ابشر فقد قبل الله و ترك» (٢).

ص: ٥٧٨

١-١ - نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٦٤٥، و مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٦٧، و ٥٦٩.
٢-٢ - المصدر السابق.

الآيات [سوره الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)

التفسير

اشاره

بِرَبِّ النَّاسِ أَعُوذُ:

في هذه السوره يتجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باعتباره الأسوه و القدوه:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ

يلاحظ أن الآيات ركزت على ثلاث من صفات الله سبحانه هي (الربوبية و المالكية و الألوهية) و ترتبط كلها ارتباطا مباشرا بتربيته الإنسان و نجاته من براثن الموسوسين.

المقصود من الاستعاذه بالله ليس طبعا ترديد الاستعاذه باللسان فقط، بل على الإنسان أن يلجأ إليه جلّ و علا في الفكر و العقيدة و العمل أيضا، مبتعدا عن الطرق الشيطانية و الأفكار المضلله الشيطانية، و المناهج و المسالك الشيطانية و المجالس و المحافل الشيطانية، و متجها على طريق المسيره الرحمانية، و إلا فإن

الإنسان الذى أرخى عنان نفسه تجاه وساوس الشيطان لا تكفيه قراءه هذه السوره و لا تكرار ألفاظ الاستعاذه باللسان.

على المستعيز الحقيقى أن يقرن قوله «ربّ النَّاسِ» بالاعتراف بربوبيه الله تعالى، و بالانضواء تحت تربيته؛ و أن يقرن قوله «ملك النَّاسِ» بالخضوع لمالكيته، و بالطاعه التامه لأوامره؛ و أن يقرن قوله: «إله النَّاسِ» بالسير على طريق عبوديته، و تجنب عباده غيره.

و من كان مؤمنا بهذه الصفات الثلاث؛ و جعل سلوكه منطلقا من هذا الإيمان فهو دون شك سيكون فى مأمن من شرّ الموسوسين.

هذه الأوصاف الثلاثه تشكل فى الواقع ثلاثه دروس تربويه هامه... ثلاث سبل وقايه... و ثلاث طرق نجاه من شرّ الموسوسين، إنها تؤمن على مسيره الإنسان من الأخطار.

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ

كلمه «الوسواس» أصلها- كما يقول الراغب فى المفردات- صوت الحلى (اصطكاك حليه بحليه). ثم اطلق على أى صوت خافت. ثم على ما يخطر فى القلب من أفكار و تصورات سيئه، لأنها تشبه الصوت الباهت الذى يوشوش فى الأذن.

«الوسواس»: مصدر، و يأتى بمعنى اسم الفاعل بمعنى الموسوس، و هى فى الآيه بهذا المعنى.

«الخنّاس» صيغه مبالغه من الخنوس و هو التراجع، لأنّ الشياطين تتراجع عند ذكر اسم الله؛ و الخنوس له معنى الاختفاء أيضا، لأن التراجع يعقبه الاختفاء عاده.

فقوله سبحانه: مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ أى أعوذ بالله من شرّ الموسوس ذى الصفه الشيطانيه الذى يهرب و يختفى من ذكر اسم الله.

الشياطين يمزجون أعمالهم دائما بالتستر. و يرمون بالقاءاتهم في الإنسان بطريقه خفيه حتى يخال الإنسان أن هذه الإلقاءات من بنات أفكاره، وهذا ما يؤدي إلى ضلاله و غوايته.

عمل الشيطان هو التزيين، و إخفاء الباطل تحت طلاء الحق، و الكذب في قشر من الصداق، و الذنب في لباس العباده، و الضلال خلف ستار الهدايه.

و بإيجاز، الموسوسون متسترون، و طرقهم خفيه، و في هذا تحذير لكل سالكي طريق الله أن لا يتوقعوا رؤيه الشياطين في صورتهم الأصلية، أو رؤيه مسلكهم على شكله المنحرف. أبدا... فهم موسوسون خناسون... و عملهم الحيله و المكر و الخداع و التظاهر و الرياء و إخفاء الحقيقه.

لو أنّ هؤلاء أماطوا اللثام عن وجههم الحقيقي، و لم يخلطوا الحق بالباطل؛ لو أنّ هؤلاء قالوا كلمتهم صريحه واضحه «لم يخف على المرتادين» كما يقول أمير المؤمنين على عليه السّلام نعم لم يخف في هذه الحاله على رواد طريق الحق. و لكنّهم يأخذون شيئا من هذا و شيئا من ذاك فيخلطونه و بذلك تنطلي حيلتهم على الآخرين أو كما

يقول على عليه السّلام: «فهناك يستولى الشيطان على أوليائه» (١).

عبارة «يوسوس» و عبارة «في صدور الناس» تأكيد على هذا المعنى.

جمله من الجِنَّه وَ الدَّاسِ تنبيه على حقيقه هامه هي إن «الوسواس الخناس» لا- ينحصر وجوده في مجموعه معينه، و لا- في فئه خاصه، بل هو موجود في الجن و الإنس... في كل جماعه و في كل ملبس، فلا بدّ من الحذر منه أينما كان، و الاستعاذه بالله منه في كل أشكاله و صوره.

أصدقاء السوء، و الجلساء المنحرفون، و أئمه الظلم و الضلال، و الولاه الجباريه الطواغيت، و الكتاب و الخطباء الفاسدون، و المدارس الإلحاديه و الالتقاطيه

ص: ٥٨١

المخادعة، و وسائل الإعلام المزوّره الملقّقه، كلها هى و أمثالها تندرج ضمن المفهوم الواسع للوسواس الخناس و تتطلب من الإنسان أن يستعيد بالله منها.

ملاحظات

إشارة

١- لما ذا نستعيد بالله!؟

الإنسان معرض للانحراف فى كل لحظه، و حين يأمر الله نبيه أن يستعيد به من شر «الوسواس الخناس» فإن ذلك دليل على إمكان الوقوع فى شراك الموسوسين الخناسين.

مع أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى مأمن من الانحراف بفضل الله و مدده الغيبى و خضوعه التام لله، فالآيات تأمره أن يستعيد بالله من شر الوسواس الخناس، فما بالك بغيره من الناس! و لا يجوز للإنسان أن يئأس أمام مخاوف الموسوسين. فملائكه الله تهب للأخذ بناصيه المؤمنين و السائرين على طريق الله. فالمؤمنون ليسوا وحيدين فى ساحه صراع الحق مع الباطل، بل ملائكه الله فى عونهم: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ (١)**.

و لكن، على أى حال، لا يجوز للإنسان أن يغترّ و أن يحسب نفسه غنيا عن المواعظه و التذكير و الإمداد الإلهى. يجب الاستعاذه به سبحانه دائما و يجب أن يكون الإنسان على وعى و حذر باستمرار.

٢- لما ذا تكررت كلمه «الناس»

فى سبب تكرار كلمه «الناس» فى السوره، قيل: إن كل واحد منها لها معنى

ص: ٥٨٢

خاص.

و لكن يظهر أن التكرار تأكيد على عموميه هذه الصفات الثلاث الإلهيه، و هي في المواضع الثلاثه بمعنى واحد.

٣- معنى الخناس على لسان الروايه

روى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ لِقَلْبِهِ فِي صَدْرِهِ أُذُنَانِ: أُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الْمَلِكُ، وَ أُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الْوَسْوَاسُ الْخَنَاسُ، فَيُؤَيِّدُ اللَّهُ الْمُؤْمِنَ بِالْمَلِكِ، فَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» (١).

و

روى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية:

وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَتَفَعُوا لِذُنُوبِهِمْ. صعد إبليس جبلا- بمكّه يقال له ثوير، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا:

يا سيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا و كذا.

قال: لست لها.

فقام لها آخر فقال مثل ذلك. فقال: لست لها.

فقال الوسواس الخناس: أنا لها. قال: بماذا؟ قال: أعدهم و أمنيهم حتى يواقعوا الخطيئه... فإذا واقعوا الخطيئه أنسيتهم الاستغفار.

فقال: أنت لها فوكله بها إلى يوم القيامة» (٢).

اللهم! احفظنا من شر كل وسواس خناس.

ص: ٥٨٣

١-١) -مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٧١.

٢-٢) -تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٥٥٧.

رَبَّنَا! التَّأْمِرُ دَقِيقٌ، وَالْعَدُوُّ مُتْرَبِّصٌ، وَالْمَخْطَطَاتُ خَفِيهٌ رَهِيْبُهُ، وَلَا نَجَاةَ لَنَا مِنْهَا إِلَّا بِلَطْفِكَ وَفَضْلِكَ.

يَا كَرِيْمٌ! بِفَضْلِكَ وَبِمَنَّكَ وَبِنِعْمَتِكَ اسْتَطَعْنَا بَعْدَ جَوْلِهِ اسْتِغْرَقَتْ مَا يَقْرَبُ مِنْ خَمْسَةِ عَشْرَ عَامًا فِي كِتَابِكَ الْكَرِيْمِ أَنْ نَنْهِيَ هَذَا التَّفْسِيْرَ.

يَا غَفُوْرٌ وَيَا رَحِيْمٌ! تَعْلَمُ أُنَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الْأَخِيْرَةَ مِنْ كِتَابِهِ هَذَا التَّفْسِيْرَ مَغْمُوْرُونَ بِفَرْحِهِ مَمْزُوْجَةً بِالشُّكْرِ فَنَبْتَهْلُ إِلَيْكَ وَنَتَضَرَّعُ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا زَلَاتِنَا فَإِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ.

وَ تَقْبَلْ مِنَّا يَا رَبِّ هَذَا الْجَهْدَ الْمُتَوَاضِعَ بِكَرَمِكَ، وَاجْعَلْ لَنَا ذَخْرًا يَوْمَ نَلْقَاكَ.

وَ آخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ نَهَايَهُ سُورَةُ النَّاسِ انْتَهَى تَأْلِيْفُ هَذَا التَّفْسِيْرِ فِي الثَّامِنِ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ ١٤٠٧ هِجْرِيَّةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩